أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

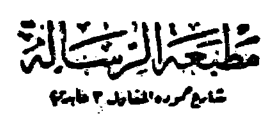
فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب لسنة ١٩٥٣

المجلد الأول — الطبعة السابعة

١٣٨١ - ١٩٦٢

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي


مطبعة الرسالة



إلى روحك اللطيفة العزيزة يا ولدي رجاء أقدم هذا الكتاب :

فلولاك ما أنشأت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هذه الفصول .

والدك الحزين إلى يوم يلقاك

أحمد حسن الزيات

الفهرس

	صفحة
فى الجمال	١
فى الربيع	١٤
فى العيد	١٧
فى المرأة	٢٠
ساعة مع الأستاذ لطفى السيد	٢٣
ذكرى المولد (١)	٣٠
بين النيل والأكروبول	٣٣
على الشاطىء	٣٧
لماذا ترجمت آلام فرتر	٤٢
الملك الشهيد	٤٥
فرعونيون وعرب	٤٩
حديقة	٥٣
القرية أمس واليوم	٥٧
نهضة الشباب	٦١
حجاج ودوس	٦٥
فلسطين	٦٨
رمضان	٧٢
لطفية النادى	٧٧
فى الأقصر	٨١
زمزم	٩٥
شهرنا الخالد	٩٩
عيد الأضحى	١٠٢
كاظم باشا الحسينى	١٠٦
فى الحال الحاضرة	١٠٨
العام الهجرى (١)	١١٢
يوم الجمعة	١١٦
قطع العقدة أسهل من حلها	١١٩
الامتيازات والأدب	١٢٣
تأمل ساعة	١٢٦
الامتيازات والدين	١٢٩
ذكرى المولد (٢)	١٣٣
فى الموقف الأدبى الحاضر	١٣٧
أحمد زكى باشا	١٤١
بين السياسة والأدب	١٤٥
على الشاطىء الغريق	١٤٩
ياهادى الطريق جرت	١٥٣
داء الوظيفة	١٥٧
عهد وأى عهد !	١٦١
دار تَبلى	١٦٥
إلى القرية يا بك	١٦٩
الراديو والشاعر	١٧٣
أسبوع حافل	١٧٦
الحج	١٨٠
الثقافة المذبذبة	١٨٤
الملك على	١٨٨
الأزهر بين الماضى والحاضر	١٩٢
مصر وأخواتها	١٩٥
إلى أين يساق الأتراك	١٩٩
الفردية علتنا الأصيلة	٢٠٣
على ذكر كتاب	٢٠٧
العام الهجرى (٢)	٢١٠
جمعية نهضة القرى	٢١٤
أعياد الحياة والحرية	٢١٨
بنك مصر	٢٢٢
إلى بعض الكبراء	٢٢٩
ذكرى المولد (٣)	٢٣٣
صيف الأديب	٢٣٧
مثل من الشباب الصالح	٢٤٠
كلكم حواريون فمن يهوذا ؟	٢٤٣
الشيخ محمد عبده	٢٤٧
محمد حافظ إبراهيم	٢٥٤
مصر والشرق الإسلامى	٢٦١

	صفحة
سعد زغلول باشا	٢٦٥
أحمد شوقى	٢٧٢
١٧ رمضان	٢٧٦
أبو الطيب المتنبي	٢٨٠
من أحاديث النيروز	٢٨٧
ملك وشاعر	٢٩١
تاريخ يثور	٢٩٥
شباب العراق فى مصر	٢٩٩
ولدى	٣٠٣
محمد الوالد	٣٠٧
بين أسلوبين	٣١١
النقد المزيف	٣١٥
أروع أيام سعد	٣١٩
إلى صاحب السعادة المحافظ	٣٢٣
الحلقة	٣٢٨
بعد المعاهدة	٣٣٢
استقلال اللغة	٣٣٦
بين سلطان وسلطان	٣٤٠
ذكرى ميلاد	٣٤٤
الدفاع المقدس	٣٤٨
لو كنا نقرأ	٣٥١
جيل صدق الزهاوى	٣٥٥
العام الهجرى (٣)	٣٦٥
منطق الواقع	٣٦٩
حول الديمقراطية	٣٧٣
الطربوش والقبعة	٣٧٧
أدب السندوتش	٣٨١
مصطفى لطفى المنفلوطى	٣٨٥

	صفحة
أى زمان هذا !	٣٩١
الخريف فى الريف	٣٩٥
محمد فريد	٣٩٩
الصيام بين عهدين	٤٠٣
ثورة على الأخلاق	٤٠٧
رجل سعيد	٤١١
من أحاديث العيد	٤١٥
فى حفلة أدبية	٤١٨
سارة للأستاذ العقاد	٤٢١
العام الهجرى (٤)	٤٢٥
كلمة فى أوانها	٤٢٨
شم النسيم	٤٣١
مصطفى عبد الرازق بك	٤٣٥
مصطفى صادق الرافعى	٤٣٨
ليالى الحصاد	٤٤٤
من الذكريات الجميلة	٤٤٨
يالله لفلسطين !	٤٥٢
أسبوع محموم	٤٥٥
شيطان	٤٥٩
الغازى أتاتورك	٤٦٢
ليت للأوقاف عيناً !	٤٦٦
بل ليت للأوقاف قلباً	٤٧٠
يا إنسان ! أين الإحسان !	٤٧٤
تنظيم الاحسان	٤٧٧
فتون وجنون	٤٨١
التبشير عدو السلام	٤٨٥
آراء الكتاب فى هذا الكتاب	٤٨٩

وَحْيُ الرِّسَالَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قارئي العزيز :

اخترت لك هذه الفصول مما كتبته للرسالة في ست سنين . وكان من عادتي أن أكتب الفصل منها في أصيل يوم السبت من كل أسبوع ، ثم لا أكتبه طوعاً لتأثير قراءة أو تحرير فكرة أو تخمير رأي ، إنما كان أثراً لوحي ساعته ، أو حديث يومه ، أو صدى أسبوعه . فالزمن جزء منه متمم لمعناه : يبين ملابسته الحادث ، ويعين مناسبته للتاريخ . لذلك أعقبت كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه ليتضح موضوعه بفعله وحاله وظرفه .

رجعت النظر في هذه الفصول ساعة هيأتها للطبع فلم أجد فيها ما أنكره ؛ لأنها وإن كتبت عفو الخاطر ومجاراة المناسبة تتسم بالصدق . والصدق في الفن جوهر بلاغته وسر دوامه . وهو في البيان وضع اللفظ في موضعه ، ووصف الشيء بصفته ، ومطابقة الكلام لمقامه . وأكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ ، وتشابه معنى ومعنى ، وتناقض رأي ورأي ، وتعارض وجه ووجه . ولعلك لا تجد فيما تقرأ من هذه المقالات لفظاً يجافيه المعنى ، ولا معنى يجانبه الحق .

وأسلوب الكتاب الإيجاز . والإيجاز ملاكه الأناة والفطنة . فإذا قرأته قراءة العجلان ، لا تظفر منه إلا بقبس العجلان . والله أدعو أن يجعل انتفاعك بقراءته ، كفاء ما بذلت من الجهد والإخلاص في كتابته .

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٤٠

أحمد حسن الزيات

فى الجمال

— ١ —

ما الجميل ؟ الجميل فى إجماع الناس هو ما ينشىء فى الذهن فكرة سامية عن الشىء فى الطبيعة أو عن الموضوع فى الفن ، فيبعث فى نفسك عاطفة السرور منه والإعجاب به . ولكن ما هى على وجه التحديد الصفات التى تبعث السرور وتثير الإعجاب فى بدائع الفن أو فى روائع الطبيعة ؟ ذلك ما سنحاول شرحه فى شىء من الإفاضة .

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس . ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً ما فى ذلك شك . ففى أى الجهات إذن تتعرف النفس والعاطفة والحواس وجوه الجمال ؟ إن الخصائص المميزة للجمال هى القوة ، والوفرة[1] ، والذكاء . والمراد بالقوة شدة العمل وحدّته ، وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل . ولا جدال فى أن الحواس ليست كلها أهلا لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسهما نقلا قوياً يثير الدهش والإعجاب واللذة . أما الانفعال الذى يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة ؛ لأن الطعوم والروائح ، والملوسة والخشونة ، والصلابة واللدونة ، والحرارة والبرودة ، أحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقظ فى النفس ذكرى خابية ، أو عاطفة غافية ، ولكنها لا تنتج واحدة منهما وإذا كان البصر آلة الجمال الحسى أو المادى ، والسمع آلة الجمال العقلى والخلقى ، فإن فى هاتين الحاستين الدليل على خصائص

(١) الوفرة : مصدر وفر الشىء إذا كثر واتسع وتم وكمل .

الجمال الثلاث . ذلك لأن أجمل ما يؤثر فى العين والأذن هو ما بلغ من القوة والوفرة والذكاء أسمى غاية . وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيها بمقدار ما يشتمل عليه من هذه العناصر . وكلما غاب عنصر منها أو قل ، ضعف فينا الشعور بالجمال على نسبته . ما الذى يجعل لعملى النفس وهما الفكر والإرادة هذه الصفة التى تملك اللب فى العبقرية والفضيلة ؟ لا شىء غير القوة والوفرة والذكاء ، سواء أكان ماتعجب به براعة الصنع أم كان مهارة الصانع . إن الطيبة فى ذاتها فضيلة ، ولكنها لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة . فسقراط فى الحكماء ، وعمر فى الخلفاء ، مثلان سائران فى جمال الخلق ، ولكنك إذا جردت أخلاقهما مما ينبىء عن القوة وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ، ذهب الجمال وبقيت الطيبة . إذا صنعت المعروف فى صديقك وعدوك كان فعلك كريماً فى الحالين ، ولكنه فى الصديق عادى لأنه بسيط سهل ، وهو فى العدو ممتاز لأنه عظيم شاق وفى هذه القوة التى تقتضيها تلك المشقة كان جماله . إن وفاء السموءل بدروع امرىء القيس فضيلة ، ولكن اقترانه بالقوة على تضحيته بابنه جعله آية فى جمال الوفاء . إن تنفيذ بروتوس[1] عقوبة الموت فى أحد المجرمين عادة مألوفة ، ولكن تنفيذه إياها فى بنيه الذين ائتمروا برومة مثل نادر لجمال البطولة . وموقف هكطور[2] مع أندروماك ، وموقف أسماء بنت أبى بكر مع ابن الزبير ، لا يقلان جمالا عن ذينك الموقفين . وسر الجمال فى كل أولئك إنما هو تلك القوة الخارقة فى تغليب فكرة الواجب على عاطفة البنوة .

كذلك الحال فى أعمال الذهن ، فحل معضلة فى الهندسة ، وكشف عظيم فى الطبيعة ، واختراع عجيب فى الميكانيكا ، ونظام محكم الوضع فى التشريع ،

(١) بروتوس امبراطور رومانى حكم من سنة ٢٧٦ إلى سنة ٢٨٢ م .

(٢) موقف هكطور مع زوجته أندروماك وهى تخزله عن الحرب ليعيش لولده ، من المواقف البليغة المؤثرة فى الإلياذة .

وقطعة قوية التفكير والتصوير في الأدب ، كلها أعمال جميلة ، لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء ، وقوة عظيمة في التفكير . وشعور المرء بالجمال فيها موقوف على إدراك القوة التي تقتضيها . فالعامي أمام الأحرف الهجائية ، والتلميذ أمام منطق أرسطو ، لايجدان فيهما من الجمال ما يجده الفيلسوف ، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة .

أما في البلاغة والشعر فأبين خصائص الجمال الذكاء والوفرة . فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور ، وتوافر الأفكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي يحيها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالإعجاب ، وذلك الإعجاب الذي نحسه هو عاطفة الجمال .

* * *

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة ، فإنك إذا ذهبت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة أو الوفرة أو الذكاء . ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ؛ ففي جمال الأسد القوة ، وفي جمال الطاووس الوفرة ، وفي جمال الإنسان الذكاء . ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه ، إنما أقصد ذكاء الطبيعة[1] في تهيئته وتثقيفه . وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملاءمة وسائلها لغاياتها ؛ فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمال في الجنسين . أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمي زوجه ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة :

---

(١) نريد بالطبيعة ما يقابل الفن . والفن صنع الإنسان ، كما أن الطبيعة صنع الله .

تركيب وثيق محكم تنم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة ، وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكر فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهي تكونه عرفت ما تفعل وفعلت ما تريد .

— ٢ —

لعل جمال المرأة أبرع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته . وسر الإعجاب فيه هو سر الإعجاب في جمال الرجل : أعني الذكاء . والذكاء كما قلت إبداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التي تسترق الأفئدة وتدق على أفهام البشر .

فالعلة الغائية لخلق المرأة هي أن تكون زوجة وأماً : وسبيلها أن تروض الرجل وتدمث خلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويشبل[١] عليها بالمعونة والنجدة . وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهي يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع ، لأن المرأة وهي زوج تحمل أو أم ترضع ، لا تملك لنفسها ولا لأولادها غذاء ولا حماية . فادام الولد في حاجة إلى أمه فالأم في حاجة إلى أبيه . ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار في الرجل ضعيفة ، فلا بد لهذا الوحشي الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تحبسه على زوجه وتعطفه على بنيه . والحب وحده هو الذي مكن

(١) أشبل عليه : عطف .

الطبيعة من هذه البغية : فبفضل الجاذبية سكن النافر ، وبسحر الجمال ثبت العزوف [1] وللحب خصيصتان قويتان : الرغبة والحشمة . ومن ذلك كان جمال المرأة داعي الرغبة خافض الجناح حيي الطبع . والرجل مزهو على المرأة ، يدل بحيازته لها ، ويعتز بقيامه عليها . فهو يريدها « ريحانة لا قهرمانة » ، وحبيبة لا جليبة[2] . لها سلطان ولكنه رفيق ، وفيها إباء ولكنه رقيق . ومن ثم كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة ، وخِلطاً من الضعف والدلال ، وطباقاً من الهيبة والنبل .

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دام له روح من العاطفة تشع في نظراتها ، وتنسم في بسماتها ، وتشيع في قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ، ويجد في الضعف الذي يستسلم ويستكين ، الحبّ الذي يطول ويحكم .

إن شبهة الخداع والتصنع تودي بكل شيء . لذلك كان في مخايل الطيبة التي تحسن وهي تجهل ، وفي سمات الظرف الغرير الذي يتراءى وهو يختفي ، وفي أسرار الهوى المكتوم الذي تفضحه البسمة الحنون من شفة مطبقة ، وتعلنه الومضة الخاطفة من نظرة حيية ، وفي دلائل الملامح المعبرة في الوجوه التي تقول وهي تنصت ، وتريد وهي ترفض ، كان في كل أولئك بلاغة الجمال . فإذا أصيب الحب بالفتور ابتلي الجمال بالخرس .

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستسر ترعاه معه وفيه على غير علمه فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسِرّة وجهها ، وتشرق على الأخص في تلك النظرة الوديعة

---

(١) العزوف . المنصرف عن الشيء الزاهد فيه .

(٢) القهرمانة . الخادمة ، والجليبة : الجارية المجلوبة .

التى تتغلغل فى طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور وتبدد ظلام الكآبة وتشعل خمود الحب .

ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذى تصباه وسباه ووسيلته أن يطرد السأم عنه ويجدد الشوق فيه ، فيعير العادة المملة ألوان الجدة ، ويقبس الحياة الرتيبة حرارة التنوع وذلك هو السر العجيب الذى وضعه الله فى الجمال النسوى ، فيتكرر ولا يمل ، ويستعلن ولا يفهم ، ويتجدد ولا يتناهى ، ويتنوع ولا يختلف ، ويتولد ولا يبيد !

* * *

إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وإن فى تجميع النهر ، وتكوين الجبل ، وتصريف الريح ، وإثارة البحر ، لجمالا رائعاً يجرى فى كل شعور ، ويستولى على كل قلب ، لأنه يعلن القوة الخارقة ، والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً بمدارك الحس . كذلك تجد فى صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعى تهز النفس وتصبى المشاعر : فورقة الزهرة ، وجناح الفراشة ، يبعثان فى قلبك من الإعجاب ما يبعثه الطود المتوج بالثلج والمحيط الملفف بالعاصفة . ولكن خصيصة الجمال فى الزهرة والفراشة هى وفرة الألوان ونصاعة الأصباغ وتعدد الصور : وخصيصة الوفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق وخمودها بالإلف والعادة .

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً ، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم . وهذان لا يتيسران فى كل وقت ولا لكل أحد . فالبركان والإعصار يروعان القلب بالقوة المجردة ، ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده وهى الترتيب والمواءمة والانتظام ، خبا أثره فى الناس ما لم يكن

محسوساً شديد الغرابة . أليس فى الواقع أن براعة القدرة وسر الإبداع سواء فى العظاية[1] والأسد ، وفى القصبة والدوحة ؛ ولكنك تعجب بالأسد والدوحة ولا تكاد تأبه للعظاية والقصبة ، لأن سلطان القوة غالب وسحر العظمة عجيب .

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضرورى لحصول الجمال الصحيح فى مشاهد الطبيعة وروائع الوجود .

— ٣ —

إذا عرفت الجوهر الذى يتحقق به الجمال الطبيعى سهل عليك أن تعرف الجوهر الذى يقوم عليه الجمال الصناعى ، لأنه إما وحيه وإما نموذجه . فالجمال الصناعى يتعلق بالفكرة التى يوحيها إليك الفن عن الفنان ، ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً ، وبالفكرة التى يوحيها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليدياً . ولننظر بادىء الأمر فيما تنشأ منه عاطفة الجمال فى الفن الابتكارى كفن العمارة مثلا ففى أى بَنِيَّة من البنايا تجد الوحدة والتنوع والترتيب والتناظر[2] والتناسب والتوافق تؤلف كلا منتظما ما فى ذلك شك . ولكنك لا تجد فى ذلك الكل جمالا إذا لم يكن من العظمة أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير فى نفسك الإعجاب والدهش . وهل تجد فى العمارة البسيطة مهما يتسق بناؤها وتتفق أجزاؤها ما تجد فى معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة ؟ خذ بنظارك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شيد على قدَر عادى من العناصر الجمالية الثلاثة ، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت ، تجد الفن فيه نازلاً على حكم القواعد الموضوعة ، ولكنه عيي صامت لا يحدثك عن نفسه ولا عن صانعه ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك

---

(١) العظاية دويبة ملساء تشبه سام أبرص (السحلية) . والقصبة كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوبا كقصب السكر . والدوحة الشجرة العظيمة المتسقة من أى نوع .

(٢) السيمترية .

أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة ، تجد نفسك المبهوتة المشدوهة موزعة بين سمو الفن فى ذاته وعظمة الفنان فى حقيقته . لا جرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل اتساقاً واتفاقاً من تلك ؛ ولكن القوة التى أقامت هذه الأعمدة ورفعت تلك الصخور ونصبت هذه التماثيل وصنعت تلك المحاريب ، والوفرة التى تراها فى الشكول المختلفة والصور الناطقة والرسوم الدقيقة والكتابة الرمزية والأصباغ الحية وللمادة العجيبة ، والذكاء الذى يروعك فى ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الماثلة من مناحتها فى الجبل إلى مثابتها فى الجو لتصارع الفناء الذى لا يفتر ، وتضارع الدهر الذى لا يبيد ، هى التى حققت فيها ذلك الجمال وألقت عليها هذه الروعة ، وربطت فى ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع . ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة ، لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التى ينقطع دونها الدرك !

على أن الجمال الطبيعى قد يقوم فى بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء كما ترى فى العواصف والبراكين ؛ ولكن الذكاء إذا أعوز فى الفن الصناعى ذهبت عاطفة الجمال فيه بدداً بين التنافر والغرابة ، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد . وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلتمس لجهالتها العلل ، وتفترض لسفاهتها الحكمة . وليس كذلك الفنان ، فإنه مسئول أمام العقل عن العلة التى أجهد من أجلها قوته ، وعن الغاية التى بدد فى سبيلها ثروته وحسبه من الذكاء ما ينفى عنه العبث . فإذا تيسرت له عظمة القوة فى ظاهر من النظام كفاه ذلك فى إنشاء الإعجاب واتقاء النقد ، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال فى الفن .

على أن فكرة القوة تختلف اختلافاً شديداً عن فكرة الجهد . فكلما

قلت الدلائل على هذه ، كثرت الدلائل على تلك . فالخفة والطرافة والأناقة والصراح من صفات الجمال ، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد . ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريرى ، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما صنع خطاط سورى ، عمل لا يحدث فى النفس شعور الجمال لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة ، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش . وفى التفصيل المحكم من كلام الله ، وفى السهل الممتنع من كلام الناس ، كل الفروق بين القوة والجهد .

كذلك لا يستعجم الفرق بين الوفرة الصّناع ، وبين الزخرف الأخرق فإن سر الإبداع فى الوفرة أنها تضع اللون فى مظهره ، والحسن فى جوهره ، والمعنى فى لفظه ، والشىء فى مكانه . أما الزخرف الأخرق فسرف لا ينبىء عن غنى ، ورهق لا يسفر عن قدرة ، ولجب لا يبلغك من ورائه نغم ! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك فى غير لباقة ولا تحفظ ، ليخفى بالرياء حقيقة العجز ، ويدفع بالزور تهمة العوز وفى فن الحريرى والقاضى الفاضل ومن لف لفهما المثال على ذلك .

* * *

إن ما قلته فى فن العمارة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التى تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة . فالخطيب الذى يبلبل الآراء بقوة كلامه ، ويسترقّ الأهواء بسحر بيانه ، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه ويصرّفه على إرادته ، قد أوتى من القوة فى الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الإعجاب بقدرته والانقياد لأمره كذلك الموسيقار الذى يصبى المشاعر بسحر أنغامه ، والشاعر الذى يسبى العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه ، كلاهما يعلن الجمال فى قوة الفن التى يفرضها ، وفى وفرة

الوسائل التى يعرضها ، وفى ذكاء الروح الذى يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة . والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره . فإذا كان الانفعال الذى ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفاً يحدث اللذة ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب ، مدحت قريحة الفنان وأطريت عذوبة الفن ؛ ولكن الإطراء شىء آخر غير هتاف الإعجاب الذى يبعثه سمو العبقرية وقوة الإلهام فى روائع الموسيقار وبدائع الشاعر .

— ٤ —

ذلك إجمال القول فى الفن الصناعى المرتجل . أما الفن الصناعى المنقول فالسر فيه أن يبعث فى ذهنك فكرتين : فكرة عن الطبيعة المقلَّدة ، وفكرة عن الفنان المقلد . فتماثيل فدياس[1] وصور رفائيل[2] تجمع بين الجمالين : جمال المثال فى أصله وجمال الفن فى تقليده . كذلك وصف مغرب الشمس لابن الرومى[3] تجد فيه الإعجاب الناشىء عن القوة والوفرة والذكاء موزعاً بين الصورة الناطقة التى أبدعتها الطبيعة ، وبين المحاكاة الصادقة التى أخرجتها القريحة .

* * *

إن روعة الجمال الطبيعى آتية من ناحية الحرية فى الطبيعة وحرية الطبيعة هى قانونها العام ، لا تقوم عظمتها إلا به ، ولا تتجلى فخامتها إلا فيه . فالغيضة الَّفاء أجل مظهراً فى النفس من الحديقة المنمنمة ، وشلالات النيل أجمل منظراً فى العين من النوافير المنظمة ؛ لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم ،

---

(١) فدياس أشهر المثالين الإغريق فى العهد القديم . ولد بأثينا حوالى ٥٠٠ وتوفى عام ٤٣١ ق . م

(٢) رفائيل سانزيو أشهر مصورى الرومان وأقوى عبقرية نبغت فى عصر الإحياء . ولد بأربينو سنه ١٤٨٣ م وتوفى سنة ١٥٢٠ م .

(٣) أوله قوله : وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورساً مزعزعاً

وذهنك بالتفكير الرفيع ، وشعورك بالطرب الباسط . ومظنة العبودية فى الحى أو فى الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه و يشوهه . ولكن الجمال الصناعى لا بد أن يتقيد بالقواعد ويتحدد بالأصول . فإذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفى تلك القيود ويحجب هذه الحدود ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والإلهام الحر ، همدت فى فنه الحياة ، وخبا فى جماله السحر ، وضاقت فى عمله الفكرة .

ليس الجمال فى الفن المعنوى أو الحسى أن تحاكى الطبيعة محاكاة الصدى ، وتمثلها تمثيل المرآة ، وتنقلها نقل الآلة . تلك هى التبعية التى تنفى الذكاء ، والعبودية التى تسلب القوة ، إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة وإنما براعة الفنان أن يزيد فى ترتيب صورها بالذكاء ، وفى تنويع تفاصيلها بالوفرة ، وفى توجيه مقاصدها بالعظمة ، وفى بيان تعبيرها بالحياة ، وفى سلطان تأثيرها بالقوة ، وفى حقيقة وقائعها بالسحر الموهم والوشى الخادع .

أنظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك من العواصف والصواعق والبراكين ، تجدها فى ذاتها جليلة رائعة ، ولكنك تجدها فى فن الشعراء والمصورين والمثالين أجل وأروع . لقد وضعوا فيها شهوات النفوس، وسلطوا عليها تصادم الأهواء ، وصوروها للأذهان فى عالم من الآلهة الكاملة فى قواها المختلفة ، تتنافس فى العجائب ، وتتصارع بالأهوال ، وتتفانى على اللذة . وسحر الفن الإغريقى فى صمته وفى نطقه قائم على تجميل الظواهر المروعة فى الطبيعة ، بالنوازع المتضاربة فى النفس .

ومن المعلوم فى بدائه العقل أن يكون ما يقلده الفنان فى الطبيعة حقيقاً بالتقليد حتى يمكن الجمع بين جمال الشىء فى أصله ، و بين جماله فى نقله . فالمصور الذى يرسم وضعاً من أوضاع الرأس ، أو معنى من معانى الوجه ، أو لوناً من ألوان الحياة ، يكون أسمى فى الفن من المصور الذى يتحامل على براعته ليصور

أرنباً يكاد رائيها من دقة التقليد يلحظ وثبتها ويَعُدُّ وبرها . والشاعر الذى يصف عاطفة من عواطف القلب ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، يكون أبلغ فى فنه من الشاعر الذى يجهد قريحته فى وصف حادثة من هنوات الحوادث لا تقوم فى ذاتها على فائدة ولا لذة .

قد يكون الشىء المنقول فى حقيقته قبيحاً ، ولكن صدق التعبير عنه ، ودقة التصوير فيه ، والتماس المنفعة منه ، تجعل تقليده جميلاً ، كالوجه الدميم يرسمه المصور المبدع بريشته ، وكالخلق الذميم يصوره الشاعر للفلق بقلمه . والملهاة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع ، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميـــل بتحليلها العميق وتصويرها الدقيق وغايتها النبيلة . كذلك الحوادث المؤلمة والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شىء ، ولكن استبطان الفنان لدخيلة الناس ، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع ، وإعانته الحقيقة على التأثير بالجمل النفاذة والصور الأخاذة والظلال الرهيبة ، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء ، ويضع المأساة من الفن موضع الواسطة من العقد .

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الإعجاب فى نفسك ، ولا يشيع اللذة فى شعورك ، إلا باعتماده على الفن والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة فى عمله ، والسعة فى وسائله ، والحكمة فى غايته . فإذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى ، وأقمت شلالا من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان ، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم ، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال ، لأنك صغرت الطبيعة ، وحقرت الواقع ، وتعلقت بالتافه ، واستعنت بالمادة من غير قوة ولا وفرة ولا علة . ولو أنك ذهبت تستقرى مفاتن الجمال فى الطبيعة أو فى الفن ، أو فى الأثر الذى ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن ، لما وجدتها فى غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال فى قول (شيشرون) : « إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جمّ المنفعة يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال . إن جلالة هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته . فلو أنك تخيلت (الكابتول)[1] قائماً فى السماء على هام السحب ، لما وجدت له جلالا فى نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط المطر » .

وهل المنفعة التى أرادها شيشرون فى صنع الطبيعة وفى نتاج الفن إلا الذكاء الذى أردناه فى الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة ؟

---

(١) الكابتول . معبد وقلعة أقيما على هضبة من هضاب روما السبع .



فى الربيع

(أول أبريل سنة ١٩٣٣)

منذ أيام تيقظت الطبيعة من رقادها الطويل ، وأخذت تنضح جفنها الوسنان بأنداء الربيع وتبحث عن حللها وحلاها فى خزائن الأرض . وتأهب كل حى ليحتفل بشبابها العائد وجمالها المبعوث فالحياة الهامدة تنتعش فى الغصون الذابلة ، والطيور النازحة تعود إلى الأعشاش المقفرة ، والأفنان السليبة تتفطر[1] بالأوراق الغضة ، وبارضُ النبت[2] يحوك على أديم الثرى أفواف[3] الوشى ، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس رسالة الزهور ، وسر الحياة يستعلن فى الأحياء فتنتشى وتمرح ، وطيوف الهوى تمس القلوب فتهفو وتختلج ، والعالم كله يسبح فى فيض سماوى من الجمال والنشوة والغبطة ! ما عدا الإنسان !

فقد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالماً بذاته ، فكان نشوزاً فى نغم الكون ، ونفوراً فى نظام العالم فلو أنه اقتصد فى تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة لا تحد الآن مع الربيع ، فشعر بتدفق الحياة فى جسمه ، وإشراق الصفاء فى نفسه ، وانبثاق الحب فى قلبه ، وأحس أنه هو فى وقت واحد زهرة تفوح ، وخضرة تروق ، وطائر يشدو ، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة !

لا يكاد يقبل على أوربا الربيع حتى تختلط أناشيد الشعراء وأغاريد البلابل فى تمجيده وإعلانه ، لأنه يفد إليهم فيرد عليهم النور والدفء والزهر والجمال والحركة .

---

(١) الأفنان : الغصون . وتفطرت : انشقت من الورق .

(٢) البارض : أول ما تخرج الأرض من النبت .

(٣) الأفواف جمع فوف ، وهو نوع من برود اليمن كانت تشبه به الزهور فى اختلاف ألوانه

أما نحن فلا نكاد نفطن لحلوله ولا لرحيله ، لأن العالم كله على ضفاف الوادى يوم من أيام الربيع : فجره الندىّ يناير ، وضحاه الزاهر أبريل ، وظهره الساطع يوليو ، وأصيله الرخى أكتوبر !

فليس للربيع المصرى على سائر الفصول فضل إلا بذلك السر الإلهى الذى تنشقق عنه الأرض فيسرى فى العود ، ويشيع فى الجو ، ويدب فى الأجسام ، وينشأ عنه هذا البعث الصغير !

ففى الربيع يشتد الشعور بالجمال وبالحاجة إلى التجميل ، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور ، ويحتشد فى دور الملاهى وصدور الشوارع ، فيخلع على الوجود وضاءة الحسن ، وعلى الحياة رونق السعادة !

وأجمل شىء فى ربيع القاهرة أصائله وأماسيه !

ففى هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الإنسان ، فتملأ الجو عطراً والعيون سحراً والقلوب فتنة !

وهنالك على أفاريز الطرق ومشارف القهوات ، تقف أبصار الكهول والشيوخ حائرة مبهورة تلسع بالنظر الرغيب هذا الحسن المصون ، وبين النظرة والنظرة عبرة جافة تصعّد أسى على شباب ذاهب لا يرجع ، وجمال رائع لا يُنال !

وفى الربيع تتقد حمية العروبة فى العرب فتسمع اليوم فى فلسطين والشام أبناء الشعب الخالد ، وورثاء المجد التالد ، يصرخون صراخ الأسد فى راقد العدل أن يستيقظ وفى غائب الحق أن يثوب !

وترى فى العراق حطام السياسة البالية تكسحه الريح كسحها للهشيم ،

ثم تقوم على هذا الطلل المنسوف حكومة فيها حيوية الربيع ، ولكن ، ليس لها شبابه !

والشباب فى العراق كالشباب فى مصر منذ سنين : يحاول القائمون على أمره أن يربوه تربية الدجاج ينقنق دائراً بين الحب والماء ، ويبحث فى الأرض ليذهل عن السماء ، ويأبى الشباب إلا أن يكون طيراً يحتقر القفص ويقتحم الجو ويسمو إلى الغاية ! والغد على كل حال يومه !



فى العيد

(١٥ إبريل سنة ١٩٣٣)

فى ذات مساء اشتد به الصراع بين بواكر الربيع وأواخر الشتاء ، ارتفع من بين ضجيج القاهرة ولغط النهار الراحل طلقات ضعيفة من مدفع عتيق . وتألقت فى شرفات المآذن الشم مصابيح الكهرباء بغتة ... فعلم الناس بمقتضى التقاليد ، أن غداً هو يوم العيد ... !

راح قوم يقضون ليلهم بين وحشة القبور ورهبة الموت فى غير ادّكار ولا اعتبار ولا خشية ! وبات آخرون يتعهدون كباش الأضاحى بالعلف ، ويشحذون لصباحها الأحمر السكاكين والسواطير .

وأصبحت القاهرة دامية البيوت حامية المطابخ شديدة الجلبة ؛ وبيوت الله التى نزل فيها العيد من السماء ، تنتظر المؤمنين للصلاة والدعاء ، فلم يغشها إلا فئات من العمال والبوابين والخدم !

أما السراة والأوساط فقد خرجوا فى هندام الأمس واهتمام اليوم ، يستقبلون العيد فى القهوات والحانات ، بين لعبة النرد الصاخبة ، وأحاديث الدواوين المعادة ! فإذا تلاقى فى الطريق صديقان ، أو تراءى فى القهوة قريبان ، تبادلا بفتور تحية العيد ومضى كل منهما لشأنه .

* * *

ذلك هو العيد أو ما يقاربه فى مصر وفى سائر البلاد العربية . فلولا مرح طافر يقوم به الأطفال فى هذا اليوم لعطلة المدارس وجدّة الملابس وسحر النقود وفتنة اللعب لمرّ كسائر الأيام حائل اللون تافه الطعم بادى الكآبة !

فليت شعرى ماذا حاق بنا من الأحداث والغيرَ حتى غاضت ينابيع المسرة فى القلوب ، وماتت أحاسيس البهجة فى النفوس ، وتحللت أواصر المودة بين الناس ، وآل أمر العيدين — وهما كل ما بقى فى أيدينا من مظاهر الوحدة الدينية والعزة القومية — إلى هذه الصورة الطامسة والحال البائسة ؟ !

لا نستطيع أن نتهم حسرة الحزن على الماضى وذلة الضعف فى الحاضر ، فإن أعياد اليهود وإن فقدت بذلك مظهرها الاجتماعى ، لم تفقد روعة الدين فى الكنيس ولا متعة الأنس فى البيت ولا جمال الذكرى فى الخاطر وأعياد إخواننا فى الوطن والجنس والجد والأسى من نصارى الشرق لا يُعوزها الرواء ولا الإخاء ولا اللذة .

كذلك لا نستطيع أن نتهم المادية والمدنية ، فإنهما — وإن جنتا على بعض الأخلاق الكريمة كالإخاء والإخلاص والمروءة والرحمة — لم تجنيا على نزعات السرور فى النفوس ، ولم تقضيا على غرائز اللهو فى الطباع ، بل ازداد الناس بهما فى ذلك شراسة وحدة .

والأعياد الأجنبية التى تشهدها مصر فى ذكرى عيد الميلاد ورأس السنة غاية فى نعيم الروح والجسم ، وآية فى سلامة الذوق والطبع ، وفرصة ترى فيها القاهرة — وهى متفرجة — كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ، وتشرق المنازل بالأنس ، وتمسى الشوارع و بيوت التجارة ودور اللهو مسرحاً للحسن ومعرضاً للفن ومهبطاً للسرور ؛ وتصبح أعياد القلة القليلة مظهراً للفرح العام ، ومصدراً للابتهاج المشترك !

وهذه الأعياد من وراء ذلك كله من أقوى العوامل فى توثيق العلاقة بين الله والإنسان بالصدقات ، و بين الأصدقاء والأقارب بالهدايا ، و بين الكبار والصغار باللُّعَب ، و بين الإنسان والإنسان بالمودة .

* * *

إذن ماهى الأسباب الصحيحة التى مسخت حياتنا هـذا المسخ ، وشوهت أعيادنا هـذا التشويه ، فجعلت أظهر المظاهر فيها خروفاً يذبح ولا يضحّى ، ومدافع تساعد المـآذن ولا تجاب ، وأياماً كنقاهة المريض كل ما فيهـا همود ونوم وأ كل !؟

الحق أن لذلك أسباباً مختلفة ، ولـكنها عند الروية والتأمل ترجع إلى سبب رئيسى واحد . هو غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامى . . . ذلك السبب هو علة ما نـكابده من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش وجهومة فى البيت وسآمة فى العمل وفوضى فى الاجتماع

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء ، أو كالهباء فى الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد ، فلا نطمئن إلى مجلس ولا نستأنس لحديث !

فإذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس ، وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندىّ روح الحديث ، وفى الحفل مجمع الأفئدة ، فهيهات أن يكون لنا عيد صحيح ومجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة سعيدة !

فى المـرأة

(١٥ مايو سنة ١٩٣٣)

كتبنا كلمة عن العيد جاء فيها أن غياب المرأة عن المجتمع الإنسانى جر عليه فياجر الجفاء والجفاف والسآمة والفوضى ، فوقع هذا القول من الجنسين البارز والمستتر موقع التسليم والرضا . ولكن قليلا من صالحى الإخوان لا يزالون يرون إقصاء المرأة عن الحياة العامة أمراً من أوامر الدين وقاعدة من قواعد الخلق ، فكتبوا إلينا وإلى بعض الصحف يفندون هذا الرأى بحجج انتزعوها من أحاديث الظنون وهواجس الخوف ومواضعات العرف .

أما صلة الحجاب بالدين فقد فرغ من توهينها العلماء من أمد بعيد . وشديد على العقل أن يسلم بأن البدويات والقرويات ومعظم الحضريات — ومجموعهن يربى على تسعين فى كل مائة من جميع المسلمات — قد تعدين بسفورهن حدود الله منذ ظهر الإسلام ، ولم يأخذ على أيديهن إمام ولا حاكم حتى اليوم ! .

وأما الاعتقاد بأن احتجاب المرأة هو الضمان الوحيد لحصانتها وعفتها فذلك إفلاس التربية وسوء ظن بالدين وإلقاء بالنفس إلى الرذيلة ! !

فلو أن الفتاة وهى صغيرة فتحت عينها على القدوة الحسنة ، وأذنها لصوت الواجب ، وقلبها لنور الله ، لوجدت من روحها القوى وضميرها النقى وَزراً من الفتنة وعصمة من الغواية .

فالتربية الصحيحة إذن هى الضمان الذى لا يضر معه سفور ، ولا ينفع بدونه حجاب . وهى وحدها السبيل المأمونة إلى الغاية التى قصدناها من تلك الكلمة وما زلنا نعتقد اعتقاداً لا ظل عليه للريب أن غاية الكمال الاجتماعى

أن يكون الرجل فى كفة والمرأة فى كفة من ميزان المجتمع . وتلك هى السنة التى فطرنا عليها الله ، والنظام الذى فرضته علينا الطبيعة ، والواجب الذى يتطلبه منا العدل . أما المجتمع الأعرج الأشل البليد الخشن فغير جدير بالسباق ولا باللحاق فى هذا العصر الطموح الطائر . ومجتمعنا بغير المرأة هو ذلك المجتمع : فهو أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لحرمانه حدة العواطف ، خشن لفقدانه لطافة الأنوثة

لاحظ مجلساً من مجالسنا احتشدت فيه الرجال شباباً وشيباً ، فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة ، والأصوات الناشزة ، والمناقشات الفجة ، والأحاديث الجريئة ، والكلمات المندية[1] والذوق العامى ، والإحساس البطىء !

ثم لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة ـ امرأة واحدة لا غير ـ تجد الحركات تتزن ، والأصوات ترق ، والمناقشات تنتج ، والأحاديث تحتشم ، والكلمات تنتقى ، والذوق يسمو ، والإحساس يدق ! ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمل سَمته[2] فى عين المرأة ، ويحسن صوته فى أذن المرأة ، ويسوغ رأيه فى عقل المرأة . والأخلاق المكتسبة تبتدىء بالتطبع وتنتهى إلى الطبع .

جهل الأولون وظيفة المرأة فلم يعرفوها إلا متاعاً وزينة . لذلك اشتد تنافسهم فيها ، وتنازعهم عليها ، واستئثارهم بها ، حتى ضربوا دونها الحجب ، وأحصوا عليها الأنفاس ، وبثوا حولها العيون ، فجعلوها بذلك قنية لا شريكة ، ومملوكة لا مليكة . وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر إلا فى حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها

---

(١) المندية : المخجلة .   (١) السمت : هيئة أهل الخير .

لقد كان للأسلاف ولا شك عذر فى إقصاء المرأة عن مكانها من المجتمع ، وخير أعذارهم أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظرهم إلى الكنز الثمين . وكان من عاداتهم فى الكنوز أن يدفنوها فى الأرض أو يحفظوها فى الخزائن . ذلك إلى أن عمرانهم لم يكن من السعة والتعقد بحيث يطالب نشاط الجنسين جميعاً ، فحمل الرجال وحدهم أعباءه وقالوا :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

أما نحن ، فبأى عذر نعتذر ، وعلى أى حجة نعتمد ؟ إن الأمم الراقية التى نعاصرها و نصارعها لم تزل تنظر إلى المرأة نظر الأسلاف إليها ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بالكنوز وتستفيد منها ، فهى تعرضها اليوم فى المتاحف أداة علم ومتعة ، وفى المصارف رأس مال وقوة . وعمراننا قد زخر واستبحر حتى اعتدى فيه العمل على الراحة ، والتنافس على العدل ، والقوة على الحق ، وتسلح الغربى فى جهاده الحياة بقوى الطبيعة فى السماء والأرض ، ونحن ما زال نصفنا اللطيف قاعداً عن الإنتاج عاطلا من العمل !

أنا لا أريد أن ندفع بفتاتنا فى أتون الحياة المستعر فتحمل الفأس وترفع المطرقة وتقعد للبيع وتجلس للحكم ، إنما أريد أن تعطى حريتها الطبيعية فى حدود عملها الطبيعى ، وأن تعلم كيف تساهم فى شركة الزوجية : فتربى الولد ، وتدبر البيت ، وتدير الأسرة ، وتعدل ميزانية الرجل ، وتشعر أنها تعمل متضامنة مع بنات جنسها وبنى قومها لتكوين أمة متماسكة الأجزاء ، وثيقة البناء ، لا ينال من وحدتها شهوة من هوى ولا نزوة من جهل .

ذلك ما قصدنا إليه فى تلك الكلمة الموجزة بسطناه اليوم بعض البسط لعله فيه جلاء لما اختلج فى بعض النفوس من هذا الموضوع .

ساعة مع الأستاذ لطفى السيد

كانت نسائم الأصيل فى (مصر الجديدة) قد أخـذت تنفح جوها المحرور بالطراوة المنعشة حين غمزنا الجرس مستأذنين على الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد . وكانت دارته [1] الأنيقة غريقة فى سكون فلسفى حالم ، وحديقتها البهيجة ترف على جوانبها الأربعة بالجمال والعطر ، فتذهب عن صمتها الانقباض ، وعن سكونها الوحشة وكان كل شىء يقع عليه طرفك فى الحديقة والدار يعلن عما وراءه من مزاج حكيم وذوق فنان ونفس شاعرة .

كان الأستاذ على عادته يستربض مع أرسطو فى كتابه (الطبيعة) ؛ وهو السفر الثالث الذى يخرجه للناس من آثار المعلم الأول . وفى رأيه أنه أجل كتب أرسطو وأدلها على سمو عبقريته وسر نبوغه . لقينا فى البهو لقاء ذوى البيوتات الكريمة والأبهاء القديمة ، فسلم فى أريحية وحيا فى هشاشة . ثم خيرنا بين مجلس الدار ومجلس الحديقة فاخترنا هذا . وجلس ثلاثتنا [2] على كراسى قصيرة القواعد وثيرة المقاعد حول منضدة مستديرة فوقها مظلة صيفية على طراز ما يستعمله المصطافون على شواطىء البحار وفى فنادق الجبال . وجلس الأستاذ الحكيم قبالتنا على كرسى له ظلة كالعلبة المستطيلة تقى الجالس فيه وهج الشمس . أما كلبه الضخم الجميل فقد ذهب يتهادى فى الماشى المزهرة ، ومن حين إلى حين كان يعود ليداعب السامرين على قدر مايفهم من الدعابة .

أخذ الأستاذ يطارحنا الحديث على نحو ما كان يتحـــــدث إلى تلاميذه صديقه أرسطو زعيم المشائين فى مماشيه المظللة ، بصوته النقى العذب ، وجرسه العربى الواضح ، وأدائه المتئد الموزون ، ولهجته (الشرقاوية) التى ينثرها عمداً

(١) الدارة أنسب الألفاظ الترجمة : الفيلا

(٢) الأستاذان أحمد أمين وأحمد زكى وأنا

فى خلال الحديث فتكسبه ظرفا ورقة . ولطفى السيد مسامر حلو النغمة ، فكه اللسان ، متفنن الحديث ، متخير اللفظ . فلو ذهبت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب . وبراعة الحديث صفة امتازت بها طبقته التى تأثر بها وأثر فيها من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى . فأنت فى حضرتهم لا تشتهى الكلام لأن لذتك فى أن تسمع ، ولا تثير الجدال لأن همك فى أن تستفيد . ومجلس لطفى السيد يصدق الصورة التى رسمتها له فى ذهنك قبل أن تلقاه من شهرته المستفيضة وأعماله المنشورة . فبديهته حاضرة وفكره نفاذ وبيانه أخاذ واطلاعه شامل ومنطقه مستقيم . وهو يتوخى فى حديثه الإفادة واللذة ، فسامعه لا ينفك راضى العقل ريان العاطفة

وقصارى ما تقوله فيه أنه خلاصة الجيل الماضى بأسره ، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغانى وعصره وأوضح مظهر لهذا التطبيق كان فى نزعته السياسية وطريقته الكتابية . ففى (الجريدة)[1] نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية . وفى (الجريدة) ابتكر للكتاب أسلوباً لفظه قدر لمعناه ، ووصفه طبق على موصوفه ، وسبيله قصد إلى غايته فكان مذهباً جديداً جرى عليه الصحفيون إلى اليوم وأصدق الأمثلة عليه أسلوب الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب جريدة (البلاغ) .

ولطفى بك بارع فى سلسلة الحديث سريع إلى اقتناص المناسبة ، فلا تخشى على الحديث فى مجلسه أن يبوخ[2] ، ولا على الصموت فى محضره أن يحرج .

قال حينما استقر بنا الجلوس بعيد التحية ويفتتح السمر

أنا أقرأ ما تكتبون فى (الرسالة) بشوق ولذة . ويسرنى أن الكتابة فى مصر قد بلغت من الكمال الفنى حد الاعجاب فأصبحت للالفاظ دلالتها

(١) الجريدة اسم الصحيفة اليومية السياسية التى كانت لساناً لحزب الأمة وكان هو رئيس تحريرها .

(٢) باخ الحديث : فتر نشاطه .

الدقيقة ، وللأوصاف بيانها المقصود أما الكتابة فى (أيامنا) فكانت بالتقريب ، فمعانى الكاتب تقريبية ، وألفاظها الدالة عليها تقريبية ، والأثر الذى تتركه فى نفس القارىء — إن كان — مبهم أو تقريبى . فقال له أحدنا :

— ولكن سواد القراء يقرأون اليوم بالتقريب ، فقال :

— طبيعى ! فالكاتب أيام كان يكتب بالتقريب كان القارىء لا يقرأ ، وإذا قرأ لا يفهم . فلما ارتقى الكاتب إلى التدقيق ارتقى القارىء إلى التقريب .

ولقد تصرف كتاب العصر فى فنون الكتابة فعالجوا بها شتى الأغراض فى براعة وحذق ولذلك لا أوافق الدكتور طه حسين على جعله النثر لسان العقل والشعر لسان العاطفة ، فان من النثر مايكون شعراً.

ثم تشاجن الحديث وتشقق بعضه من بعض ، فتناول المويلحيين والخضرى وشوقى وأبا النصر والأفغانى والطويل ، حتى أدى إلى علاقته بالشيخ محمد عبده فقال :

— تخرجت فى مدرسة الحقوق وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى فرغبت العائلة فى زواجى ، وأوعز أبى إلى أمى أن تكلمنى فى ذلك فأبيته . ولم يشأ والدى أن يفاوضنى بنفسه فى ذلك الأمر ، فلجأ إلى الشيخ عبده ، وكانت المعرفة قد اتصلت بينهما بسببى ؛ فدعانى الشيخ إلى داره . فقال أحدنا :

— لقد كان حسنا من الإمام أن يجمع قلوب الشباب حوله ويتدخل بالنصح فى أمورهم الخاصة . فقال الأستاذ :

— لم يكن الأمر فى التعميم والاطلاق على ما فهمت . فقد كان الشيخ فى علاقته بالناس على انقباض وتحفظ . والشباب أنفسهم هم الذين سعوا إليه والتفوا حواليه ، لأنه كان بطبعه رجل ثورة ، ولأن اتصاله بصالون نازلى هانم ومصطفى فهمى وكرومر أوهن أسبابه بالقصر وأيبس ما بينه وبين الخديو ،

ولأنه كان يدعو إلى الاصلاح والتجديد ، ولأنه كان ينتدب فى كل عام لامتحان طلاب الحقوق المنتهين وقد اتصلت به معرفتى بسبب ذلك الامتحان نفسه ...

ششت !!

فكف الكلب المطيع عن النباح وكان ينبح شيئاً أو شخصاً خارج السور

— Viens ici

فجاء الكلب الوديع حتى دنا من سيده .

— Couches toi

فانتبذ الكلب مكانا قريباً ونام .

ثم عاد الأستاذ إلى حديثه يقول : اقترحوا علينا فى امتحان الانشاء أن نكتب فى هذا الموضوع :

« كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم ؟ » وجعلوا زمن الإجابة أربع ساعات على ما أظن . فكتبت المذاهب الأربعة التى قررها العلماء فى هذه المسألة ، ثم عقبت عليها ففندتها ونفيت أن يكون للحكومة على أى شكل من أشكالها (حق) عقاب المجرم ، لأنها قائمة على القوة لا على الحق . وأسرفت فى التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة . ثم خرجت فذكرت لرفاقى ما أجبت به فاضطربوا واكتأبوا وقرروا جميعاً أنى لا محالة راسب . ثم اشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسى كل أمل فى النجاح فلما كان يوم الامتحان الشفهى وقف الشيخ فقرظ موضوعى وكان قد وضع له الدرجة القصوى ، ولكنه نصح لى أن أقتصد الآن فى هذه الآراء إشفاقاً علىّ وكم للشباب من شطط فى الآراء !

زرت الشيخ بعد ذلك فى جهة من شارع الشيخ عبد الله نائباً عن فريق من الطلبة ألتمس منه أن يقرأ لنا درساً فى التفسير بمسجد الفتح على مقربة

من مدرسة الحقوق . فأجاب الملتمس ، وانضم إلينا طلبة من دار العلوم فكنا بين الثلاثين والأربعين . وهنالك قويت الصلة بيني وبين الشيخ حتى بلغت حد الألفة

وفي سنة ١٨٩٧ سافرت في الشتاء إلى جنيف لغرض سياسي ، فانتهزت هذه الفرصة وانتسبت إلى جامعتها في دروس من الأدب والفلسفة أقامتها في الصيف خاصة للحاصلين على درجة علمية . واتفق أن جاء الشيخ هو وسعد بك زغلول وقاسم بك أمين مصطافين . وكان المرحوم قاسم بك يشتغل في كتاب تحرير المرأة وكان يقرأ لنا غالباً بعد الظهر في كتاب الذكاء (ntelligence) للفيلسوف الفرنسي (تين) . ومن العجيب أنه كلما التوى علينا فهم عبارة كان الشيخ وهو أقلنا علماً باللغة الفرنسية يجلو لنا غامضها .

سافر سعد بك وقاسم بك وبقي الشيخ عبده فانتسب معي إلى دروس الأدب وأقبل عليها بجد ومثابرة وأذكر أن أستاذ الأدب كان قد قرر علينا فيما قرر رواية (روى بلاس) لفكتور هوجو نقرأها وندرسها ثم نناقشها وننقدها في الدرس أمامه . فلما جاء يوم المناقشة أدلى كل طالب برأيه ، والأستاذ يعقب على الآراء فيخطىء ويصوّب ويصحح حتى يخرج آخر الأمر بطائفة صالحة من الآراء الصائبة . وخرج الشيخ شديد الإعجاب بما رأى وسمع : وقال هكذا يكون التعليم ! نحن في بلادنا لا نعلم . واعتزم أن يدخل هذه الطريقة في الأزهر

كان مراحنا ومغدانا قبل الدرس وبعده إلى حلوانية تجاه الكلية تدعى (إكسلين) ، وكان الشيخ رحمه الله يأبى إلا أن يدعوها (إخصلين) على الرغم من وسامتها الظاهرة . وكان زيه وعمامته قيد الأبصار وموضع التساؤل ومستجر الحديث في كل مكان نحله وهنا ذكر الأستاذ بعض الطرف التي تدل على ظرف الشيخ ولطف روحه ورقة شمائله ، ثم قال : وكان من عادتنا أن المقدم

هنا ينتظر المتأخر عند هذه الحلوانية حتى نذهب إلى الدرس معاً ، ففى ذات يوم جئت قبله فانتظرته ، ثم انتظرته حتى مضى الوقت الذى كان يصل فيه عادة إذا تأخر . وكانت الجامعة قد استقدمت أحد العلماء الطبيعيين ليحاضر فى استحضار الأرواح والدخول عام والزحام لابد شديد فلما أزف موعد المحاضرة ولم يبق إلا دقائق قلت للفتاة : إذا جاء الشيخ فأخبريه أنى انتظرته إلى قبيل المحاضرة . ثم مضيت فدخلت مدرج المحاضرات من بابه الأعلى وأخذت مجلسى بين الحضور . ولشد ما كانت دهشتى حين وثبت إلى عينى عمامة الشيخ فى الصفوف الأمامية بين سيدتين جميلتين ، يميل على هذه مرة وعلى تلك أخرى ! فداخلنى من أمر الامام مالم أكن أعهده . ثم خيل إلى أن الزمن يبطىء والدرس يثقل ، لأن رغبتى كانت تلح فى الوقوف على جلية الخبر فلما انتهت المحاضرة أسرعت فى النزول إليه وفى عينى دهشة وعلى وجهى تعجب وبين شفتى كلام . وتبين الشيخ ذلك فى هيئتى من بعيد فصاح قبل أن أحدثه :

— تعال يالطفى أقدمك إلى البرنسيس !

وقدمنى إلى الأميرتين نازلى وخديجة ! وكان ذلك أول معرفتى بالأميرتين المصريتين فدعتانا إلى الشاى فى الفندق الفخم الذى تنزلانه .

وفى سنة ١٨٩٨ رغب الشيخ أن يقضى معى أياما بالبلد ، فاعلم بمقدمه رجال الإدارة والقضاء بالمنصورة حتى توافدوا إلى لقائه ، وفيهم المرحوم حشمت باشا ، وحفل المجلس بالناس على اختلافهم ودار الحديث ، فقال الشيخ فيما قال إن السيد جمال الدين كان يقول : إذا أردت أن تحكم على أخلاق أمة فاجلس فى قهوة من قهوات الفقراء ، فما انطبع فى نفسك من انفعالات فاحكم به على هذه الأمة من غير تحرج ، فأخذت أنقض هذا الحكم وأفنده ، والشيخ يدافع عنه ويؤيده فاستحييت أن ألج فى معارضة الشيخ فى المجلس فأمسكت .

وفى العصر ركبنا جوادين وخرجنا نرتاض فى المزارع والحقول فعدت إلى ذلك الموضوع . فقال الشيخ : لا أدرى لماذا لاتصدق هذا ؟ أليست قهوة الفقراء تجمع الفقير الذى سيبقى فقيراً ، والفقير الذى سيصير غنياً ، والغنى الذى صار فقيراً ؟

وفى سنة ١٩٠٥ أذكر أن الشيخ كان قادماً من الوجه القبلى وأظنه كان فى السودان فنزل عندى بالمنيا وكنت يومئذ نائباً بها . وحضر للسلام عليه رجال القضاء الأهلى والشرعى ووجوه البلد . فلما احتشد المجلس بالجمع قال أحد العلماء من رجال المحكمة الشرعية : إن كثيراً من النصارى يدخلون فى الإسلام فتضاعف بذلك عملنا . فقال له الإمام : فيم تعمل أيها الشيخ ؟ فقال : أعلمهم أركان الدين ! فقال له يكفى أن تقول للرجل منهم : صلّ وصم وزك وحج . فقال ولا بد أن نعلمه الوضوء . قال : قل له اغسل وجهك و يديك إلى مرفقيك ، وامسح رأسك واغسل رجليك . فقال : ذلك لايكفى ، ولا بد أن نعلمه حدود الوجه من أين يبتدىء وإلى أين ينتهى ! فقال الشيخ بصوته الجهير فى شىء من الحدة .

سبحان الله ياسى الشيخ ! قل له يغسل وجهه ! كل إنسان يعرف حدود وجه من غير حاجة إلى مساح !

وهنا استأذنا الأستاذ الجليل فى الانصراف على نية العودة إليه من حين إلى حين لنستزيد من طرائف هذه الأحاديث .

ذكرى المولد

(أول ديسمبر سنة ١٩٣٣)

فى مثل هذا الأسبوع من مثل هذا الشهر لسنة ثلاث وخمسين قبل الهجرة أعلن الله كلمته من جديد ، فى استهلال هذا العربى الوليد .

وكانت قافلة الحياة يومئذ جائرة [١] السبيل حائرة الدليل خائرة العزيمة ، والعالم الإنسانى يكابد فى هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق [٢] الروح ، وجاهلية توثق العقل ، ومادية ترهق الجسد وكانت الولاية على الدنيا فى ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم [٣] الفسوق والترف ، وأخلاف من الفرس هدهم الغلول [٤] والطمع ، والناس عدا هؤلاء وأولئك أوزاع وهمج . اللهم إلا شعباً نبيل الفطرة اعتصم بالصحراء من هذا الفساد الشامل ، فما عبث بضميره سلطان ، ولا عدا على خلقه طاغية . . . نشأته الطبيعة على سجاياها المرسلة ، وراضته على نظمها المحتومة ، وصفاه « الانتخاب الطبيعى » بالغزو المتلاحق والدفاع المتصل ، فأودى بضعيفه وأبقى على قويه ، حتى لم يدم على أديم الجزيرة إلا سيف صارم وفرس جواد ودارع بطل ! ثم تنخل من هذه الصفوة الباقية فى القرن السادس أمة وسطاً تحمل المثل الأعلى للانسان الأعلى (سوبرمان) فى قوة الحيوية وكمال الرجولة وصفاء الحس .

تلك هى الأمة العربية التى اختارها الله لقيادة شعوبه الحائرة ، واختار منها محمداً لتبليغ رسالته الأخيرة .

بين إيوان كسرى وبلاط القيصر اهتز مهد العربى اليتيم فى أرض مكة ! فتصدع لهزته الإيوان ، وتطامن لهيبته القصر ! وكأنما هتف بالعاهلين العظيمين من جانب الغيب هاتف : « اليوم ينتهى تاريخ ويبتدىء تاريخ ! ليس بعد

---

(١) الجائر : المائل عن القصد . (٢) توبق : تهلك .
(٣) شفه الهم . هزله وأوهنه . (٤) الغلول الخيانة .

اليوم ملك ولا كاهن وَلا سيد ! إنمـا العبادة لله ، والقيادة للرسول ، والسيادة للدين ، والحـكومة للعرب ، والدنيا للجميع ! »

* * *

وبين عرش القيصر وعرش كسرى انتصب منبر النبي الـكريم في سماء المدينة . فتضاءل لجلاله عرش وتقوض لدعائه عرش ! ثم انبثق نوره القدسي في مجاهل البدو ومعالم الحضر ، كما يبتسم الأمل في قطوب اليأس ، وتومض المنارة في ظلام المحيط .

هنالك ظهرت الوحدانية على الوثنية ، والغيرية على الأنانية ، والإنسانية على العصبية ، والإسلامية على الجاهلية . ثم عرف الإنسان قدر الإنسان ، وأدركت النفوس جمال الإحسان ، ووجدت قافلة الحياة طريقها القاصد [1]

* * *

كان العالم يقاسي حين ولد محمد بن عبد الله تفكك الخلق ، وتحلل الرجولة وضياع المثل الأعلى ، فـكان أكمل ما في حياة (الأمين) هذه الصفات النوادر : خلق عظيم شهد به الله ، ورجولة كاملة خضع لها الناس ، ودين يجمع إلى سعادة الدنيا سعادة الآخرة . ورسالات الرسل إنما تعالج بظهورها الفساد الذي استشرى في العالم ، والداء الذي استفحل في الناس . فإذا كانت معجزة الرسول في القرآن فإن مجده في الخلق وفوزه بالرجولة . والشعوب المختلفة التي صهرتها شخصية العرب وطبعتها ثقافة العرب ، لم تصل إلى الإخاء والوحدة إلا على منهاجه وهديه !

* * *

ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع ، وهمل من غير رابط ، وأحياء من غير غرض . فاضت في نفوسهم الحياة ، وزخرت في صدورهم القوة ، فصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع لا ينقطع وصراع لا يفتر . فحمل إليهم وحده رسالة الله لا يسنده سلطان ، ولا يؤيده جيش ، ولا يمهد له مال ، فنفروا منها

(١) الطريق القاصد : المستوى وهو خلاف الجائر .

نفور الوحش المروع ! ثم رأوا فيها سيادة لأسرة ، وخضوعاً لقانون ، وخروجاً على عرف ، فقابلوها بالعناد ، وعارضوها بالحجاج ، ودافعوها بالكيد . آذوا الرسول فى أهله وفى صحبه وفى نفسه ، فما وهن عزمه ولا لانت قناته ، وإنما قابل الأذى بالصبر ، والسفه بالحلم ، والفظاظة بالرقة ، وهذا هو الخلق .

ثم قارع الجدال بالتحدى والمكابرة بالسيف ، وهذه هى الرجولة وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب ! وبذلك الخلق وبهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم !

* * *

فلينظر اليوم شعب محمد وأتباع محمد ماذا فى نفوسهم من دينه ، وماذا فى أخلاقهم من خلقه ، وماذا فى أيديهم من تراثه ؟ فإن وجدوا أن دينهم أصبح رسماً محيلا فى نفوس الخاصة ، وأثراً مشوهاً ضئيلا فى نفوس العامة ، وأن أخلاقهم فقدوها يوم فقدوا الحرية ، وأضاعوها يوم أضاعوا الملك ، وأن تراثهم أصبح نهباً مقسما بين شذاذ الشعوب وذؤبان الأمم ، فليفيقوا من النوم ، وليخففوا عن القدر اللوم ، فإن الله لايظلم الناس مثقال ذرة . ومن عاند طبيعة الحياة فقتل فى نفسه الطموح ، وفى فكره التجدد ، وفى عمله الابتكار ، ورضى أن يكون فى الدنيا كالأثر فى المتحف يدل على ملك باد وشعب انقرض ، كان يسيراً عليه أن يدع دينه للمبشرين ووطنه للمستعمرين ، ثم يقعد مقعد الخوالف يتحسر على المجد المفقود ، ويتعلل بالأمانى الكواذب ! !

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان القوة وتحكم الجهالة فما أجدر النفوس الذاكرة الحرة على اختلاف منازعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة ! !

وما أخلق الزعماء الذين يحاولون اليوم توحيد العرب من جديد ، أن يتخذوا منهاجه سبيلا إلى هذا العمل المجيد . . . !!

بين النيل والأكروبول

(١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣)

رحلت إلى بعض بلاد الغرب وإلى بعض أمم الشرق ، فلم أجد شعبا كهذا الشعب هان وجوده على نفسه ، وانطمس تاريخه فى ذهنه . فأعطى الضيم عن يد وهو صابر !

أسرف فى اللين حتى رمى بالجبن ، وأمعن فى التسامح حتى وصف بالبلادة ، وأفرط فى التواضع حتى نسى الأنفة ، وبالغ فى إكرام الغريب حتى أصبح فى وطنه هو الغريب ! !

فليت شعرى يا ابن العرب . ويا سليل الفراعين من أين داهمتك هذه القلة ؟ نسب يزحم النجوم ، وحسب يطول الدهر ، وماض كالشمس نفذ إلى كل أرض وسطع فى كل أفق ، وواد كرفرف الخلد زخر بالغنى وفاض بالنعيم ! فكيف لا يرفع رأسك هذا النسب ، ولا ينصب صدرك هذا الماضى ؟ !

مالك تمشى فى أرضك خافت الصوت ، خافض الجناح ، ضارع الجنب ، كأن النيل يجرى لغيرك ، وكأنما الآثار تتحدث إلى سواك !

لقد أصبحت فى بلدك المنكود تحيا حياة الجسم كما يحيا الأجير والخادم ، أما حياة الروح التى ينبض فيها القلب بعزة القومية وصلف الوطنية ، فقد أماتها فيك الوباء الوافد من كل مكان !

إن إخوانك فى لبنان لا يحبون الغريب إلا ضيفا ، وإن إخوانك فى العراق لا يكرمون الأجنبى إلا ضيفا ، أما الدود الذى يمتص الدم ويقذى العيون ويغشى

النفوس فلا يجد مغذاه ومرواه إلا على النيل !

وليت الذى قاسمنا أنعم الوادى الحبيب يذكر فضيلة الإحسان ، ويشكر عطف الإنسان على الإنسان ! إنما يتمتع بخيرنا تمتع الغازى الفاتح ، فى يمناه سيفه ، وفى يسراه قانونه ، فإذا عاملناه احتقرنا ، وإذا عاتبناه انتهرنا ، وإذا ضج المغبون أو صاح المسروق أو صرخ الجائع ضربه (الخواجه) ضربته ، ثم استعدى عليه دولته !

فى أى بلد من بلاد العالم اليوم يأتى محام أجنبى ليدافع عن مجرم من جنسه أجرم على هذا البلد ، فيجد له قضاء فى قلب قضاء هذا البلد ، وقانونا بجانب قانون هذا البلد ، وقوة فوق قوة هذا البلد ، ثم يقوم بين يدى قضاة من جنسه فيقول فى بلاغة ديمستين وحماسة من ، لا أدرى .

« أظهروا أيها السادة أنكم قضاة تنشقون هواء الأكروبول[1] ، وأنكم لا تخوضون فى ماء النيل المسكر ! »

معك الحق كله يامتر (بابا كوس !) لقد تركت أثينا فى اليونان ثم عبرت البحر فوجدت أثينا فى مصر ! فالفنادق للروم ، والمطاعم للروم ، واللقاهى للروم ، والمواخير للروم ، ودور السينما للروم ، وقاضيك من الروم ، وجانيك من الروم ، وبقالك من الروم ، وحلاقك من الروم ! وخادمك من الروم ! وإذا طلبت الماء ، أو أردت الكهرباء ، أو ركبت الترام ، أو دخلت البنك ، أو قصدت المتجر ، وجدت كل ذلك فى أيدى أقوام سحنتهم غير مصرية ، ولغتهم غير عربية ! فإذا سألت (خالى) عن المصريين قال لك : إنهم أجراء عند (خريمى) فى المزرعة ، أو سكارى عند (ينى) فى البار !

---

[1] الأكروبول قلعة فى أثينا القديمة ، وقد بنيت على صخرة علوها ١٥٠ قدما ، وعلى ذروتها قامت الهياكل والمعابد .

معك الحق كله يامتر بابا كوس أن تهين شعباً يسمع إهانته فى كل يوم وفى كل مكان فيغضى ثم يمضى ! وأى إهانة آلم وأشنع من (الامتيازات) وهى طعن فى إنسانيته وقدح فى كفايته وتجريح لعدله ! ولكن الحق يبرأ منك حين تقول وأنت وريث أرسطو ومِدْره أثينا إنك لم تقصد بهذه الجملة إهانة مصر وإنما هى عبارة من عبارات البلاغة التى يستعملها المتكلم عادة ، فلسنا من البلاهة بحيث يخدعنا عن جد الجريمة هزل الاعتذار !

رحم الله أستاذنا الشيخ المهدى ! لقد كان يرى الرجل المتمدن يرمى الرجل المتمدن بالكلمة العوراء[1] يندى لها جبينه ويغلى منها دمه . فما هو إلا أن يقول الشاتم المتمدن المشتوم المتمدن : (سحبتها) حتى يجف عرق الجبين ، ويكف غليان الدم ! فيقول الأستاذ بلهجته العربية .

« عجيب ! كلمة قيلت كيف تسحب ؟ ولطمة أصابت كيف تسترد ؟ »

لا نريد من شبابنا أن يدفعوا البغى بالبغى ؛ وإنما نريد منهم أن يفهموا الواغلين أن كدر النيل ليس من أهله ، وأن الطريق الذى يسفى عليه الغبار والأقذار هو الطريق الذى فتحه لهم اقتصاد المستعمر ، فإذا ملكناه ونظفناه عادت إلى نيلنا نقاوته ، وإلى شعبنا كرامته .

ليس على الأجنبى من حرج أن يزاحم فى بلدك ، فإنما جهاد الدنيا رحمة ليس فيها رحمة ، وهو حين ينافسك ينافسك فى حدود الطبيعة ، ولكن الحرج كله عليك إذا ظللت تشترى وهو يبيع ، وتغرم وهو يغنم !

نضر الله وجوه الشباب العاملين ! لقد أخذوا يجلون عن وجه مصر الجميل غبرة القرون وذلة الأحداث وإهانة الدخيل ! نزلوا ميدان الاقتصاد جنوداً متطوعين وعمالا متواضعين ، فعرفوا أين تكون المعركة الفاصلة بين الاستعباد

---

(١) الكلمة العوراء هى ما تنفيها الاذن .

والحرية ، وبين الاستعمار والحق ، وشقوا الطريق القاصد إلى إنقاذ مصر من احتلال دولى شديد الخطر قبيح الأثر ، لا تسكائه على العدل واعتماده على القانون .

إن (عيد الوطن الإقتصادى) و (مشروع القرى) و (تعاون الشباب) و (تعاون الطلبة) و (جماعة تمصير مصر) وشركات الدخان والألبان والإعلان والجزارة والمقاهى ، فتح مبين فى جهاد مصر الفتاة . وإن تحلل الشباب المثقفين من ربقة التقاليد وإسار العرف ، فلا يرون غضاضة فى أن يقيموا المشارب والقهوات فى مولد النبي ومولد الحسين ، يكونون فيها الطهاة والباعة والندل والمديرين ، لهو تحلل الحاضر الطموح الناهض ، من قيود الماضى القنوع العاجز وليس على أولئك الشيوخ الذين مكنوا بجمودهم وقعودهم للأجنبى فطغى بيده وبغى بلسانه ، إلا أن يطووا معهم هذه الصفحة المخزية من تاريخ مصر ، ويتركوا الشباب يجدد ما بلى ، ويدعم ما وهى ، ويسد ما خل .

إن شطط المبشرين بالمسيحية قد انقلب إلى تبشير بالإسلام ودعاية إلى المؤسسات الخيرية ، فهل تنقلب سفاهة (الممتازين) إلى إعزاز القومية المصرية وتحقيق الأمانى الوطنية ؟

على الشاطئ

١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣

الشاطئ شاطئ استانلى[1] واليوم يوم الأحد ، والطرقات الجميلة الصاعدة إلى هذا الخليج البهيج تصب فيه أنماطاً من الناس ، فى أنماط من اللباس ، وكلهم فى سن أهل الجنة ! وكنت فى هذا التيار الحار المتدفق كأننى السمكة الغريبة تفقد الاختيار وتخشى كل شىء !

هبطت مع الهابطين إلى هذا الشاطىء على سلم من سلالمه ، ثم أرسلت فيه عينى فإذا هو مستدير على صدر الماء ، استدارة الهلال البازغ على صدر السماء ، وإذا النجوم الزواهر من الإنس تختلج فى هذا الهلال اختلاج العواطف الرقيقة تماس فى رفق ، ثم تنفرج فى سهولة !

أخذت أخطو وئيداً بين العذارى المتجردات على استحياء وارتباك ! فلما لم أجد فيهن حتى من تتقى النظر باليد ، كما فعلت « متجردة النابغة » حين سقط نصيفها ولم ترد إسقاطه ، أرسلت نفسى على طبيعتها فى هذا الحمى المباح وذكرت الأستاذ الثعالبى وهو يقول لى بالأمس فى لهجة جازعة « إذهب بربك إلى (استانلى) ثم صف ماتراه » .

هاتان عيناى ياصديقى مفتوحتين ، وهاتان أذناى مرهفتين ، فماذا أرى وماذا أسمع ؟

أكشاك أنيقة الصنع والوضع ، تدرجت طبقاتها الثلاث على حضن

---

(١) استانلى علم على شاطىء من شواطىء البحر فى رمل الاسكندرية فيه مسبح مشهور بحريته

الشاطىء ، ومظلات شتى الألوان قد ركزت هنا وهناك فى منحدر الساحل ، وجمع حاشد عاركسوق الرقيق فى ألف ليلة وليلة قد بعثر أمام الأكشاك ، وتحت المظلات ، وفوق الرمال ، وبين المياه . . . وصراع لذيذ عنيف بين أفواج البر ، وأمواج البحر ، تتخلله صيحات وضحكات كرنين الفضة المصفاة ، وأحاديث كهمس الأوتار ، تطير من بين الشفاه البواسم ، كما تطير أنفاس الصبى الحالم : ولكنها لاتصعد إلى حيث يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ! وبيئة أجنبية ناسها غير ناسنا ، و إحساسها غير إحساسنا ، ولغتها لغة فرنسا لالغة مصر ، وسمرتها سمرة الشمس لا سمرة الجنس . . !

فعلام إذن هذا الجزع الباكى ، والقوم إنما يجـــرون على أعراقهم ، ويعملون على مقتضى أخلاقهم ، وبين فتياتنا وفتياتهم من العرف الإسلامى حجاب . ومن الحياء الطبيعى وازع ؟

كنت ألقى على نفسى هذا السؤال حين جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل ، فجريت إلى فوق أتقى هـــذا المد المفاجىء ، فإذا بى واقف إزاء مظلة جميلة منعزلة قد انبطحت تحتها فتاة ناهد لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة . وكان ذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر . فلما وقع بصرها علىَّ نهضت نهضة الظبى الفزع تحيى بالعربية أستاذها القديم ! .

— أوه ! فلانه ؟

— نعم ! ويسرنى أن أراك يا أستاذى بعد خمس سنين

— هل أنت وحدك هنا ؟

— ، كلا ، بل معى أخى . . . وقد أتعبه صراع الأمواج الثائرة فذهب إلى (الكابين) .

— وكيف حال البك الوالد ؟

— الحمد لله حاله خير حال ! وما أكثر سؤاله عنك وأشد شوقه إليك ! لقد كان جالساً بالكازينو ثم انصرف إلى البيت منذ قليل .

قالت ذلك تلميذتى الأرستقراطية المدللة وهى تنصب كرسياً طويلا من القماش دعتنى إلى الجلوس عليه . ثم جلست هى على كرسى آخر وكانت كأنها حواء لا يستتر جسمها العارى إلا « ورقتان » خصفتهما عليه من أمام ومن خلف ، فسرعان ما ذكرت ذلك المكتب الفخم الذى كانت تجلس قبالتى عليه لتستعد لامتحان البكالوريا وهى ملفقة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل ، وعيناها الساجيتان لاتفارقان الصفحة حياء وخفرا ، وثغرها الحيي الدقيق لايرسل سهل الكلام إلا فى تلعثم وبطء !

لم تدعنى الآنسة فى ذكراى إلا ريثما ردت التحية على فتاة فى مثل حالها وجمالها كانت تسير فى رفقة شاب شديد السمرة ، غطى كتفيه شعر كثيف كصوف الخروف .

— هذه ابنة فلان وهذا الذى معها أخوها . وهذه ابنة فلان وهــــذا ابن عمها . وهذه المضطجعة فى الشمس بنت فلان ومحادثها صديق من أصدقاء أخيها . . . فقلت :

— لولا علمك ياعقيلة لحسبت هؤلاء جميعاً أجانب !

— وما الذى يحملك على هذا الحسبان ؟

— هيف القد واكتناز اللحم واتساع الحرية .

— ذلك من أثر الرقص والرياضة . ستكتب ولا شك عن اسنانلى شيئاً فى الرسالة

— وهل قرأت ما كتب الكتاب عنه ؟

— قرأته ولم أسغه ، لأنه شديد المبالغة سطحى النظر . وأى بأس فى أن تمتع المصرية جسمها كله بأشعة الشمس وماء البحر كالغربية !

— لا بأس . ولكنى أظنهـا تدرك ذلك كله فى شاطىء خاص وفى لباس مناسب .

— إن شمس الشواطىء كما تعلم إنما تقصد لخصائص أشعتها . وكلما تعرض أكثر الجسم لها كان أكثر انتفاعاً بها : والأمر فى الشواطىء كالأمر فى المراقص والمرابض ، يهيمن على الحياة فيها روح رياضية عالية تغنى كل إنسان بشأنه عن شأن غيره . فالراقص لا يفكر إلا فى الرقص ، وللرتاض لا يفكر إلا فى الحركة وللستحم كذلك لا يفكر إلا فى الأمواج والأشعة .

— إبدئى بالمثال قبل القاعدة يا آنسة . أين تجدين الروح الرياضية فى هذه المرأة التى علت صدر هذا الرجل لتتعلم فوقه السباحة ؟ وأين تجدين الروح الرياضية فى هذين الجسمين الراقدين على الرمل يتلامسان بشهوة ، ويتناجيان بنشوة ، وقد انمحى من حولهما البحر والشاطىء والناس ؟

أرى يا آنسة أن المرأة تسىء إلى نفسها بهذا التبذل ، حتى من الجهة النسوية الخالصة ، فإنها متى فقدت سحر المحجوب وجاذبية المجهول أصبحت كسائر الإناث من سائر الحيوان .

عفواً يا آنسة إذا اتخذت فى خطابك لهجة الأستاذية ، فإنها لا تزال أقوى الصلات التى أمت بها إليك .

ألا تلاحظين أننا فى الجد نتطور ببطء موئس ، وفى الهزل نتطور بسرعة

جامحة ؟ لقد كنا بالأمس نتجادل فى السفور ، وها نحن أولاء اليوم نتجادل فى العُرْى !

أستودعك الله يا آنستى ، وأسلم على أبيك وأخيك . ثم أخذت طريقى على الشاطىء الشهوان وفى نفسى كلام حبسته .

على أن من الظلم الموروث أن الرجل يشارك المرأة فى الذنب ثم يفردها بالعقوبة !

فالأب يقود ابنته عارية إلى الشاطىء ، والزوج يجلس مع زوجته عارية على المقصف ، ، والأخ يتعرى مع أخته فى الكشك وفى البحر ، ثم يندلع لسان النقد على المرأة وحدها فيتهمها بخنق الفضيلة ، ويرميها بذبح الخلق !

ياقوم ! لقد فتشتم فى الشواطىء كثيراً عن حياء المرأة ، ففتشوا فيها ولو قليلا عن نخوة الرجل ! !

لماذا ترجمت الآم فرتر

إلى صديقى رفائيل بطى الذى سألنى هذا السؤال وهو طليق الحرية فى بغداد، فأجبته وهو سجين الاستبداد فى كركوك :

تسألنى لماذا ترجمت فرتر . . والجواب عن هذا السؤال حديث ، والحديث غداً سيكون قصة ، وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها :

قال (جيته) يوماً لصديقه (أكيرمان) : « كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن فرتر) إنما كتبت له خاصة »

وأنا فى سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين : شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى حس مشبوب يتوقد شعوراً بالجمال ، وقلب رغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ، ونوازع طامحة ما تنفك تجيش ، وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك . فالطبيعة فى خيالى شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لكل شىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزوّر نتائجه المثل الأعلى . ثم غمر هذه الحال التى وصفتُ هوى دخيل هادىء ولكنه مُلِح ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ ، وقلبى الصادى قد ارتوى ، وحسى القلق قد سكن ؛ وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود ، وترفّ على جوانبه نوافح الريحان ، وتزهو على حواشيه ألوان عبقر ، وترقص على حفافيه عرائس الحور . وذهبت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى كأننى (فوست) على جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل

فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة !

على أنني بقيت على رغم الصدمة حياً ، ولا بد للحى أن يسير

تطلعت وراء العقبة أنظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد عوسج والريحان

حمضٌ والعرائس وحوش . . .

فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس . . . ولكن أين أنشد ما أبغى

وحولى من الفراغ نطاق مخيف ، وأمامى على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟

هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينى ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت على ،

وهذه سجلات مصارعهم بين يدى . فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلى ، وأقطع

بنداجاتهم مراحلى ، وألتمس فى مواجعهم لهواى عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ، ورينيه ، وأتالا ، وأودلف ، ودومينيك ،

وماريون دلورم ، ومانون ليسكو ، وذات الكميليا ، وجرازيلا ، ورفائيل ،

وجان دكريف .. وتوثقت بأشخاصها صلاتى ، وتصعدت فى زفراتهم زفراتى ،

وتمثلت فى نهايتهم المحزنة نهايتى ، ولكنهم كانوا جميعاً غيرى ! نتفق فى الموضوع

ونفترق فى الوضع ، كالنساء النوادب فى مناحة ، تندب كل واحدة منهن فقيدها

وموضوع الأسى للجميع واحد : هو الموت ؟

فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً

غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالا غير تلك الحال ؟

كنت أقرأ ولا أقرأ فى الحادثة سواى ، وأشعر ولا أشعر إلا بهواى ،

وأندب ولا أندب إلا بلواى . فهل كنت أقرأ فى خيـــــال أم أنظر فى قلبى ،

أم هو الصدق فى نقل الشعور ، والحذق فى تصوير العاطفة ، يظهر قلوب الناس

جميعاً على لون واحد .. ؟ !

كنا يومئذ فى مايو ، والطبيعة تعلن عن حبها بالألوان والألحان والعطر ، ونفسى تحاول أن تعلن عن هواها بالدموع والشعر ؛ فآلامى تجيش فى عينى ، وعواطفى تتنزى على لسانى ، و بلابلى تتوثب فى خاطرى ، وكلها تطلب السبيل إلى العلانية . والشكوى فى الحب كالطفح فى الحمى كلاهما عرض ملازم . فلما قرأت « فرتر » تنفس جواى المكظوم ، لأننى لو كنت صببت مهجتى على قرطاس لما كانت غير « فرتر » . وهل فرتر إلا قصة الشباب فى كل جيل ؟ رجل شديد الحس قوى العاطفة يتقسم الخيال « والإيديال » نواحى نفسه ؛ ورجل آخر بارد الطبع عملى الفكر يعرف دائماً كيف يجر النار إلى قرصه ؛ وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلى وقلبها الشاعر ؛ ويربطها بالآخر عقلها المادى ووعدها المأخوذ .. هذا هو موضوع آلام فرتر ، وهو بعينه موضوع آلامى فلم لا أنقله إذن إلى لغتى لينطق عن لسانى ، كما ترجم صادقاً عن ضميرى ؟

فنيت فى « جيته » وقادنى إلهامه وروحه ، وأهبت بلغة القرآن والوحى أن تتسع لهذه النفحات القدسية ، فأسعفتنى ببيانها الذى يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسى صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم ! كأنما كان « جيته يناديها من وراء الغيب حين يقول فى تقدمته لفرتر « وأنت أيتها النفس إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسى البرء والشفاء فى أسقامه ، واتخذى هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو خطئوك أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحى عليك ؟ »

الملك الشهيد

(١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣)



فى ليل يوم الجمعة الماضى سكت (فى برن) قلب الملك فيصل ؟ وما كان فى حسبان أحد من دنياه أن هذا القلب الذى يجيش بالحياة ، وينبض بالأطماع ، ويستخف بالأمور الجسام ، يسكت فى وحدة الغريب ووحشة الليل الرهيب هذا السكتة الفاجئة !

فلما نعاه البرق إلى الآفاق فزع الناس إلى الشك يدفعون به هول الخطب ، ورجم بعضهم بالظنون يعللون بها بغتة الحادث ، وتعذر على العقل أن يفهم الموت مقروناً إلى فيصل (صقر قريش) ، وقد كان إلى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء الشرق والغرب حاملا فى يمناه العراق ، وفى يسراه سورية ، وفى قلبه « دولة العرب » ؟ ثم انجلى الشك وانجابت الظنون فإذا سورية ، وإذا العرب ، أمام الفاجعة التى روعت النفوس ، وضرمت الأنفاس ، وقوضت حصون الأمل .

لم يجزع العرب حين نعى إليهم فيصل على نفس كسائر النفوس تغوص

فى لجج العدم ، وإنما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة وجهود نهضة ومستقبل فكرة ؛ لأن ملك العراق كان مناط هذه الآمال ، ومبعث هذه الجهود ، وعدة هذا المستقبل .

ومن العجيب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء لا قلتهم فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالا على وحدة العرب إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد فى قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب . وقد اجتمع الملك فيصل مع هاتين عقل كيس ، وخلق نبيل ، ونفس طموح ، وجاذبية قوية ، فلا جرم كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة يجمع كلمتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها وراء خطاه .

* * *

عرفت جلالة ملك العراق أثناء مقامى ببغداد معرفة وثوق وخبرة وكانت حال البلاد فى ذلك الحين محنة ابليت بها كفاية الملك النابغ : فالانتداب البريطانى كان قبل الملكية يعمل فى العلن ويحمل التبعة ، فأصبح بعدها يعمل فى السر ولا تبعة عليه . والحكومة العراقية كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب لا تستطيع بخروقها أن تستر العرش . فالملك بحكم الوضع كان يستر الإنجليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه . فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل فى رأى المعارضة والشعب على الملك . وكانت الحاشية بعبثها تنفض ظلالة على جد البلاط ووقاره شيئاً من العبث ، والشعب العراقى على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح ، لا يصبر على نقص ، ولا يغفل عن خطأ فقدر فى نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير فيصل .

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة فى هذه الحال

المضطربة ، فكفكف بحكمته من شرة الانتداب ، وخفف بحنكته من عسف الوزارة ، ولطف بحلمه من غضب الشعب ، وصرف شئون الدولة على قدر ما يسلم الرأى الحصيف من خبث الاستشارة وضعف الوزارة . ثم سهل حجابه لأمراء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما فى صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له ! ثم نظر خارج العراق فرأى على حدوده دولا يتنزى فى صدورها حقد الماضى وطمع الحاضر ، فزار تركيا وفرنسا وإيران فأحال عداءها إلى صداقة وجفاءها إلى مودة ! ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأوفد إلى إمام اليمن ، فأحكم أواخى المودة بينهما و بينه . ثم هداه تفكيره العملى المرن إلى أن يعالج الانتداب البريطانى بالمصانعة والموادعة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين : لا مال أمامه ولا جند خلفه ! ولكن الحسين جرى على صياسة على فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك . ثم اعتمد فى تأثيل ملكه و إنهاض شعبه على الإخلاص العامل والجد النزيه وتحامل فى ذلك على دمه وعصبه وروحه ، حتى ذهب فيصل شهيد الواجب كما ذهب الحسين شهيد الحق .

كان للملك فيصل الأول ملكا من طراز خاص ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناصع الظرف ، جم التواضع ، رحب الأناة ، ظاهر الموادعة ، زاهداً فى أبهة الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ، فلا يخدج[1] بتحية ، ولا يمشى فى حرس ، ولا يتشدد فى حجاب .

---

(١) أخدج التحية : أداها ناقصة كما يفعل المتكبرون .

وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصيلة أن تراه غالباً فى شارع الرشيد أو فى طريق الصالحية يقود سيارته بيده ، ويشق طريقه بنفسه ، دون ربيئة من خلفه ، ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أى سابق ، ويزاحمه أى سائق .

وقد تبكر ذات صباح إلى مدرستك أو ديوانك فتراه فى ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه العربى المسنون ، وقده السمهرى الممشوق ، ورشاقته الرياضية البارعة ، فيسلم عليك ثم يتعهد المكان ويتعرف العمل ويودعك بابتسامته الرقيقة وملحوظته الدقيقة .

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين إلى الشاى فى حديقة قصره ، فكان يجلس إلى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بحلو الحديث ، ويناقشهم فى وجوه الإصلاح ثم خطبهم فى شئون التعليم خطبة جامعة تمنى فى سياقها أن يكون معلماً مع المعلمين يؤدى إلى الأمة هذا الواجب المقدس . وفى صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية الابتدائية فقضى ردحا من الزمن فيها ، ثم سجل اسمه فى ثبت مدرسيها .

كان الملك فيصل فى العراق ملك دولة ، ورئيس حكومة ، وزعيم أمة . وهو فى الأقطار العربية مؤسس نهضة ، وممثل فكرة ، ورسول وحدة ، وداعية سلام ، ومعقد أمل . فإذا هفت النفوس جزعا لفقده ، واستولى على العرب الوجوم والحيرة من بعده ، فإن فى منطق الحوادث وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ويعلل هذه الحيرة .

ألهم الله الأمة العربية على جلالة ملكها فيصل أجمل الصبر ، وجعل لها فى جلالة ملكها غازى خير العوض . . .

فرعونيون وعرب

(أول أكتوبر سنة ١٩٣٣)

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ! ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل فى الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمّة النفوس وأعنة الأهواء يقول لها كونى فرعونية فتكون ، أو كونى عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأى الفرعونى اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه فى المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه فى المحادثات ، حتى خال بنو الأعمام فى العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مِسَلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة !

مهلاً بنى قومنا لاتعتدوا بشهوة الجدل على الحق ! ورويداً بنى عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن إلى القرابة ! إن الأصول والأنساب عرضة للزمن والطبيعة : تواشج بينها القرون وتفعل فيها الأجواء حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة فإذا قلنا فلان عربى أو فرنسى أو تركى فإنما نعنى بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والأدب والأخلاق والهوى والدين : فمهيار عربى وأصله فارسى ، وروسو فرنسى وأصله سويسرى ،

والأمير فلان مصرى وأصله تركى ، لأن كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءاً من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه

فبأى شيء من هذا يتمارى إخواننا الجدليون وهم لو كشفوا فى أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الإلهام لرأوا الروح العربية تشرق فى قلوبهم ديناً ، وتسرى فى دمائهم أدباً ، وتجرى على ألسنتهم لغة ، وتفيض فى عواطفهم كرامة . . ؟

لا نريد أن نحاجّهم بما قرره العلماء المحدثون من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق إلى العربية الجاهلية ، فإن هذا الحجاج ينقطع فيه النفَس ولا ينقطع به الجدل . . . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثاً من التاريخ العربى نسخت ماقبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . وذلك ماضى مصر الحى الذى يصبح فى الدم ، ويثور فى الأعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضى ، ثم انظروا مايبقى فى يد الزمان من مصر هل يبقى غير أشلاء[1] من بقايا السوط ، وأنضاء[2] من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجاوات ، وقبور ذهبية الأحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الأرض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضى الأبعد الذى تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة ، تصور بألوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين

---

(١) الأشلاء جمع شلو وهو العضو بعد البلى والتفرق (٢) الأنضاء جمع نضو وهو المهزول .

تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لاتنتقل إلى الأعقاب إلا فى نتاج العقول والقرائح . فهل كشفتم بجانب الهيا كل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان ، وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنيت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ، والخامد لايبعث حياة ، والجامد لا يلد حركة ؟

لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربى ، لأنها لاتجد مدداً لحيويتها ، ولا سنداً لقوتها ، ولا أساسا لثقافتها ، إلا فى رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ولفنها لونه ، فذلك قانون الطبيعة ولا شأن (لمينا) ولا (ليعرب) فيه ؛ لأن الآداب والفنون مِلا كها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها فى كل قطر . فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاتته الصبغة المحلية وهى شرط جوهرى لصدق الأسلوب وسلامة الصورة وقديماً كان لون الأدب فى الحجاز غيره فى نجد ، وفى العراق غيره فى الشام ، وفى مصر غيره فى الأندلس ، دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به أثر ؟

انشروا ماضمنت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقى فى يده من أكفان الماضى الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادى وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها فى مومياء فرعون هى روح عمرو ، وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وأن القيثار الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس ، وأن آثار

العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم ، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخليقة من خير ، وتتفاوت الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع أليس (الخزان) خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟ .

وبعد فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم في روحها على الإسلام والمسيحية ، وفي أدبها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الاوربية الخالصة — أما ثقافة (البردى) فليس يربطها بعصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالأقباط .

حديقة

من ذكريات بغداد :

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة فى حديقة (النادى العسكرى) كل صباح ! فكنت ترانى أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر فى رونق الضحى أو فى مُتوع النهار ، فأجد الشمس قد لألأت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشق بأشعتها الظلال الندية من خلال الشجر ؛ وبنات الهديل[1] يبحثن كعادتهن فى عساليج[2] التين وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن وهن يرجِّعن على التعاقب ألحان الخريف ؛ وأرى الحديقة مطلولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالفاغية[3] تنفس الطفل الحالم ؛ وأشعر بالسكون مرهوبَ الجلال أنيس الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت ؛ وأجد النادىَ خلواً من أهله فلا تجد إلا بستانيا يعمل فى صمت ، وغلاماً يكنس فى هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان فى الشرفة أو يمشيان فى الحديقة ، فلولا نشوز خادمهما الكهل ، ومنظر هندامه الزرى الشكل ، لحسبتهم زهرتين من زهورها ، أو عصفورين بين طيورها ، فأسير فى الروضة متئد الخطى مرسَل النفس مرهف الحس ، تارة بين مماشيها ، وتارة فوق حواشيها ، فأقف عند كل شجرة ، وأحَيى كل زهرة ، وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود . ثم أصعد درجة إلى الشرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، أتنسم هواء النهر ملء رئتىَّ ، وآخذ جملة المنظر بمجامع عينىَّ . وأى منظر يسحر الطرف ويملك اللب كهذا المنظر الفاتن ؟ ! الحديقة من ورائى

---

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام . (٢) العساليج جمع عسلوج وهو ما لان واخضر من قضبان الشجر أول ما ينبت . (٣) الفاغية كل زهر له رائحة طيبة

تضوع بالنسيم الأريج ، وتروق بالرواء البهيج ، وتروع بالسكون الملهم ! ودجلة الخالد من أمامي تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لجاجه ، وتتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض والسماء ، يسبح خاطرى فى أجواء الماضى القريب والبعيد صاعداً إلى فكرة ، أوهابطاً على ذكرة ، أوحائماً حول منظر كهذا المنظر ، تدفق به قلب فى قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الأحلام والأمانى كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سرحة فينانة من روضه .

* * *

لا تظنن هذه الحديقة فيحاء قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتألق بها فن الإنسان ، إنما هى مربع من الأرض على قدر مايتسع له فناء كبير فى منزل فخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب فقسماها إلى أربعة أقسام سواء ، وفى هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السِّدر ، وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيها أشجار النارنج ، وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النّور الجميل والورد العطر . فسماؤها كما ترى للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهى كلها لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر .

ليت شعرى ما مصدر هذا السحر الذى يشع فى عينى ويشيع فى نفسى كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذى يقوم فى جنوبيه كأنه المعقل البالى أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك النهر الجميل الذى يجرى فى غربيه كأنه الزمن الدافق أوالكتاب المنشور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم فى المكان ، وجمال الطبيعة فى البستان ، وعظمة الحياة الماثلة فى النهر ؟

ليس للروح العسكرى فى هذا المكان الشعرى مظهر ولا أثر فما تعهده من الخشونة فى السكنات والعنف فى الحركات والقسوة فى النظرات والكلمات يحول هنا إلى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف !

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلنى عن حديقتى واليوم عيد من أعياد الطبيعة برزت فيه عارية من الحُلل غانية عن الحلى . والخريف فى العراق هو الربيع احترقت غلائله الوردية فى لظى تموز . فهو على تجرد أرضه من الأنوار والأزهار ، وتحجّب سمائه أحيانا بالغيم وأحيانا بالغبار ، جميل البسمات عليل النسمات رقاق الأديم فها نحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس لا تزال فى ثغر السماء ابتسامة حلوة . تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة ، وتطالع الجو المقرور فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت فى أوراق النارنج وأطراف التوت فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن ، وهذه اليمامات السواجع مازلن يأوين إلى أعالى الشجر ، ويمرحن فى الضوء وينعمن بالدفء ويهتفن بالأهازيج كأنهن فى أمنة من حلول يناير وهو منهن على ليال قلائل وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم ، ويطفح غرينه بالذهب ، ويقذف تياره بالغثاء والزبد ، بعد ما نخره القيظ فنشّ حتى انكشف ضميره ، وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبوط[1] والزورق فيه على القاع . فالبواخر تصعد صافرات فى سرعة ، والأطواف[2] تنحدر صامتات فى بطء ، والقفف[3] تعبر موقرات فى هوادة ، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتحاذى فى عباب النهر كأنها الخواطر

---

(١) الشبوط نوع من السمك يشبه البورى .

(٢) الأطواف كالأرماث أعواد من الخشب توضع فوق قرب منفوخة يحمل عليها فى الماء .

(٣) القفة : نوع مستدير الشكل من السفن العراقية الأثرية يرجع تاريخه إلى الكلدان .

الحائرة فى الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجوه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ، والبجعة[١] الملكية تطعن فى صدور الموج بمنقارها الطويل العريض وهى تسبح آمنة فى حمى البيت العتيق ، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إلىَّ حاملة أنين الأمواج وخفق المجاديف وغمغم (الكرخ) فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر ، وتناوُح الرياح بين الغصون ، وحشرجة الأوراق الذاوية على الأرض ، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقد الأحلام وتثير كوامن الآلام وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر

إيه يادجلة ، ياسجل الأمم وراوية العصور ! لشد ماغنيت فى خريرك ضحكات، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت فى ضميرك أسرار ! لقد رأيتك بالأمس ضارعاً قد لصق خدك بالأرض حتى همَّ بخوضك الخائض ، وهمدت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض ثم رأيتك اليوم وقد غالك الغيث فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين مدوِّىَ الدارات صخاب اللج تعرض هذا النعيم ملحاً على بنيك فيعرضون عنه إعراض البطر ، ويؤثرون على فيضك الميمون ودْق المطر ، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات فيجعلون مبلغ همك حمل الأرماث ونقل القفف ! فهل يعجبون إذا فار غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق ؟ !

---

(١) هذه البجعة كانت تعيش فى قصر الملك فيصل الأول رحمه الله ، وقد كان واقعاً على النهر شمالى هذه الحديقة وكانت تقضى أكثر نهارها على الماء

القرية أمس واليوم

(١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣)

كان أكتوبر في الزمن السعيد يقبل على القرية إقبال الربيع : يفتق لوز القطن في الحقول ، ويشقق ورد الصبا في الخدود ، ويفتح نوار المنى في القلوب ؛ ثم يمر بيده الذهبية على تعب الفلاح فيزول ، وعلى هم المدين فينفرج ، وعلى غمرة المكروب فتنجلي ؛ ويرسل الخصب مدراراً على المنازل الجديبة فيرتاش المقل ، وينعم البائس ، ويتزوج الأعزب !

كنتَ في أكتوبر شهر الغنى والزواج ترى مزارع القطن رفافة الوجوه بسامة الصبور ؛ تنساب بين خطوطها البيض أسراب الغيد يجنين الثمرة الغالية وهن يغنين الأغاني الجميلة ، ويحلمن الأحلام اللذيذة ، ويتخيلن هذا القطن الذي يجمعنه الآن بأناملهن ، ويضعنه في أحضانهن ، وقد أصبح الثوبَ الزاهي الذي اشتهينه ، والقرط الذهبي الذي ابتغينه ، والزوج الحبيب الذي تمنيته . فإذا جئت القرية وجدتها زخارة بالحياة ، موارة بالحركة ؛ تمرح بحماسة الشباب ، وتموج بأطياف الحب ، وتهزج بأناشيد الأعراس ، وتتلقى جزاءها الأوفى على جهادها الصابر طول العام من فلاحة الأرض وخدمة المالك وإعانة الحكومة .

فالطرق الآتية إليها من الغيط تسيل بالعذارى الأوانس يصفقن بالأكف المخضوبة ، ويحدون بالأصوات الندية ؛ (والخواجات[1]) يخرجون متعاقبين من بيت إلى بيت ، يساومون على (المحصول) بالأثمان المغرية ؛ والشباب المرحون يسمرون إلى موهن من الليل على الرباب والأرغول في بيوت الأفراح

---

(١) كان أغلب تجار القطن من الجالية اليونانية وهم الخواجات في عرف الفلاحين .

القريبة ، وأشعة الخريف الفاترة تبعث فى قلوب هؤلاء الخليين طلاقة العيش ، وجمال الوجود ، فلا يشغلون بالهم بالزروع التى تذبل ، ولا بالأوراق التى تسقط ، ولا بالطبيعة التى تموت !

* * *

ذلك حديث القرية المصرية بالأمس ، فهل أتاك حديثها اليوم ؟ لم يعد وا أسفاه للقطن تلك القوى السحرية التى كانت ترد البؤس نعيما ، وتجعل النار جنة ! ولم تعد الطرق السالكة إليه شادية بالغناء ، ولا الأنامل التى تجنيه مخضوبة بالحناء ، ولا الدور التى تحويه ألاقة بالذهب فقد القطن ولواحقه من سائر الغلات معنى الرخاء ، فأصبح علاجها عناء خالصاً لا روح فيه ، وسعياً باطلا لا رجع منه . وكان الفلاح قد أقام بيته وأدار حياته على هذا الحاصل فكان يأكل حبوب الأرض ، ثم يرصده وحده لقضاء الدين ، وأداء الضريبة ، ووفاء القسط ، وسداد الموز ، ونفقة السنة . فلما بخست قيمته الظروف القاسية ، تزعزع البيت ، واضطربت الحياة ، وانتثرت الحال ، واستحكمت الأزمة ، فألح الدائن فى الطلب ، وأعنف الجابى فى التحصيل ، وأسرف البنك فى الحجز ، حتى انتقص لهم الفلاح من قوته ، واقتطع لهم من ثوبه ، ونزل لهم عن جهده ، ولم يغن كل ذلك شيئا عن بيع ملكه[1] .

تبدلت القرية غير القرية ، فلا ليلى تطمع فى زينة ، ولا أخوها يطمح إلى زواج ، ولا أبوها يفكر فى حج . وأصبح الطريق الذاهب إلى المدينة يجىء بالمرابى والجابى والمحضر ، بعد أن كان يجىء بالشاعر والزامر والمغنى وغاضت بشاشة العيش فى وجوه الشباب فعادت القرية جديبة كالقفر ، كئيبة كالقبر ، لا يعقد فيها اجتماع لأنس ، ولا يقام بها احتفال لعرس وما أبعد هاتين

---

(١) كانت أثمان القطن قد انخفضت انخفاضاً شديداً فى هذا العام الذى كتبت فيه هذه الكلمة .

الكلمتين اليوم عن قوم ندر عندهم الكبريب (الأصفر[١]) حتى اتخذوا الزناد، وغلا عليهم الدخان حتى اشترك ثلاثة فى سيكارة !

* * *

لا تزال القرية كما كانت فى القرون الخوالى أكواخاً متلاصقة غرقى فى المناقع والدِّمَن[٢]، لا تبصر الشمس، ولا تنشق الهواء، ولا تعرف النظافة. تكومت فى قاعها أرواث البهائم وزرق الدجاج؛ وتراكم على سطحها حطب الوقود وعلف الماشية؛ وتقاسم الإنسان والحيوان المضاجع فى هذه الحظائر المشتركة ثم راض الفلاح نفسه مرغماً على الطعام الوخيم والشراب الكدر والملبس الرث والقناعة المزرية حتى مات فى حسه إدراك الجمال، وتفه فى ذوقه طعم الوجود.

ذلك والعواصم المصرية تعيش فى القرن العشرين، تأخذ بمدنيته، وتقبس من نوره، وتنعم برفاهه، كأن الصلة التى بين القرية والمدينة هى الصلة التى كانت بين العبد والسيد، يملك ولكن ملكه لمولاه، وينتج ولكن إنتاجه لسواه.

تغلغلت المدنية فى الأمم الأوربية حتى انتظمت[٣] قمم الجبال وبطون الأودية وأطراف السهوب وسوت بين بنيها فى متع العيش وحقوق الإنسان؛ ثم تشوفت إلى الآفاق النائمة فى الشرق تريد أن تهديها طريق الحضارة، ونحن لا نزال قاصرين عن إنقاذ قرانا من الجهل والمرض والفقر، وهى مصادر القوة وموارد الإنتاج تمول الموظفين بالضرائب، وتغذى الجيش بالجنود، وتمد الحواضر بالأرزاق، وتعين الأحزاب بالمال، وتقيم (الحفلات[٤]) بالتبرع.

(١) إشارة إلى ارتفاع أثمان الكبريت والدخان يومئذ.
(٢) المناقع جمع منقع وهو المستنقع، والدمن جمع دمنة وهى المزبلة.
(٣) انتظمت: شملت.
(٤) كان الفلاحون يجبرون على إقامة الحفلات لرجال الحكم باسم التكريم.

إن الفلاح المسكين الساذج يسمع بالوزارات تسقط وتقوم ، وبالأحزاب تختصم وتحتكم ، وبالمجالس تنتثر وتنتظم ، وبالدواوين تفتح وتغلق ، وبالأموال تجبى وتنفق ، فيسائل نفسه سؤال الجاهل : إلى من هذه الأعمال والأموال إذا لم يكن لى من ثمارها نصيب ؟

لقد اشترينا بأقوات الريف أبهة العاصمة ، وبنينا بأنقاض القرية قصور المدينة ، وغسلنا بعرق الفلاح أقدام المترفين ، فكنا كمن حفر الجداول ، وخطط الحقول ، ونثر البذور ، وشيد الأهراء[1] ، ثم طمّ فى سبيل ذلك فوهة الينبوع .

---

(١) الأهراء جمع هرى وهو مخزن القمح .

نهضة الشباب

نهضة الشباب اليوم إحدى الظواهر المميزة لهـذا الجيل وهى أجلى ما تـكون فى الأمم المظلومة أو المهددة بالظلم ، كأنما أخفق فى سياستها (رأى) الشيوخ فصمد إلى قيادتها (عزم) الشباب . والواقع أن هذه النخوة القدسية التى تعصف برءوس الفتيان فى إيطاليا وألمانيا وسورية ومصر ، إنما هى القارعة التى تصمّ ، والظاهرة التى تخيف ، لأن الشباب إذا كان لهم الصف الأول فى الحرب فإن لهم الصف الأخير فى السلم . فإذا ألجأتهم تقلب الصروف إلى تقدم الصفوف ، دل ذلك على سياسة عاجزة أو سلم مريبة أو خطر محدق . وعجز السياسة اتهام لحنكة السن ، ورياء السلم إيذان بصراحة الحرب ، وتفارس الأهواء إعلان بنزول الفاشية .

فالفاشية ، والنازية ، وعصبة العمل القومى ، وعيد الوطن الاقتصادى ، وغيرها من حركات الشباب وثبات دفاعية بعثتها الإنسانية المهدّدة بالتفكك والفوضى والهوان والاستعباد والجشع . ولئن كان لـكل دولة من هذه الدول علة أو أكثر من هذه العلل ، فإن مصر البائسة تـكابد هذه النكبات جميعاً . فأخلاقها تفككها الحزبية الأثِرة ، وآراؤها تشتتها المطامع الخسيسة ، وكرامتها تهينها (الامتيازات) الباغية ، وقوميتها توهنها الأجنبية الموغلة ، وحريتها تقيدها القوة المحتلة ، وأرزاقها تسلبها (الضيافة[1]) الثقيلة ، وأبناؤها (الـكرماء) القانعون الخانعون قد ألفوا مضاجع الهون ، فلا تؤذيهم الغضاضة ، ولا تؤلمهم الخصاصة ، ولا يبغون حِولا عن هذه الحال .

---

(١) إشارة إلى القولة المعروفة (أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا)

ولكن الشباب — وإن أعدم هذا الحاضر الذليل — قد أعانتهم خصائص الفتوة وغرائز الفطرة على أن يدركوا ما نحن فيه من ضراعة الجانب ووضاعة الشأن وضيق المضطرب ، فهبوا يعزون النفوس الذليلة ، ويمنعون الحوزة المباحة ، ويستردون الثروة المضاعة ، ويمهدون لهذا البلد العانى طريق الاستقلال الخالص السعيد . . .

ومَن أحقّ بحماية الوطن وإعزازه من الشباب ؟

إنهم يعيشون للغد وآباؤهم يعيشون لليوم . فهم يحرصون على المستقبل ويجعلون الحاضر رأس مال ، وأولئك يحرصون على الحاضر ويعدون المستقبل تركة . وشتان بين من يعمل لنفسه عن حاجة ، وبين من يعمل لغيره عن عاطفة .

* * *

لقد كان شبابنا وما زالوا أغرودة الأمل الباسم فى فم وادينا الجميل ، وسرّ النشاط الدافق فى زوح نهضتنا المرجوة . حملوا وما زالوا لواء الغضبة المقدسة[1] فى وجه الدخيل العادى ، وغسلوا وما زالوا يغسلون أدران الماضى بالعرق الطهور والدم الغالى . ثم رأوا أن مصر المنكودة إنما يقف فى طريق حياتها الطبيعية احتلالان لا احتلال واحد : احتلال سياسى يحتل الثكنات ويخادع الحكومة ، ويغل الحرية ، ويهين الحق ، ويؤذى الكرامة ، واحتلال اقتصادى يحتل المدائن ، ويغزو القرى ، ويأكل الأرض ، ويشرب النيل ، ويحتكر التجارة ، ويجلب الخمور ، ويهرب المخدرات ، ويكتسب بالمنكرات ، ويفتك بالجيوب ، ويلغ فى الأعراض ويعبث بالدين ، ويحلّ على الجملة فى سبيل المغنم ما حرمته

(١) ثورة سنة ١٩١٩

الشرائع والضمائر والعرف ، ثم يتبجح بعد ذلك كله بأنه القيم على المدنية والحرية والعدالة ، يبذرها فى طريقه ، وينشرها فى مجلسه ، ويمثلها فى نفسه . فإذا قلت فى رقة المغازل لهذا الضيف المدلل : إن ما تفعله يناقض ما تقوله ، تجهمت (امتيازات) الدول ، وتزغمت[1] (تحفظات[2]) الإنجليز .

رأى شبابنا أن جهاد هذين الاحتلالين أمر لا يتحقق خلاصنا بدونه ، وأن قصر الجهود على أحد الميدانين يمكن المحتلين من حشد كل القوى فى ذلك الميدان ، فأرهفوا النشاط وأرصدوا الأهبة ولاقوا الواغل فى كل طريق .

ليس بسبيلنا اليوم أن نعرض فيالق الشباب فى مختلف الميادين ، فقد أشرنا إلى ذلك فى كلمة سابقة ، إنما نريد أن نسجل فى ثبت المجاهدين فيلقاً جديداً جاء يؤكد مرة أخرى أن هذه الأمة الكريمة قد قطعت عزمها على أن تعيش فى أرضها حرة وفى ملكها سيدة : ذلك الفيلق هو جماعة (عيد الوطن الاقتصادى) وهم فريق من الطلاب العاملين المخلصين البررة ، حمّلوا نفوسهم الرقيقة فوق تكاليف الدرس أعباء الدعاية للتجارة المصرية والمنتجات الوطنية ، فهمُ يعرضون عن مطالب الصِّبا ، وَيصدفون عن مباهج العيش ، ويعقلون جهودهم وميولهم فى مكاتب العَمل من نادى اتحاد الجامعة : يعلنون بالوسائل المختلفة عن المشروع الذى يعُدونه ، ويدعون إخوانهم إلى التطوع فى الجيش الذى يحشدونه ، ويتصلون بالتجار ليقنعوهم بالاشتراك فى الدليل الذى يصدرونه ، ويجمعون الأهَب للمهرجان الفخم الذى يهيئونه ، ويزورون المصانع والمتاجر ليحققوا الوجه الذى يقصدونه ، ويعانون فى سبيل أولئك رهقاً شديداً فى النفس والمال والكرامة .

---

(١) تزغم الرجل : تكلم فى غضب . وأصله من تزغم الجمل وهو أن يردد رغاءه فى لهازمه .

(٢) من تحفظات الإنجليز التى ألحقوها بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ حماية الأقليات الأجنبية .

أجل ، أقول والكرامة ، لأن كثيراً من تجارنا لا يزالون يتعاطون التجارة على منهج دارس ونظام لبك[1] ، فهم يتهمون الناصح ، ويستغشون المشير ، وينكرون التطور ، ويجهلون الإعلان ، ويعتمدون فى جلب الحرفاء ورواج السلع على التمائم والأدعية .

* * *

سيكون عيد الوطن الاقتصادى يوم دعاية وإعلان وعرض ، وسيقدم للمارين الأدلة التى تصك الأسماع وتطرف العيون على أن مصر الناهضة تسير فى سبيل مأمونة إلى غاية مضمونة .

فساهمة الشباب فيه بالتطوع ، وانضواء التجار إليه بالاشتراك ، وعطف الجمهور عليه بالتأييد ، ضمان النصر المبين فى إحدى المعارك الفاصلة .

إن القبعات فى الطرقات أكثر وأخطرمنها فى الثكنات والبوم الذى لا ترى فيه على الرءوس غير الطربوش ، ولا تقرأ على جباه الحوانيت إلا العربية ، ولا تسمع فى مختلف المعامل إلا اللهجة المصرية ، هو اليوم الذى تقول فيه وأنت صادق : لقد صفا النيل وملك الأصيل واستقلت مصر .

(١) اللبك : المختلط .

حجاج ودوس

(٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣)

حلَّقا في السماء النائية البعيدة والأمل الطلق يبسم لهما خلال السحاب ، والمستقبل الوضاء يشرق عليهما بين الضباب ، والاستقبال المنتظر ينثر الأحلام على جناحي الطائرة . فالنسر الحديدي يزفُّ في الهواء الندِي زفيف الكوكب ، والطيار الشاب وصاحبه يسبقانه بالخيال العجيب إلى أرض الوطن ، فيريان البشر الفخور يفيض على جنبات الوادي ، والمجدَ الأثيل ينبعث لهفان من غيابات الماضي ، والشعب النبيل يتقاطر مزهواً إلى المطار الحاشد ، والأعلام الخضر تخفق بالتحيات خفوق القلوب بالإكبار والحب ، والطوائر العشر يهبطن على الثرى الحبيب هبوط المخيلة والعُجب ، واللقاء الحماسي الهاتف يغمر السرب الأول بالترحاب والإعجاب والشكر ، وأكاليل القُبل والغار تتوج الجباه المجلية في ميدان البطولة والنصر ...

كل أولئك كان يتمثله (فؤاد) ويتخيله (شهدي) حين غفا الحظ تلك الغفوة المشئومة فإذا بالقدر الراصد يثب من بين أطباق الضباب فيصرع الأمل الناهض ، ثم يجعل النسر الطائر حطام حريق ، والمستقبل الزاهر ساعة هول وضيق ، والاستقبال الباهر مناحة أمة ، وأكاليل الغار أكاليل نعش !

* * *

اللهم لا رادَّ لقضائك ولا معقب لحكمك . جعلت الشهادة روح الجهاد ، والتضحية طريق المجد ، والفداء عبادة للمثل الأعلى . ومصر ذات التاريخ الأزلي

(*) فؤاد حجاج وشهدي دوس طياران مصريان احترقا على أرض فرنسا وهما عائدان في السرب المصري من انجلترا إلى أرض الوطن .

والتراث الخالد قد كتبت هذا التاريخ بدماء شهدائها ، وأثلت هذا التراث بجهاد أبنائها ، وعرفت السماء قبل أن يعرف غيرها الأرض ، فلا يشتد جزعها لهذا الحكم ، ولا يرفضُّ صبرها لهذا البلاء . وما حجاج ودوس إلا شهيدان كتبت لهما السعادة أن يكونا فى أول سجل من نوع جديد .

إن شهداءنا الأبرار الذين قضوا فى سبيل الوطن والحرية والعلم والطيران هم القوة الملهمة للشباب العاملين ، والحجة المفحمة على النشء الخاملين ، والدلالة البينة على أن مصر لا تزال تعرف كيف تموت لتحيا ، وكيف تشقى لتسعد . وإن الذين شهدوا أبناءنا يوم جنازة الشهيدين يتسعرون بالحماسة ، ويتفجرون بالوطنية ، ويهتفون بالتضحية ، ليوقنون أن هذه النفوس الحرة التى تظاهرت على كبْتها وإذلالها شتى العوامل تأبى أن تتكشف للخطوب إلا عن جوهر خالص وفطرة نقية

إن الوادىَ يوم ضم إلى أحشائه بقايا ولديه الصريعين قد قوى فى صدره نبض الحياة ، ودب فى جسمه دبيب الفتوة ، لأن الوطن تميته الدموع وتحييه الدماء . فكلما كثرت القرابين على مذبحه ، وفاضت النفوس على ثراه ، ازداد قداسة واتقد حماسة واشتد قوة . وتقريب الفداء المختار نكبة لأسرة ، ولكنه حياة لأمة ومجد لوطن .

* * *

التضحية بالنفس أو بالمال هى الوطنية الصادقة والزعامة الحق ، لأنها أثر الإيمان الصحيح ودليل الجهاد المخلص . ومتى بلغت النفوس حد الإيثار أعْيَتْ على الظلم وَنَبَت على المذلة ، فلا تجد حاكماً يجور ، ولا عالماً يداجى ، ولا سائساً يخاتل ، ولا قائداً يهن ، ولا غنياً يشح ، ولا وطناً يشقى .

فهل لسادتنا وكبرائنا أن يكفكفوا شرَّة الحرص فى نفوسهم بالتضحية ؟

ومعاذ الله أن أقصد التضحية بالدم ، فليست من طبع الـكهولة ؛ إنما أقصد التضحية بالتهالك على الرياسة ، والتهافت على المنصب ، والتكالب على المال ، ليصح الخلق المريض ، ويأتلف الأمر الشتيت ، ويعود الجائر إلى قصد السبيل .

* * *

برد الله بالرضوان ثراكما يا شهيدى الواجب ! لقد هززتما للمعالى هِمماً توشك أن تهمد ، وذكرتما بالمجد نفوساً تـكاد أن تنسى ، وأضفتما اسم مصر إلى أسماء الأمم التى روت بدمائها أصول الخير المشترك ! ولئن كان مصرعكما عثرة أليمة فى أول الطريق الجديد ، فإنه حرى أن يسدد خطانا فيه ، ويظهر قوانا عليه ، بحسن الاقتداء بالبطولة ، وصدق الاعتبار بالخطأ . وما مات من رجالك من أحياك ، ولا ذهب من مالك ما علمك .

طأطئوا الرءوس يا قوم إجلالا لمصرع البطولة !

إن شهيدينا قُتلا فى السماء ، وغُسلا بالنار لا بالماء ، ودُرجا فى علَم لا فى كفن ، وحملا على مدفع لا على نعش ، وكتبا فى سجل الخلد لا فى دفتر (الصحة) ؛ فهل هذه الموتة العظمى تفتُّ فى الأعضاد وتفل من غرب العزيمة ؟

إن الأمة التى لم تـكد تأخذ بأسباب الطيران حتى يبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتياتها ، ويسبق إلى الشهادة فى سبيله فتيان من فتيانها ، لا يستطيع أن يكسر من ذرعها حادث ، ولا أن يتـكاءدها فى طريقها إليه عقبة .

سلام الله على أشبالنا فى الجهاد ، وعلى أبطالنا فى الاستشهاد ، وعلى شهدائنا فى قدس الخلود !

فلسطين

(١١ ديسمبر سنة ١٩٣٣)

بين حديد (الانتداب[1]) الذى يأكل الأجسام ، وذهب الصهيونية الذى يأكل الأرض ، يعيش العربى فى فلسطين عيش المحكوم عليه بالقتل أو النفى ، إذا سلم له بدنه لا يسلم له وطنه . وما هذه الصرخة التى صرخها فصكت المسامع الصم ، وبلغت الضمائر الغُلف ، إلا العارض المنذر فى الحى بالضر يلوعه ، أو بالخطر يرُوعه ، أو بالظالم يحيق به !

و إن الصرخة للحياة تسلب ، أو للديار تغصب ، لهى الصرخة التى يدوى فيها صوت الحق ، ويمتزج بها أنين العدل ، ويضطرب فيها احتجاج الإنسانية على قوم اتخذوا المدنية حبالة لاستعمار الأوطان ، ووسيلة لاستعباد الأمم .

* * *

كانت البربرية فى العهود الخوالى تغزو سافرة الوجه ، وتنهب ظاهرة اليد ، وتقول صريحة اللسان ، وتعمل واضحة الغاية ؛ فجاءت مدنية اليوم فوضعت اليد الحمراء فى القفاز الأبيض ، وسترت الوجه الكاشر بالنقاب الخادع ، ووفقت بين الناب والفريسة بمعاهدات الصداقة ومؤتمرات السلم ، وصاغت معانى القوة والغصب فى ألفاظ القانون ومصطلحات العلم ، وأشفقت على شعور الإنسانية فسمت الاسترقاق تمدينا ، والاغتصاب انتدابا ، والحماية وصاية . وعمّقت أغوار

(١) انتداب انجترا على فلسطين وهو مصطلح جديد من مصطلحات الاستعمار ابتكرته (عصبة الأمم) .

القلوب السياسية فلا نعرف لماذا حرمت بيع إنسان لإنسان ، وحلت بيع شعب لشعب !

هذه أمة من أسبق الأمم قدماً فى المدنية ، وأعرق الشعوب نسباً فى الحرية ، تسير على دستور رفيع الدعائم أثيل المنبت ، ولم يمنعها عرفها الموروث ولا شرعها القائم أن تبيع فلسطين العربية جهراً لنفايات اليهود ، وليس العرب من مماليكها ولا فلسطين من أملاكها ، ثم تسخر لضمان هذا البيع الباطل قوة الحكومة وسلطان الدستور ، وتمثل تحت العلم البريطانى وعلى موطن المسيح أروع مآسى الدالة !

سلطوا على البلاد الجوع وأرسلوا من ورائه الذهب ! فكأنهم قالوا للعربى البائس : إما الوطن ولا حياة ، وإما الحياة ولا وطن ! فأما الذين قهرهم الفقر وغرهم المال فقد باعوا أنفسهم وأهليهم بيع الغبن للدخيل . وأما بقايا السيوف وحفدة الفاتحين فآثروا أن يدفنوا أعزة فى ثراها العزيز ، على أن يتركوها أذلة لليهود والإنجليز . فدافعوا الأزمة بالصبر ، والانتداب بالعزم ، والصهيونية بالمقاطعة ، وأروا هذه القوى الثلاث التى حالف بينها الباطل أن العربى الذى غزا العالم ولا يمسك رمقه إلا قبضة من سويق وشفافة من ماء ، لا يخذل من قلة ولا يفشل من جوع !

لك الله يافلسطين ! لشد ماتكابدين من عسف القوى وكيد الغنى وقسوة الظالم . . .

إن دموعك منذ الفاجعة لم ترقأ ، وإن جروحك منذ الواقعة لم تندمل ، وإن صوتك الجازع المكروب لا يزال يجلجل فى أعماق الشرق وآفاق العروبة مستغيثاً من الخطب اليهودى الذى ناء بألمانيا وأنقض ظهر الدول ! ولكن بنيك

الباسلين بفلسطين يتنافسون فى مجد الموت وشرف التضحية ! فهل تخشين أن يعيث فى أديمك المقدس عائث ، وأنت ترين شبابك الميامين يخوضون غمرة الهول وراء زعيمهم الشيخ [١] ، وصدره الواهن مشبوب بعزم آبائه ، وشعره الأبيض مخضوب بدم أبنائه ؟

* * *

الوطن العربى اليوم فى البلاء سواء ، لأنه فقد الروح الفتية التى كانت تعمره ، والحيوية القوية التى كانت تغمره ، وأصبح هيكلا متهدم الجرف لا يملك بعضه بعضاً .

على أن فزعته الاجماعية لمظلمة فلسطين تبعث الأمل فى عودة تلك الروح ورجعة هذه الحيوية : ولعلها فزعة المغيث المسعف لافزعة النادب الآسف ؛ فأن مصاب فلسطين لاينفع فيه البكاء ولا يدفع منه الحزن .

إن فاجعة (وادى الحوارث) صورة لمصير فلسطين إذااستنام أهلها للوعود ، وبيعت أرضها لليهود ، وقبض العرب أيديهم عن معونة إخوانهم على دفع الخطب . وإن دول الأرض جمعاء لتعجز عن إيفاء وعد (بلفور) مادامت الأرض فى يد العرب ، فإذا ما استنزلوا عنها بإغلاء الثمن وإغواء الذهب شتتهم القانون وحده تحت كل كوكب . فإن اليهودى إنما جاء فلسطين ليشترى وطناً يستعمره لا حقلا يستثمره . فكل شبر من الأرض يخرج من يد العربى يدخل إلى الأبد فى الوطن اليهودى ، ويومئذ لايرده إلى أهله احتجاج ولاتظاهر ، وما الاحتجاج والتظاهر إلا إعلان للحق لادفاع عنه . والدفاع المنتج عن فلسطين أقوى وسيلتان :

---

(١) كاظم باشا الحسينى .

١ — أن يأخذ الزعماء والعلماء موثقاً من الشعب ألا يبيع المضطر أرضه لغير العربي مهما تخدعه المطامع ويُدَلِّهُ الطامع بغرور .

٢ — أن يقوموا بدعاية منظمة قوية فى الأقطار العربية وعلى الأخص فى مصر إلى تأليف الشركات العقارية لاستعمار فلسطين .

والعرب الذين فطروا على نُصرة الأخ ونجدة الصريخ ومعونة الضعيف ، لا يعرضون عن يد فلسطين التى تمتد ولا عن صوتها الذى يهيب :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزّقِ



رمضان ...

(٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٣)

نعم رمضان ! ولا بد من رمضان بعد أحد عشر شهراً قضاها المرء فى جهاد العيش مستكلب النفس مستأسد الهوى متنمر الشهوة ، ليوقظ رواقد الخير فى قلبه ، ويرهف أحاسيس البر فى شعوره ، ويرجع روحه إلى منبعها الأزلى الأقدس فتبرأ من أوزار الحياة ، وتطهر من أوضار المادة ، وتتزود من قوى الجمال والحق والخير ما يمسكها العام كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس .

فرمضان رياضة النفس بالتجرد ، وثقافة الروح بالتأمل ، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين ، وتقريب لما بعد بين الرقة والمسكين . وتأليف لما نفر من الشمل الجميع ، وتغذية لما يبس من الرحم القريبة : ونفحة من نفحات السماء تغمر دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة !

ورمضان ثلاثون عيـــداً من أعياد القلب والروح ، تفيض أيامها بالسرور ، وتشرق لياليها بالنور ، وتفتر مجالسها بالأنس ، ففى المدن يغمر الصائمين فيض من الشعور الدينى اللطيف ، يجعلهم بين صحوة القلب ونشوة الجسد فى حال استغراق فى الله . يتأملون أكثر مما يعملون ، ويستمعون أكثر مما يتكلمون فإذا أمسى المساء وفرغوا من الطعام والصلاة انتشروا فى المدينة بالبهجة والزينة ، فالرجال يحضرون محافل القرآن فى البيوت ، أو مجالس السمر فى المنتديات ، والنساء يوزعن الوداد على منازل القريبات والصديقات ، والأطفال يُفرحون بأناشيدهم ومصابيحهم الميادين والطرقات ،

والدور الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات ، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات ، والمآذن الحالية بالمصابيح ، الشادية بالتسابيح ، ترسل فى أعماق الأبد نور الله وكلمته .

ورمضان مظهر قومى رائع ، يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضى ، فيصبغ لونها الأوربى الحائل بصبغة الشرق الجميلة ، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم الجليلة ، ويبرز شخصيتها الضائعة فى زحمة الأجانب بالمظاهر الرسمية للحكومة ، والتقاليد العرفية للشعب وما أروع القاهرة فى سكتتها عند الإفطار وجلبتها عند السحور وهزتها ساعة انطلاق المدفع !

ورمضان بعد ذلك كله رباط اجتماعى وثيق . يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف ، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف ، وبين أهل الملة بذلك الشعور السامى الذى يغمرهم فى جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة ممتزجة الروح ، متحدة العقيدة ، متفقة الفكرة ، متشابهة النظام ، متماثلة المعيشة .

أما إذا كان فى دنيا الإسلام من يستقبل رمضان بالوجه الكالح والصدر الضيق واللسان الطويل والغيظ الحانق فهم ثلاثة : الخمار الرومى ، والشيطان المغوى ، والمسلم المزيف .

فالرومى صاحب القهوة أو الحان يستقبل فى رمضان الكساد المحزن ، لأن القهوة فى النهار يكثر فيها الجلوس ويقل الطلب ، والحان فى الليل تهجره الكئوس ويفارقه الطرب ورمضان هو المسئول ، لأن السكير فى رمضان لا يشرب ، والقامر فى رمضان لا يلعب وصاحب القهوة مضطر بحكم الصنعة أن يقدم إلى الصائمين أدوات التسلية بالمجان حتى المغرب ،

وأن يقدم إلى المفطرين أكواب الماء المثلوج طول السهرة حتى السحَر .

والشيطان يستقبل فى رمضان حصناً من الخير لا يدخله الشر ولا تفتحه الرذيلة . فإذا حاول إبليس أن يدنو منه رده الذكر بالنهار ، وصده القرآن بالليل ، فيظل كما يعتقد القرويون مصفداً بالأغلال مقيداً بالسلاسل حتى ينطلق من إساره فى آخر يوم من أيام رمضان .

والمسلم المزيف يجد فى رمضان فطاماً لشهواته ، ولجاماً لغرائزه ، وقيداً لحريته ؛ فهو يرميه بما يرميه به الأوربيون من قلة الإنتاج ، وكثرة الإهلاك ، وشل الحركة ، وقتل الصحة ، فيشيح بوجهه عنه ، ويتخذ لنفسه رمضان آخر رقيق الدين خفيف الظل باريسى الشمائل ، يبيح النظرة الآثمة والكلمة العارية والأكلة الدسمة والكأس الدهاق والسيكار الغليظ . ولا يكلفه إلا أن يجعل عشاءه من باب المجاملة عند الغروب وبعد طلقة المدفع . وإذا كان فى بيوت المحافظين قارىء يقرأ القرآن ، وذاكر يذكر الله ، وساق يقدم المرطبات ، فليكن فى بيوت هذا الصنف من المسلمين مذياع يرجع أصوات الغناء وحاكٍ يردد أهازيج الرقص .

وهكذا تجدُّ الليالى ونحن نلعب . كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها الفضولى العابث فنتأثر بها ولا نؤثر فيها وكأنما همنا أن نعيش صعاليك على تقاليد الأمم دون أن تميزنا خصيصة من قومية ، ولا شعيرة من عقيدة . وكأنما الشعائر التلمودية القاسية عاقت اليهود عن المغامرة والنبوغ والتقدم !

أما رمضان القرية فلا يزال يحل من أهله محل النور من العين والبهجة من القلب . تجسمت فى خواطرِهم صورته حتى جعلوه رجلاً له حياته وعمره وأجله .. يذكرونه على شهرين من مقدمه فيحسبون حسابه ، ويهيئون أسبابه . حتى

إذا دب إليهم من غيوب الآباد دبيب الهرم سلسلت الشياطين ، وأرسلت الأملاك ، وهبطت الأرواح ، ودرّت أخلاف الخير ، واغدودقت أصول النعم ! هنالك يملك القرية شعور تقى هادىء خاشع ، فلا تعود تسمع لغواً فى حديث ، ولا عنفاً فى جدل ، ولا بغياً فى خصومة . فإذا أذهل أحدهم الغضب فرفع صوته ندم عجلان واستغفر ثم قال : اللهم إنى صائم ! ذلك لأن رمضان يُرجع الفلاح نقياً كقطرة المزن ، طاهراً كفطرة الوليد ، فلا يقتل ولا يسرق ولا يشهد الزور ولا يقول الهجْر ولا يأتى المنكر . وما أجمل أن ترى فاتك الأمس ناسك اليوم يمشى من البيت إلى المسجد فى ثوبه النظيف ، وئيد الخطو غضيض الطرف لا تترك السبحة يده ، ولا يفتر عن التسبيح لسانه . فإذا قابل القروية الجميلة وعلى رأسها الجرة اتحد جمالها فى نظره بجمال الخير فى نفسه ، فأمعن فى التسبيح واستغرق فى الله ، لأن إبليس فى رمضان سجين وباب الغواية مغلق !

يقضون صدر النهار فى تصريف أمور العيش ثم يجلسون على المصاطب فى أشعة الأصيل الفاترة يستمعون القصص أو الوعظ ، حتى إذا تضيفت الشمس [(١)] جلسوا فى الطريق أمام بيوتهم ، فمدوا الموائد على الأرض ودعوا إليها عابرى السبيل وطالبي الصدقة ، ثم لا يلبث الإخاء المحض أن يجعل الموائد المتعددة مائدة واحدة يصيب منها من يشاء ما يشاء !

أما لياليهم فاستماع للقرآن واستقبال للإخوان ومسامرة مشتركة ساذجة تجمع أفناناً شتى من شهى الحديث . وكلما انقضى نهار من رمضان تغضن سرار من وجوه القوم حتى إذا لم يبق إلا ربعه الأخير ، تمثلوه محتضراً يكابد غصص المــــوت فندبوه فى البيوت والمساجد ، ورثوه على السطوح

(١) تضيفت الشمس : حالت للمغيب .

والمآذن ، وبكوه يوم (الجمعة اليتيمة) أحر بكاء !

فاذا كان المغرب الأخير ولم يبق من رمضان إلا بقية روح ، خامرهم الخوف من انطلاق الشياطين السجينة . فيجلس الصبيان على أبواب الحجرات يكررون البسملة ويضربون حديداً بحديد ، ليحفظوا البيت من دخول شيطان مريد !

ذلك رمضان كما تدركه الفطر السليمة والقلوب المؤمنة . وهو وحده الباقي لفلاحنا من غفلات العيش ولحظات السعادة . ولكن وا أسفاه ! لقد أفسدت الأزمة رمضان القرية ، كما أفسدت المدنية رمضان المدينة .



لطفية النادى

(١٥ فبراير سنة ١٩٣٣)

منذ أسابيع استشهد فى ميدان الطيران حجاج ودوس ، فتقاطرت فى هذا المكان من الرسالة عبرات الأسى سوداً من هذا القلم ، وتصاعدت زفرات الأسف حراراً من هذه الصحيفة ، وقلنا إن الأمة التى لم تكد تأخذ بأسباب الطيران حتى يسبق إلى الشهادة فى سبيله فتيان من فتيانها ، ويبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتياتها ، لا يستطيع أن يكسر من ذرعها حادث ، ولا أن يتكاءدها فى طريقها إليه عقبة .

كنا نقول ذلك والقدر الذى فتح لهذين الفتيين فى السماء باب الخلود ، كان يشق لهذه الفتاة فى الأرض طريق المجد ، فما كاد يعثر بنا الحظ فى الجو المُضب[1] الغريب حتى نهض عجلان فى جونا الضحيان العجيب . وكان يوم نهوضه الأغر يحلق فى سماء مصر الجديدة ثمانية وعشرون نسراً من نسور أوربا القشاعم ، يستعدون للسباق فى سمائنا المشرقة الطليقة ، ويستنون للرهان استنان الجياد العتيقة ، ويظنون أن مصر التى فكرت فى الطيران آخر الأمم لا يمكن أن تكون إلا مطاراً لكل طائر ، ومائدة لكل زائر . أما أن تكون قِرناً يغالب ، وموتوراً يطالب ، فذلك ما لم يقع فى وهم ولم يدُر فى خَلد ، ولكن مجدنا الذى تحدى القرون وغبّر فى وجه الفلك ، لا يزال جياش الغضب على غدرة الجو بشهيديه فى فرنسا ، فهو يُدمث لنسوره مثوى الضيافة ، ويعقد غيب ضميره على الثأر ، ولا يثأر إلا بطريقة تليق بماضيه وتزكو بأصله ، نفث فى روع

---

(١) الجو المضب : ذو الضباب وضده الضحيان .

حمامة من حمائم الوادى أن تسابق هذه النسور فى حلبة الهواء إلى الأمد ، فبسطت الحمامة المصرية فى الجو جناحها الهش وريشهـا الناعم ؛ ثم نظرت نظرة التحدى إلى النسـور الحومة ، فتوقدت صدور الـكواسر غضبا من هذه الجرأة ، وشق على ملوك الهواء وجبابرة السماء أن يشعروا بهذه الحمامة وقالوا متعضين : ريشة تواثب الريح ، وناموسة تعاجز الثور ، ونملة تناجز القدر ؛ وقال « ضيوفنا » الأعزة أصحاب النشرة البذيئة[1] ، والفخر المتعصب يثنى أعناقهم ، والزهو الساخر يلوى أشداقهم :

« يالَغرور أبناء العرب » متى دخلت « الحمير » مضامير السباق ؟ ومتى طاولت وحوش « البهائم » سوابح الطير ! . ألم تـكفهم فضيحة « الجنديين القذرين » : حجاج ودوس ؟

وكانت عيون مصر حينئذ تشخص إلى السماء مغرورقة بالأمل ، ومحركات الطوائر الدولية تهزم فى الجو الصافى هزيم الرعود ، والأجنحة المعدنية تضرب فى الهواء الساكن إلى الإسكندرية ، و (لطفية النادى) تتقدم بطائرتها الصغيرة السرب المتعاقب المثار إلى قصبات السبق ! ثم غابت الأصوات فى مطاوى الفضاء ، واستولى على المطار اللجب سكون وصمت حتى إذا أزف موعد الرجوع سرّحت العيون فى الجو ، وسبحت النفوس فى الخيال ، وتجاذبت أمم أوربا حبل الأمل فى الظفر ! هل هى فرنسا ؟ هل هى انجلترا ؟ هل هى ألمانيا ؟ ولم يقل أحد لا منا ولا منهم : هل هى مصر ؟ ولـكن القدر

---

(١) هى نشرة نشرها سفهاء الأجانب على الدواوين والصحف ، قذفوا المصريين فيها بالـكلمات التى بين الأقواس .

على غير علم من هؤلاء جميعاً قالها ! وكان الجواب الحاسم عند لطفية النادى !

من كان يخطر بباله منا — ولا أقول منهم — أن الآنسة لطفية بنت الخدر العربى ، وذات الخفر المصرى ، تبارى أساطين الطيران ذوى الماضى البعيد والمرانة الطويلة والخبرة الواسعة وهى لم تقض فى علاج هذا الفن غير ستة أشهر ؟ فكيف يقع فى الظن أن تسبق سابقهم وتهبط الأرض قبله بدقيقة كاملة !

هنالك طفر المصريون من الفرح ، وماد الأجانب من الذهول ، وأقبل المحكمون على الطيارة المجلية [1] يعصرون يدها من الإعجاب والدهش ، ويقولون والعرق البارد يتألق فوق الجباه الزهر كما يتألق رشح الرطوبة فوق الرخام الأبيض يا آنسة ، قبلنا سبقك موضوعاً ورفضناه شكلا ، لان هناك على ساحل البحر (خيمة) أخرى لم تدورى حولها والخطأ خطأ المنظمين لأنهم لم يضعوها فى مكانها ! ثم منحوا المصلى الفرنسى جائزة المال ومنحوا السابقة المصرية جائزة الشرف ! وهل تبغى مصر غير هذا ؟

ليقل لنا أصحاب (النشرة البذيئة) ما رأيهم فى هذا الشعب ؟ ألا يرون أنهم جحدوا فضله كما غمطوا حقه ؟ ألا يجدر بربائب المدنية والعلم أن يفهموا أن عجز القيادة وتردد السياسة وطغيان الدخيل إنما تخمد الشعور إلى حين ، وتضعف الأخلاق إلى حد ، وأن الأمم الحرة بطبيعتها لاتلبث أن تنفى الزغل عن حقيقتها فتظهر مجلوة الصفحة نقية الأديم ؟ أفلا ينظرون إلى المصرى

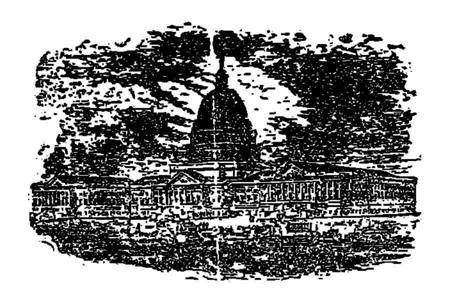
---

(١) المجلى : السابق من خيل السباق والمصلى الذى يليه

فى الميادين الحرة كيف سبقت قدمه وعلت يده ؟ ألسنا فى الرياضة والسباحة والغناء والأدب أبطالا عالميين أو شبه عالميين ؟

إن أسوأ الآراء الأوربية فى مصر ربما كان عن المرأة . فانتصار البطلة (لطفية) فى هذا الميدان الخطير يصحح الخطأ فى العقول المنصفة ، ويقر الحق فى النفوس الكريمة .

افتحوا لنا ياقوم طريق الحياة وافسحوا لنشئنا مجال العمل ، وخلوا بين نفوسنا وبين طريق الحرية ، ثم انظروا بعد ذلك ماذا يفعل الفتى ، كما رأيتم بعيونكم ماذا فعلت الفتاة !



فى الاقصر

– ١ –

كان لا بد للاغب أن يستجم وللصائم أن يعيِّد وللمجادل فى مجد الفراعين أن يزور الأقصر (١) .

وكان (قطار الآثار) (٢) قد جرأ الجيوب الهزيلة على أن تبارى الجيوب الأمريكية فى (وادى الملوك !) وقطار الآثار كقطار البحر فكرة سديدة تنفذها إدارة رشيدة . . .

ولكن حرف (لكن) لا يزال وا أسفاه أكثر أخوات (إن) استعمالا وأشدها بحياتنا اتصالا ! فأنا مضطر إلى أن أقول : ولكن هذا القطار لا يصلح إلا لأقوياء البنية أشداء العصب ممن يستريحون على الوقوف ، وينامون على الرفوف (٣) ويغمضون على ضيق المكان وكظة الديوان وحرج الأسرة أما أخو الجسد المهدود والعصب المجهود فلا مناص من أن يقضى ليله كما قضيت مقسم النفس بين القلق والأرق ، لا يجد نفسه ولا يملك قلبه !

سار بنا القطار المثقل فى منتصف الساعة التاسعة من مساء يوم الإثنين أول أمس العيد ، وكان المفروض على راكبه أن يبيت قائماً فى الممشى أو نائماً على (الرف) ، أما الجلوس إذا أراد فلا سبيل إليه إذ لا محل له ! وكان من الميسور تلطيف هذا المقدور بشىء من لهو الحديث لو جمعنا الحظ العنيد برفقة

---

(١) إشارة إلى مقالى السابق (فرعونيون وعرب) (٢) هو قطار خاص تسيره فى الشتاء إدارة السكة الحديد بين القاهرة والأقصر بأجرة مخفضة لتسهل للناس رؤية الآثار كما تسير فى الصيف كذلك قطار البحر إلى الأسكندرية .

(٣) المراد بالرفوف أسرة ضيقة مشدودة إلى حائط العربة بعضها فوق بعض :

من أهل الأنس ؛ ولكننى كنت أنا وصديقى بين أربعة لا يصل أحدهم بالآخر سبب من جنس أولغة ، فحملونا مكرهين إلى الفراش النابى والوساد القلق . . .
ولا أريد أن أثقل عليك وعلى إدارة القطار بذكر ما أعقب ذلك من أزمة الصدر وضمة القبر وإزعاج الصحب وإغاثة الإسعاف وقضاء الليل الطويل قابعا أمام الباب لا يخدع فى عينى نعاس ، ولا ينفس عن صدرى فرج · وكان علاج ذلك كله إعداد عربة للجلوس يتنفس فيها الساهد المكروب باللهو والسمر

* * *

القطار الجاهد يخوض فى أحشاء الليل المظلم ، والهواء البارد يسفى غبار الطريق الخانق ، والركب المترجج يغط فى النوم غطيط الخلى ، والكرى الجائر قد غلبنى على أخوى فأوى بهما إلى المضجع ! وأنا وحدى فى هذا القفص الطائر أرعى نجوم الكهرباء فى سمائه المحصورة الرفيعة ، وأقول فى آخر ليلة من ليالى رمضان المحتضر : متى يا إله الناس يصبح هذا الليل ؟ !

وأخيراً أخذ نور المصابيح الزاهر يشحب قليلا قليلا ، وستر الظلام الصفيق يرق على جوانب القطار شيئاً فشيئاً ، وأنفاس الفجر الندية تخلص إلى من خلال النوافذ . وكنا حينئذ نمر على الجسر الحديدى « بنجع حمادى » ، ففتحت الشباك القريب وأرسلت طرفى الكليل فى شمال الوادى ، فرأيت رءوس الشجر الرفيفة [1] وذوائب النخل الرفيعة طافية فى سيل من الضوء المشوب المبهم ، وتبينت القرى الجاثمة على الضفاف الخضر تستيقظ مطلولة الجنبات مع الطبيعة ، والصبح الوليد يهتك عن مهده الوردى كلة [2] السحر الداكنة ، وأبصرت من وراء (قنا) خطا من ذائب المرجان قد ارتسم على قمم الجبال

---

(١) الرفيف من الشجر ما يقطر بالندى

(٢) الكلة هى الناموسية التى تضرب على قوائم السرير لتقى النائم لذع البعوض وغيره ؟

الوبية ، ثم أخذ ينتشر رويداً على الظلال المتخلفة من بقايا الليل حتى غمر الوادى ، فاستبانت فى سهوله الخصيبة حقول القمح والفول والعدس يكللها الطل ويهفو فوقها رقيق الضباب .

* * *

أشرقت الشمس علينا كما كانت تشرق منذ آلاف السنين على سيتى ورمسيس ، فهى وحدها المخلوق الذى شهد ضخامة الماضى ويشهد الآن ضآلة الحاضر ! فليت شعرى ماذا تقول ذُكاء[1] فى هؤلاء الأقزام الذين يحجون اليوم (طيبة) مختالين على مركب ليس لهم فى صنعه قسط من حديد ولا خشب ؟ ماذا تقول ذكاء وقد رأت ملوكنا العماليق وهم فى طفولة البشرية ينقلون قطع الجبال من أدنى الشمال إلى أقصى الشلال على عجلات وآلات من خلق عقولهم وصنع أيديهم ، ثم ترانا معشر الأعقاب نلوك الفخر أمام الغربيين بعظمة الأقدمين ، ونتبجح أمام الأقدمين بعبقرية الغربيين ، فنحن كخِلْفة الدوحة العتيقة تنبت رخوة على جوانب الجذر الثابت ، ثم يقعد بها الوهن عن مطاولة الجذع ، فلا هى فى رسوخ الأصل وقوته ، ولا هى فى سموق الفرع وإشرافه .

* * *

لا يكاد الصعيد يختلف اليوم عما عهده الفراعين منذ أربعة آلاف سنة ! فالشمس المعبودة هى الشمس ، والنيل المقدس هو النيل ، والقمح الذى خزنه يوسف (ع) هو القمح ، وجوارح الطير التى تحوّم فوق ساحلى النهر هى بأنواعها وأشكالها وألوانها التى كانت تحلق فى أجواء « طيبة » ، لأن الحيوان والنبات

---

(١) الشمس .

قلما ينالها التغيير . أما الذى نال منه الحدثان وغير من حاله الزمان فهو هذا الإنسان المسكين ! فإنسان النيل لم يعد ذلك الذى قارع الدهر وصارع البلى وحاول الخلود وقدسَّ القوة وأخضع العراق والشام وفلسطين والسودان والحبشة ، وإنما أصبح من فعل القرون وإلحاح الجور شيئاً من المتاع تابعاً للأرض يُملَك ولا يَملِك ، وينتج ولا يُنهلك ؟

على أن القبس الإلهى العربى الذى بعث الضوء فى شبابه الكادى[1] والحرارة فى جسمه المنحل ، لا يزال قديراً على إحيائه جديراً برفعه .

وإذا كان البحر يتعاوره الجزْر والمد ، والشمس يتعاقبها الغروب والشروق ، والطبيعة يتناوبها الخريف والربيع ، فإن مصر الناهضة تشارف بثروتها المد ، وتطالع بقادتها الشروق ، وتستقبل بشبابها الربيع !

ضَحَت الشمس واستطاع النظر القصير أن يجمع الوادى فى نظرة ! وهيهات لابن (الدلتا) الفسيحةَ أن يفهم معنى الوادى إلا فى أعالى الصعيد ، فهنالك تتقارب السلسلتان بما وراءهما من موات وجدب ، وينساب بينهما النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب ، ويشعر المصرى المسافر الذى يرى هذا المنظر أول مرة فيجد واديه كله فى عينه وفى قلبه بنوع من الغبطة لم يحسه من قبل ، ويستغرق فى نشوة من الذكريات والأمانى لا يخرجه منها إلا وقوف القطار على محطة الأقصر .

— ٢ —

وقف القطار ضحى على محطة الأقصر . وأخذ الحجيج المدنى يخطو على

---

(١) من قولهم كدت الأرض : أبطأ نباتها وساء .

وصيفها ذابل الأجفان خائر الأبدان من تكسير السهاد أو تفتير الوسن .
وكان قوم يستقبلون زوار الآثار ، وقوم يستقبلون أعضاء المؤتمر الطبي ، فتدفق الركب المتجمع لدى الباب في وجهتين مختلفتين . وذهب بنا أولياء القطار إلى موائد الإفطار فأصاب منها من شاء على قدر شهوته ، ثم قسمونا قسمين : قسماً يزور (طيبة الأحياء) في الشرق ، وقسماً يزور (طيبة الأموات) في الغرب .
وهل بقي لعمري في طيبة اليوم أحياء أو أموات ؟ لقد ذهب الموت منذ بعيد بأحيائها إلى القبر ، وذهبت الحياة منذ قريب بأمواتها إلى المتحف ؛ فلم يبق منها على عدوتي الوادي غير أنقاض طفت على وجه القرون ، وأبعاض بينها وبين الفناء صراع لا يفتر !

الأقصر مدينة رقيقة الحال تقوم على أطلال طيبة كما تقوم أعشاش الطيور على شم الصخور تسير في شوارعها القروية وبين منازلها المتنافرة فلا يستبي طرفك منظر فاتن ، ولا يزدهي لبك مظهر غريب . فإذا استثنيت فندق (ونتربالاس) وما تألق من الفن في فنائه وأبهائه ، ومرفأ النهر وما ترقرق من الحسن في ظله ومائه ، وشارعَ السلطان حسين وما تنسق على حفافيه من نخله وكهربائه ، والجوَّ القارّ وما شاع من القوة في شمسه والحياة في هوائه ، وجدتَ بلداً كأحقر بلاد الناس يعيش حاضره على ماضيه ، وتذهب عينه على آثاره ، ولكن وَلِّ ظهرك حضارة الأحداث ، وتعال نسر وراء العم (ضاوى[1]) في طريق الكرنك وبين الأقصر والكرنك مدى من الزمان والمكان يتسع فيه الخيال ويسبح في أعماقه الخاطر ومن الذى يستطيع أن يجول في مسارح الجبارين دون أن يتمثل هذا الفصل الذى افتتح به الأزل رواية العالم ؟

---

(١) رجل من عوام الأقصر كان دليلنا في هذه الزيارة .

فهنا منذ بضعة آلاف سنة نبتت فى ظلال هذه الجبال إنسانية باكرة ترسل النظار الثقيل البطىء فى هدوء واستقامة وبعد ، ويصور لها عقلها الطفل ألوان التعاجيب والتهاويل من قوى الطبيعة الخفية ، فتنحت الجبال قبورا ، وتبتنى الصخور قصورا ، وتقيم لآلهتها الغلاظ من صم الجلاميد تماثيل ومحاريب يتضاءل أمامها الفن الحديث .

وهنا منذ أربعة آلاف سنة كان الفكر الإنسانى يقطع مرحلته الأولى بينما كان الرقاد الأزلى يغشى سائر الأرض ، ويطهر متثاقلا عن جفون يونان وأشور .

وهنا سجل الزمن الواعى على مُلس الغرانيت أولى صحائف الفكر ، فألهمت اليهود والإغريق ما ألهمت فى الدين والفن والجمال فى شتى ضروبه وصوره .

وهنا كانت لبنى الإنسان بداية حسنة لولا أن طغيان الفرد المتحكم وسلطان الدين المتعسف قد جعلا لهذه البداية نهاية من الجور والإرهاق محزنة فها نحن أولاء بين صفين من الكباش المسيخة الجاثية أمام معبد أمون . ومعبد أمون يتلو عليك وحده إن شئت نبأ القوم ! فهو أكداس هائلة من ضخام الصخر تنافس فى نقلها وركمها الجبابرة فى خمسة عشرة قرنا منذ سبق الأول ! منها أبواب وحُجَر ، ومنها محاريب وتماثيل ، ومنها مسلات وعُمُد . ومن أولئك كله ما هو قائم يتحدى بطوله السماء ، وما هو نائم يفدح بثقله الأرض .

أنظر إلى هذه الغابة الكثيفة المخيفة من الأعمدة ! أتظن الشمس منذ أوقدها الله أشرقت على مثلها فى الضخامة والبساطة ؟ ألا يذكرك هذا العمود الذى تتفتح فوق هامته زهرة اللوتس العجيبة على علو خمسة وعشرين مترا ، بصرح (تيتان) الخرافى وإخوته[1] .

---

(١) تزعم الأساطير أن تيتان وإخوته هم الطبقة الأولى من نسل الآلهة نسلوا من أبوين هما السماء والأرض ، ثم تمردوا على الآلهة فجعلوا الجبال طبقات بعضها فوق بعض ليعرجوا عليها إلى السماء فصعقهم زحل وذلك أشبه بصرح نمروذ .

من الذى قطع هذه الأطواد ، ووضع هذه الأوتاد ، وشاد هذه الأروقة ، ونحت من الصوان هذه الآلهة البكم ، وخلد للملوك على هذه الحجارة الصم ؟ هو شعب النيل الذليل البائس ! بناها وبنى سواها عَلَى قفار الخبز وألهوب السوط ونزع الروح . ولا تستطيع أن تصدق وأنت ترى هذه المعجزات أن مصر كانت فى مدى ثلاثين قرناً تعمل عملا آخر غير ذلك !

استعبدت فكرة الخلود عقول الفراعنة فاستعبدوا فى سبيلها جسوم الشعب وملكهم حب الآخرة فسخروا له حب الدنيا ، وفتنهم متاع السماء فأرصدوا له متاع الأرض ، وغالوا فى إعزاز النفس وإيثار الحياة وتقديس العظمة فأنكروا حرمة العامة ، وجحدوا قدرة الموت ، وجهلوا معنى الضعة ، وخلفوا لأجيال الأبد من أعقابهم من يطمح كالملوك ويطمع كالكهنة ويخضع كالسوقة . .

لقد كنا نتجمع حول دليلنا الهاذى فى أروقة هذا المعبد المحطم ، نطن فى أجوافه طنين البعوض بالحون المختلفة . نذكر أوائلنا الذين ارتجلوا للناس لفظ المجد ، وافتحموا على الدهر باب الخلد ، فنزهىَ ونصلف ؛ ونذكر أسلافنا الذين قامت على أشلائهم هياكل أمون ، وفاضت بدمائهم بحيرة أوزيريس[1] فنأسى ونأسف . ونذكر أمام ذلك الماضى الخالد حاجز الكرنيش[2] وحائط المحكمة المختلطة فنمضى ونضحك . .

— ٣ —

كان (ترجماننا) الأمى (ضاوى) يشرح للأساتذة الجامعيين والثانويين حديث تحتمس الثالث مع أخته العاشقة ، ووجوه التماثيل الواجمة غرقى فى

---

(١) هذه البحيرة لا تزال فى المعبد فوارة العين إلى اليوم .

(٢) الكرنيش شارع البحر فى الاسكندرية ، وبناء المحكمة المختلطة فى القاهرة ، أنفق عليهما مئات الألوف من الجنيهات ؛ ثم اعتراهما الانحلال والتصدع بعد قليل .

صمتها الناطق ، تتراكم على قسماتها أنظار الخليقة ، وتجثم على شفاهها أسرار القرون ، ورءوس الأعمدة القائمة ناتئة فى أشعة الشمس كالمزولة الهائلة ، ترسم بظلالها الوريفة تعاقب الساعات منذ آلاف السنين ! وكانت عيناى الحالمتان قد وقفتا على تمثال من تماثيل رمسيس الأكبر يخطو إلى الأمام خطى المصمم الواثق ، وبإحـــدى يديه مفتاح الحياة يجتاز به مـوت الساعـة إلى خلود الأبد .

والخلود حلم الفراعنة الدائم وهو همهم الملح . أخطره ببالهم قبل الناس ما متعوا به من فيض الحيوية وخفض العيش ، ونفوذ السلطان واكتمال اللذة فلو أنهم عاشوا على جدب من الإقليم وحرب مع الطبيعة وهوان على الدهر ، لاستشرفت نفوسهم للبلى ، واستهلكت عقولهم للعدم .

خلد الله الروح وحاول الفراعين تخليد الجسد . وما يدريك لعلهم كانوا يظفرون بهذا الخلود لوخلى الناس بينهم وبين الزمن . لقد قهروا الفساد والدهر ، وقهرهم اللص والفاتح ! فمنذ خمسة وعشرين قرناً ما برحت يد الإنسان تعبث بهذى الجسوم والجروم ! جرب القدر عليها حقد قمبيز ، وعبث الإسكندر والقيصر ، وورع تيودوسيوس وعمرو ، وزهو المأمون ونابليون ، وعلم مسبيرو وكارتر ! فقطع بعض الرقاب وقوض بعض الأنصاب ونبش بعض القبور ؛ ولـكن بسمة رمسيس لا تزال كما أراها تناجز الفناء وتعاجز القدر ! وأى سبيل بعد ذلك إلى بلاها ومسلاتها فى العواصم الأوربية ومخلفاتهم فى المتاحف الأثرية باقية ما بقيت الأرض ؟ !

صعد بنا الدليل باب المعبـــد فى سلم جانبى حديث يقوم عن شماله . ولو قلت لك البرج بدل الباب لقربت إليك وصفه ! فهـــو سطح عريض

من ضخام الجلاميد تكدس بعضها فوق بعض كما ترى فى الهرم ، أشرف من شرقيه على ما بقى من صخور السقف فوق الأساطين ، وما تراءى من النصبُ خلال الأواوين ، وما طعن فى السماء من أسنة المسلات . وأشرف من غربيه على طريق بين صفين متوازيين من الكباش الرابضة فى حجم البقر ، يسايره النظر والفكر إلى مرفأ كان ولا شك ينتهى عنده قبل أن يأخذ النهر من الساحل الغربى ألف متر ، ويدع الساحل الشرقى مثلها ألف متر .

فى هذا الطريق كانت تخرج الجنائز الملكية من المعبد إلى نهر الحياة فتعبره إلى مراقدها الصخرية الأبدية فى جوف الجبل وفى هذا الطريق كان يسير موكب أمون السنوى إلى النهر ، أمامه زمر المهرجين والمشعوذين يدورون على الأرجل ويمشون على الأيدى ، بين أخلاط من باعة الفاكهة وشواة الأوز والبط ثم يلى هؤلاء فِرَق الموسيقى تصدح بالأهازيج ، وطبقات الكهنوت تعج بالأناشيد ، وحاملو الأصنام والبنود يسيرون بها وئيداً فى خشوع ورهبة حتى إذا بلغوا المرفأ تقدموا بأمون فحملوه فى فلكه الذهبى ، وبالآلهة الأخر فوضعوا كل إله وكل إلهة فى زورق خاص . ثم يسير الفلك بالإله الأكبر متنزهاً على النهر ، تتهادى من ورائه زوارق الآلهة على الماء ، وتهلل من حوله جموع الناس على الشاطىء ؟

* * *

من العسير على النفس الشاعرة أن تعيش فى حاضرها بين هذه الأخيلة والصور ؟ فحيثما أرسلت طرفك أو نقلت خطاك وجدت حجراً يكلمك أو أثراً يلهمك ؟ التمثال الذى تراه أمامك ، أتدرى كم مرة طلعت عليه الشمس ، وكم نظرة نظرت إليه الناس ، وكم وقفة وقفها عليه أقوام من قبلك بعضها للتقديس وبعضها للعبرة ؟ .

إنك لتغرق فى هذا الماضى الحاضر فى فيض من التأمل العميق الهادىء يقطعك عن الدليل ويفردك من الجمع ، فلا تجد — متى عدت لحظة إلى نفسك — الدليل الذى كان يخطب ، ولا الحشد الذى كان يسمع ، ولا العربة التى كانت تنتظر . [1] ؟

خرجت فيمن تخلف فى المعبد من الأصـــدقاء الشعراء ، وأخذنا نسير الهوينى فى الطريق المرمل حتى أدركتنا فى بعضه عـــربة أقلتنا إلى الفندق .

وفى الأصيل المونق من هذا النهار المشرق خرجنا نشهد وداع الشمس الغاربة لأطلال معبد الأقصر .

ومعبد الاقصر كذلك أجمة من العمدان الباسقة المتشاجنة نتأت على سيف[2] النهر فى طول ثلثمائة متر بمشيئة آل أمينوفيس ورمسيس الاكبر ؟

وأول ما يملك عليك عقلك وقلبك فيه منظر يجمع تاريخ الوادى ويختصر أطوار العقيدة : ذلك منظر المسلة فى المعبد ، والبرج فى الـكنيسة ، والمأذنة فى المسجد ؟

تجاورت هذه الثلاثة فى المـكان منذ قرون تجاور الخصوم اللُّدّ ، لا يسفر بينها سلام ولا تقطع حروبها هدنة ؟

ومن الغريب المعجز أن تثبت هذه الأوثان لهجمات المسيحية والإسلام ، ثباتها العجيب لعاديات الليالى والأيام .

— ٤ —

لا تجد فى معبد الاقصر ما تجد فى معبد الـكرنك من ذلك الاستغراق

---

(١) تلك كانت حالى حين ذهب القوم وبقيت . (٢) سيف النهر : ساحله .

الذهبى الذى يمحو الوجود من ناظرك ، و يعفو الحاضر من خاطرك ، ويحييك مع امينوفيس ورمسيس فى دهر واحد ! فان هـذا المعبد يقع فى جبهة المدينة ونزهة الناس فلا تنفك وأنت فيه بين نظرة خادعة من مفاتن النهر ، وزفرة صادعة من بواخر (كوك) ، ولغطة صاخبة من لغط المـارة . ولن تستطيع وعيناك تضطربان بين الهيكل والـكنيسة و المسجد وقصر السلطان وفندق (ونتربالاس) أن تحصر ذهنك فى موضع ، ولا أن تقصر فكرك على موضوع . فـكل صورة من هذه الصور الموائل يمثل فـكرة ويسجل نهضة ويؤرخ حقبة أما معبد الـكرنك فقد ظل بنجوة من تيار الزمن الجارف ينعم بسكونه الشعرى فى اعتزاله ويتمتع فى جوه الفرعونى باستقلاله .

* * *

فتننا سحر الأصيل عن شعر المعبد ، فذهبنا فى طريق السلطان حسين نشهد أروع مجالى الجمال فى الطبيعة . ومن حدثك أن بلداً من بلاد الله غير مصر يتمتع فى يناير بدفء يستجيش العرق والبهر ، وضوء يغمر القلب والنظر ، وصحو يدوم النهار والليل ، فهو لا ريب لم ير الأقصر ! وأى منظر تألقت به قدرة الله وتأنقت فيه يد الطبيعة كمنظر الغروب فى طيبة ؟ فالشمس المصرية تغرب فى جلال وراء الجبل وأشعتها الفاترة قد تجمعت حولهـا من سهول الوادى فـلم يبق منها إلا غرر تلمع فى أجنحة الطير وسعف النخل ورءوس الهضاب ، وإلا شفقها الوهاج قد شب فى أطراف السلسلة اللوبية حريقا بارد اللهب إيذاناً بالمغيب ، والمشتون من سراة أوربا وأمريكا يطالعون فى شرفات الفندق أجمل ما خطته يد البارىء المصور فى صفحة الوجود ، وأنا وأصدقائى الثلاثة نسير الهوينى على الشاطىء الضاحك ، يشيع فى دمائنا مجد هذا المـاضى ، وفى أعصابنا

عظمة هذا الوادى ، وفى أخلاقنا صراحة هذا الجو ، وفى مشاعرنا جمال هذه الطبيعة : فنكاد من فرط الزهو نقول لمن نلقى من السائحين الغربيين نحن تابة هذا المجد ، وصنيعة هذه الشمس ، وصورة هذا الجمال ، فهلا تروننا أخلص الناس جوهراً وأصدقهم مظهراً وأزكاهم أرومة ؟

وكان حديثنا فى هذه الساعة الجليلة نغمة منسجمة فى هذا اللحن السماوى الذى تنشده الكائنات كل يوم عند الغروب ! وما ظنك بحديث نقى الحواشى يشققه أستاذ فى كلية الآداب ، وأستاذ فى كلية العلوم ، وأستاذ فى كلية الحقوق[1] وكاتب صغير من كتاب الرسالة ؟

* * *

وكان صباح يوم العيد موعد (المقابلة الملكية)[2] فعبرنا النهر فى رهط من أعضاء المؤتمر الطبى ، ووقفنا بالضفة الأخرى نتحسس الآثار الهوالك ، فلم نجد أمامنا غير الحقول الزمردية تكسو السهل ، والجبال الوردية تسد الأفق. وكانت هذه الضفة الخلاء فى دهرها الغابر حياً من أحياء طيبة يسكنه محنطو الجثث وصناع المومياء ، فما كان يومئذ يموت إنسان أو ينفق حيوان إلا أتوا به هذا الحى فيمضى فيه أهله (عملية) الخلود !

انطلقت بنا السيارات بين الزروع الخضر أرتالا يسفى بعضها الغبار فى وجوه بعض ، فمررنا بالقرية وقد خرج أهلها فى زينتهم يعيدون فوق المقبرة . وأكبر الظن أنهم بقايا ذلك الحى البائد ، فهم يسكنون الجحور كبنات آوى

---

(١) الأساتذة الثلاثة هم . أحمد أمين ، أحمد زكى ، وعبد الرازق السنهورى .

(٢) المراد بها زيارة قبر الملك المصرى الشاب توت عنخ آمون فى وادى الملوك .

وينبشون القبور كلصوص الموتى ، وينحتون التماثيل كصانعى الألهة ، ويخدعون بالتمائم كدهاة الكهنة[1]

وقفت بنا الحقول فجأة ، ثم أسلمتنا إلى قفر من الأرض بعضه مرمل وبعضه مُترِب ، فسرنا فيه بين أعلام من الحجارة المنضودة ، حتى دفعنا إلى شِعب فى الجبل تكثر على جانبيه النيران الموحشة والفجوات العميقة . فتحسبها بادىء ذى بدء من أثر الوحوش الحافرة ، ولكنك تدرك بعد هنيهة أنها من أثر الإنسان الذى نكبت به هذه الأرض منذ أربعة آلاف سنة فلم يرفع معوله عنها إلى اليوم ؟ شقها فدفن بها الملوك ، ثم شقها فسلب فيها الملوك ، ثم هو يشقها اليوم دائباً ليخرج منها الملوك ؟

أخذت طراءة النسيم تتخلف عنا رويداً رويداً حتى انقطعت . وهب بنا وحنا من فجاج الوادى الملكى جو ثقيل كجو مايو ، وأصبحت سلسلة الجبال فوقنا بعد أن كانت أمامنا ، ثم انعطف الطريق الصاعد بغتة فإذا السيارة أمام باب من الخشب ، و بواب من الناس ، وقائل يقول : هنا جبل الخلود وحرم الملوك ومثوى توت عنخ أمون ؟

الجبل من أعلاه إلى أسفله قطعة واحدة من الحجر الجيرى الصلد لا تجد فيه صدعاً ولا فرجة ؟ نقرت يد الإنسان القديم فى أصله فتحة مربعة دخل منها الدليل ودخلنا عَلَى أثره ، فإذا سُلَّم حادر يهبط بك قليلا أو كثيراً إلى بئر عميقـــــة تضلل اللصوص ثم يعود فيهبط إلى قاعة فسيحة تجمع أشتات المتاع ثم يعود فيهبط إلى حجرة تضم جثمان الملك ! وسقوف الحجر محلاة بصور من جماعات الكواكب ، وجدران الأنفاق مغشاة بسورَ من كتاب

---

(١) ينبشون القبور ليبحثوا عن الآثار الصغيرة ، وينحتون التماثيل ويوهمون الناس أنها قديمة .

الموتى : فالبرزخ الفاصل بين الحياة الفانية والحياة الباقية مصور كله فى وضوح ودقة ! فهنا الميزان ، وهناك الصراط ، وهنالك للطهر ، وفيما بين ذلك عقبات هائلة وحيات قاتلة لا يفلت منها إلا من حمل جواز الأمان وعرف كلمة السر ؟

وقفنا حيال فرعون ، وهو راقد فى أكفانه الذهبية رقدة الضراعة والهون ؟ يشمت به الفناء ، ويسخر منه البقاء ، ويصيح فى أذنيه القدرَ :

لقد علوت يا فرعون فى الأرض ، وغلوت فى الجبروت ، وسخرت الزمان لتخليدك ، والإنسان لتمجيدك ،ثم كانت عاقبتك يا فرعون هذه العاقبة المضحكة ؟ فصاحب أذنك خادم حقير ، وكبير أمنائك (ترجمان) أجير ، وشعبك العابث يحضر (التشريفة الكبرى) يوم العيد فى حلة غير رسمية ولا هيئة جدية ، وجلالتك الإلهية كلها لم تقو إلا على الدود ، ولم تحظ إلا ببسمة ساخرة من ثغر الخلود ؟

زمزم

(٥ مارس سنة ١٩٣٤)

كان المصرى إذا ذكر بالأمس زمزم ذكر البيت الذى تتهافت على ضوئه أمانيه وأحلامه ، والنبع الذى تسكن على برده لواعجه وآلامه . أما اليوم فيذكره فيجد فى نفسه بجانب شعوره الدينى اللطيف شعوراً آخر له كذلك لطفه وقداسته ؛ ذلك هو شعوره الوطنى بالمستقبل المشرق والكرامة العزيزة والحياة المستقلة ؟ لأن زمزم لم يعد فى ذهنه لفظاً مقصور الدلالة على البئر المقدسة ، وإنما أصبح يدل أيضاً على الحجر الأساسى لمجده البحرى ، والمظهر الحقيقى لوجوده الدولى ، والسفينة الأولى من أسطوله المــــدنى الأول !

والأسطول المصرى كلمة نسيتها مصر منذ أودت بأسطولهـا الدول الغوادر فى أمواه (نافارين) ؛ فشواطىء رمسيس وكليوبطرة ، وموانىء المعز وصلاح الدين ، ظلت بعد البطل إبراهيم حمى مباحاً للسفائن الأجنبية ترمى عليها بالذل والقهر ، أو بالغلاء والفقر ، أو بالسم والرذيلة ؟ ثم لا تجد عين حذايا المرفأ الرءوم باخرة مصرية واحدة تشعرها ذل الغربة وتذكرها واجب الدخالة ، فكانت مياهنا كما كانت أرضونا مرتعاً غريض الكلأ تخور فيه السوائم الغريبة خُوار الكفر والبذاء ، لا خوار الشكر والثناء ، ونحن أصحاب البلد لا نجد فى هذا الطغيان سيادة المالك ولا عزة الوطنى ولا سلطان الدولة .

فلما تكشفت جهودنا القومية المنتجة عن بنك مصر ، صمد هذا الناشىء

الجبار بحزم الكهول وعزم الشباب إلى الميادين المالية الأجنبية فاقتحم حصونها المنيعة ، وسرى فى هيكل هذا البلد العليل الواهن سريان البرء يحرك كل عضو من أعضائه بشركة من شركاته فصاول فى (حى المال)[1] بنوك الدول ، وطاول فى (المالطة) مطار الإنجليز ، ونازل فى (المحلة) مناسج (لنكشير) ، وزاحم فى كل سوق نتائج كل شعب ، ومشت أعراض السلامة من الصدر إلى (الثغر)[2] فقامت شركة مصر للملاحة تعيد سلطاننا عَلَى البحر ، وتعلن استقلالنا إلى الخارج ، فأنشأت الباخرة (زمزم) وأخواتها الثلاث على أحكم ما يقوم الإنشاء ، وأضخم ما يمكن الابتداء ، وأفخم ما يكون التأثيل .

* * *

وكان الأسبوع الماضى (مظاهرة كبرى) للاستقلال الأكبر .

نزل طلعت حرب وصحبه العاملون يغزون الماء بعد ما غزوا الأرض والسماء فخفقت الأعلام الخضر على صوارى زمزم ؛ وتهللت الجباه الغر على سواحل مصر ، وشعرت الموانى الثلاثة المحتلة أن فى أحضانها اليوم وليداً من أهلها صريح النسب ، تضطرم فى أحنائه رجايا الشعب ، وتسفر على وجهه مخايل الأمل ، وتبسم فى طريقه مضاحك الفوز ! واختلفت الظنون الفواجر عَلَى خواطر السفن الغريبة فتساءلت : ألا يكون هذا المشروع الجديد كألف مشروع قديم لمعت كلمع الشرار ثم خبت سراعا إلى الأبد ؟ ألا تكون زمزم هذه التى تختال على الماء فى صلف وكبرياء نواة من النوى العجاف لا يرسخ لها أصل ولا يسمق لها فرع ، أيستطيع الأسطول المدنى المزعوم أن يجوب

---

(١) شارع عماد الدين .

(٢) الصدر . القاهرة ؛ والثغر : مدينة الاسكندرية .

مسارب البحار وليس من ورائه أسطول حربى يرصد طريقه ويمنع جانبه ؟

وكانت هذه الأسئلة المتشائمة ترفضُّ صاغرة خجلى عن جوانب الباشا وهو على ظهر زمزم فى عبوسه الرهيب وسكونه المهيب ونظرته النافذة ، يحيل المتسائل المتشكك على الماضى المجيب والواقع المقنع ، فيرى بعينيه الفلك الدائر الذى يدبره الباشا برأيه ويسيره بيده ، شمسه بنك مصر ، وتوابعها شركاته الميمونة

هنالك الجواب الذى يبكم الحاسد ويفحم الشامت ويقوم حجة بتراء[1] على رشد النهضة الاقتصادية فى مصر

إن شركات بنك مصر وهى وحدها الجانب الجدى فى حياتنا الهازلة ، لأنها تقوم على الحاجة الداعية ، والكفاية الفنية ، والإرادة القوية ، والإدارة الحازمة ، والغاية النزيهة ، والإيمان الصادق ، والخير العام . وهذه الأساس الثوابت أكثر مما يلزم لقيام العمل ، فكيف يقع فى البال أن يتحكك بها الفشل أو ينال منها الكيد أو تطير فى جنباتها الشبه ؟

إن أرجل الجنود الإنجليزية جعلت ثكناتنا أجنبية ، ولكن رءوس الأموال الأوربية جعلت مصرنا غير مصرية . وإن أساطيل بنك مصر الآلية والهوائية والمائية هى التى ستزد مصر إلى أهلها من غير حرب ولا عنف ولا خصومة .

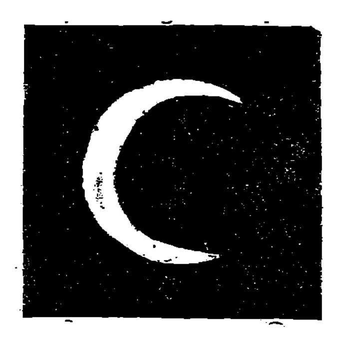
* * *

لقد كانت الوحدة الأولى من أسطول الشعب هى زمزم ؛ وكانت الوجهة الأولى لزمزم هى جُدة ؛ وكان أمس الأول موعد إبحارها من السويس بالحجيج الأول ! فليت شعرى أى نوع من الشعور يشيع فى نفس المصرى المسافر على زمزم حين يرى قطعة من أرض مصر تسير به على الماء حتى شاطىء جدة ، يعلن

(١) حجة بتراء : ماضية نافذة .

المؤذن فوق منارتها كلمة الله ، وينشر العَلَم فوق ساريتها مجد الوطن ، ويجد المصرى على ظهرها قومه ولغته ودينه وكرامته وراحته وأنسه !

ذلك شعور لايتصوره ولا يصوره إلا شاعر كتبت له السعادة أن يتذوقه . فلعل فى الحجيج من يسعفه الإلهام فينفح قومه وأدبه بهذه النفحة السماوية ، تمجيداً لأول نهضة مصرية زكت فى الأرض ، وأول باخرة مصرية جرت فى البحر ، وأول حَجة (مصرية) صعدت إلى السماء !



شهرنا الخالد....

(١٩ مارس سنة ١٩٣٤)

شهرنا الخالد في تقويم الدهر هو مارس !

فيه كما يقولون ألغيت الحماية وأعلن الاستقلال وصدر الدستور !

وفيه كما نقول استيقظ أبو الهول ، وشبت ثورة النهضة ، وتنافس في الجهاد النساء والرجال ، وتعانق على الوداد الصليب والهلال ، وتسابق إلى الخلود الشيوخ والأطفال ، وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية !

وفيه كما تقول الطبيعة تتجدد الحياة ، وتهتز الأرض ، ويورق الشجر السليب ، ويمرع الوادي الجديب ، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل !

* * *

ولكن خمسة عشر عاماً طوالاً أتت على مارسنا الأول فجعلت ما قالوه كلمات ميتة ، ومانقوله ذكريات خافتة ، وما تقوله الطبيعة حديثاً معاداً !

فالحكومة تدفع الحكومة ، والذكرى تتبع الذكرى ، والربيع يعقب الربيع ، ونحن لانزال في الموقف الأول ، يتدفق علينا الزمن ، وتغبّر[1] في وجوهنا الشعوب ، كأننا خرجنا عن مدارج القافلة ، أو رمى بنا التيار في حواشي الوجود !

من الذي نضح القبس بالماء ، وشغل المسامع عن نداء الشهداء ، وحول

(١) غبر في جهه: سبقه وهو من باب الكناية .

وجه النهضة إلى الوراء ، واعترض مجرى الحياة المصرية طول هـذه الحقبة ؟ ستقول خدعة السياسة وشهوة الحكم وفتنة المال ونكسة المرض ، ولكنك لو عبرت عن ذلك كله بانحلال الخلق لكان أجمع لأسباب الأمر وأبلغ فى إجمال الحقيقة فإن التكالب على سلطان الحياة وزهرة الدنيا يصدر فى الغالب عن حية ورجولة ، ولكن ما نحن فيه اليوم من تحكيم الهوى وتغليب الأثرة وهوان الغرض وفساد الضمير وفجور الخصومة لا يوائم فطرة الله ولا يلائم طبيعة التقدم .

* * *

على أن السفينة التى يصارعها الموج فتضطرب ، ويعصف بها النوء فتجور سيظل لها (مارس) مناراً فى مرفأ السلام يرسل الهدى للجائر ، ويلقى السكينة فى المضطرب .

سنذكر دائماً مارس من عام ١٩١٩ حين عصفت فى الرءوس نخوة العزة ، ونزت فى القلوب ثورة الحفيظة ، وأعلنت مصر مرة أخرى بعد (عرابى) أن لها مثلا تتبعه ، وماضياً تعيده ، ومستقبلا تعدّه ، وأمراً فى أرضها تدبره ، وحكماً فى سياستها تصدره . ويومئذ كان للربيع معنى الربيع ! يومئذ هبت رياح آذار فألوت بحطام الشتاء والخريف ، وسرت فى البلاد نسائم الروح الخالق والسر البديع ، وجرت على الثرى المقدس دماء الضحايا الأول فتفطّر[1] بالنبات البهيج ، وبدت على الوجود المصرى مظاهر الشباب من الرونق والصفاء والجدّة والقوة ، وتمردت على الطغيان المسلح نفوس شيّعها[2] الإيمان بالحق ، وحطمت أسلاك البرق ودمرت طرق الحديد لتقطع ما بينها وبين جنود الذل ، وأجبرت الغاصب الغاضب على أن يحترم رأيها ممثلا فى الشيخوخة الأسيرة[3] ، وعزمها ممثلا فى الشبيبة

(١) تفطرت الأرض بالنبات : تشققت عنه .
(٢) شيعها : شجعها وقواها .
(٣) المراد بالشيخوخة الأسيرة : سعد باشا وصحبه وهم منفيون فى مالطة .

الثائرة ، واتسع نطاق الأفق للقلوب التى حصروها بالكبت ، وانكشف رقيع[1] السماء للأبصار التى عقدوها بالأرض ، وفتح التاريخ للشعب المجهود كتاب العهد الجديد ، وكادت تتوالى صفحاته لولا أننا من الحلفاء وكالحلفاء[2] : ربحنا الحرب وخسرنا الصلح !

يعود مارس فيعود العقل العازب ، ويتنبه الضمير الغافل ، ويستطيع كل امرىء أن ينظر إلى الوراء فيرى ماذا ترك ، وإلى الأمام فيرى ماذا قدم ؛ ثم يجيب أطياف الشهداء وهى تطوف ساحة الوجوه أمام الأزهر ، وحول ابن طولون ، وخلال المقبرة الموحشة ، تسائل كل عابر : ماذا صنع الأحياء بعهود الموتى ؟ وكيف حال المعيدين على لحوم الضحايا ؟ !

* * *

يعود مارس فيودع فى أوائله الشتاء ، ويستقبل فى أواخره الربيع ؛ ونحن وإن تلكأ بنا الحظ البليد خمسة عشر عاما لابد موفون على ربيع النهضة ! وإن هبة الشباب من غفوتهم المريبة ، ومعالجتهم الأمور من جهاتها المنتجة ، واضطرام الشعور القومى فى ذكرى مارس ، وإطباق الرأى العام على وخامة الحال ، لبشيراً بتوافى النفوس على الخير ، وتواطئها على الجد ، وتعاونها على الإصلاح .

ليس من منطق الأشياء ولا من سنة الوجود أن يجتمع لمصر ما لم يجتمع لغيرها من أسباب الطموح ووسائل الصعود ، ثم تظل فى ساقة الركب الأممى تمشى ظلعاء إلى أمدها المرسوم وغايتها المرجوة . إنما هى عوائق تقيمها الذئاب ليفردوا بها الحمل الغافل عن القطيع ! وإن فى هذه الذكريات العزيزة الطيبة حافزاً للهمم الوانية ، وموقظاً للضمائر الغافية ، ومهيباً بشوارد الأنفس إلى سواء السبيل .

---

(١) الرقيع : هو هيئة السماء الدنيا بنجومها وكواكبها .

(٢) الحلفاء : هم الدول التى تحالفت فى الحرب العالمية الأولى على ألمانيا وحلفائها ، وهى فرنسا وبلجيكا وإنجلترا وأمريكا

عيد الأضحى

(٢٦ مارس سنة ١٩٣٤)

. . . وفى مارس أيضاً يقبل عيد الأضحى أو يوم الله ، بعد ما أقبل عيد الضحايا أو يوم الوطن ! والإيمان بالله والوطن أسمى مشاعر النفس ، والتضحية لله وللوطن أصدق شعائر الإيمان . والاحتفال بيوم الله ويوم الوطن أقدس مظاهر الإنسان . وعيد الأضحى أجل أعياد المسلمين خطراً ، وأبلغها فى حياتهم أثراً ، وأبلجها فى نفوسهم دلالة . تجمعت فيه مبادىء الإسلام وغاياته ، كما تتجمع صور الوجود فى العين ، ومحاسن الربيع فى الزهرة . فهو موجة من النور الهادىء الهادى فى خضم الزمان المضطرب ، وفترة من السلام الإلهى بين خطوب الجهاد المضطرم . ونفحة من النعيم السماوى تندى لها القلوب اليابسة بالوداد المحض والبر الخالص ، وسبب من الروح المؤاخى يصل بين الغنى والفقير بالإحسان ، وبين القوى والضعيف بالرحمة ، وبين القريب والبعيد بالمودة ، وبين الله والإنسان بالصلاة ، وبين المسلم والمسلم بالحج !

* * *

الأعياد الدينية واحات فى صحراء الحياة ، يستريح إلى نبعها الحران واللاغب ، ويطمئن إلى ظلها الهيمان والشارد ، ويجد الكاسف المعمود فى نسيمها الندى برد السرور ونشوة العافية ، ويذهل السائر المجهود برهة من العمر عن مخاطر الطريق ومكايد الرفاق ومساوىء القافلة ، ويذكر أن له عواطف صالحة طغت عليها المنافع ، وقرابة واشجة قطعت بينها المطامع ، وصلات شابكة أوهنتها الجفوة ،

وتبعات واجبة أعجزه عن حملها كلال الضمير ، وغاية إلى الخير المطلق أضله عن سبيلها غرور الحياة .

* * *

عيد الأضحى هو عيد الأسرة والأمة والملة . يُفيض المسرة والبهجة على البيت ، ويجدد المودة والألفة فى الوطن ، ويسفر بالتعارف بين وجوه الإخوة فى عرفات .

فإذا رده اليوم فساد العيش فى المدينة إلى مانعرف من خروف يذبح ولا يُضَحّى ، ومساجد تؤذن بالمدافع[1] والمـآذن ولا تجاب ، وبيوت تفتح للتهانى ولا تزار وأيام كنقاهة المريض كلها خمود ونوم وأكل ، فإن له فى القرية صورة لاتزال منـــــذ الطفولة فى ذهنى ، فتانة الجمال ، أخاذة السحر ، شديدة الروعة .

لايكاد القرويون يفرغون من صلاة المغرب ليلة العيد حتى ترى طريق المقبرة يسيل بالفوانيس الشاحبة الخافقة ، ثم تنتشر آخر الأمر على وجوه القبور انتشار الحباحب[2] ، وتنتقل القرية الحية إلى القرية الميتة فتقضى موهناً من الليل فى الاستعبار والاستذكار والقراءة ، ثم يعودون وقد كفاهم (الفقهاء)[3] مئونة ماحملوا من الكعك والفاكهة ، فيقطعون الهزيع الثانى من الليـــــل فى طسوت الحمام أو فى دار المزين ! والاغتسال بالماء الساخن لايعرفه الفلاحون إلا ليلة العيد وليلة الزواج ويوم الموت . ثم يُعِـــدُّون زينة العيد فيكوّرون العمائم ويصبغون الأحـــذية ومن لا يحسن لوث العمامة ، أولا يملك

---

(١) إشارة إلى إنطلاق المدافع أيام العيد فى أوقات الصلوات .

(٢) الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه كالسراج .

(٣) الفقية لقب يطلقه الناس على قارىء القرآن .

علبة (الورنيش) ؛ ذهب بطربوشه أو محذائه إلى قريبه أو جاره . والقرية كلها أسرة واحـــدة يكمل بعضها نقص بعض . فإذا فرغوا من ذلك ناموا على هدهدة الأحـــلام ومناغاة المنى ، وتركوا النساء أمام الكوانين ينضجن الخبز ويطهون اللحم ، ويصنعن الحلو حتى الصباح !

تشرق شمس العيد على القرية فى غير وجهها المألوف ، فلا النور كان باهراً كهذا النور ، ولا الشعاع كان ساحراً كهذا الشعاع ! وتستقبلها القرية فى غـــير زيها المعروف ، فلا الوجوه كانت ضاحكة كهذه الوجوه ، ولا الجلابيب كانت ناصعة كهذه الجلابيب ، ولا العمائم كانت زهراً كهذه العمائم ، ولا الأزقة كانت مطرزة بألوان الربيع كما هى اليوم ![1]

لا يتخلف عن صلاة العيد من أهل القرية غير النساء ! أما الرجال فهم صفوف وراء الإمام يؤدون الصلاة وأما الأطفال فهم وقوف على الأبواب يشهدون الخطبة ! ثم تقضى الصـــلاة فيقبلون الإمام جميعاً ويقبل بعضهم بعضاً ثم يذهبون رتلا جميل النسق إلى المقبرة ويرجعون من طريق آخر إلى الحارات المكنوسة المفروشة ، فيجلسون أمام المنازل إلى الطعام الشهى الفاخر يتبادلون الألوان ويتهادون الصحاف ويتركون على موائدهم محلا رحيباً للفقير !

ترفع (الصوانى) وتوضع القهوة ، ثم يقوم العمدة فى أهل حارته فيزورون الحارة الأولى ، فيهنئون ويجلسون ريثما تدار القرفة وتوزع السكائر ثم يقومون جميعاً إلى الحارة الثانية فالثالثة فالرابعة وهلم جراً إلى آخر البلد ، وكلما مروا بحارة صحبهم أهلها إلى الأخرى ، حتى تجتمع القرية كلها آخر

---

(١) ألوان الربيع مستعارة لجلاليب الأطفال الجديدة المختلفة الألوان

المطاف لدى العمدة فيقضون فى مجلسه أكثر اليوم .

ذلك أمر الكهول والشيوخ . أما الشباب والأيفاع فيطوفون زمراً بالبيوت يهنئون الصبايا وأيديهن لا تزال فى الطعام ، فيطبعن بالقبلات الحلية على الخدود البرنزية خاتماً رقيقاً من (الصلصة) ، ويرسمن بالأنامل المخضبة على الثياب البيض طغراء جميلة من الدسم . ثم ينصرف بعد ذلك الشباب إلى لعب الكرة فى ساحة الجرن ، ويذهب الأطفال إلى الأراجيح على أشجار الترعة .

تلك كانت صورة العيد فى القرية رسمتها بغير ألوانها الزاهية ، وجلوتها فى غير إطارها المذهب . فبالله ربك ! أهى على علاتها أخلق بالإنسان وأقرب إلى الدين وأشبه بالخلق ، أم هذه الصورة التى تراها اليوم فى شوارع المدينة وجوامع المدينة وقصور المدينة ؟

نسأل الله مخلصين أن يعيد هذا العيد على الأمة المصرية والدول العربية والممالك الإسلامية ونحن وهم على حال خير من هذه الحال !



كاظم باشا الحسيني

(٢٦ مارس سنة ١٩٣٤)

حنانيك يارب ! أفي الساعة التي يضطرب فيها البحر و يحار المركب ويبعد المرفأ ، يموت الربان ويختفي القطب ؟ أفي الساعة التي يَستَحِرُّ فيها النضال بين حق العرب وباطل اليهود ، وبين إيمان فلسطين وطغيان الإنجليز ، يسقط القائد ويهبط العلم ؟ أفي كل يوم تتجاوب أصداء الأسى في أقطار العروبة على بطولة تودى ، أو زعامة تخلو ، أو نبوغ ينطفىء ، أو ألفة تفترق ، أو وحدة تشتُّ ؟

لابأس بالألم يجمع شتى القلوب على الإحساس المتحد ، وبالخطب يروض رخو المغامز على المقاومة الشديدة ، وبالموت يبعث ضارع النفوس إلى الحياة العزيزة ، أما المدامع التي تجدب المشاعر ، والشدائد التي توهن العزائم ، والمنايا التي تقبر الأماني ، فأرزاء من الشر المحض والعذاب الخالص كابدتها الأمة العربية وأسفاه في مصارع سعد وفيصل وكاظم !

* * *

روّع العربَ في عيد التضحية والتلبية مصاب فلسطين في حياة نهضتها وسر وحدتها وروح ثورتها المغفور له موسى كاظم الحسيني ، فضجت المآذن بالنعي ، وفاضت الصحف بالرثاء ، واضطربت الألسن بالأسف ، ونال الناس من الجزع الطبيعي ماينالهم حين يرون الركن يميل أو النظام[1] ينقطع أو الدليل يغيب ، وتساءلوا عن مصير فلسطين المعذبة

(١) النظام هو الخيط الذي يجمع حبات العقد

بعد شيخها الذى أخلصت جوهره السنون ، وأحكمت رأيه السن ، وشيعت قلبه العقيدة ، وأعلت صوته النزاهة ، وقدست شخصه التضحية ، فجهل الحزبية ، وأنكر الطائفية ، وسل أحقاد الصدور ، وأذهب تنافس الأمر ، وعبأ الأمة المغزوّة فى دار أمنها ، ثم قادها زهاء خمسة عشر عاماً فى المفاوضات بلندن ، وفى المظاهرات والمؤتمرات بفلسطين ، لايقطعه يأس ولا يردعه وعيد ولا يخذله طمع ولا يقعد به عبء السنين التسعين عن قيادة الشباب إلى صراع حام دام بين حق أعزل وباطل مسلح !

لو كانت قضية فلسطين قضية رياسة وسيادة وَغَلَب لكان فى كل مكان سبيل إلى الخلاف ودليل إلى الفرقة ، ولكنها قضية الحياة والموت ، والحياة سبيل تهدى إليها الفطرة ، وقافلة تدل عليها الطبيعة . فالأمر من هذه الناحية مختلف وبين فلسطين وبين العراق ومصر

ولا ريبَ أن المستقبل الذى يتمثل لشباب فلسطين فى أبشع صوره سيذهلهم عن نُعرَة العصبية ، ويلهيهم عن شهوة الخصومة ، فلا يرون إلا عدوا واحداً هو الواغل المقتحم ، ولا يستمعون إلا قولا واحدا هو قول زعيمهم الخالد وهو يجود بنفسه :

« . . . قضية العرب فى فلسطين أمانة فى ذمتكم فجاهدوا فى سبيلها ، فإن فعلتم أرحتمونى فى قبرى » .

عزى الله الأمة العربية أجمل العزاء عن فقيدها الغالى ، وأحيا فى خواطر أبنائها النبلاء مثله العالى ، وجعل رضوانه عليه ثواب ما بذل فى سبيلها من ماله وجهده ونفسه .

في الحال الحاضرة

(٩ أبريل سنة ١٩٣٤)

« في الحال الحاضرة » عنوان عزيز على وعلى أخوىّ طه حسين ومحمود زناتى . نذكره في مقام الأنس وساعة التنادر ، فيفجر الضحك من صدورنا المكظومة ، ويرجع بنا مقتحما تيار الزمن الدافق إلى العهود النفاحة النضيرة من شبابنا الأول . يرجع بنا إلى بقعة من بقاع الأزهر العتيق خمدت فيها الدوى الهادر قليلا ، وتهادنت بها أرواح العلماء ، فلا تشتجر في لفظة ، ولا تختصم في (قولة) ، ولا تزدحم على اعتراض ، وإنما تسكن إلى هؤلاء الأيفاع الثلاثة ومن أخذ أخذهم سكون الطير المروعة إلى سلام الأيكة المنعزلة ، لأنهم كانوا قليلا مايرغبون في إثارة القلاقل وتهييج الفناقل [1] على هذه الأرواح الآمنة البرة . إنما كان وكدهم أن يجتزئوا من علوم الفقه بقسمة القدر ، ثم ينصبوا لعلوم اللسان فيدرسوا الأدب ويقرضوا الشعر ويحاولوا الكتابة ، ويتعرفوا إلى العلم الحديث في دور الكتب ، ويطلوا على العصر الجديد من نوافذ الصحف ، ويقفوا على البرزخ الممدود بين دنيا الأزهر ودنيا الناس ، ينزعون إلى الحياة الحاضرة المتجددة نزوع أسماك البحيرة الآسنة إلى البحر الزاخر المزبد .

كان أستاذنا سيد بن على المرصفى يطبعنا في النظم على غرار (الحماسة) وفي النثر على غرار (الكامل) ، ويزين لنا أن ننظم معلقة كطرفة ، أو ننشىء خبراً كأبي عبيدة ، ولكننا كنا نجلس على ذلك البرزخ بعيداً عن هتاف الأشباح ، نراقب سير المدنية ، ونرامق حياة (الأفندية) ، ونحاول العبور ، فيسألني رفيقاى .

---

(١) كلمة نحتها أستاذنا المرصفى من قول الأزهريين عند توجيه الاعتراض : فإن قيل كذا قلنا كذا »

— فيم ننظم ؟

— فى مدح الخديو !

— وفيم نكتب ؟

— فى الحالة الحاضرة !

ونكرر كل يوم هذين السؤالين وهذين الجوابين ؛ حتى استطعنا أن نجد كلاماً فى مدح الخديو فقلناه ونشرناه .

أما هذه « الحال الحاضرة » فكانت معاياة لم نجد لأمرها مُطّلعاً ولم نقف فى وصفها على حيلة ! لأن مدلولها يومئذ كان غامضاً فى أذهاننا غموض الجبر ! فالقرويون يعيشون على نمط الفراعين، والأزهريون يعيشون فى عهد الأيوبيين ، والقاهريون يعيشون على حال المماليك ؛ وهذا الذى نسميه الحال الحاضرة ما كان يذكر إلا فى مكاتب الصحف ، ولا يعرف إلا فى بعض دواوين الحكومة !

عبرنا البرزخ ، وتعاقبت الأعوام على ذلك العهد تعاقب الموج على الساحل ، فبعضها هادىء وبعضها مضطرب . فأما محمود فظل على حدود الماضى ؛ وأما طه فطفر إلى آماد المستقبل ، وأما أنا فبقيت فى الحاضر بين الصديقين . وسأحاول أن أقضى عنهما هذا الدين فأكتب اليوم فى هذا الموضوع الذى وسمنا بالعجز عنه طوال ربع قرن !

* * *

حالنا الحاضرة محنة من محن الانتقال ، وخدعة من خدع الاستقلال ، وفتنة من فتن الباطل ! فهى راكدة ركود العفن ، واقفة وقوف الحيرة ، لا نستطيع أن نجد لها فى لغة التطور اسماً ولا صفة ! فلا هى سبيل نهضة ، ولا هى دليل يقظة ، ولا هى مظهر انتعاش . وكأنما تقطعت وشائج الاجتماع

بين الطبقات والجماعات والأسر ، فتناكر الناس وتدابر الأهل ، ودار كل امرىء على نفسه !

فالفلاح كما كان منذ أجيال : يكاد لاينزع يده من الأرض ، ولا يرفع طرفه إلى السماء ، ولا يتبين وجهة الدنيا ، ولا يتصور غاية الحكم ، ثم يحول عليه الحول فلا يجد نقوداً فى جيبه ، ولا سروراً فى قلبه !

والعامل على أسوأ مما كان : يقاسى العطلة ويعانى الفاقة ويشكو الأمية ويستغله الأجنبى بما دون القوت ، ثم لايجد فى بلده العين التى تكلؤه ، ولا اليد التى تحميه ، ولا النور الذى يهديه ، ولا الروح الذى يسيره !

والشاب فى لبس من أمره! يتعلم ولا يعرف لأى عمل ، ويتقدم ولا يدرى إلى أى غاية . ويقولون له كن عزيزاً فى بلدك ، سيداً فى دارك ، متصرفاً فى أمرك ، ثم يخضعونه للامتيازات فتكسر من نخوته فى المجتمع ، وتغض من كرامته فى القضاء ، وتهجم على ثروته فى التجارة ، ويفور شبابه الحين بعد الحين فيكفنه الهوان الغالب والقيادة المترددة .

والأدب يعتمد فى سلطانه على الدعوى والوقيعة ، وينقل فى أحكامه عن النكران والحقد ، ويتفرق شيعاً وطوائف ، لا ليعدد مذاهب القول ويجدد طرائق البيان ، ولكن ليخلق الخصومة بين الكهول والشباب ، ويورث العداوة بين الشعراء والكتاب !

والسياسة تتراشق بالتهم وتتقاذف بالعيوب ، وتحتكم إلى الخصم ، وتحول مجرى الجهاد ، وتزهق روح النهضة ، وتشوه آمال الأمة بالمطامع السود والأهواء الأثيمة .

والحكومة تنبعث من أدراج مكاتبها العليا [1] روائح كريهة تسور فى

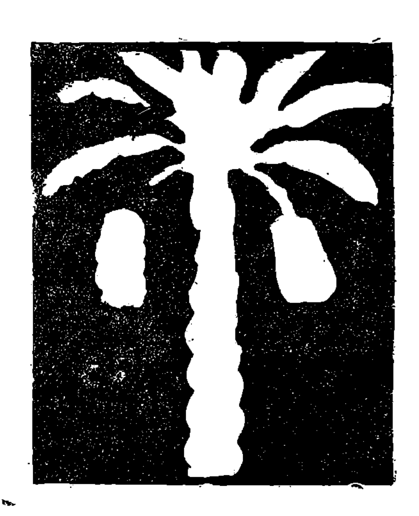
(١) إشارة إلى ما كان يشاع يومئذ من استغلال النفوذ فى الاختلاس والرشوة .

الأنوف وتأخذ بالأنفاس وتفسد الجو على هذه الأمة المسكينة !

* * *

هذه هي العناوين الصغيرة لهذا العنوان الكبير ، والعناصر الأولية لهذا الموضوع الخطير ، أجملناها في رأسه قبل ان ينزل بنا التفصيل إلى ذيله ، على نحو مايصنع المعلمون من الكتاب ، أو الناشئون من الطلاب ، جمعاً لشتيت الرأى وتصويراً لهيكل الفكرة .

فليت شعرى ياهداة الأمة ماذا كنا نقول لو قُدِّر لنا أن نكتب هذا الموضوع حين اقترحناه منذ خمس وعشرين سنة ؟ !



العام الهجرى

(٢٣ ابريل سنة ١٩٣٤)

منذ أسبوع قلب الدهر المسجل صفحة ثلاث وخمسين وثلثمائة وألف من تاريخنا المجيد للمشرق . قلبها هذه المرة وهو حافل حاشد يرصد فلك الإسلام ، ويرقب حركة العرب ، ويجمع الأهبة لتسجيل ما يتوقع من أحداث الأمة المبعوثة والبطولة الموروثة والعروبة الناهضة !

وكان منذ تفجرت فى وجوهنا الأهوال ، واغبرت فى عيوننا الآمال ، وأخلد إلى الجمام سلطاننا الجاهد ، يقلب الصفحة بعد الصفحة فلا يجد ما يسجل غير أنات العانى ونشيجات الباكى وخلجات الجناح المهيض ؛ حتى أوشكت حياتنا الخالفة أن تكون لحقاً من البؤس والهون لكتاب آبائنا الجليل المحكم ! ولكن الأمة العربية التى تمتد جذورها فى أعماق الأزل لابد لها من الربيع وإن طال الخريف !

فالحياة المتجمعة فى الأصل الثابت أخذت تشيع فى الجذع وتنتشر فى الفروع ، والظلال الحاسرة فى العهد الجديد جعلت تمتد إلى القفر وتنبسط فى الربوع ، وأشبال الفاتحين الذين غيروا وجه الأرض وحرروا موازين العدل ، قد هبوا ينفضون عن المعدن الكريم غبار الزمن ، ويمسحون عن الجوهر الحر عبث العوادى ، ويعودون إلى مكانهم من رأس القيادة وصدر العالم .

ففى مصر تضرب الحياة الجديدة فى البراعم النابتة ، وتضطرم موازى الكمال فى النفوس الهامدة ، ويفيض نبل الإحساس فى صدور الناس فيكفكفه وأسفاه طغيان الغاصب ، وتكدره واحسرتاه بقايا العهد الذليل !

وفى فلسطين تدافع العروبة جراد أوربا الماحق ، وتصارع الإستعمار المسلح الخاتل ، وتطالب عز الحياة بعز الممات وشرف التضحية .

وفى سورية يقظة عاملة فطنة تداور خصمها[1] بالصبر ، وتواثب جشمه بالحزم ، وتقابل نقمه بالحذر ، وتصارع هوجه بالنخوة ، وتتجهز للمستقبل الباسم القريب بجهازه .

وفى العراق « أمة تنشىء الحياة » وتبنى الملك ، وتلحق الزمن ، وتصل ما انقطع بين ماض ضخم ، وحاضر نزوع ، وتنبض بالحيوية العربية المتجددة نبضان القلب الفتىّ الطموح .

وفى الجزيرة موطن الأسرار ومهبط الوحى ومشرق الدين ومنبت العبقرية تخطر العروبة فى مطارف العز بين سرير الإمام وعرش الملك ! وإذا نزت بين الأخوين نوازى الخلاف فذلك حفاظ ينتهى إلى السلم ، وحمية تعود إلى السلامة . وإن فى إصاختهما إلى دعوة الداعين إلى الصلح فى أقطار العرب لدليلا على اتجاه الميول إلى الوحدة ، و إصغاء القلوب إلى الجماعة[2]

وفى الجزائر وتونس ومراكش قلوب تذوب من حرارة الظلم ، ورءوس تدور من خدَر السياسة ، وشهداء فى سبيل الوطن والدين يخطون لأبنائهم بدمائهم وصية المستقبل !

وسائر المسلمين فى تركية وإيران وأفغانستان والهند والصين وإندونيسيا ، وروسيا ويوغوسلافيا يشعرون بالتطور الجديد ، وينظرون إلى الأفق البعيد ،

---

(١) المراد بالخصم هنا فرنسا وكانت منتدبة يومئذ عليها وعلى لبنان .

(٢) إشارة إلى ما حدث فى ذلك العام من الخلاف بين إمام اليمن وملك الحجاز

ويتمنون أن يعود الإسلام كما بدأ مرفوع الراية مجموع الرأى مسموع الكلمة !

والأمر فى الجملة يدل على نور ينبثق من جديد فى أمة محمد ، وروح ينبعث فى مملكة الرشيد ، وشعور يأتلف من هذه الروح وذلك النور فيجمع قلوب الإخوة المتفرقين على هوى واحد !

حسبُنا مطلع العام الهجرى موقظاً للشعور وحافزاً للهمم وهادياً إلى شرف الغاية . يستقبله المسلم الذاكر فتعاوده ذكريان تجددان دينه وتثبتان يقينه وتقوِّمان خلقه : ذكرى هجرة الرسول فى سبيل الدين ، وذكرى مقتل الحسين فى سبيل الحق ! فأما هجرة الرسول فقصيدة من قصائد البطولة القدسية لا يفتُر عن إنشادها الدهر ! استمدت وحيها من روح الله ، ونسجَها من خلق الرسول ، وصيرتْها من صدق العرب ، واستقرت فى مسامع الأجيال مثلا مضروباً لقواد الإنسانية ، يلهمهم الصبر على مكاره الرأى ، والاستمساك فى مزالق الفتنة ، والاستبسال فى مواقف المحنة ، والاستشهاد فى سبيل المبدأ ، والاعتقاد الصادق بفوز الفكرة .

بلّغ الرسول ما أنزل إليه من ربه وقد تألبت عليه جهالة العصبية ، وحماقة الشرك ، وسفاهة الحسد ، وعداوة المنافسة ، وحرمان الفقر ، وخذلان القلة ، فما استكان ولا وهن ثم نبت[1] قرار مكة بالغراس الإلهى فهاجر به تحت عين الله إلى (طيبة) .

وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والرجولة أثمر غرس الدعوة ، وتم نور الله ، وأصبحت القلة ملة ، وصارت كل قرية من القرى الثلاث قارة[2] .

---

(١) نبا بفلان منزله : لم يوافقه .

(٢) القرى الثلاث هى مكة والطائف والمدينة ومنها ابتدأت الدعوة ، والقارات الثلاث هى آسيا وأفريقيا وأوربة ، وإليها انتهى الإسلام .

وأما مقتل الحسين فلا يزال صكا دامياً فى سجل التاريخ يثبت أن العربى الحر لا تلهيه عن نداء الواجب زهرة الحياة ، ولا ترده عن طلب الحق كشرة الموت .

فإذا انتفع العرب والمسلمون بهاتين الذكريين ، وجعلوهما كما هما فى رأس العام رمزين على الجهاد الواصب فى سبيل العقيدة ، والاستشهاد المروّع فى سبيل الحق ، عاد أمرهم يجرى مع الشمس ويسرى مع الروح ويتغلب أخيراً مع الحق !



يوم الجمعة

(٧ مايو سنة ١٩٣٤)

كان أمس يوم الأحد ، ومن قبله كان يوم السبت ؛ ومن قبلهما كان يوم الجمعة ! ثلاثة أيام تتعاقب فى مدار الأسبوع تعاقب الجياد فى مضمار السبق ! يحمل كل منها فى رأسه علم دولته ، وعلى صدره عنوان ملته ، ويشرق على قومه فى المسجد أو فى الكنيس أو فى الكنيسة إشراق الحب فى الفؤاد الفريد ، أو الإيمان فى النفس الرضية ، فيؤلف ما نفر من القلوب بالمودة ، ويعود بما شرد من النفوس إلى الجماعة ، ثم يكون فى البيت مصدر أنس وبهجة ، وفى المدينة مظهر استقلال وعزة . ولقد كان فيما سلف من مؤاتاة الدهر شأن يومنا فى الأيام ، كشأن قومنا فى الأقوام : صدارة يكنفها جلال ملك ، وإمارة يسندها سلطان دين ، وعيد يأتلق جماله فى كل مكان وفى كل نفس ، وفترة تحدد للناس مواقيت العيش ومراحل الزمن . وكان له فى أدب الدين قواعد مقررة كالاغتسال والتطيب واتخاذ الزينة وشهود الجماعة ومودة القربى وصلة المساكين ، وترفيه البدن بالراحة ، وتطهير النفس بالعبادة ، وإعلان مجد الله بإعزاز دينه ، وسلطان الشعب بإعلاء أمره . ولم يكن السبت والأحد يومئذ إلا شعاعاً لضوئه واتساعاً لمداه !

ثم غيرنا فغير الله ، فإذا بالتابع يأخذ المهلة [1] على المتبوع ، وإذا يوم الجمعة يصبح طارئاً فى ذيل الأسبوع ، فلا تخشع له أسواق العالم كيوم السبت ، ولا تسكن له حركة الدنيا كيوم الأحد ، ولا يبقى له من الرعاية عند أهله إلا إغلاق دور الحكومة فى وجهه !

---

(١) أخذ عليه المهلة : سبقه .

استعرض هذه الأيام الثلاثة بالاعتبار والموازنة تجد كلا منها صادق الدلالة على حال أهله! فيومنا يجيء كما ترى خافض الجناح خافت الصوت حائل اللون مخضود الشوكة مغموط الحق، لايدخل فى حساب الناس، ولا يقدم ولا يؤخر فى حياة المجتمع!

فمنظره الدينى تضاءل حتى صار صلاة عادية لايقيمها إلا القرويون الطارئون على المدينة والحضريون الفارغون من العمل!

ومظهره المدنى انحصر كما قلنا فى عطلة الحكومة. ومن المؤونة [1] المعجزة أن تطالب العطلة وما يتبعها عند غير الحكومة؛ فإن جمهور الشعب إما تاجر يتبع فى نظامه البنوك الأوربية، وإما عامل يخضع فى عمله لرءوس الأموال الأجنبية، فلم يبق إلا الموظفون الرسميون وهم وحدهم الذين يستطيعون بما تهيأ لهم من اليسر والفراغ إجلال هذا المظهر وإعلان هذه الشعيرة. فتعال ننظر كيف ينقضى هذا العيد فى بيت الموظف!

فى البيت الذى ألهمنى هذا المقال أسرة مسلمة عميدها موظف كبير، وأسرة يهودية كاسبها تاجر صغير، وأسرة مسيحية عائلها مستخدم وسط.

ففى يوم السبت ينبعث فى المسكن اليهودى تاريخ إسرائيل بأساطيره وتقاليده وعقائده، فالتوراة تتلى، والصلوات تقضى، والذكريات تستيقظ، والمجارى الروحية تنحدر من الأجداد إلى الحفدة فتوثق الروابط وتجدد القوى وتهون العظائم؛ ثم تخرج الأسرة بأسرها فى زينتها وبشرها فتتناول عشاءها فى مطعم سامر، وتقضى أمسيتها فى ملهى ساهر:

* * *

وفى يوم الأحد يحول المسكن المسيحى إلى عرس أنيق مترف: فالأسرة

---

(١) المؤونة. الثقل والشدة والتعب.

تعود من القداس في ألوان الزهر وأفواف الوشى ، والغرف تضحك من طلاقة النفوس واتساق الأثاث ، وللمائدة للزهرة تحفل بأفانين الشراب السائغ والطعام المنىء ، والبيان الفخم تحت الأنامل الطفلة يقطر بالنغم العذب واللحن البهيج ، والفنغراف يدور بأناشيد الرقص فيمسى البهو بالزائرين والزائرات أشبه بأعشاش الربيع كله مناغاة وهديل وهزج !

* * *

وفي يوم الجمعة يصبح المسكن الإصلاحي عابساً كالكهف ، سا كتا كالمقبرة ! (فالبك) قضى ليله سهران فهو نائم نومة الضحى ! فلا تسمع حساً ولا حركة إلا صوتاً شديد الخفوت يستعين بالإشارة على أن يهمس الحين بعد الحين في أذن الطفل :

— هُسس ! خفِّض من صوتك ! خفف من مشيك ! لاتلعب بهذا ، لاتعبث بذاك . أبوك نائم !

(والبك) يأخذ حمامه الأسبوعي الحار فيشغل الحمام ساعتين ! فتمضي الظهيرة والفتاة لاتستحم والعجوز لاتتوضأ !

(والبك) مدعو إلى العشاء عند بعض الأصدقاء ، فالمطبخ بارد هادىء ، وطعام اليوم بقية طعام الأمس !

(والبك) يتهيأ للخروج ، فالأسرة كلها في خدمته : هذه تنظف البدلة ، وتلك تمسح الطربوش ، وهذا يذهب برباط الرقبة إلى المكواه ، وذاك يستعجل الخادم بالحذاء . وأخيراً يخرج البك ، فيتنفس البيت الصعداء ، ويستروح المكروب نسيم الرخاء !

وهكذا يمر عيد الأسبوع على هؤلاء القوم وهم يقولون :

يا لله ! ما أثقل روح هذا اليوم !

قطع العقـــدة أسهل من حلها

(١٤ مايو سنة ١٩٣٤)

كان المورث[١] غفر الله له منهوك العصب ، أرعن اليد ، ألـكن اللسان ، أخرق السياسة ، فابتلاه الله بالحرب حتى قلّ ، وبالدين حتى ذل ، وبالرشوة حتى فشل . ثم عصفت به ريح المنون فحطمت جذعه وأذرت هشيمه ، وتبدد فى مهب العوادى تراثه المشتّهى ، واستقرت على أعنـاق أبنائه وأوليائه أثقاله وأغلاله وديونه .

فأما الترك الخـلّص البواسل فبتروا من خلفهم ذلك الذيل الطويل ، ثم انطلقوا خفافاً إلى المجد وراء (كمال) . وأما العرب الأقحاح الميامين فألقوا من فوقهم ذلك الحمل الثقيل ، ثم مضوا سراعاً إلى الملك وراء (فيصل) . وأما نحن — وقرابتنا إلى المرحوم وما ترك قرابة كلالة[٢] — فقد نالنا من عهوده (الجزية)[٣] ومن قيوده (الامتيازات) . ثم رأينا فى نصوص القوانين ما يثبّت القلوب المنخوبة[٤] على الحق ، وفى سوابق الدول ما يشجع النفوس المهيوبة على الإقدام ، وفى سوانح الفرص ما يذكر الرقاب المغلولة بالعتق ، ولـكن الشعب الذى قسا عليه القدر فمحا من ذهنه الفروق بين التواضع والضعة ، وبين الوداعة والذل ، وبين المجاملة والملق ، وبين الـكرامة والتساهل ، وبين الضيافة

---

(١) المورث : تركية القديمة أو (الرجل المريض) كما كانت تسمى .

(٢) الـكلالة : القرابة البعيدة .

(٣) الجزية : ما كانت مصر تدفعه إلى تركيا كل عام من المـال .

(٤) فلان منخوب القلب : جبان .

والاحتلال ، لايستطيع أن يفهم من القانون إلا نص الواجب ، ولا من (السابقة) إلا معنى الجرأة ، ولا من الفرصة إلا خلاف الحزم .

حررت الأمم رقاب العبيد ، واحترم السادة إرادة الخدم ، ومنحت الدول طغام الشعوب كرامة الوطن ، وبرىء الأسود والأبيض من معرة التفريق ووصمة التميز ، اللهم إلا نحن فى مصر ، وإلا الزنوج فى أمريكا !

وما الفرق بالله بين الزنجى والمصرى إذا كان كلاهما قد حرم الإخاء فى المجتمع والمساواة فى القانون والحرية فى الوطن ؟ وهل الامتيازات إلا حكم قائم بانحطاطنا عن الأمم التى ميزناها فى الجنسية والعقلية والمدنية والتربية ! فالأوربى إذا اعتقد أنك دونه فى القدر والحق والخلق فتمزى [1] عليك وانتفى منك ، كان واضح العذر ما دمت تعترف بهذا النظام الذى يجعل قضاءه أعلى من قضائك ، ولغته أفضل من لغتك ، وشأنه أرفع من شأنك .

إنه يعرف أن لك على الأقل أن تلغى المحاكم المختلطة من ذات نفسك ، فلا ترى بعدها من يظلم قضاتك على منصة العدل ، ويحتقر لغتك تحت راية الدولة ، ويهين رجالك فى دست الحكومة ، ولكنه يراك تهمل حقك حتى يموت ، وتغفل واجبك حتى يفوت ، وتنفق من كرامتك على المجاملة واللطف حتى تنفد ، فجعل نزولك عن مقامه تقليداً لاينهض فى وجهه أدب ، وعرفاً لايقوم بسبيله قانون .

* * *

(١) يتمزى : يرى لنفسه المزية .

إن الامتيازات الأجنبية شر مامنيت به هذه الأمة من علل الفساد وأسباب الوهن، فإن وجودها يوهم الأوربى أنه فاضل بالحق، ويشعر المصرى أنه مفضول بالطبيعة، فيمعن هذا فى هضم نفسه وبذل مقادته، بقدر مايمعن ذلك فى تصعير خده وتجاوز حده. ويجرى الأمر بين الرجلين مجرى الطبع والعادة؛ فلا يندم الأول على إساءة، ولا يألم الثانى من غضاضة!

وما تجره على الأمة هذه الآفة من قتل الرجولة فى النفوس، وكسر النخوة فى الرؤوس، لا يدفعه إلهاب العواطف بعظمة الآباء وحماسة الشعراء وطموح المدرسة، فما ظنك إذا خلا التاريخ من روح الوطنية، والشعر من أدب القومية، والمدرسة من رفع الخلق؟

إن أخبث الأدواء ماخاص الجسم فسلبه القدرة على الفكر فيه به الخلاص منه.

ولقد جنت الامتيازات على أخلاقنا جناية العبودية على أخلاق العبيد! فنحن نجبن أمام الإهانة، ونكذب أمام الخوف، ونخنع أمام القوة، ويقعد بنا اتهام الكفاية عن المنافسة، حتى خلت ميادين العمل للأجانب فتحكموا تحكم الأرباب، وتصرفوا تصرف السادة، وعاشوا بالشر على خير هذا البلد، وأنضجوا شواءهم فى حريق أهله.

كل أولئك ونحن نضرع للسفيه أن يحلم، وللخصم أن يحكم، وللقوى أن يستكين، ثم نحاول أن نتحاكم إلى المعاهدات، ونتفاهم بالمفاوضات كأنما انقلبت حملة الغرب على الشرق دعوة إلى سبيل للدنية وتقدم الإنسانية على هدى السلام والعدل!

كلا يا سادة ! إن علاج المسموم بالرُّقى مزاح مع الداء لا تؤمن عاقبته . وإن قتل الحية أهون من ترويضها ، وإن قطع العقدة أسهل من حلها ، وإن المتنبي ما كان يجهل الناس حين قال :

إنما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلاباً ... واقتساراً لم يلتمسه سؤالا

الامتيازات والأدب

(٢٨ مايو سنه ١٩٣٤)

الأدب عبير الروح وشعاع النفس ونضح العواطف ، يتأثر حتما بما ينال أولئك من تطور الحياة وتغير الناس وتقلب الزمن . فهو يطيب أو يخبث ، ويضطرم أو يخبو ، ويمُر أو يحلو ، تبعا لما يعرض للروح والنفس والعاطفة من أحوال الضعف أو القوة ، والفساد أو الصلاح ، والانحطاط أو السمو .

فالأدب العربى كان صادقاً حين فاض بالبطولة وزخر بالحماسة وجاش بالعزة فى عهوده الأولى ، أيام كان يمده العرب من قوتهم بالروح ، ومن سلطانهم بالنبل ، ومن حريتهم بالكرامة .

والأدب العربى كان صادقاً حين لج فى الضراعة ، وضج بالشكوى ، وأن من الألم ، وتحدث عن فسوق الخلق المنحل ، وإيمان القلب المستذل ، وضلال النفس المريضة فى مذاهب القحة ، فى عهوده الأخيرة أيام وهنت عزائم الملوك ، ووهت دعائم الملك ، وتخلت يد العرب عن زمام الدنيا ، فوقعت الفوضى وحدث الخلل ، ولجأ الناس بعضهم إلى الله وراء شيوخ الطرق ، و بعضهم إلى الشيطان وراء قطاع الطريق !

والأدب العربى صادق اليوم فى الإبانة عن هذا الشك الخامر فى قدرتنا على التفكير الأصيل ، واضطلاعنا بالأمر الجليل ، واستقلالنا بتبعات الرأى وتكاليف الحياة ، فإن اعتقادنا الإيحائى المزمن بتفوق الأوربى وامتيازه سلب من نفوسنا الثقة ، ومن قلوبنا الإيمان ، ومن عقولنا الأصالة ، ومن شعورنا السمو ، وتركنا

كالعبد المملوك لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ عَلَى مولاه ، ينقل فيما يقول عن لسانه ، ويصدر فيما يعتقد عن قلبه .

فأديبنا يجهل اللغة العربية كل الجهل ، ويعلم اللغة الأوربية كل العلم ، لأنه إذا تكلم بها أو كتب فيها شعر بذلك الامتياز الذي يلازم أهلها في بلاد الشرق . وأديبنا يقرأ الأدب الأجنبي ويغفل الأدب العربي ، لأن هذا أدب قوم كانوا يلبسون العمائم ويأكلون بالأيدي ويجلسون عَلَى الوسائد ويقولون له : نحن أجدادك ! وذلك أدب قوم يلبسون البرانيط ويأكلون بالشوك ويجلسون على الكراسي ويقولون له : نحن أسيادك ! وأديبنا يعمى عن مناظر بلده ومحاسن طبيعته ومفاخر قومه ومآثر شرقه ، ثم يفتح عينيه بكلتا يديه ليستشف من خلال السطور السود قناطر (السين) وشعاف (الألب) وخمائل (التيرول) لان هذه ذكرها جيته ولا مرتين وبيرون ، وتلك إنما ذكرها البحتري والرضي وشوقي !

زارني ذات يوم شاعر من شعراء الشباب وفي يده قصيدة يريد نشرها بالرسالة ، وكان موضوع القصيدة كما يقول : تصوير منظر قروي في ريف مصر : مشرق الشمس في القرية أو مغربها لا أذكر . فلما نظرت إلى الصورة — وأنا قروي — أنكرت مارسم فيها من الخطوط ووضع بها من الألوان وحشد إليها من الطبيعة . فقلت له . يغلب على شعوري أنك ترجمت . فقال وهو يعقد من التيه عنقه : ثق أنها من وحي خاطري وفيض لساني . فقلت له : إذن ما هذه النواقيس التي ترن في الأبراج ؟ أفي قريتكم كنيسة ؟ فقال : كلا ، وإنما آثرت رنين الناقوس على أذان المؤذن ، لاني أجد للأجراس والأبراج من الروعة والشاعرية مالا أجده للمأذنة والمسجد . فألطفت للفتى في الاعتراض و الاعتذار مخافة أن يرميني في سره بالجمود والتأخر !

كذلك قدم إلى كاتب من ناشئة الكتاب قصة مصرية سمى أشخاصها :

جان وأامبير ولورا وهيلين ، لأنه يجد هذه الأسماء فى الحوار أرق وأعذب من على وإسماعيل وسعاد وفاطمة !

فالأدب المصرى الحديث كالمجتمع المصرى الحديث ، يقوم على موت الشخصية وفناء الذات ونسيان التاريخ ونكران الأصل ، فهو يستلهم المطابع الأوربية ، ويخضع قريحته للقرائح الأوربية ، ويعقد لسانه بالألسن المرهوبة منها فيحكى ما تقول فى لثغة نكراء من أثر العقدة ، وهو لو وضع عن كاهله نير الامتياز ، وفهم هذه الكلمة الخزية على المجاز ، فأخذ عن طبعه وترجم عن طبيعته ، لجىء الغرب بأدب تدوى الإلهام سحرى الأنغام شرقى الروح مصرى الطابع ، يحل أهله من أدب العالم ما أحل أدب الهند إقبالا وطاغور !

إن الطبيعة المصرية أولى أن تلهم الشاعر تأمل الصحراء ، وأحلام النخيل ، وابتسام الصحو ، لا أن تلهمه ما تلهم الطبيعة الإنجليزية من أمثال (الملاح التائه) و (الزورق الحالم) و (وراء الغمام)[1] ! فإن الفن لا يخضع خضوع العلم للعقل المشترك والوطن العام ، وإنما يخضع قبل كل شىء لطبائع الإقليم وخصائص البيئة ومنازع الشخص . فإذا استنزل شعراؤنا الشباب على خواطرهم هذا الوحى الغريب ، فذلك أثر ما نشكوه من هذه العبودية العقلية التى ضربت على الآذان وغلبت على الأذهان وجعلتنا للأجانب فى كل شىء تبعاً .

فتى يعلم المصرى أن له مجداً يجب أن يعود ، ووطناً ينبغى أن يسود ، وصوتاً يحق أن يسمع ، وأدباً يصح أن يحتذى ، وتاريخاً يليق أن ينشر ، وحقاً على أرضه تؤيده الطبيعة ويقره القانون ولا ينكره عليه إلا جبنه وذله ؟ !

---

(١) هذه عناوين دواوين الشعراء الشباب .

تأمل ساعة

(كتبت فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٩ على أثر قدومى إلى بغداد)

فى الشرفة الوسيعة من فندق (كارلتون)، جلست أطالع فى صفحة دجلة ما خطته يد القرون . وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشى الأفق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء ، بعدما أجهدها رعد الأمس و برقه ، وأغصها وابل الغمام وودقه ؛ فالسماء مصرية الأديم ، والجو عبهرى النسيم[1] ، والأفق الغربى مزدان بقزعات[2] من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه نضاراً من طول ماحمل إليه السيل من كنوز الجبل[3]

أخذت أصوب النظر وأصعده فى النهر و الجسر والشاطىء ، فأرى أنماطاً من الناس ، وأخلاطاً من الأجناس ، وصوراً من الأشياء ، تنكرها العين ويعرفها القلب ، لأنها شرقية ، ولأنها عربية ، ولأنها مظلومة ! . . .

ذكرتنى هذه المناظر مناظر غابت فى سويداء القلب ولفائفه : ذكرنى تقابل الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابل القاهرة والجيزة على النيل الأعلى ، وتقابل المنصورة وطلخا على النيل الأسفل . وفى هذه الأماكن الحبيبة كان مدرج طفولتى وشبابى ، وملتقى أحبتى وصحابى ، فهاجت شجونى وسالت شؤونى[4] ، فوضعت جبهتى المضطرمة على سياج الشرفة البارد وعدت بالذاكرة وشيكا إلى بغداد . ثم انطويت على نفسى وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمَهُ فى غيابة الماضى حتى انقطع ما بينى و بين الحاضر ، وامحى من حوالىَّ العالم بأسره .

---

(١) العبهر : الياسمين
(٢) القزعه : قطع من السحاب متفرقة صغار .
(٣) المراد بها : الغرين
(٤) الشؤون : المدامع .

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شادٍ يرجع بالنغم العربى الشجى فخيل إلى أننى أرى دجلة (الأمين) وجسر (ابن الجهم) وكرخ المجان والخلعاء من أهل بغداد المترفة ، ووقع فى سمعى أن هذا الشادى يقول :

سقى الله باب الكرخ من متنزه ... إلى قصر وضاح فبركة زلزل

مساحب أذيال القيان ومسرح الـ ... ـحسان ومثوى كل خِرق معذل[١]

وصور لى أننى أسمع غناء الملاحين فى الزلالات[٢] ، وأبصر (الدلفين) و (العقاب)[٣] يمخران العباب بالخليفة الأمين وحسانه وقيانه وندامائه ! . . . وراءت لى على الشاطىء الشرقى قصور البرامكة الحزينة ، يقابلها على الشاطىء الغربى قصور الخلفاء والأمراء تعج بالجوارى والغلمان ، وتضج بالشعراء والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم والجلال والعظمة . وتمثلت فى خاطرى بغداد الأمس كباريس اليوم فى عدد سكانها ، وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وإزدهار مدنيتها ، وانبعاث الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها[٤] ومنائرها ، إلا أن باريس تشع فى أجواء مشرقة ، تسطع فيها شموس أخرى تضارعها وتصارعها ، أما بغداد التى عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها أبناء الدهاقين والأكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة فى القارات الثلاث ، فتبدد ماغشيها من ظلام وخمود ونوم .

---

(١) الخرق : الفتى الحسن الكريم الحلية . والمعذل من يعذل لإفراط جوده :
(٢) الزلالات : واحدها الزلال . الزوارق .
(٣) الدلفين والعقاب مركبان بحريان من مراكب الخليفة الأمين
(٤) جوامع : جمع جامعة

لا أدرى متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة ، لو لم يعدنى إلى وجودى صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، وقد انطلق من جوف مركب بخارى عظيم كان يشق بحيزومه صدر دجلة ، فسرحت طرفى فى الأفق ، فإذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا القزعات قد ارتد بياضها سواداً ضربت فى حواشيه حمرة الشفق فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية . ثم نظرت شمالا فإذا المكان الذى سجدت فيه رسل (شارلمان) أمام الرشيد يخفق فوقه علم غريب [١] لاهو أسود ولا أبيض ولا أخضر [٢] ، وإذا قطع من السحائب السود قد انعقدت فوقه ، ملبدة هنا مبددة هناك . . . فقلت فى نفسى : ليت شعرى أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحداد لبستها سماء العراق على السعدون [٣] ؟ !

---

(١) هو العلم الإنجليزى على دار المعتمد البريطانى فى الكرخ .

(٢) هى ألوان أعلام العرب الثلاثة فى القارات الثلاث : آسيا وأفريقية وأوربا .

(٣) كانت العراق يومئذ لاتزال مروعة بانتحار زعيمها الكبير عبد المحسن السعدون

الامتيازات والدّين

حتى على حَرَم الدين وموئل علومه ، ومعقل آدابه ، تعتـدى الامتيازات الأجنبية المشئومة ! فقد حدثنى من لا يجهل ولا يكذب أن طالباً من جنوب أفريقية يطلب العلم فى أحد المعاهد الدينية دهمه الامتحان وهو فى سكرة النعيم المصرى الخالص من الأذى والمن ، فلم يجد فى رأسه غير وساوس الشباب وغمائم الهوى ، ففزع إلى الكتاب ينقل منه نص الجواب فأخذته عين المراقب ! ثم كان مايقتضيه القانون والخلق والنظام فى مثل هـذه الحال من طرد التلميذ و إلغاء امتحانه .

ولـكن جنوب أفريقية — وأرجو أن تتذكر — له على شمالها امتيازات بالواسطة [1] ، يُدِل بها على مصر إدلال الخادم بسطوة سيده ، ويصول بسيفها صولة العبد بسيف مولاه ! حمل هذه الامتيازات أبو الغلام على ظهره عشية الحادث ، ومضى يهدج بها فى فناء الدار [2] المشرفة على النيل وعلى أمة النيل ، فاهتزّت الدار لشكواه حِفاظاً وأنفة ، وأقبلت حجرات الحراس على حجرات الخدم يتساءلن : أين إذن الامتياز إذا تساوى الأجنبى والوطنى فى قانون عام ؟ وأين إذن الامتياز إذا جرى المحمىُّ والمصرى فى الأمر على منهاج واحد ؟

وفى الصباح الباكر كان الشيخ مدير المعهد جالساً إلى مكتبه يذكر الله على إيقاع المسبحة ، وذكر الله تطمئن به القلوب وتشجع به الأنفس ، ولـكن

---

(١) اكتسب جنوب أفريقية امتيازاته فى مصر بواسطة تبعيته لانجلترا .

(٢) دار المندوب السامى الإنجليزى يومئذ :

جرس التليفون كان اليوم على ماخيل إلى المدير أحدّ رنيناً وأشد صلصلة ، فزعزع القلب المطمئن وضعضع النفس القوية !

— ألو ! ألوا ؟ من ؟

— إدارة الأزهر العليا ، أعـــد إلى الإمتحان الطالب الذى أخرجته منه الأمس .

— كيف يامولانا رقـد غش فى الإجابة ، وضبطت معـه أداة الغش ، وضاع من أيام امتحانه يوم ، وذهبت من هذا النهار حصة ، وأعلن إلى الملأ طرده ؟

— أعد هذا الطالب من غير مناقشة

وكانت اللهجة حاسمة والإجابة مفحمة ، فخرس التليفون وخشع المدير وتقاصر المكتب وخزى القانون وبهت الخلق وعجب المدرسون والطلاب إذ رأوا التلميذ الذى طرد بالأمس يعود إلى مكانه اليوم وهو أضخم مما كان جثة وأنضر طلعة وأطول رقبة !

تخالست العيون نظرات العجب ، وتبادلت الشفاه بسمات السؤال ، ولكن المكاتب الرسمية ظلت واجمة ، والأسباب السحرية الرهيبة بقيت محجوبة : حتى أذن الله لها أن تظهر ، فسكنت طبيعة المعهد ، وركدت ريح الفناء ، وثقلت حرارة الجو ، وأخذ الدار مايأخـــذ الأرض قبل هبوب العاصفة

وهنالك اقتحم الدار ذلك الإفريقى الخصى الذى رأيناه بالأمس يقرع الباب الأحمر [1] والامتيازات تجأر بالشكوى على ظهره ، ثم أثار من حلقه

---

(١) باب دار المندوب الإنجليزى .

عاصفة هوجاء ترمى بالسباب والسفه ، فلم تدع كرامة على منصة ولا مهابة على مكتب ولا جلالة فى إدارة حتى تناولتها بالعيب والزراية .

من الذى يجرؤ على أن يطرد ابنى يا . . . ، أين ذهبت أوامركم بالأمس ؟ ما بال قوانينكم اليوم ؟ كيف ترفعون رءوسكم غداً ؟ ثم تربد وجه الرجل وزبد فوه ، فأرسل على القوم من فحش البذاء ما نحمد الله على الجهل برسمه حتى نكتبه

* * *

برح الخفاء واستعلن السر ، فسكن القوم سكون الطير فى ثورة الطبيعة ! فلما هدأت زمجرة الأسود (الممتاز) وانصرف عنهم انصراف الليل المرعد عن الصباح الوديع ، أفاقت الطير من دوار الزوبعة ، وفزعت إلى الإدارة العليا تستصرخها للكرامة ، وتستعديها على الرجل ، وتسألها أن تعارض شكاية بشكاية ، وتقول فى حرارة الموتور وصرارة النادم : لقد قال الرجل فأسرف ، وسكتنا فأسرفنا !

وتشاء المصادفات العجيبة أن يكون بين يدى الإدارة آنئذ دلو من الماء النمير البارد فتلقيه على ثورة الغضاب فتقر ! ثم قالت لهم بتلك اللهجة الحاسمة والإشارة الحازمة :

نعما فعلتم ! الحلم سيد الأخلاق !

* * *

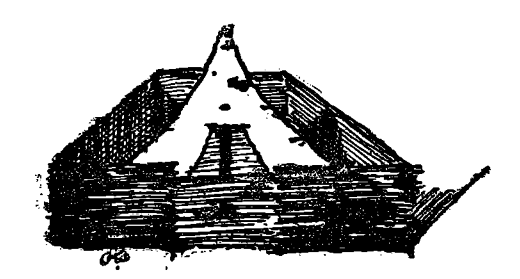
كان رجال الدين فى العهود العزيزة مفزع الفضيلة المروعة ، وملجأ الفضل المضطهد . يبغى الحاكم ، ويجحف السلطان ، ويطغى المستبد ، حتى إذا بلغوهم شدوا الشكيمة ، وردوا الجماح ، واستقاموا على الطريقة . ثم كانوا فى حضرتهم يستكينون لسلطان الدين ، وسيطرة الضمير ، وعزة القناعة ، وصراحة الخلق ،

وشجاعة القلب ، وإعلان الحق فى وجه الباطل وإن ذهبت عليه الدنيا وأريقت فى سبيله النفس .

وكان من ورع رجال الدين فى الأزمان الصالحة ، سياج على حمى الشريعة ، يرد عنها خبائث الطمع ونقائص المادة ، فلا تُسخر للظلم ، ولا تُستخدم للحكم ، ولا تُستغل للهوى . وكانت كلمة العالم هى كلمة الله ، يقولها فتعنو الجباه وتجمد لها الشفاه ويستقيم بها ميزان العدل .

فلما ابتلى المؤمنون بنفاق الحياة ، وفتن المتقون بزهرة الدنيا ، وذل العلماء لشهوة الترف ، فرغبوا فى وجاهة المظهر ، وفراهة المركب ، ورفاهة العيش ، سلبهم الله ميراث النبوة ، وحرمهم جلال الدين ، فأصبحوا كسائر الناس ، يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من ذل الامتيازات ، وغل الحزازات ، وعنت السياسة .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه فى النفوس لعظما



ذكرى المولد

(٢٥ يونيه سنة ١٩٣٤)

كان الناس فى إبريل من عام ٥٧١، وكانت الطبيعة المشفوفة [١] تنتظر انبثاق الروح المبدع، وانبعاث الربيع الممرع، وانتعاش الحياة الجديدة فى الأرض الهامدة. وكانت الخليقة المثوفة [٢] ترسل النظر الحائر فى الآفاق القائمة، ترتقب لمعة النور من الشرق، ونفحة القوة من الحق، وكلمة الهدى من الله. وكانت الجزيرة المجهودة تصهرها الشدائد، وتطهرها الدماء، وتهيئها الأقدار ليهبط فوقها الوحى، ويتجلى لها الخالق، وتتصل عندها السموات بالأرض، وكانت الهواتف الطائفة تعلن فى رءوس الجبال، وسفوح الأودية، ومدارج السبل، وسوابيط [٣] المعابد، وأواوين القصور، بشرى الرسالة الأخيرة، وظهور الرسول المنتظر. وكانت الشياطين الآلهة تئن فى أجواف الأصنام المنكسة أنين الخيبة والهيبة واليأس، وأجنحة الأملاك تخفق من وراء البصر [٤] فى جو مكة القائظ المغبّر، فتنفض عليه النور والسرور والصفاء والدعة وكانت أرواح الأنبياء من حول الكعبة تضوع بالحمد والدعاء احتفالا بختام النبوة، وقيام الدعوة مرة أخرى فى بيت إبراهيم، ثم كانت ومضات من روح القدس وأشعة الخلد تنعقد هالات مشرقات على « شِعب بنى هاشم » وفوق دار آمنة، والنبى الوليد الذى خنس لمولده الشيطان، واعتدل

---

(١) المشفوفة: الهزيلة الواهنة. (٢) المثوف: من أصابته الآفة.

(٣) الساباط: سقيفة بين جدارين تحتها طريق. (٤) من وراء البصر: أى لا ترى.

بمقدمه الزمان ، وخشع لذكره الكاهن والموبذان [١] وتصدع من خشيته الدست والإيوان [٢] يفتح عينيه للوجود فى بيت العُدم [٣] ويلقى أرواقه [٤] الكريمة على مهاد اليتم ، ولا يظفر بمرضع إلا لأنهما لم تظفر آخر الأمر بغيره !

* * *

تبارك الله ما أبلغ حكمه وأجل شأنه ! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا فى هذا المنزل المتواضع ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذا اليتيم الوداع ، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمى الحيى ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع فى العقول ، وكلمته أنوط بالأفئدة . ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة ، والتبس على الناس فعل القدرة .

كان محمد بن عبد الله مثل الله الأعلى للإنسان الكامل . صوره خلقا سويا ليرسم الأخلاق بالمثل ، ويعلم الدين بالعمل ، وينظم الحياة بالقدوة . وإلا فكيف اجتمع فيه ما تفرق فى جميع الناس من خصال الرجولة ، وخلال البطولة ، وخلائق النبل ، وبيئته لا تملك من بعض ذلك ما تعطيه ؟

رعى على بعض أهله ، وسعى لبعض قومه ، واتجر بمال زوجه ، فكان فى جليل الأمر كما كان فى ضئيله صادق العزم ، كريم العهد ، وثيق الذمة ، راجح الحلم ، شاهد اللب ، لين العطف ، حلو المعاشرة ، « يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق » .

ثم اصطنعه الله لحقه ، وحمله الرسالة إلى خلقه ، فكان فى غار حراء ،

---

(١) الموبذان : فقيه الفرس كقاضى القضاة عندنا (٢) الدست : صدر البيت ، والإيوان : إيوان كسرى . (٣) العدم : الفقر . (٤) الأرواق . جماعة الجسم .

وفى دار الأرقم ، وفى جبل ثور ، وفى دار أبى أيوب ، وفى المسجد الجامع ، ثم فى الرفيق الأعلى ، مظهراً صحيحاً لروح الله ، وإعلاناً صريحاً لسر الدين ، ومثالاً عالياً لصدق الجهاد ، واحتمالاً ساميا لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس !

جهر الرسول بالدعوة بعد أن خافت بها فى قريش ثلاث سنين ، فضلل الأقوام وسفه الأحلام وهاجم الشرك فى معقله ، وليس وراء ظهره إلا عمه ، فتألبت عليه عناصر الشر جمعاء فما أفكته عن عزمه [1] ، ولا حلحته عن همه . ثم تجلت فيه مواهب الكمال الإنسانى ، فحشد للخصومة قوى النفس وقوى الحس ، فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى ، وأثر باللسان ، وقهر باليد ، وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل . فكل نبى أو كل رسول إنما بان شأوه على قومه فى بعض المزايا ، إلا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من معجزات الرجولة ، فكان رسولا فى الدين ، وعلماً فى البلاغة ، ودستوراً فى السياسة ، وإماماً فى التشريع ، وقائداً فى الحرب .

* * *

إن حياة الرسول قانون إلهى خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا وإن وسائل الجهاد التى جدد بها أسلوب العيش وأقام بها ميزان المجتمع لاتزال مدوين ضخمة فى صفحات العلم والسياسة والخلق وإن من أساس الإسلام أن نطيع الله فى كتابه ، ونطيع الرسول فى سننه وآدابه . فليت شعرى أكان فى حدود الإمكان أن يرتطم العرب والمسلمون فى مراغة الخمول ، فيرضوا

---

(١) أفكه عن عزمه : صرفه وقلب رأيه .

بالهون ، ويقنعوا بالدون ، ويتخلوا عن مكانهم من صدر الوجود ، لو أنهم اتخذوا من أحكام ربهم منهاجاً ، ومن كلام رسولهم علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين من رجالهم قوة وقدوة ؟

أليس من خذلان الله لنشئنا الجُدُد أن يلوكوا جاهدين أسماء فلان وفلان ممن رأى رأياً أو أنشأ قصيدة أو ألف كتاباً ، ثم يتركوا عامدين اسم محمد الذى جمع العرب من شتات ، وأيقظ العالم من سبات ، وأقام للسماء ديناً فى الأرض ، وأسس للأرض دنيا فى السماء ؟

في الموقف الأدبي الحاضر

(٢ يوليه سنة ١٩٣٤)

كان ظهور (الملاح التائه) و (وراء الغمام) ،وصدور(الوادي[1])في لونها الجديد سبباً قريباً في حدوث هذه الضجة الأدبية القائمة ، لأن الديوانين على رغم ماقيل فيهما نتاج من الطراز الأول يستحق العناية ويستوجب النقد ويستدعي الخلاف ؛ ولأن الشاعرين — وإن كانا بحكم ثقافتهما غريبين عن العالم الأدبي — قد جذبا إليهما الأبصار وعطفا عليهما الأنصار بالطبع الموهوب والذوق الناقد فلكل منهما في كل قهوة رقيب ورفيق ، وفي كل صحيفة عدو وصديق ، وفي كل ناد مكبر ومنافس ؛ ولأن (الوادي) قد أخذت منذ حين تفتح لأدب الشباب (محضراً) في كل أسبوع ، وقد تطوع الشهادة له وعليه أساتذة النقد في صحيفتي الجهاد والبلاغ وكانت الحملة عنيفة على صاحبي الديوانين لحظهما الوافر من الإجادة ومحلهما الرفيع من الفن ، فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد ، وقاسى الشاعر المهندس معول المازني . وكان الدفاع عنهما ألكن الحجة أوهن الدليل لصرفه الجهد في رد المآخذ ؛ ولو عنى بتبيين المحاسن كما عنى بتحسين المساوىء لأخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضئال العيوب في بهر الجمال وروعة الصنعة ولكل عمل من أعمال الناس جهة المدح وجهة الذم لاتتشابهان على ناظر والنقد صناعة دقيقة لا يحسنها في الغالب إلا شيوخ الأدب . لأنهم استكملوا عدتها واكتسبوا ملكتها بإدمان الدرس

---

(١) الملاح التائه : ديوان الشاعر المهندس علي محمود طه ، ووراء الغمام : ديوان الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي ، والوادي جريدة كان يحررها حيناً من الدهر الدكتور طه حسين .

وطول المرانة وكثرة التجربة ، فردُّ مآخذهم إذا برئت من الشطط والاعتساف يكون فى الكثير الغالب من وراء القدرة الشابة .

وكان أسلوب النقد ولا شك مشوباً بصلف الأستاذية ، وعنت الحزازة وعبث التهكم . وحجة النقاد أنهم بالطبيعة أولياء الفن وأمناء هيكله وأصحاب إذنه ، فلا يجمل بهم أن يُدخلوا فيه من لايثبت معدنه على شدة السبك ، ويخلص جوهره على تقَّصى النظر ، وأن الادب أعسر من أن يُنال بالدعوى العريضة والدعاية المريضة والأساليب الملفقة .

كان طبيعيًّا أن يأنف الشباب من هذه الاهجة ، ويألموا من هذه الشدة ، ويزعموا أن هناك ائتماراً بهم وإنكاراً لأدبهم ، فيسوء ظنهم بالنقد ، وتفيض مجالسهم بالشكوى ، ويقابلون الأستاذية بالتمرد ، والحزازة بالعناد ، والتهكم بالحنق ، ويبسطوا الأمر على أنه نزاع بين أدبين : قديم يشتهيه الموت ، وجديد تبتغيه الحياة وتنفرج الحال أخيراً بين جيلين مقامُ الأول من الثانى مقام المدرب المشفق والمرشد الناصح والدليل المجرب .

* * *

إن شيوخ الأدب وشبابه إنما يتخذون أدوات واحدة ، ويعالجون موضوعات متقاربة ، وينتجون نتائج متشابهة فتاريخ الأدب يوم يكتب عن هذه الفترة لايجد للشباب أسلوباً خاصاً يسجله ، ولا مذهباً جديداً يحلله ، ولا أثراً مستقلا يشرحه ويعلله . إنما هى مطامح الفتوة إلى المثل الذى توحيه الطبيعة وتقتضيه الفطرة ويلهمه الاطلاع ، تحاول همتهم الوثابة أن تدنيهم منه فيقعد بهم عجز الوسيلة ونقص العدة .

وليس يسوغ فى العقل أن يُعدَّ التسامح فى اللغة والتساهل فى الأسلوب

والتجاوز عن القواعد ميزة ، فإن بأس الشباب لم ينكسر أمام عزم الشيوخ إلا فى هذه الناحية .

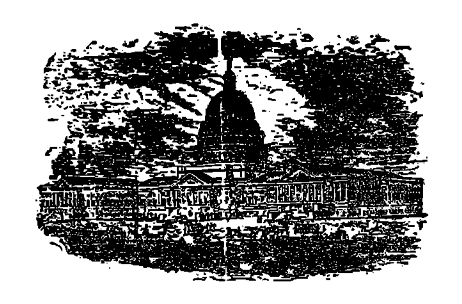
والحق أن المسارعة إلى الإنتاج العام قبل استكمال وسائله الأولى غميزة[1] بينة فى أدب الجيل الحديث . فإن الإلمام باللغات الأجنبية ، والوقوف على قواعد الفن الأوربية ، لا يجعلان المرء كاتباً فى العربية مالم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تردها طيعة لقلمه لينة على لسانه . والاعتماد فى اكتساب الأدب على محاكاة النماذج وتقليد المُثُل لا يقوم عليه فن ثابت ، ولا ينهض به فنان معدود . وما كان المثل ليغنى عن القاعدة وهو لا يضىء إلا ناحية من الطريق والقريحة نفسها وهى غريزة الأدب والفن فى الإنسان ، ليست من الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة إلى عمل صحيح ، فإنه موهبة طبيعية تختلف فى الناس وفى الأجناس ، وتحتاج إلى المرانة بالدرس والعادة . وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت وإنك لتجد عقلا مطلقاً مستقلا لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء ؛ ولكنك لا تجد مهما تستقر وتستقص ذلك الذوق المطلق المستقل الذى لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة أما القواعد فهى نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لك إنها أمثل الطرق لإحسان العمل دون أن تخضع عبقريتك لها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فإن بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

---

(١) الغميزة : المطعن .

وبعد ، فإن الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضى والمحامى على فهم العدل . فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على خلاف . وإن الأدب الشيخ والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر ، فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة .

والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ؛ ينفى الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه .



أحمد زكي باشا

(٢٦ يولية سنة ١٩٣٤)*

رحم الله زكى باشا ورضى عنه ! لقد كان علماً من أعلام هذا العصر ، ورسولا من رسل هذه النهضة ! وأعلام هذا العصر ورسل هذه النهضة معلومون معدودون ، لاتزيد فيهم المجاملة ، ولا تنقص منهم المجافاة . ولكل واحد منهم ناحية من نواحى الإصلاح أشرقت فيها نفسه ، وانتشر فى جوانبها سناه . وهم يمتازون من النابغين والنابهين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الإيمان والعصبية ، ورسالة روحيـة بلاغها الجهاد والتضحية . فمحمد عبده فى الناحية الدينية ، ومصطفى كامل فى الناحية الوطنية ، وقاسم أمين فى الناحية الاجتماعية ، وسعد زغلول فى الناحية السياسية ، وأحمد زكى فى الناحية القومية ، قد تلقوا جميعاً رسالات الفطرة على نحو مابلغ المرسلون رسالات الوحى . نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعى إليها ووسائل لها ، ثم لازمتهم فى أطوار العمر وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعى والغاية من الحياة .

فزكى باشا منـذ بلغ سن التكليف تمثل لعينه مثله ، واستجابت فى ذهنه رسالته : رأى العروبة لفظاً تنير مدلوله فى الناس ، وجنساً تنكرت معالمه فى الأجناس ، ولساناً فشا فيه الدخيل ، وديناً تقول عليه الباطل ، وأثراً عبث به الجهل ، وتاريخاً تطرق إليه النسيان ، وحضارة غض منها التعصب ، وحقاً تجهم له البغى ، وإرثاً تخطفته الغزاة ، ووحدة مزقتها العوادى ، فنهض لإصلاح ذلك كله نهوض المصلح الملهم والمؤمن الواثق . وكان أول ماعانى من وسائل

العيش معالجة الترجمة فى الديوان ، ثم تعليمها فى المدرسة ، فصرف جهده فى تنقيح التراكيب الديوانية ، وتصحيح الأعلام العربية ، وتصويب الأخطاء التاريخية ، ونقل مايعلن محامد الإسلام إلى اللغة الفرنسية ، ثم كان لايسمع بمكرمة تروى لأمة إلا التمس الاولية فيها للعرب . فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنئين دخلوا على الرئيس (بوانكاريه) يهنئونه برياسة الجمهورية فما شكر أحداً بما شكر به الآخر ، فيكتب فى تلك الصحف نفسها أن الوزير ابن زيدون قد سبقه إلى ذلك فى موقف حرج من مواقف العزاء . وتتبجح أوربا باختراع الطائرة فيثبت لها أن ابن فرناس أسبق من طار فى الجو وأول من مات فى سبيل الطيران . وتشيد أمريكا بعبقرية (كولمب) فى كشف الدنيا الجديدة ، فيقول لها إن العرب أولى من فطن إلى وجودها وسعى لكشفها

ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرفت نفسه إلى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الإسلام ، فحج الأندلس وزار العواصم الأوربية ، ينقب عن نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر فى سبيل ذلك جهداً ولا ثروة . ثم لابس المستشرقين دهراً مليـا ، يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث ، وحذق أصول التحقيق ، ومهر طرائق النشر ، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة .

فلما اعتزل المنصب الحكومى تسايرت قواه وهواه إلى خدمة الأمة العربية ، فوفد على ملوكها ، وسفر بينهم بالصدق والألفة ، حتى أذهب الموجدة ، ومهد لتوحيد الكلمة .

ثم جرد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبا وعزم الشباب وصبر الرجولة ، فشغل الصحف بالمقالات والمناظرات ، وغمر الأندية بالخطب والمحاضرات ، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات ، وفى كل يوم يعتكف الساعات

الطوال فى مكتبته الجامعة يحرر مسألة أو يحضر إجابة أو يحبر مقالة أو يصحح تجربة ، حتى إذا فرغ من ذلك كله رجع إلى بيته ، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطارئين على مصر ، فينشر عليه الأنس ، ويميض فيه الكرم ، ويبث خلاله المعرفة ، فكانت حضرته كحضرة الصاحب ابن عباد ، مصدر العوارف والمعارف ، ومثابة القصاد والوراد من كل قطر وطبقة .

ثم أسلم وجهه إلى الله فى عهده الأخير ، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره ، فكنت تراه لايفكر إلا فى المسجد ، ولا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا عنه ، ولاينفق إلا عليه ، ولايبرد البُرُد ويرسل الرسل إلا فى شأنه . فلو لم يعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربى .

* * *

ثقافة زكى باشا ثقافة الأديب ، فهو محيط بكل شىء ، ولكنه غير راسخ فى شىء . وذوقه ذوق الفنان ، فهو أنيق فى ملبسه ، أنيق فى مأكله ، أنيق فى مسكنه ، أنيق فى أسلوبه ، أنيق فى نشر مقاله ، أنيق فى طبع كتابه . وخلقه خلق العالم ، فهو متطامن النفس ، عذب الروح ، حلو الفكاهة ، سليم الصدر ، يذهب فى المداجة إلى حد العجب ، ويخرج من تقدير مجهوده فى العلم إلى التفاخر به .

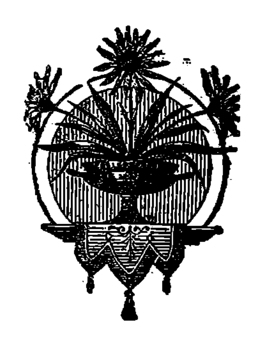
وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية ، وإلمامه بالآداب الأوربية : فتفكيره استطرادى لا يُعنى بالوحدة ، ولا يحفل كثيراً بالتناسق : وأسلوبه أندلسى يتصيد السجع ، ويتلمس ألوان البديع . ومرجع ذلك إلى اعتقاده بعربيته ، واعتداده بشرقيته ، واعتماده فى تكوين نفسه على أدب أمته .

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الإصلاح فى عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حيّ عن بينة ، فإن نهوض الأمة على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكل منحل ، يكون أشبه بنهوض الكسيح لايقوم إلا ليقع .

وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص فى ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره وصورة شعاره ومرجع حديثه . وهى :

وقفت على إحياء قومى يراعتى ... وقلبى ؛ وهل إلا اليراعة والقلب
ولى كل يوم موقف ومقالة ... أنادى ليوث العرب ويحكمو هبوا
فإما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء وهو مايرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض العروبة والعربية والإسلام من فقده خير العوض .



بين السياسة والأدب

(٢٢ يوليه سنة ١٩٣٤)

ينظر الأدب المصرى اليوم إلى السياسة نظر المغيظ المحنَق لطغيان جلالها على جلاله ، وعدوان سلطانها على استقلاله ، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث الهوى المتحكم بقوانين العدالة !

شهد الأدب فى هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا ، وجنازة أدبية لأحمد زكى باشا ؛ وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك ، وذكرى أدبية لحافظ إبراهيم بك . فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة ، ومظاهرتين من مظاهرات القومية المتحدة ، شملت البلاد وشغلت الصحف وأرهفت الشعور وأرهبت الحكومة ونفست عن العاطفة العامة المكروبة . وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا دليلين على هذا التواضع المسكين الذى يصاحب العلم ، وأثرين لهذا البؤس المهين الذى يلازم الأدب ، فشيع الأولى بعض الأصدقاء وبعض الخاصة ، ونسى الأخرى كل الأصدقاء وكل الخاصة ثم تهامست بين الناس الشكاوى ، وتعلقت من الأنصار المعاذير ، وتجاوبت فى الأقطار الشقيقة أصداء الأسف ، ونعى كاتب سورية الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة. وليس الأمر فى نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة ، ويثير السخط على الجمهور ، ويستوجب الملامة على مصر ، فإن السياسة تقوم بواجبها ، ولا تحول بين أحد وبين واجبه

السياسة عقيدة ، والعقيدة تحييها الشعائر ، وتنميها المظاهر ، ويقويها الحشد ، وينشرها الإعلان ، ويديمها التذكير ، وتجددها الدعاية .

والسياسة مبدأ ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرّم فى ذكرى الميت كما كان يكرّم فى وجود الحى ، وما حالات السياسى إلا مناسبات يُهتف فيها بفكرته لا بصورته .

والسياسة جهاد ، والجهاد يدعو إلى البطولة بتكريم البطولة ، وإلى التضحية بتعظيم التضحية .

والسياسة حكومة وخصومة ، ومن حق السياسة المكظومة أن تتلمس الحرية فى كل فرصة ، وتتنشق الراحة من كل فرجة .

والسياسة جاه وقوة ، ومن طبيعة النفوس أن تشايع الجاه وتبايع القوة إبتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة .

والسياسة بعد ذلك كله الشعب ، فرجالها زعماؤه ، وضحاياها شهداؤه ، ومواقفها مواقفه .

أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك . ليس عقيدة للعامة ، ولا فكرة للأمة ، ولا ساحة للنفوس المجاهدة ، ولا مطمعة للعيون الرغيبة ، إنما هو فن الخاصة وبغية الرجل المثقف . فإذا لم يحفل أهله بأهله ، وينوه جمهوره بفضله ، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنغام موسيقى الجيش بعد المعركة ، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجند والقادة .

* * *

الأدباء هم الملومون على هذا العقوق ، والصحفيون هم المسئولون عن هذا

الإهمال وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة هما اللتان تفسران البواعث على هذه والدوافع إلى ذاك . والأديب الذى ينفس على أخيه محنة الوجود ، يجد من الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود . والأدب فى الحياة وفى الممات شر على صاحبه ، فإنا لانزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة ، وتخفى دلائل النبوغ ، وتزيف حقائق الفضل ، ثم لاتترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكرة من الأدب والفن والخلق . ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطى بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكى ، كأن الكاتب يداً فى تركيب مزاجه وتكوين بيئته وتأليف ظروفه وتثقيف ملكاته ! كذلك لانزال نسمع من يشدد النكير على شوقى لأنه عالج فى بعض عمره شعر المديح ، كأنه نشأ فى ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة ! وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبى كان يمدح سيف الدولة !

* * *

نعم كان أمس ذكرى حافظ ، وكان أول أمس ذكرى سينوت ! فهل رأيت بعينك وفاء السياسة وجحود الأدب ؟ إن حافظاً رحمه الله مايزال يقتضى أصدقاءه الخلّص حفلة التأبين وتأليف الكتاب الذى وعدوا الناس به ، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال !

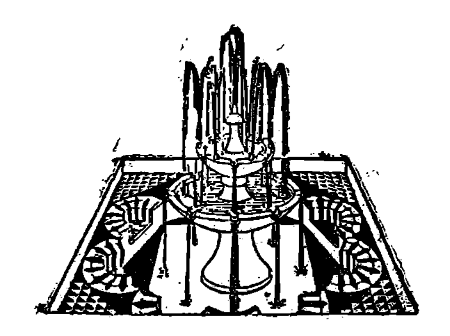
ولقد كان من جرائر نحسه الذى ظل بعد موته حياً يعيث ، أن مواهبه السامية فى الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة ، فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث ، حتى خشينا أن يصبح فى الخاصة ما أصبح أبو نواس فى العامة !

فن مبلغٌ حافظاً الصديق أن المودة بعده أصبحت لاتبقى على المحن ،

ولا تقوى على الأهواء ، ولاتثبت للظروف ، ولاتتجاوز كذب الحياة إلى صدق الموت . . . !

ومَن مبلغ حافظاً الأديب أن الأدب بعده أصبح داء كداء الضرائر يهيمن عليه المنافسة الكاذبة ، وتغض منه المحاسدة اللئيمة ، وتتحكم فيه الأغراض الحقيرة ؟

ومن مبلغ حافظاً الفنان أن فنه الجميل سيبقى على لؤم الإنسان وظلم الزمان رائعاً ماراع الجمال ، ساطعاً ما سطعت الشمس ، خالداً مادام الخلود .



على الشاطئ الغريق

(٢٤ سبتمبر سنه ١٩٣٤)

هكذا الطغيان يانيل ! يجعل مصدر الحياة مورد هلكة ، ومنبع الخيرات حضيض بركة ، وأصل العمارة غاية دمار وخسر !

هذه شواطئك الخضر يانيل كانت بالأمس تتنفس بالنعيم ، وتتدفق بالخير ، وتترقرق بالجمال ، فأصبحت اليوم تختنق بالأخطار ، وتلتطم بالمخاوف ، وتهدد الحقول الغنية الخصيبة بالفاقة والجدب . وهذه مدنك البيض وقراك السُّمر كانت تتفيأ على ضفافك ظلال الخفض ، وترمق من خلال النخل أمواجك المرسلة المسلسلة وهى توقع بين القصب الأَنِّ ألحان الثراء والغبطة فتهتز بك وتقدس لك ، فأصبحت تحشد فى وجهك الجنود ، وتقيم بينها وبينك السدود ، وتضرع إلى الله أن يصرف عنها طغيانك وجورك ! وهؤلاء أبناؤك الوادعون كانوا يتعهدون بالعمل الدائب غرسك الزكى وثمرك العالى ، فيدفعون الحشرات عن القطن ، ويدرأون الطفيليات عن الذرة ، ويسلسلون فى الحقول نضارك الذائب ، ويستقبلون بالشوق الآمل موسمك الآئب ، فأصبحوا وهم من هولك قائمون على رِجل لايستقر لهم جنان من الروع ، ولايطمئن بهم مجلس من الجزع . ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك ، من أسوان إلى مصبَّيك ، يدافعونك مدافعة العدو ، ويكافحونك مكافحة الوباء ، ويكابدون فى صد غارتك الجهد والجوع و (السخرة) ! ذلك والقرويات ينتظرون بالقلق الجازع الغرق المخشىّ ، ويرصدون الأهبة للهجرة المتوقعة ؛ فهن يجمعن المتاع ويشددن الغرائر ويلقين النظر الحزين على القطن المكتهل على أعواده ، والذرة الناشىء عَلَى سُوقه ! وهكذا الطغيان يانيل يروع السكينة فى القلب ،

ويفزع العدالة فى الدولة ، ويجعل سلام الأرض وسلامة الناس لمشيئة فرد !

* * *

وقفت منذ أيام على شاطىء من شطآنك المنكوبة أرسل طرفى الساهم فى تيارك الجارف ، ودواراتك المدومة ، ولججك الفائرة ، ثم أرده إلى السواحل النصانة والمزارع الغرقى وفكرى بين هنا وهناك يستقبل الذكريات القديمة ، ويستحرج المشابهات الأليمة ، فذكرت بهذا المنظر الحزن ترة[1] بينى و بينك موروثة ! فقد طغيت فى عام ١٨٧٨ على قريتى الصغيرة فاحتملتها هى ومئات من أمثالها كما يحتمل السيل الدافع أكوام الهشيم ! وكان قومى قد سمعوا بانفجارك فى (ميت بدر حـــــلاوة) على مقربة من سمنود وبيننا وبينها عشرات من الأميال ، ولكن ماءك الطاغى مر هذا المفيض حتى انحدر فيه مجراك كله ، فلم يكن بين السماع والرؤية إلا ريثما حزموا المتاع وشدوا المطايا . ثم أدركهم فيضانك قبل الرحيل ، فتركوا الأرزاق وطلبوا النجاة . فحمل الكبار الصغار ، والطوال القصار ، والنساء الأطفال ، ومضوا يتحسسون الطرق تحت الماء ويتلمسون المصاعد فوق الأرض ، حتى بلغوا — وما كادوا يبلغون — ساحل (نهر شبين) وهو على بضع دقائق من القرية . وهنالك وقف المهاجرون على الشاطىء العالى بين البحرين[2] يودعون بالنظر الدبران[3] قريتهم الهالكة ، والماء يغيب الدور ويبتلع الشجر حتى لم يبق ظاهرا منها إلا شرفات بيت الله وغرفات[4] بيت العمدة ثم تمزقوا فى البلاد يطلبون المأوى عند ذوى القربى أو عند أولى المودة حتى انحسر الماء فعادوا واستأنفوا عمـــــارة القرية فعادت !

---

(١) الترة : الثأر (٢) ماء الفيضان وماء النهر (٣) العبران : الباكى .
(٤) الغرفات : جمع غرفة وهى الحجرات العليا من البيت .

ثم لايزالون يؤرخون الحوادث بهذه (الفرقة) ، ويهوِّلون فى أحداث تلك الهجرة ، ويستعدون كل عام لطغيان النهر ، قبل أن يثون أوانه بشهر ! وهكذا الطغيان يانيل يفرق الألاف ويشتت الوحـدة ، ويوهن بين الأوداء أسباب المودة !

* * *

يطغى الحـكم كما طغيت يانيل فيجرف السدود ويتعدى الحدود ويتخطى الحواجز ثم يدور بالتجسس ، ويفور بالإرهاب ، ويقذف بالتهم ، ويسخر قوى الدولة وموارد الأمة ومرافق الناس لسلطان أمره وطماح نفسه ونفاذ حكمه . وأصل الطاغية كان مثلك يانيل ، فياض اليد تقدسه الناس ، جارف التيار فاتبعه الشعب ، ثم ناصرته شهوة الخاصة ، وساعدته غفلة العامة ، فرد أهواء النفوس إلى هواه ، وشورى العقول إلى رأيه ، وحدود القوانين إلى إرادته ، وسطوة الجماعة إلى يده . ثم تفيض هذه القوى المتجمعة عن طاقة الفرد فيطغى ، ويزيد السلطان المفرط على غرور الإنسان فيتأله ! ويومئذ لاتسأل عن حدود الله كيف تُطمس ، ولا عن رسوم العدل كيف تُدرس ، ولا عن حقوق الناس كيف تُنتقَه ، ولا عن نظام الأمر كيف يتبدد ، ولا عن جموح الأثَرة كيف يبغى ويتحكم !

وهكذا الطغيان يانيل يعطل منابع الخير ، ويبدل طبائع الفطرة ، ويقتل مواهب العقل ، ويغمر بالظلام آثار العلم ودلائل العقل وشواهد الـكفاية .

* * *

ويطغى الأدب كما طغيت يانيل فـــــلا يكترث للقواعد ، ولا يَعُوج بالأصول ، ولا يحفل بالمنطق ، ولا يأبه للخلق ، ثم يرغى بالبذاء ، ويُزْبِد بالمراء ،

ويطفح باللغو . وكان الأدب الطاغى مثالك يانيل عذب الشمائل ، سهل الشريعة ، فروِى الناس من نبعه ، وبَرَدَتْ أكبادهم على نداه . ثم انتكس المجتمع ، وانقلبت الأوضاع ، وفسدت المقاييس ، واستفاضت الدعوى ، تبجح الغرور ، واستنهم الأمر ، فرأى سلاطة اللسان أجدى عليه من براعة الذهن ، والتواء الفكر أنفع له من سلامة القياس ، ولؤم الوقيعة أشد لسلطانه من كرم النفس ، وشهوة الجدل أقرب إلى قلبه من حب الحقيقة . وفى العهود التى تسطو فيها اليد ويستخذى القانون ، يَتَسلّط فيها اللسان ويستكين المنطق ! ثم يكن لمثل هذا الطغيان تكرُّم الأدباء عن مقام المسافهة ، ضناً بأخلاقهم على الغمز ، حساسهم ويإعلى المضاضة . وفى التاريخ السياسى والأدبى يانيل أمثال وأشباه ! ولكنها تنحسر كلها عن جوهر الحق ومحض الخير ولباب الجمال ، كما تنحسر أنت عن هذه السواحل والجزر والقرى بحكم الطبيعة ومشيئة الله .

يا هادي الطريق جُرت

(٥ نوفمبر سنة ١٩٣٤)

ذلك هتاف الأمة الحيرى يتجلجل فى صدرها المكظوم كلما بهرتها الشدائد ، وأجهدتها المفاوز ، وفدحتها الضحايا ، ووقف بها اللغوب ، ودارت ببصرها فى معامى الفضاء فلا تتبين نسَماً لطريق ، ولا تتعرف وجهاً لغاية .

يا هادى الطريق جُرت !

ذلك صراخ القافلة المكروبة تخبط منذ طويل فى مجاهل الأرض وخوادع السبل وأدلاؤها الغواة يلتهمون زادها مع الوحش ، ويقتسمون ما لها مع الغير ، ويغتنمون ضلالها مع الحوادث ؛ حتى قطعوها عن ركب الإنسانية وتركوها فى مطاوى التِّيه ، تنفق جهدها على غير طائل ، وتنشد قصدها من غير أمل

يا هادى الطريق جُرت !!

ومن يستطيع اليوم أن يعرف هذا الهادى بالنداء ، أو يخصصه بالوصف ، أو يأخذه بالتبعة ؟ لقد تعدد الهداة فى هذه القافلة ، واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجاذبوا الأزمّة ، فأخرجنا هذا من مذهب إلى مذهب ، وصرفنا ذاك عن مطلب إلى مطلب ، حتى إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذى كنا فيه ، أو نرجع إلى الموضع الذى فصلنا[1] منه !

على هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقرى زهاء ثمانين سنة ! رجعنا

---

(١) فصل من البلد فصولا : خرج منه .

إلى العهد الذى كنا نهدهد الدستور فيه على هوى السلطان المطلق ، وندرب القانون على مصارعة العرف الغالب ؟ ونعلم الشعب الأجير معنى الأمة المالكة ؟ وليتنا عدنا إلى ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ! فقد كنا على قلتنا أعزة ، وعلى فاقتنا أعفة ، وعلى جهالتنا أعلم بالخير وأفهم لمعنى المجتمع كنا نتواصى بالصبر ، ونتعاون على البر ، ونتهادى صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكىء على النقيصة ، ويتحمل على الخبث ، ويتجر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبه شريعة !

ولكنا ، وا أسفاه ، بعد هبة مصطفى ، ونهضة سعد ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولد النبوغ ، وتوحد الشعب ، وتكوّن الرأى ، نصاب بهذه النكسة الشديدة فنعود ناقضين ما أبرم ، خاسرين ما غُنم ! ؟

* * *

اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادى لا يزال ينبت ، وإن الشمس التى أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تشع ، وإن الأيدى التى غرست أولى الحضارات على العدوتين [1] لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر ، وتتحرر الشعوب الضعيفة ونحن لا نتحرر ! ؟

دع عنك ما يقال من كلـ … قد الاستقلال ونجنى الدول ،

---

(١) العدوتان : شاطئا الوادى .

فإن ذلك كله عرض من أعراض العلة الدخيلة الوبيلة وهى انحلال الخلق . وانحلال الخلق فى دهرنا الحديث داء جرثومته أننا عنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الابن قبل تعليم البنت فكان لنا من ذلك الوضع للقلوب رجال يجرون فى عنان مع علماء الغرب[1] ، بل ربما طاولوهم فى حذق اللغات وتلون المعرفة ، ولكن كثيراً منهم يخلون من أخلاق الرجولة خلو البيت من الأم الصالحة ، والمدرسة من المربى القادر ، فتخونهم الكفاية عند التطبيق ، وتخذلهم الشجاعة عند العمل ، ويفارقهم الضمير عند الواجب ، فلا يبقى إلا الغرائز الحيوانية التى تثب على أموال الناس ، وتعتدى على حقوق الشعب ، وتستخدم السلطان العام فى مساعدة الصديق ومكايدة العدو ومناوأة الخصيم ؟

وليت غريزة الحياة بقيت فينا على حال الفطرة ! إذن لعلمنا ما تعلم النمل من قوام العمل ، وفهمنا ما تفهم النحل من نظام الجماعة ، وسرنا على نور الله لا نعمه فى ظلام ولا نسدر فى غواية .

* * *

إن بعض الأمم الإسلامية أقل منا عدداً وأرق ثروة وأضيق ثقافة وأحدث مدنية ما فى ذلك شك ، ولكن غرائزها الأصيلة لم يزيفها ذل الرق السياسى ، وخلائقها النبيلة لم يفسدها زور المدنية الوافدة ، فتمردت على الضيم ونعنتت على الأحداث ، وقلمت الأظفار الناشبة فى استغلالها ، وقطعت الأيدى الطامعة فى استقلالها ، ومشى أبناؤها الأباة على هدى ماضيهم للشرق لا يستكينون لمشورة حايفة ، ولا يستنيمون لمعونة أجنبى ، ولا يستجيبون

---

(١) جرى معه فى عنان ساواه .

لوساوس الأطماع فى مرافق الأمة ومناصب الدولة ، حتى انخزلت عنهم التهم ، وغفلت عنهم الفتن ، واستوثق لهم الأمر أو كاد .

ذلك ياقوم ما يهدى له منطق الطبع وصوت التاريخ وعبقرية الجنس . أما هذا الذى نحن عليه فلا يمكن أن يؤدى إلا إلى ما نحن فيه . فتداركوا إفلاس المدرسة وفشل السياسة وفوضى الحكم ، بإيقاظ الضمائر الغافلة ، واستخدام الكفايات المعطلة ، واستلهام هذا الشعب المجيد الذى عودته عناية الله أن يعوّق ولا يضل ، وأن يعذب ولا يذل ، وأن يحارَب ولا يستكين .



داء الوظيفة

(١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤

قال وهو يقلب كفيه من الهم ويعض على يديه من الغضب

سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قبل أن يمضى القرار بالوظيفة ، فهل رأيت مثل هذا الحظ المتخاذل والقدر العابث ؟ . . .

فقلت له : هون عليك يا بنى ولا تساقط على نفسك أساك إن معك الشباب القادر ، والأمل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التى تفتح لك كنوز الأرض ، وتدر عليك أخلاف السماء ، وفى القرية متسع لأمثالك ممن يحيون مواتها ، ويجددون حياتها ، ويُفيضون على أهلها نعمة العلم وخير المدنية ونعيم الحضارة فلم لا تستأجر مزرعة فى بعض دوائر الأمراء تجرب فى استغلالها كفايتك و إرادتك وحظك ؟ إنك إن فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ، وخلقك من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزقك من تحديده بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة .

فأجاب وفى عينيه سهوم العجب من هذا الرأى : مالى أدفع بنفسى فى هذه المغامرة المجهولة ، والوظيفة تضمن حاضرى بالمرتب ، وتؤمِّن مستقبلى بالمعاش ؟ والقليل المتصل خير من الكثير المتقطع ، والوضع المتطامن المتماسك أصلح للقرار من الرفيع المترجح ؟ !

فقلت له : ذلك كلام لاكته الألسن حتى تفه ، وتقبلته الآذان حتى سمج . ولقد كان له مساغه وبلاغه يوم كانت المدارس لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة ، فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجـــال

العمل ، وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتجال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب ، فإن الإخلاد إلى المقاعد الحكومية إخلاد إلى العجز واطمئنان إلى الهون وانخزال عن تحرير الوطن .

قال : ولكن فريقا من الشباب ارتجلوا بعض الأماني الاقتصادية الجماعية فى الزراعة والتجارة والملاهى ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل .

فقلت إن هؤلاء فاروا عن حرارة وقتية ، وثاروا عن ريح عابرة ، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه ، وزاولوه دون أن يفرغوا له ، وأخطأوا تقدير المنافسة الأجنبية فأخطأهم التوفيق . ومالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتواثب إلى عينيك من كل مكان ! ألم تر إلى اليونانى أو الطليانى كيف يفد عليك من غير رأس مال ولا شهادة جامعة ولا توصية وزير ولا تعضيد جمهور ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرع معالى الأمور فى روية وصبر ، حتى يبلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ، وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويتعبدك ربا مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير فى دار الحكومة تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينيه الحدائق ، وتكفل لمتاجره الأمن ، وتدبر لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر !

* * *

رأى صديقى الفتى أن لهجتى لا تلائم همه الغالب ، وأن منطقى لا يساير منطقه اليائس فتولى عنى غير راض ولا مقتنع ، وتركنى أحدث نفسى ،

وأقارن بين يومي وأمسي ، فأجدني بين عملي المقيد الذي انصرفت عنه ، وبين عملي الحر الذي انصرفت إليه ، أشبه بالسجين المغلول يعمل برأي غيره ولحساب غيره . يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ويسير ولا يقف إلا في نظام . وهو يأكل حين لا يشتهي ، وينام حين لا يريد ، ويستيقظ حين لا يحب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعي : قوة محركة وآلة . ثم يدرك السجين لطف الله فتتفكك عنه السلاسل ، وتتفتح له الأبواب ، فيجد عقله في النور ، وخاطره في الطبيعة ، وحريته في الجو ، ووجوده في المجتمع ! فينبت الريش الناسل ، ويخفق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة !

* * *

إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سُلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش ، وعاشوا في ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغلولين عن الحركة ، مكمومين عن الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة

يدخل للموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاما حتى يأخذ بمخنّق الستين وكأن لم يحدث في العالم شيء ! يختلف الليل والنهار ، وتتبدل الأحوال والأطوار ، وهو على مكتبه الضيق في غرفته المظلمة ، يعمل ساعة ويجترّ أخرى ، دون أن يشعر بدوران الفلك ، ولا أن يفطن إلى حركات العالم ! يدخل الديوان وهو طرير الشارب ، أثيث الجمة ، ريان من الشباب والقوة والأمل ، ثم يودعه وهو مخدد الوجه ، أشيب الشعر ، متداعى الجسم ، فقير من المنى والذكريات والمال ، لا يصلح إلا أن يكون عموداً في مسجد أو منضدة في قهوة ورُبما أقصدته[1] المنون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة

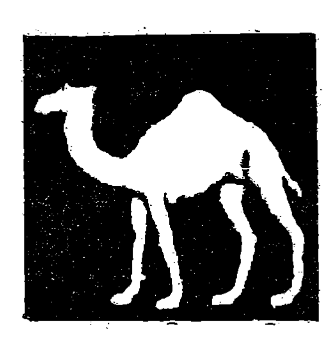
(١) أقصدته المنون : رمته فلا تخطئه .

شديدة وحياة رتيبة وأعمال واحدة ، فى ساعات لاتختلف ولا تتبدل .

* * *

أيها الموظفون ! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ، وإن لخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب . فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد ، فإنها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكامن الخمول والموت . واقرأوا على أبوابها ما كتبه « دانتى » على أحد أبواب الجحيم :

« قوضوا حصون آمالكم ، وأضمروا اليأس من مآلكم ، أيها الداخلون ! »



عهدٌ وأيُّ عهد!

(٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤)

كان عهداً كرعدة الحمى أو كرجفة الزلزال ، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين فكدّر من طبعه ، وغيّر من وضعه ، وبدد من نظامه !

هل تخيلتَ الجنة وقد اتسق فى ظلالها الخفض ، واطّرد فى مياهها النعيم ، وانبلج فى أجوائها الأنس ، وانبسط على أرجائها السلام ، يقتحمها شياطين الجحيم عَنوة ، فيجعلون ظلها حَروراً ، وماءها مُهلا ، وأنسها وحشة ، وسلامها فتنةً ؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم وبعده !

كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام ، وتتدرج مع الطبيعة فى النمو ، وتتوثب مع الحق عَلىَ العدو ، فنجم فيها ناجم[1] من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص ، ثم أثار فى وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلف ، وامتحن قلوبها بالبطش ففزعت إلى الصبر ، وسلط على مُترفيها المنى فقرّوا عَلىَ الرّيب ؛ وراح الذئب المقنّع[2] أو الطاغية الكاذب يعيث فى كل ديوان ، ويفتك فى كل مكان ، ويختل فى كل جماعة ، حتى عطّل سلطة الأمة ، وأبطل سطوة القانون ، وقوض ركن الفضيلة .

* * *

تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس

(١) رئيس الحكومة فى ذلك العهد .

(٢) ناظر الخاصة الملكية يومئذ وقد كان يضع إصبعه فى كل عمل من أعمال الدولة من غير حق .

والهواجس والأوهام في مثل الدجى الحالك . تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد ، وتركب رءوسها[1] ويعلنون أنها تسير ، وتضطرب في شقائها اضطراب الذبيح ويوهمون أنها تحيا . ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشُرَطها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم ورياضته على الاستكانة ، فنسى الجندى أنه حُشد لمدافعة العداة ، والشُّرْطى أنه رُصد لمراقبة الجناة ، والموظف أنه أعدّ لتصريف الأمور ؛ ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر ، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر ، وتعهدِ هذا المخالف فلا تُخلفه بر ، وتعقُّب ذاك المخالف فلا يفلته أذى !

ثم انتشر الوعيد والوعد في جنبات النفوس يستنزلانها عن الخلق ، ويفتنانها عن العقيدة ، ويغريانها بالعداة ، ويحرضانها على الصداقة ، حتى اشتبه الوفاء ، واتهم القضاء ، ومرضت الأهواء ، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه ، وانفرجت الحال بين الرجل وواجبه وكل ذلك لتشرى جماعة وبتسلط فرد !

* * *

لا لله ولا للوطن كانت هذه المحنة ! إنما كانت نزوة رعناء من بغى الإنسان على الإنسان ! والناس لا يزالون كما كانوا في الدهر الأول يسرقون ليأكلوا ، ويقتلون ليعيشوا ، ويستعبدون ليسودوا ، ويستبدون ليحكموا . لا يحمى الفردَ من الفرد قانون ، ولا يعصم الأمة من الأمة معاهدة ! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبي على الناب ، وطلاء وردى على المخلب !

---

(١) ركب فلان رأسه : اعتسف الطريق فضل .

على أن ضعف الشعوب خداع ، لأنه قوى متفرقة فى نفوس متفرقة ، فإذا ما تجمعت ذات مرة حول القوة الزعيمة الملهمة ، كانت هى الرجفة التى تهز الأرض من حين إلى حين ، وتنقل التاريخ من فصل إلى فصل !

ولكن ابن آدم سهوان . يذهله لجب السلطان عن صوت العبرة كما يذهله غرور الحياة عن يقين الموت ! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء ، ولا من سوْرة الحكم إلا بسقطة الوزارة !

* * *

سيتحرج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن كان قد سجل كثيراً من أمثاله ، لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر ، ويترقى ولا ينحط ؛ فكيف يجد للمعاذير لقطعة من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر ، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد بينها وبين الحرية والديمقراطية ، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك ؟ ولكن التاريخ لاينسى — وإن نسى الناس — أن النظام العالمى جاذبية تجذب المتخلف ، والعدل الإلهى صيحة تسمع الأصم ، وللشعب الوديع حيوية يقظى تعود بالمبطل صاغراً إلى الحق ، وتفىء بالحق السليب موفوراً إلى أهله !

* * *

حنانيك يارب ! لقد تألمنا حتى أشفق الألم ، وصبرنا حتى جزع الصبر ، وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا ! فعسى أن يشاء عدلك

وتريد رحمتك أن نقاسي مثل هذا العهد ، وألا نعاني مثل هذه التجربة ، وألا نكابد مثل هذا البلاء !

* * *

الآن أصبح الليل ، وانجلت الغمة ، وتهتكت سدول الظلام عن السماء الواعدة والضياء الهادي والأفق للمتد والطريق القاصد ! [1] فهل ترتد الشياطين إلى قماقم سليمان ، وترجع الخفافيش إلى حوالك الغيران [2] ، ويستقيم القوم على عمود رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية ؟

(١) اشارة إلى انقضاء هذا العهد بتغير الوزارة .
(٢) الغيران : جمع غار .

دارُ تبلى

(٣ ديسمبر سنة ١٩٣٤)

دارٌ تبلى ، وكانت إلى الأمس القريب دار الأمة ، عليها نزل وحى الوطنية، ومنها انبعث صوت الحرية ، وفيها انبثق فجر النهضة ، وبها ولد معنى الاستقلال .

كانت ملجأ الخلافة فى الآستانة ، ومفزع الخديوية فى القاهرة ، ومخافة الاستعمار فى لندن ، ومثابة الإسلام فى العالم كله تجمعت فيها للأمة رغائب ، ونشأت بها للشباب آمال ، وخفقت عليها للجهاد (ألوية)[1] وسمعت مصر فى أفنيتها للمرة الأولى أصوات بنيها الخُلّص يهتفون باسمها ، ويهزجون بمجدها ، ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها ، ويستنجزون الغاصب المحتل وعده الممطول وعدله الفاجر ، ثم كانت (عكاظا) للبلاغة الخطابية ، و (فورَم)[2] للمساجلة السياسية ، و (كعبة) يتجه إليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن ، وأنقياء الصحيفة من ممالأة العدو .

تلك هى دار اللواء ، ونادى مصطفى كامل ،

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) ، فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ الحافل تعفّيه الأحداث والنوازل ! كأنها لم تكن فى عهدها الدانى قلب مصر النابض ، وعزم نشئها الناهض ، ومنارة أمرها المادية ، أتى عليها أتِىُّ البلى فنكرٌ أعلامها وأخفتَ صداها ، كأنها لم تنفض عن الوادى غبار

(١) الألوية : ثلاث جرائد كان يصدرها مصطفى كامل بالعربية والفرنسية والإنجليزية.

(٢) الفورم Le Forum ساحة فى روما كان يجتمع فيها الشعب للمناقشة فى المسائل العامة .

الخمول ، ولم تمسح عن الأجفان فتور الوسن ، وكأن مصطفى لم يعجل على أركانها أول صيحة بالجلاء ، وأول رغبة فى الدستور ، وأول غضبة للحرية .

ولكن الزمن الدوار القهار يحطم كل مابرأ الله وصور الناس من شخص وشيء ، فلا يقوى على بأسه إلا الفكرة ، ولا يخلد على رغمه إلا العقيدة .

* * *

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يادار ، فإن لك فى كل قلب آية مسطورة ، وفى كل تاريخ صفحة منشورة ، وفى كل جيل نشيداً يعطف القلوب إلى الحق ، ويلفت العيون إلى النور ، ويهدى النفوس الشاردة إلى الغرض الأسمى والسبيل القصد

ومن الذى ينسى ومضة الروح الإلهى التى تركت ذلك الجسد الضارع يفور فورة الجبارين ، ويثبت ثبات الرسل ، ويقوم فى وحدة النبى وإيمان الشهيد ليجاهد الإشراك بمصر والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة للأزمة طغيان إنجلترا وهى يومئذ علة العلل ودولة الدول ؟

أم من الذى ينسى خفقة التضحية القدسية التى جملت ذلك الشباب العليل يحرك ساكن قومه بوجيب قلبه ، ويضىء ظلام يومه بوميض روحه ، ويذكى خمود عزمه بحرارة دمه ، ثم يزهد فى المال والجاه والحكم زهادة الحكيم فيحيا للمبدأ والفكرة ، ويموت للقدوة والعبرة ؟

* * *

على إخلاص مصطفى وإيثار فريد وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة ،

حتى إذا كذب الرائد ، ومكر الدليل ، وخامر الحادى ، انبلج فى جوانب الطريق شعاع من هذه الأرواح البرّة ، فيجلو العمى ، ويكشف الضلال ، ويفضح المكيدة !

وقد ماتوا رضوان الله عليهم ميتة الأنبياء ؛ لا (عمائر)[1] تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى ! لقد ملكوا وما تركوا ! إنما ورّثونا حفظ الكرامة وإن أرهقنا الظلم ، وطلبَ الحرية وإن أجهدنا الطغيان ، ورعاية الحق وإن خدَعنا الباطل !

كانت قافلتنا تسير باسم الله يادار ! تسير على ضوء من مبادىء الزعماء لا تخبو ولا ينكسر ، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب ، فالتفتنا فإذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد ، ثم ولوا وجوههم إلى الخلف ، وأخذوا بمؤخر القافلة جذباً وجراً حتى لتكاد عواتقهم تهى ، ومفاصلهم تنسرق . وانبثّ فى الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان ، يُلَبّسون عليه الأمر ، ويوهمونه أن هؤلاء هم القادة ، وأن هذه هى الوجهة ، وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا الوراء والأمام ، ويتنازعنا النور والظلام ، حتى ضعضع الصبرُ الأبىّ وثاقة الطاغية فخرّ صريعاً ليديه وفمه[2] ،

* * *

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يادار ، فانتشر ما كان يُحجب من نور ، وسرى ما كان يُصد من نسيم ، وعدنا إلى مهج الحياة شامتين بمن هوَوا من أعاليه وثووا تحت أنقاضه ؟

---

(١) العمائر جمع عمارة وهى الدار ذات الطبقات الكثيرة تبنى لتؤجر والدوائر جمع دائرة وهى ديوان المالك الكبير يدير فيها أمور أطيانه وعقاره .

(٢) إشارة إلى سقوط ذلك العهد الذى وصفناه فى المقال السابق .

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها يادار ، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وأثاره ، فأما آثارك فتبقى بركة على الناس ، وحجة على البغى ، وتفسيراً لمعنى البطولة ؛ وأما آثاره فستبقى لعنة فى فم الدهر ، ودمامة فى وجه التاريخ ، ووضاعة فى كبر الإنسانية !

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يادار ، فإن لك فى كل ذهن صورة ، وفى كل نفس ذكرى ، وفى كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى ، وتلهم الصبر ، وتهين على مخاوف الطريق ،



إلى القرية يا أبت

أهلاً وسهلاً بعلى بك ، كيف حالك ؟ آنست هنا وأوحشت هناك ، منذ كم سنة لم أرك ؟ نعم أكثر من ست سنين ، . . .

وكان هذا اللقاء المفاجىء فى ميدان إبراهيم باشا أمام قهوة (النيوبار) ، فمال بنا الشيخ فى حماسة الشوق ودهشة المفاجأة إلى مجلس من مجالس هذه القهوة الحاشدة ، ثم أخذ يسألنى عن أمرى حتى نقع نفسه ونضح وده . فلما طال بنا نَفَسُ الحديث عطفته مترفقاً إلى عمره المفقود ، فذاكرته عهود القرية أيام الشمل جامع والحبل واصل والدار نادية[1] ، فكانت أرسال[2] هذه الذكر — وأسفاه ، — ترتد عن شعوره الأصم ارتدادَ الأمواج عن صخور الساحل . لقد خفَت الماضى فى ذاكرته خفوت المحتضر ؛ فرجعُه البعيد لايكاد يبين إلا فى نظرة قصيرة من عينه المنتفخة ، أو نفثة طويلة من رجيلته المكركرة .

لشدّ ماصنعت المدينة بهذا الرجل ! كان مكتنز اللحم فترهل ، ومشبوب اللون فانكفأ ، وخفيف الحركة فثقلته الأمـــلاح ، وطليق المشية فقيدته الملل . ثم كان يعقد مجلسه فى القرية فيكون المجلس فى جلالته ديوان عرش ، وفى مهابته جلسة محكمة ، يلقى النظرة مثقلة بالدلال فتأخذها العيون وعداً

---

(١) ندا القوم ندوا : اجتمعوا والإسناد إلى الدار مجاز .

٢) أرسال : جمع رسل بالتحريك وهو الجماعة .

لايخاف ، أو وعيداً لايشفق ، أو عاطفة لاتكذب ويرسل الكلمة موقرة بالمعانى فتلقفها الآذان أمراً لا يرد ، وقانوناً لايخالف ، ورأياً لا ينقض ، فأصبح فى زحمة القاهرة قطعة من الوجود المتطفل ، يتسكع فى الطريق ، أو يتقمع[1] فى القهوة ، أو يتمطى فى البيت ، وليس له رأى فى أمور الناس ، ولا أثر فى جهاد العيش ، ولا شأن فى طبقات المجتمع وكان بليل اللسان حافل الخاطر إذا تحدث إلى الفلاحين فى شئون الفلاحة ، فلما حاول مناقلة المدنيين أحاديث السياسة والأدب والاجتماع ، قعد به الجهل عن مجاراتهم ، فغلب الوجوم على نفسه وختم العى على فمه ،

* * *

تخاذل حديث (البك) واسترخى حتى انقلب إلى أنة موجعة وشكوى أليمة ، قال وهو يطلب من الغلام جمرة ترسل النار فى الترجيلة الخامدة : منذ حبب إلىَّ أبنائى وهم فى المدارس كما تعلم أن أنقل البيت من القرية إلى الحاضرة ، انقلب وجودى رأساً على عقب ، فأنا أحيا كالغريب ، وأعمه كالشريد ، وأمشى كالتائه نقصت غلة الأرض لاتكافئ فى زرعها على الناس ؛ وزادت كلف العيش لاعتمادى فى الوجاهة على السرف ، وفدحتنى أعباء الدين فأنا من شواغله فى غصة لاتساغ وكربة لا تنسلى ؛ وفسدت علىَّ سياسة الأسرة فالبنون لايريدون العمل فى غير الحكومة ، والبنات لايرغبن الزواج فى غير المدينة ، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا : لها فى كل يوم ملهى ، وفى كل أسبوع وليمة ، وفى كل شهر « مودة » ، وفى كل عام مصيف . فأنا ياصديقى

---

(١) يتقمع : يطرد الذباب من فراغه وبطالته .

مذبذب العيش بين هنا وهناك لم أستفد مزايا الحضر من اتساق الأمر واطراد الحياة ، ولم أستمد محامد الريف من سعادة النفس وبساطة العيش وخلوص الفطرة وصحة الدين وسلامة المروءة فهل تطمئن على هذه الحال نفس ؟ وهل تشرق فى هذا الوجود سعادة ؟

فقلت له وقد تمثل فى خاطرى ما دهى القرية وأصاب الأمة من أمثال هذا الرجل : لو أن سراة الريف استقبلوا من أمرهم ما استدبروا لما كانوا على أنفسهم شراً وعلى قراهم جناية فإنك لو بقيت فى قريتك ، وقمت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك ، وعاد بنوك من الجامعة إلى القرية فاستثمروا علمهم فيها ، ونشروا مدينتهم وثقافتهم بين ربوعها وأهليها ، ورجع بناتك من المدرسة فبثثن فى نسائها النظام والتدبير والذوق بالإرشاد والقدوة ، ثم فعل غيرك ما فعلت ، إذن لوفُر فيها الرزق ، ورف عليها الأمن ، وانتقل إليها العلم ، وتذوّق أهلها المساكين طعم الحضارة ونعيم الصحة ولذة المعرفة ، وشعرت أنت فى هذه البيئة شعور الغبطة والرضا ، لأنك أعنت فريقاً من ضعاف الناس على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل .

ولكن أكثر القرويين متى ارتجع[1] كثيراً من المال ، أو شدا قليلا من العلم ، أغلق (المضيفة) وخرّب (الدوّار) ، وخلّف القريةَ للفاقة والجهالة والمرض .

فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر فى هذه القرى فتدعو إلى الله

(١) ارتجع : ربح .

وتهدى إلى الحق ، لظل الريف وساكنوه على الحال التى عثر فيها التاريخ بطلائع الإنسان .

* * *

أنت يا سيدى لا تزال عميد أسرة مجيدة لها فى سياسة الأمة صحائف مشرقة ، وفى ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع إلى ماضيك ، واستصرخ عزيمة الجنس فيك ، واستعد سلطانك عَلَى أهلك وبنيك ، ثم عد إلى مسقط رأسك ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك ! عد إلى القرية يا بك ! !



الراديو و "الشاعر"

(٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٤)

ألفت منذ سنين أن أزور شهر رمضان فى ربوعه الأصيلة ومغانيه الباقية ومن لم يشهد رمضان فى حى الحسين ، أو فى حى الحسينية ، أو فى أمثالها من الأحياء القديمة لم يشهده فى قداسته المهيبة وجـــلالته الباهرة !

كنت فى إحدى لياليه الزهر أخرج متى استيقظت المشاعر من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فأعبر القرون العشرة التى تفصل بين قاهرة الملك فؤاد وقاهرة الخليفة المعز ، فأجد رمضان العظيم قد نشر بنوده وأعلن وجوده فى كل شارع وفى كل منزل ! فهو خـير يتدفق فى البيوت ، وبشر يتهلل فى الوجوه ، وأنس يتطلق فى المجالس ، وذكر يتضوع فى المساجد ، ونور يتألق فى المآذن ، وسمر يتنقل فى الأندية ، ونفحات من الفردوس ترطب القلوب وتلـين الأكباد وترف على ما ذوى من العواطف .

فالحوانيت سامرة وإن لم تبع ، والمصـانع ساهرة وإن لم تنتج ، والأبهاء عاطرة بحديث الأحبة حتى نصف الليل ، والأفنية عامرة بذكر الله حتى أول السحَر . أما كثرة الناس فقد أخذوا مجالسهم من قهوات الحى وباتوا ينضحون « مزاجهم » الظامىء بالفناجيل الروية ، ويشققون أحاديثهم الطلية بالنـكات المصرية ، ثم يستمعون فى خشوع العابد وسكون العاشق ولهفة الطفل إلى القصاص أو الشاعر ، وقد طوّفت به أشباح القرون ، وغمغمت

في صوته أصداء الزمن . يتربع في صدر المكان منصة عالية من الخشب العتيق وهو في سمته وهندامه ، ولهجة كلامه وطريقة سلامه نموذج العامي الأديب ، ومثال الحضري المثقف حفظ كثيراً من الأشعار فاكتسب ظرف الأدب ، وروى صدراً من الأمثال فاكتسى وقار الحكمة ، ووعى طائفة من الأخبار فاتسم برقة المنادمة . وهو إلى ذلك بارع النادرة ، دقيق الفطنة ، عذب المفاكهة ، حاضر الجواب ، يؤدي إلى هذا الجمهور الغرير الساذج دعوة الواعظ وأمانة المعلم ورسالة الأديب .

•

ها هو ذا قد فرغ من احتساء القهوة ، وجباية النقوط ، ومبادلة السامع المعتاد جميل التحية ، ومسارقة الزائر الممتاز رغيب النظر ثم أخذ يحتفل بالقصص أو الإنشاد ، فاحتبست قهقهة (النكتة) ، وانقطعت كركرة (الجوزة) ، وانتشرت سكينة الجد في القهوة ، واتجهت عيون الجمع إلى المنصة ثم رن في سكون القوم ذلك الصوت العريض المتزن يرسل الكلام والأنغام في ترجيع مؤثر وتقطيع معبر وتنويع مطرب فهو يفخم ويرقق ، ويقسو ويلين ، ويأنف ويستكين ، ويثور ويهدأ ، ويسخط ويرضى ، ويتدلل ويتذلل ، ويتحمس ويتغزل ، كأنه في تعاقب أولئك كله على لهجته وهيئته الأوتار الطيعة تحت الأنامل اللينة البارعة ، فيملأ الآذان بالنغم ، والأذهان بالفكر ، والقلوب بالشوق ، والمشاعر باللذة .

* * *

ذهبت ليلة أمس على عادتي أرود المعاهد وأجوس الديار وأستنشي ما بقي على أطراف الزمن من عبير الفاطميين ، فوجدت القاهرة الشرقية لا تزال تتحدى القاهرة الغربية بمساجدها ومدارسها ومستشفياتها وحماماتها وأسواقها ، وتعلن بشهادة هذه الآثار أن حضارتها العـــربية الخالصة إنما كانت تقوم

على الدين والعلم والمدنية والإنسانـــــية والعمل ، وتزعم بأدلة الاختبار أن هـذا المظهر الحسى القوى الرائع الذى يميز حضارة الشرق إنما يرجع إلى أن هذه تقوم على الروح ، وتلك تقوم على الآلة ، وهذه تصدر عن العاطفة والإيثار ، وتلك تصدر عن المنفعة والأثرة والميزة التى ينبغى أن تـكون لحضارة على حضارة إنما هى ضمان السعادة للناس وتحقيق السلام للعالم

ولـكن أين صديقى الشاعر وأين أخوه القصاص ؟ هذا هو الحى ، وهذه هى القهوة ، وهؤلاء هم الناس ، ولـكنى وجدت فى مكان الأريكة المنجدة والحلة المفوفة والعمامة الفردة صندوقاً من الخشب دقيق الصنع أنيق الشكل ، قد علق بالحائط فأغنى غناء القصاص وأبلى بلاء الشاعر !

تركت هذه القهوة ومضيت أتحسس فى زوايا الحى وحنايا السوامر ذلك الصوت الذى كان ينبعث من جوف الماضى السحيق شادياً بالمجد والنبل والبطولة فلم أجد له — وا أسفاه — جرساً ولا صدى !

لقد هزم الراديو الشاعر فى كل قهوة كما هزمت الآلة الإنسان فى كل عمل ففى كل قهوة من هذه القهوات (البلدية) آلة من هذا الاختراع العجيب تغرى الأذواق العامية بالفن ، وتروض الآذان العصية على الموسيقى ، وتنبه العقول الغافلة إلى العلم ، وتحبب النفوس المستهترة فى الأدب فهى تقرأ القرآن وترسل الألحان وتذيع العلم وتشيع اللهو وتنشر البهجة ! ولكنى مع ذلك كله عظيم الأسف على موت القصاص ، شديد الأسى على فقد الشاعر !

ذلك لأن مخاطر الشهامة (لأبى زيد) ، ومواقع البطولة (لعنترة) ، ومواقف النبل (لسيف بن ذى يزن) ، أصلح لتهذيب العامة فيما أظن مما يبثه المذياع كل يوم من النوادر الوضيعة ، والأناشيد الخليعة ، والألحان الرخوة !

أسبوع حافل

(١٤ يناير سنة ١٩٣٥)

أسبوع حافل ! إبتدأ بعيد الدين وانتهى بعيد الدنيا ! فأوله (عيد الفطر) وآخره (عيد الوطن) . وفيما بينهما كان عيد الميلاد ومؤتمر البلاد ومهرجان (القرش) .

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم مشهود ومنظر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومجتلى فخم ، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح !

جرى كل أولئك على أروع ما يقع فى الذهن ويتمثل فى الخاطر ، لشعور الناس بشمول الأمن ، ويقظة العدل ، وقيام القانون ، وفوز الديمقراطية ، واتساق الأمر بين الفرد والجماعة ، واتفاق الرأى بين الحكومة والأمة . وكانت النفوس فى عهد المحنة قد تغشاها من الدخائل السود قتام وسحب ، فلا تكاد ترى على حواشى الأفق الضيق المحدود إلا جنود الرهبة وقيود الذلة وسجون القهر ثم تنفس بها الزمن البطىء على هذه الحال الأليمة حتى قنعت بالدون ورضيت بالهون وذهلت عما وراء الأفق . فلما تهتكت الحجب عن وجه الحق ، وتفككت الأغلال عن حرية الشعب ، فسعى غير مقيَّد ، وعمل غير مراقَب ، وقال غير متهم ، عاد الناس فوجدوا شعور الكرامة ، وسورة الاستقلال ، وأنفة الحى المريد ، وعزة المتصرف المطلق ، فزهاهم النصر ، واستطارهم الفرح ، وتقلبوا سبعة أيام فى الدعة ، يتبسطون على الأنس ، ويتعالون على الدهر ، ويتدللون على الحكومة ،

ويوازن بين حالهم الأمس وحالهم اليوم ، فيعجبون كيف زاغت القلوب وفسدت الطباع وسفهت الأحلام ، وغارت هذه المباهج والمرافق والمظاهر كلها في قرارة قلب فارغ .

* * *

إن القلوب لأضيق في هذا الأسبوع من أن تسع هذا الفيض الذي يتدفق فيها من كل جانب : ففي (مدينة رمسيس [1]) وجوه البلاد ونواب الشعب وزعماء الأمة يعرضون مناهج السياسة على المشورة ، ويُقلبون أنظمة الإصلاح على الرأي ، ويعلنون الخادع والمخدوع أن مصر الخالدة لاتزال متماسكة على مضض المحن ، سليمة على عنت الجور ، مؤتلفة على عبث الإغراء ، تعوّق ولكن لاتضل ، وتعذّب ولكن لاتذل ، وتحارَب ولكن لاتستكين.

كانت الآلاف الأربعون في سرادق المؤتمر الوطني أشبه بالأسراء فك أغلالهم النصر ، أو بالسجناء كسر أقفالهم الثورة . فهم يتعانقون على السلامة بعد البلاء ، ويتصافقون على الجماعة بعد الفرقة ، ويتنادرون بجلادي العهد الباغي وسجّانه وقد أصبحوا اليوم رواد المنى وحراس العدالة . أليس هذا شرطي الأمس الذي كان ينظر بالنار ، ويتكلم بالحديد ، ويتجنى على الناس الذنوب ، ويتمنى على الأحداث الجرائم ؟ مابالُه اليوم وديعاً كالعدل ، نزيهاً كالقانون . رفيعاً كالدولة ، رفيقاً كالمواطن ؟ تباركت يا ألله ! أهكذا تتبدل الاوضاع وتتغير الطباع في عمر يوم وليلة ؟ .

* * *

وفي معرض الجزيرة جماعة (عيد الوطن الاقتصادي) يُفيضون من نشاط

---

(١) كانت داراً للملاهي على مقربة من مدينة إمبابة أقيم فيها المؤتمر الوطني .

الصبا وطموح الشباب على الناحية الضعيفة المخوفة من نواحى الوطن : تلك هى الناحية الاقتصادية التى اقتحمها المستعمرون تحت لواء العلم والمال فاحتلوا المدن ، واستغلوا القرى ، وامتهنوا القومية ، وامتحنوا الأخلاق ، وحولوا مجارى الثروة المصرية إلى السفن الأجنبية وللمصارف الأوربية وخلفوا أهلها يكابدون الدين ويعانون الفقر ويشكون العطلة ويقاسون الذلة فطن هؤلاء الشباب الأطهار إلى هذا الخطر الوبيل والداء الدخيل فبرزوا له فى ميدانه المشتبه الواسع ، واستنفروا القاعدين من أصحاب الأموال والجامدين من أرباب التجارة ، ونشروا الدعاية بمختلف الوسائل للانتاج الوطنى ، وضحوا بجهودهم الكثيرة ونقودهم القليلة وأوقاتهم الباقية من الدرس على رصد الأهبة وتنظيم العمل وتدبير المال وضمان الفوز ، حتى توجوا هذا الجهد الجاهد بهذا المهرجان الذى أقاموه ، وذلك المعرض الذى نظموه ، فكان للمهرجان عيداً للعيد ، والمعرض حجة للأمل ، والعمل كله فخراً لأهله .

* * *

وفى حديقة الأزبكية عيد (جمعية القرش) يجاهد فى الإنشاء جهاد عيد الوطن فى الدعاية وقد نفضت هذه الجمعية ـ كذلك ـ على بلى النفوس جدة الربيع ونقاء الفطرة وجمال الحداثة ، فانتشر متطوعوها الأبرار فى المدينة يجمعون القروش بالتوسل والتذلل والإلحاف ليفتدوا به حرية الوطن الأسير !

فجماعة الوطن وجمعية القرش ومؤتمر الشعب ائتلاف منسجم من عناصر البلاد ومناهج الجهاد ومناحى الغرض : فالشباب بجانب الكهولة ، والاقتصاد بجانب السياسة ، واللذة بجانب المنفعة ، والحكومة بجانب الأمة وكل هذه

الصور الرائعة إنما تتألق وتتراءى فى إطار روحى شعرى تألف من عيد الفطر للمسلمين ، وعيد الميلاد للأقباط !

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم مشهود ومظهر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومجتلًى فخم ، وللسياسة شعب محشود وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح !

وإن عاماً يكون عنوانه هذا الانقلاب وطالعه هذا اليمن واستهلاله هذا النشيد ، لآية من الله على انجلاء الغمة واهتداء الغرائز وارعواء الغى وانكشاف الطريق .





الحج

(٢١ يناير سنة ١٩٣٥)

الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والجماعة ، كما يقوم على ثلاثة الأركان الأخر الأمر بين المرء وربه ، وبين المرء ونفسه فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة ، والحج يقيمها على التعارف والألفة ، فيحقق الأول معنى الإخاء بنفي الفقر ، ويحقق الآخر معنى المساواة بمحو الفروق . والإخاء والمساواة شعار الإسلام وقاعدة السلام وملاك الحرية ، ومعنى المدنية الحق وروح الديمقراطية الصحيحة .

كان الحج ولا يزال مَطهر الدنيا . ترْخص فيه النفوس عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة . وكان الحج ولا يزال ينبوع السلامة ، تبرد عليه الأكباد الصادية ، وترفه لديه الأعصاب الوانية وكان الحج ولا يزال مثابة الأمن ، تأنس فيه الروح إلى موضع الإلهام ، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة ، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلهي في هذه الارض السماوية وكان الحـــــج ولا يزال موعد المسلمين في أقطار الأرض على (عرفات) : يتصافقون على الوداد ، ويتآلفون على الهماد ، ويقفون سواسية أمام الله حاسري الرءوس ، خاشعي النفوس ، يرفعون إليه دعوات واحدة في كلمات واحدة ، تصعّد بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تصعُّد البَخور من مجامر الطيب ، أو العطور من نوافح الروض ! هنالك يقف المسلمون

في هذا الحشر الدنيوى حيث وقف صاحب الرسالة ، وحواريو النبوة ، وخلفاء الدعوة ، وأمراء العرب ، وملوك الإسلام ، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن ، فيمزجون الذكرى بالذكر ، ويصلون النظر بالفكر ، ويذكرون فى هذه البقعة المحدودة ، وفى هذه الساعة الموعودة ، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض ، ونزل الدين على الدنيا ، وتجلى الله للإنسان ، ونبتت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب ، وثمرات العقل والقلب ، وبينات الهدى والسكينة .

* * *

الحج مؤتمر الإسلام العام ، يجدد فيه حبله ، ويتعهد به أهله ، ويؤلف بين القلوب فى ذات الله ، ويؤاخى بين الشعوب فى أصل الحق ، ويستعرض علائق الناس كل عام فيوشجها بالإحسان ويوثقها بالتضامن ، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنضر ، وعلى العزائم الخابية فتذكو . ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية ، والمدنية الآلية ، والمطامع الغريبة ، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة جؤاراً تردده الصحراء والسماء .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر ! لقد حصرهم المستعمرون فى أوطانهم المغصوبة ، ثم قطعوا بينهم الأسباب ، وحرّموا عليهم التواصل ، وفصلوا حاضرهم عن الماضى الملهم والمستقبل الواعد ، بطمس التاريخ ، وقتل اللغة ، وإطفاء الدين ، فلم يبق لهم جُمعة إلا فى هذا الموسم .

* * *

إن فى كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للفداء ورمزاً للبطولة . فالحج

إليها إيحاء بالعزة ، وحفز إلى السمو ، وحث على التحرر : هنا غار (حراء) مهبط الوحى ، وهنا (دار الأرقم) رمز التضحية وهنا (جبل نور) منشأ المجد ، وهذا هو البيت الذى احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلى وعمرو وسعد وخالد وهذا الشعب وذاك مجر أذيال الغطاريف من بنى هاشم وبنى أمية . وتلك هى البطحاء التى درج عَلىَ رمالها قواد العالم وهداة الخليقة .

* * *

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » . أما شرط الاستطاعة فقد بطل اليوم ، وأصبح الحج فريضة عين لا تحول عن أدائها عقبة ، ولا يسوغ فى تركها معذرة فأنت تستطيع بالمال اليسير وفى الزمن القصير أن تحج عَلىَ الباخرة أو السيارة أو الطائرة ، دون أن تعرض حياتك الموت ، وثروتك للنهب ، وصحتك للمرض .

وهذه (شركة مصر الملاحة البحرية) ، تتعهد لك (بزمزم) و (الكوثر) أن تكفلك وتحملك وتطعمك وتغذيك وتأويك وتحميك فى البحر والبر تحت علم دولتك ، ورعاية مواطنيك ، فلا تكابد وعث الصحراء وعبث الأشقياء ، ولا تقاسى بعد الشقة وطول الغربة .

* * *

لقد كان الحج لرهقه الشديد وجهاده الجاهد يكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعملة . أما الناعمون المترفون من أولى الأمر وذوى الرأى وأصحاب الزعامة ، فما كانوا يقدمون عليه ، ولا يفكرون فيه ، فظل جداه على المسلمين ضئيلا ، لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأ اء الزيارة . فماذا يمنع الكبراء والزعماء اليوم أن يتوافوا

على ميعاد الله ، ما دامت هذه الشركة المصرية الخاصة قد تحملت عنهم أعباء السفر ، وضمنت لهم وسائل العيش ، ووفرت عليهم أسباب الرفاهية ، حتى ليكتفى المسافر بحقيبة ثيابه ؟

* * *

إن فى حج سراة العرب والمسلمين إعلاء لشأن الملة ، وإغراء بأداء الفريضة ، وسعياً لجمع الكلمة ، وسبيلا إلى الوحدة المرجوة وإن مقام إبراهيم الذى انبثق منه النور ، ونزل فيه الفرقان ، وانتظم عليه الشمل ، لايزال مناراً للأمة ومثاراً للهمة ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد .



الثقافة المذبذبة

(٢٨ يناير سنة ١٩٣٤)

كتب إلى صديقى الأستاذ محمد فريد أبو حديد يقول :

« أنا معلم كما تعلم . ولكننى معلم لا أعتقد فيما تعتقد فيه الكثرة من المعلمين سواى . وذلك أننى لا أؤمن كثيراً بأوربا ، ولا بما جاء من أوربا ، إلا أن يكون ذلك شيئاً نجنيه من نفع مادى أو كشف علمى . أما فيما يتعلق بالرأى والنفس ، وفيما يتصل بالعقـــل والقلب ، فأنا شرقى ولا أحب إلا الشرق ، ومصرى ولا أحب إلا مصر ولقد كان مما يؤلمنى دائماً أن أرى الابن الناشئ قد عاد من انجلترة أو من فرنسا ، فلا يكاد يظهر للأعين إلا فى هيئة نابية ، يزعم أنها دليل المدنية التى اكتسبها من الغرب ، فيمتدح فرنسا أو انجلترة وما فيها من مناهج ومظاهر ومعاهد ، وهو فى الحق إنما يريد أن يقول : إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية التى يمتدحها ، فهو يصل إلى الزهو من طريق غير مباشرة ، ولا يقصد إلا الفخر والإعجاب بالنفس . دع ذلك ، فلو كان هذا وحده هو الأثر لهان الأمر ، أما أن يتعدى الأمر ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة . وذلك أن هؤلاء الأبناء قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء إلى أن يخدعوا بعض الشيوخ ، أو بعض الجوف من الشيوخ ، بأنهم دعاة العلم والمدنية ، فألقيت إليهم مقاليد الأمور فى بعض النواحى ، وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حده فى مسائل التعليم . وإليك مثلا من ذلك : إن برامج التعليم الأدبية — وهى أداة الثقافة والقومية — لا ترى فيها أثراً للشخصية المصرية فواضع برامج التاريخ

هو بعض الجوف ممن تعلموا تاريخ أوربا ، فنقلوا من هذا ماظنوه خيراً وجعلوه منهاجاً لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية ، فكانت النتيجة أنك إذا نظرت فى برامج القسم الأدبى فى التاريخ خيل إليك أنك تنظر فى بعض برامج فرنسا أو إنجلترة ، أو خليطاً من هذا وذاك وأما مصر ، فلا شأن لها فى ذلك واحسرتاه وكذلك الحال فى سائر المواد الأدبية ، حتى لقد حسبت وأنا معلم أننا إنما نسعى لإعداد أبنائنا ليكونوا أجانب فى عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم ..

أليس هذا من العبث ياسيدى الأستاذ . أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القوى ، ولك من أبناء البلاد الثناء الجميل » ..

* * *

وصديقى الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع ، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحفى لتتناوله الأقلام المختلفة بالبحث والجدل فيكون الرأى أجمع والحكم أقطع والبلاغ أعم .

شكاة الأستاذ شكاة الشرق الإسلامى كله ، فإنه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن ، لم يرد أن يبصر بعينيه ، ولا أن يسير على قدميه ، ولا أن يعلم أن له تاريخاً ممتازاً ،ووجوداً مستقلا ، وطابعاً خاصاً ، ووحدة كاملة ، ومدنية أصيلة ، وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد ، ويتوكأ فى سيره على عمود الشرك ، ويطمس على شخصه بالفناء فى الغرب ، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوة وقهر ، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضاً وطواعية فهم يتكلمون بلغتها ، ويتأدبون بأدبها ، ويتسمون بسمتها ويتخلقون بخلقها ، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها ، ويغالطون طباعهم

فى أصل الفطرة ، فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدنة لايلائمها إلا ما يلائم الأوربى من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه ، كأن المسافة بين الشرق والغرب لاتحدث فرقاً ولا تغير خلقاً ولا تبدل طبيعة .

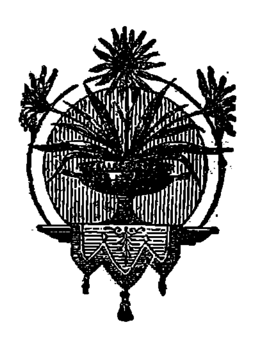
إن الاستعباد المادى دهمنا أمس على يد الآباء ، وإن الاستعباد الأدبى يدهمنا اليوم على يد الأبناء . وشتان بين استعباد كان عن اضطرار وجهل ، واستعباد يكون عن اختيار وعلم . والعبودية العقلية أشد خطراً وأسوأ أثراً من العبودية الجسيمة ، لان هذه لاتتعدى الأجسام والحطام والعرض ، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه ، أما تلك فحكمها حكم العقل إذا ذهب ، والروح إذا زهق وهيهات أن يرجى لمخبول شفاء ، أو ينتظر لمقتول رجعة ،

إن أكثر نشئنا الذين وردوا مناهل الثقافة العلمية فى أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزق الأسرة ، وتفكك البيئة ، وفساد التعليم ، وضعف التربية ، فكونوا عقولهم على منطق الإعجاب ، وميولهم على هوى التبعية ، ثم عادوا وفى حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر ، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب ، وفوق غرائزهم خلق غير خلق الشرق ، فتصرفوا تصرف المقلد ، وتعسفوا تعسف الحائر ، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة وإباء الفطرة ، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الإرادة .

إن العلم لا وطن له ، لانه يتعلق باستخدام القوى واستثمار المادة فى العالم كله لخير الناس كلـه أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد ، فهى قوام الأمم ، ولا تنزل أمة عنها إلا إذا نزلت عن ذاتها وزلت عن مستواها . فخضوع الثقافة القومية للانجليز فى مصر وفلسطين ،

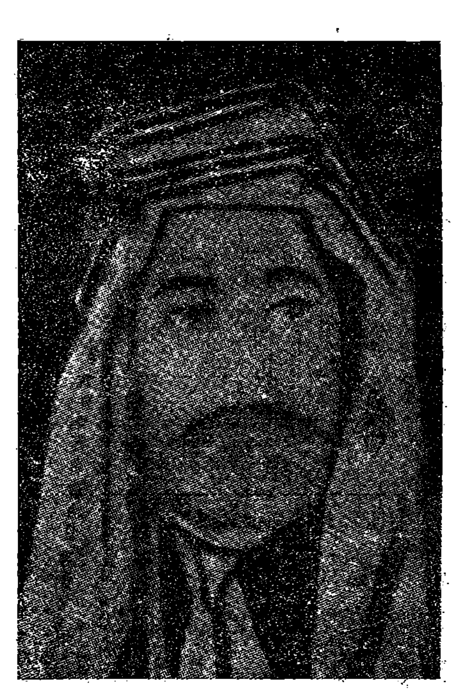
والفرنسية فى سورية والمغرب ، وللأمريكية فى العراق والمهجر ، بلاء على هذه الأمم لاتسلم عليه وحدة ولا يستقل معه وطن .

أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فعلته أن التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة قل لواضع البرنامج مهما يكن : أريد أن أصل بالتعليم إلى هذه الغاية تجد الغاية نفسها هى التى تعين السبيل وتحدد الوجهة . أما إذا كانت سياستنا فى التعليم أن ننشىء المدارس ونهيىء المدرسين ونقيم الامتحانات ، فإن جماع الأمر فى وزارة المعارف إذن أن تكون حقولا للتجارب فيها لكل سياسة أثر ، ولكل ثقافة ثمرة ، ولكل أمة غير أمتها نصيب .



الملك علي ....

(١٨ فبراير سنة ١٩٣٥)



تلقيت نعى الملك النبيل على بن الحسين كما أتلقى نعى قريب ! فقد كان رضوان الله عليه مثال الفطرة العربية النقية : يقبل عَلَى زائره بأنسه ، ويسكن لجليسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه وفى ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفى قلبه عاطفة من حبه لاتزول ، وفى نفسه أثر من ذاته لايعفو .

لا يُلقى فى روعك حين تلقاه طموح الزعيم ولاجفاء القائد ولادهاء السياسى ولا سورة الملك ، وإنما تجد فى خلائقه فوحة المجد ، وتقرأ فى ملامحه عنوان الطيبة ، وتعرف فى حديثه لهجة السيادة ، وتذكر فى نبرات صوته ولحظات عينه ولفتات ذهنه ذلك الروح القوى الذى انبث فى موات الوجود من بنى هاشم

نعى الناعى فيصلا فقال الناس بطل من أبطال العالم قضى ونعى الناعى

علياً فقال العرب سيد من سادات العروبة خلا[١] لأن فيصلا حكم في شروق مُلك عائد ، فكان عزمة لاتسعها قدرة ، وفكرة لايحصرها أفق ، وطموحاً لا يحده غاية ، ولأن علياً حكم في غروب ملك بائد ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملا لا يُنهضه جناح ، وصلاحاً لاتواتيه فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير خُلقين مختلفين : خلق اتسع لخدع السياسة وشُبه الحكم وأهواء النفوس ، وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة .

* * *

كان الملك على وهو أمير المدينة أو ولى العهد أو خليفة الحسين ، مثل السيد الكريم والأمير السمح والملك المؤمَّل ؟ ولكن موجة (الإخوان)[٢] كانت قد دفعت بحطام الحسين إلى شواطىء جُدة ، فلم يستطع الملك الجديد أن يستمسك به في مهب الرياح الهوج ومضطرب الموج الثائر ، فانتزع من تاجه المقدس مفاتيح الحرمين ثم وضعها في يد الفاتح ونجا على (الرقمتين)[٣] في ضباب من اليأس لايشع في جنباته أمل .

نزل الملك الغريب سواد العراق نزول الكريم على الكريم ، فتلقاه بوده ، وصفق له من ورده ، وبوّأه من زعامته المكان الأول بعد فيصل فكان في السياسة العراقية برهان الله في يقظة الشهوة[٤] ، وصوت العدل في طغيان الهوى ، وهَدى المشورة في ضلال الرأى ، ورسول الخير في أزمة الحاجة . وكان قصره القائم بالكرّادة على الشاطىء الأيمن من دجلة بلاطا للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، تُقضى بين أبهائه الأمور الجسام ، وترف على

---

(١) خلا الرجل : مات .

(٢) جنود الملك عبد العزيز آل سعود (٣) اسم الباخرة التي أقلته من جدة .

(٤) إشارة إلى برهان الله الذى صرف عن يوسف السو

أفنائه الأمال الباسمة . ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة فى اللذة ، لم تستطع أن تنسى الملك الحزين عرشه الصخرى فى الوادى الجديب ! فكان لايفتأ يحن إلى مُلكه المغصوب حنيناً شمرياً صامتاً يذيب الكلى ويستوقد الجوانح . إلا أن أثره كان لايبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل فى أمره ووقف على سره .

كنت كثيراً ماأقضى أصائل الأيام فى حضرته . وكان (مفتى بغداد) يومئذ لاينقطع عن مجلسه فى هذا الوقت وكان للملك رحمه الله عطف علىّ منشؤه فيما أظن حبه للأدب وميله إلى مصر وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقلنى الحديث ، ولكن (المفتى) سامحه الله رجل يرى من حقه أن يقول فى كل شىء ، وأن يجيب عن كل شىء وهو لاينطق إلا ببيت من الشعر أو أثر من الحديث أوآية من القرآن . أما ارتباط مايقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائما عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام فلا يكاد يمضى فيه حتى يقطعه المفتى بحكاية عرضية أو مسألة فقهية ! فأرفع طرفى إلى الملك لعلى أرى عزة الملك تشع فى عينه أو تثور فى وجهه ، فلا أجده إلا باسماً للمتكلم ، صاغياً كالمتعلم ، هادئا كالشعاع الشاحب فى شفق الخريف ! على أنه كان يصحح ما يَقمّش الشيخ من الشعر وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث وموضوعاً للمشاركة فيسفر قوله عن ذوق صاف وبصيرة نافذة . ولا أزال أذكر استشهاده فى بعض الكلام على قلب الميم باء فى قول العرب : بكة فى مكة ، بالمثل المعروف : (تمخض الجبل فولد فأراً) مرجحاً أن الجبل هو الجمل فى لحن هذه القبيلة .

كذلك لا أزال أذكر أن المفتى قرأ يوماً قول الله تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » فسأله الملك : الآن علم ؟ كأن الله جل شأنه

كان يجهل قبل ذلك ، فلم يحر الشيخ جوابا .

لذلك كان إذا شاء الحديث صفواً من المقاطعة واللغو ، أمرنى فمثلت بين يديه فى ساعة بعينها ، فيفضى إلىّ بطرف من ماضى حياته ، أو يملى علىّ بعضاً من مذكراته . وقد لايكون من المناسب اليوم — وأنا فى موقف الرثاء والعزاء والأسى — أن أثبت فى هذا المقام شيئاً من ذلك .

ولكنه كان يلهج دائما بمصر ، ويرصد كوكب آماله فى مصر ويحاول أن يقنع المصريين الذين خاصموه فى سبيل الترك أن ثورة العرب على الخلافة كانت بالحق وللحق ، وأن أباه لم يأل الترك نصحاً ألا يغمزوا نخوة العرب ، وأن يعدلوا عن سياسة الجهل ، ويكفوا عن جرائم القتل ، فاستغشوا الناصح وذهبوا بأنفسهم ممعنين فى الضلالة .

وللفقيد العظيم آراء حصيفة فى رجال الثورة وساسة العراق ووحدة العرب ، أرجو أن تتاح لتسجيلها المناسبة إنصافاً لهذا الرجل الذى أخرج من دياره عنوة ، وكابد تكاليف الملك من غير ثروة ، حتى عاد كالطائر المهيض أو الملاك الهابط ، يختنق فى جثمه وبصره فى الفضاء ، ويلتصق بالأرض وروحه فى السماء ،

الأزهر بين الماضي والحاضر

(٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥)

ويل للأزهر من أهله ! كان منيعاً بالدين فابتذلوه بالدنيا ، وعزيزاً بالعلم فأذلوه بالمال ، ومستقلا فى حمى الله فأخضعوه لهوى الحكم . وكان سُنّة واضحة لهدى الشريعة استقام الناس بها منذ ألف عام عَلَى عمود واحد ، فشبّهوا وجوهها بالأنظمة الفجّة ، ولبّسوا صورها بالأعلام المستعارة ، ثم وقفوا لدى المفترق المبهم الذى أحدثوه يديرون أعينهم فى الفضاء ، ويردونها من الأمام إلى الوراء ، فلا يرون أقدامهم على أثر ، ولا يجدون وجوههم على سبيل ،

كان للأزهر على عهدنا القريب جلالة تغشى العيون وقداسة تملأ الصدور لأنه المعقل الوحيد الذى ثبت لحملات الغِيَر فانتهت إليه أمانة الرسول ، واستقرت به وديعة السلف ، واستعصمت فيه لغة القرآن ، واستأمنت إليه آداب العرب ، فأرضه حرم لا يُنتهك ، وأهله حمى لا يستباح ، وأمره قَدَرٌ لا يُرد . وكان لعلمائه مكانة فى القلوب ومهابة فى النفوس ، لأنهم دعاة الله وورّاث النبي وهداة المحجّة ، ينطق على ألسنتهم الكتاب ، وتتمثل فى أفعالهم السنه ، فحبتهم عقيدة وطاعتهم فريضة وإشارتهم نافذة .

وكان لطلابه كاف به لا يُتّهم ، وثقة برجاله لا تُحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة وتجديد حبل الدعوة ؛ فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون عن حلقات التعلم بالقاهرة إلا إلى حلقات التعليم فى الريف .

* * *

كانت صلة العلماء بالحكومة صلة دينية ، تقوم على حسم المشكلات بالقضاء وحل المسائل بالفتوى ، وكانت صلتهم بالأمة صلة روحية ، يجلون صدأ القلوب بالذكر ، ويكفكفون سفه الجوارح بالموعظة ، ويشفون غل الجوانح بالمؤاخاة ، فكانوا لذلك موضع الإجلال أنى حلوا كنا نرى العالم إذا نزل مدينة أو قرية كان يوم نزوله تاريخاً لا ينسى : يأخذ الناس فيها حال من الشعور الصوفي يدفعهم إلى رؤيته ، فيهرعون إليه كما يهرعون اليوم إلى زعيم الأمة أو إلى رئيس الحكومة ، فيتوسمون في أساريره نور الرسالة ، ويتنسمون من أعطافه أريج النبوة ، ويتخففون على يديه من أوزار العيش وتبعات الجهـــالة . وطلاب الأزهر القديم لايزالون يذكرون ما كان في نفوسهم لشيوخهم من الحب والتجلة . كانوا يتحلقون حول كرسي الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق إلى الأمام عراك دام وصخب مصم ، حتى إذا ما أقبل خشعت الأصوات ، وسكنت الحركات كأن شيئاً علق الأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس وربما نزا العجاج على لسان أحدهم في أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى في عقابه من الإشارة إليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة عن الأزهر ! والقطيعة عن الأزهر أقصى مايتصوره الأزهري من شقاء الحياة ! فإذا انقضى الدرس وقال الشيخ : (والله أعلم) تضـــامّت أطراف الحلقة عليه ، وأنحى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه ، فما يشق طريقه بينهم إلا بعد لأي .

* * *

تدبر ذلك في نفسك على إجماله وعمومه ، ثم اقرنه إلى ما تسمع اليوم أو تقرأ من خبر الأزهر وحال علمائه وأبنائه ، فهل تجد المعهد هو المعهد ، والناس هم الناس ؟ إن الأزهر البائد على فوضاه المنظمة كان أجدى على الدين

وأعوَد على الثقافة من هذا الخلق المسيخ الذى وقف بين الماضى والحاضر ، وبين الدين والسياسة ، موقفاً يُندى الجبين الصُّلب ويوجع الفؤاد المصْمت !

تقلب بعض زعمائه على فُرش الديباج ، وخبُّوا فى أفواف الشاهى ، وتأنقوا فى ألوان الطعام ، وتنبلوا بالمظاهر الفخمة ، وسردوا أعداد الدنانير على المسابح المعطرة . وكان أسلافهم طيب الله ثراهم كما طيب ذكراهم يتسترون بمرقعات القطن ، ويتبلغون بقشور البطيخ ، ويستروحون النسيم على شرفات المآذن !

ثم شايعوا أهواء الناس وصانعوا أهل النفوذ ، وجروا فى تسكين أمورهم وترفيه نفوسهم على الضراعة والملق . من أجل ذلك فقدوا خطرهم فى الخاصة وأثرهم فى العامة وجرُّوا معهم كرامة الدين إلى هذا المنحدر .

* * *

إن فى بقية السلف من أعلام الأزهر مفزعاً من هذه الحال الأليمة . فليعملو مخلصين لردّ هذا المعهد الكريم إلى نظامه : فإن شديداً على النفس أن يضطرب فيه الأمر ويشرى به الفساد ، حتى يُطرد طلابه وتغلق أبوابه .

لقد قرأت بالأمس فصلا عن الإسلام فى مجلة شهرية فرنسية يقول كاتبه فيه « لقد انحسر الإسلام عن بلاده أو كاد ، فلم يبق مدوياً متوثباً إلا فى الأزهر » فماذا عسى أن يقول هذا المأفون إذا ماقيل له غداً إن هذا الدوى قد سكن ، وإن هذا التوثب قد قر ؟

لاجرم أن المخلصين من علماء الأزهر وأبنائه أقدر على درء هذه الكارثة متى أنضجوا الرأى وأجمعوا الكلمة والحكومة القائمة أربأ بعهدها عن هذا الحدث ، وأضنُّ بتاريخها على هذه الصفحة . وليس فى مصر ولا فى غير مصر ضمير نزيه يرضيه أن تعبث الشهوات الرُّعن بهذا المعقل الدينى الذى عصم القرآن ولغته وعلومه من طغيان الأحداث والفتن عشرة قرون .

مصر وأخواتها

(٤ مارس سنة ١٩٣٠)

كأنما كان السؤال عن الناس كسؤال الناس[1] لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى ! فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران مَن وراء الحدود . والوحدة العربية فى البلدين على الرأى الأغلب حديث خُرافة أو حديث مجاملة ! فلولا الأدب الذى يجمع الفؤاد بالفؤاد ، ويربط البلاد بالبلاد ، ويصل الحفدة بالأجداد ، لظلت منابت العروبة ومواطن الإسلام أغفالاً لا تُعرف ، وأرحاماً لا توصل .

يزور المصرى قطراً من أقطار العرب ، فيكون أول مايرد على سمعه عتب المحبين على الهجر ، ولوم الأقربين على القطيعة ، وعذل الجيرة على التخاذل ؛ فيُلقى الملوم المُحْرج معاذيره فى منطق عَيِّ ودفاع غير ناهض ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بعواطفه ، وصدورهم تجيش بأمانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته . فصحفه تقرأ ، وكتبه تدرس ، وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبع ؛ ثم خصومته هى لهم خصومة ، وحكومته هى عليهم حكومة ، وقومه لقومهم أهل ، وبلده لبلادهم قبلة حينئذ يقول لنفسه والخجل والعجَب يتعاقبان على وجهه : إن وطنى مترامى الحدود فلماذا أحدُّه على الضيق ؟ وقومى ضخام العديد فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيرانى كرام يُصفون المودة ويَصْدُقون العطف ويولون المعونة ، فلماذا أجهل بينى وبينهم

(١) سؤال الناس : استجداؤهم .

سداً من الإهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لُترخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعُروضها في الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة في البلد والنسب ، والوحدة في اللغة والأدب، والمشابهة في الحظ والحالة ؟

دع ما ترشد إليه الغريزة من تعاطف الأهل وتناصر الضعاف وتعاون الجيرة ، وانظر في الأمر من جهة الفائدة : أليست سورية منفذ العراق إلى البحر للتمدن ، والسودان طريق مصر إلى منابع النهر الحيي ! ومع ذلك فالعراق مصروف الهم عن سورية ، ومصر قليلة العلم بالسودان ، فلا تعرف عنه إلا أنه جزء من سياستها ! أما أنه قطعة من جسمها وكلمة من اسمها فذلك ما لم تعلمه إلا بالسماع ، ولم تفهمه إلا في المدرسة !

* * *

يزور دار « الرسالة » الحين بعد الحين أخ من السودان أديب أو طالب ، فلا تسمعه يقول أول ما يقول إلا هذا المعنى الواحد في صيغه المتعددة : إنا لنعلم عنكم كل شيء ، وإنكم لتجهلون عنا كل شيء ! فسياستكم لا تعرف السودان إلا في المفاوضات ، وأدبكم يقف بالوادي عند الشلالات ، وصحافتكم لا تدري أفي الأرض نحن أم في السموات ، فهل عُني سياسي بتعرف بلادنا ، أو تفرغ أديب لتصوير حياتنا ، أو توفر صحفي على درس أحوالنا ؟ ولعمري إذا فرقتنا السياسة ولم يجمع شملنا الأدب ، فعلى أي صورة نلتقي وعلى أي حال نتحد ؟

ذلك ما يشكوه السوداني المخلص ، ويأسى على حدوثه المصري المخلص ، وبين الأسى والشكوى ناشئة من الأمل المسفر ، وعزيمة من العمل المثمر ، تتجليان في العاملين الصادقين من شباب الوادي وكهوله

فالعمل الجليل الذى هُدِيَتْ إليه ووُفقت فيه (البعثة الاقتصادية المصرية)[١] من الرحلة إلى السودان والاختلاط بأهله والاتصال برجاله والاطلاع على أحواله والتحدث إلى حكامه فاتحة فصل جديد من تاريخ النيل الحديث سيسجل فيه رجال الأعمال والأموال تصافق البلدين الشقيقين على المودة ، وتواصلهما على المنفعة ، وتآلفهما على التعاون .

فتحت هـذه البعثة الميمونة أبواب السودان الحصينة للنشاط الاقتصادى المصرى ، وهيأت الأسباب إلى اجتماع الأيدى التى يسقيها النيل ويطعمها النيل على استغلال خصبه فى عمران أرضه ، واستثمار خيره لسكان حوضه .

فإذا أضفنا إلى ذلك عناية الأدب والصحافة بتوحيد الهوى و الثقافة ، فقد ألفنا من أغاريد الوادى أعاليه وأسافله نشيداً واحداً تردده الشفاه البيض والسمر ، وتتجاوبه سلاسل الجبال الخالدة .

* * *

إن الاقتصاد والأدب يُكونان الجسم والروح ، فلا بد منهما أولاً لإنشاء الأمة وإذكاء النهضة وإحكام الصلة وما غزا الغربيون ممالك الشرق إلا بالتعليم والتجارة . أما السياسة فلا تأتى إلا آخر الأمر ، فتؤيد الواقع وتثبت الحالة وتنظم العلاقة وتحمى المنفعة .

من أجل ذلك كان احتفال المصريين بوداع (البعثة المصرية) ولقائها ، واحتفاء السودانيين بفكرتها وأعضائها ، هزات من العواطف الصادقة والحماسة الدافقة والشعور الواثق المطمئن بإسفار المستقبل عن وجوه الفوز ، فيتصل الحبل

---

(١) بعثة تألفت من أعضاء الجمعية الزراعية الملكية وأعضاء الغرفة التجارية المصرية ومن بعض كبار الزراع والصحفيين ثم سافرت إلى السودان فى شهر فبراير سنة ١٩٣٥ لتوثيق العلائق الاقتصادية بينه وبين مصر بدرس مشروع شركة من المصريين والسودانيين لشراء الأرض الزراعية واستثمارها ، وإنشاء فرع للجمعية الزراعية بالخرطوم ، ودعوة بنك مصر لإنشاء فرع له فى عاصمة السودان ، فنجحت فى رحلتها نجاحاً عظيما .

ويتنظم الشمل وتقوم الوحدة بين الشعبين الأخوين على أساس صحيح .

* * *

إن من وَراء حدودنا البرية يا قوم آدابا لاتقل عن آدابنا يحسن أن تعرف ، وأنساباً تتصل بأنسابنا يجب أن تُؤلف ، وأسواقاً تفتقر إلى إنتاجنا ينبغي أن تكتشف .

أما حصر النظر فى حدودنا البحرية فإدمان يفرِّق البصر[1] ويجمع الخطر ويهجم بقوميتنا وأمانينا على الغرق !

(١) يبدده ويوزعه .



إلى أين يساق الأتراك

(١١ مارس سنة ١٩٣٥)

مَن السائرون فى شحوب الأصيل على حدود المغرب يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار ، ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سَدُوم[1] ؟

مَن السائرون بين النور والظلام عَلَى الدرب الخادع المبهم[2] ، يخفقون كأطياف المساء على حواشى الطَّفَل ، ويطمسون الطريق من الوراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل ؟ إنها أمة من صميم الشرق ، نشأت فى نوره وطبعت على شعوره وتنفست فى عطوره ، ألقت زمامها الأقدار الغالبة فى يد عصبة من أبنائها ، رُبُّوا فى غير أحضانها ، فنشأوا على غير منشئها ، وجروا على خلاف مبدئها ، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين ، وخرجوا بها معتسفين إلى طريق مشتبهة وغاية مريبة ودنيا مجهولة ، ثم قالوا لأنفسها انسلخى عن شرقيتك بأمر القانون ، ولقلوبها اعتقدى غير عقيدتك بحكم القوة ، ولألسنتها انطقى غير لهجتك بإرادة الحاكم ، ولحاضرها انقطع عن ماضيك بسطوة الجمهورية ، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها انفصلن عن آسية بإذن الحكومة ! كأنما الأمم تصاغ بالقوانين، والطبائع تغير به (الأوامر !)

مهلاً ساقة الظعن وحُداة القافلة ! سترحلون عن وطن إلى غربة ،

---

(١) سدوم : قرية قوم لوط وقصتها معروفة .

(٢) الدرب الخادع : الذى يبين مرة ويخفى أخرى .

وعن ولاء إلى عداوة ، وعن إخوة إلى سادة ماذا نقمتم من الشرق مهد الإنسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة ! ألم يخلق الشرق اليابان اليوم ، كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأمس !

إن شمس المدنية أرسلت علينا أول أشعتها فى صبح الوجود . ثم متع ضحاها[1] فغمرتنا بالنور والشعور والقوة ثم انحدرت إلى المغيب فى بلاد الغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق ! إنها ستغرب لا محالة وإنها ستشرق لا محالة . وإن غروبها لا يكون إلا هناك ، وإن شروقها لا يكون إلا هنا فلم لا تنتظرون معنا يابنى العم طلوعها الجديد القريب على موطنها الأول !

لقد ذرّ منها كما ترون على اليابان أشعة ، وبصّ منها الساعة على مهاد العروبة وبلاد الإسلام شعاع ! وعما قليـــــل يسطع فى أقصى الشرق وفى أدناه وهجُها وسناها فتهتز الأرض من جديد وتربو ، ثم تنشق عن العبقريات التى ارتجلت الحكمة واكتشفت المعرفة وسنت الأخلاق ودفعت مدنية الإنسان إلى مداها البعيد .

قالوا للتركى الأناضـول : مالك وللشرق ، ومالك وللعرب ، ومالك وللإسلام ! تعال نبحث عن أجدادك فى الأولمب ، وعن قومك فى الفورَم ، وعن مدنيتك فى اللوفر . ثم ألزموه أن يلبس القبعة ، وأرغموه أن يكتب من الشمال ، وفصلوا الدين عن الحكومة ، وانتزعوا العربية من التركية ، وحرموا الشعب المتدين تقاليد الإسلام ، وحرموا عليه أخلاق الشرق ،

---

(١) متع الضحى : بلغ آخر غايته وهو عند الضحى الأكبر .

ثم ألغوا العيدين ، واستبدلوا بعيد الجمعة عيد الأحد ، ثم نقلوا الأمة المروعة المشدوهة على المدرعات إلى الشاطىء الأوربى ثم أحرقوا من ورائها سفائن طارق !

على أن التركى الأصيل الذى استضاء بهدى الإســـلام ، وتثقف بعلم العرب ، وأسهم فى مجد الفتوح ، لم يَصْغَ قلبه لهذا التغيير المفروض ، فظل فؤاده حيث طبعه محمد الرسول ، و بقى جسمهُ حيث وضعه محمد الفاتح !

أما موضع الخطر فأولئك النشء الذين قست عليهم الحروب ، و بلغت عليهم السلم ، فحصروا علل أخطائهم وأسباب أرزائهم فى معنى الخلافة فنفوها من الأرض ! ثم أفرط عليهم العداء فتحيفوا ما يلابسها من شرقية وعروبة ودين . أولئك سيزهقون فى حاضرهم روح الماضى ، ويقطعون عن ضمائرهم صوت التاريخ ، ويبنون قوميتهم على أسس مستعارة ، ويجددون شخصيتهم على تقليد طائش ، ويخضعون عقليتهم لعبودية قاتلة ثم يتذخون بالصوت الرفيع المدلل قائلين إن تركية للترك ! فيقول لهم الدهر الساخر : نعم ، و إن الترك لأوربا !

* * *

فخامة الغازى العظيم أتاتورك[1] ! لقد جبرت الجناح المهيض ، وأحييت « الرجل المريض[2] » ، وأنقذت من براثن العوادى السود تركية الفتاة ، مافى ذلك شك فاسمك العزيز عنوان تاريخها الحديث ، وعزمك الجبار قوام دستورها القائم ، وروحك الوثاب سناد مستقبلها الطارف ؛

(١) أتاتورك لقب جديد للغازى مصطفى كمال معناه الأب التركى أى أبو الترك

(٢) لقب أطلقه ساسة أوربا على تركية القديمة .

ولكنك خلقت تاريخك الخاص بمخالفة الطبيعة فى التجديد ومجابهة المنطق فى الإصلاح أخشى أن يسجل الرقيب الذى لا يغفل أنك أحييت دولة وأمتّ أمة ، وبنيت دستوراً وهدمت عقيدة ، وبعثت لغة ودفنت ثقافة ؟

ماجريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة ؟ وما جريمة الإسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأخرجهم من الجهالة ؟ وماذا يبقى من الترك ولغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل أولئك ؟

إن العرب ليسوا أقل شأناً من الطليان والجرمان ، وإن الإسلام ليس أضعف أثراً فى رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولكنها موجة من المادية الطاغية غشّت على الأبصار وطغت على البصائر ، ستنحسر غمرتها عن مجالى الفضيلة والحق ولو بعد حين !

الفردية علتنا الأصيلة

(أول إبريل سنة ١٩٣٥)

لاتزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب ولا تزال هذه الصفة أجلى ماتكون فى مصر ! فإن المرء ليغالى فى فرديته حتى ليوشك أن يكون أمة وحده !

غلبت هذه الشيمة على العرب الأولين لقلة المرافق المشتركة ، وأثر الطبيعة الشحيحة ، ووحدة الحياة الرتيبة ، واستقلال النفس القوية فالرجل منهم كان يحصر الدنيا فى خيمته ، ويجمع العالم فى قبيلته . ثم يختصر القبيلة فى نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله وإطاراً لصورته ! فهو لا يحيا حياة بهائم الأنعام تحمى ضعفها بالاجتماع ، وإنما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تُشْبِل على أفراخها و أجْرَائها إلا ريثما ترتاش وتضْرى فلما اختبروا للدعوة الكبرى استجابوا لقوة القوى ، واطمأنوا الألفة الروح ، واستَجَزُّوا حكم الجماعة ، حتى بلّغوا رسالة الله . ثم تحرك فيهم الهوى الموروث وتيقّظ الطبع الأثِر ؛ فهبّت الفردية تحلل العقدة ، وتشتت الوحدة ، حتى قسّمت الوطن بلاداً ، ومزقت الشعب أفراداً ، خضعوا لسلطان المغير ودانوا لقوة الغاصب !

* *

لاتزال هذه الفردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستئثار ودناءة الحرص ، تُقَطع أوشاج المجتمع فى أقطار العرب ، فتفسد

كل موضوع وتبطل كل مشروع وتُشَتِّت كل ألفة وفى مصر أحد تلك الأقطار تستطيع أن تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذى لا يبعد والحال التى لا تختلف. فالسياسة هنا و هناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد. إنما هى فرد يَجْذِبه فى الخير أو ينبع فى الشر، فتأتلف عليه الأفراد المختلفون فيكون منهم مكان النظام[1] من العِقد يمسكه مادام حيًّا قويًّا، فإذا انقطع ذهب الحب أباديد والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تخشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الأخس ؛ لأن الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساهم فى رأس مال، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا نشارك فى مشروع، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأى جميع. وما النهضة الاقتصادية الحديثة إلا نبوغ فرد أنِس الناس بناحيته واطمأنوا إلى كفايته، فأخلدوا إليه بالثقة وألقوا فى يده المقاليد. والأدب هنا وهناك لاتزال دوافعه فردية ومراميه خاصة ؛ فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه ؛ والمقالة خواطر الكاتب لا تكاد ترمى إلى غرض محدود ولا تجرى فى مذهب معين ؛ والأغنية لواعج المغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ولا تهتف بالأمانى المشتركة. أما الملاحم القومية والقصص الاجتماعية والأناشيد الشعبية فتلك أغراض لاتزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة.

يأخذ الفرد حال من الوجد أو الشوق أو الطرب فيجد من القصائد والأناشيد مايترجم عن هذه الحال فيدندن ويتغنى وتكون الجماعة منا فى مجمع من المجامع أو ملهى من الملاهى أو موكب من المواكب،

---

(١) النظام : الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ ونحوه.

فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج أو احتجاج أو افتخار أو تحمس ، فتريد أن تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد ، فلا تجد إلا خلجات تتوقد ، ونظرات تتردد ، ثم سكوناً بارداً كعرق المبهوت الخجل ! حتى السلام الوطني[1] نعرفه نغماً ولا نعرفه كَلِماً ، كأنما وضعوه لأمة بكماء !

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حَرَج الفردية مكاناً للتنوع ولا مجالا للتقدم . فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته والرقص حتى من الرجال لا يكون إلا من فرد ، ولا يظهر من هذا الفرد إلا متعاقباً على أجزاء خاصة من جسمه كالعجز والبطن والثديين والعنق ! فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة في العصور الخالية لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة . والغناء والموسيقى يقعان دائماً على أصوات مفردة ، وتقاسيم مرددة ، وفرديات (مونولوجات) متشابهة ، ومعان متكررة ! فليس لنا — حتى ولا للقرويين — غناء جماعي ولا رقص جماعي يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقعة وحركات موزونة ! ولكل أمة من أمم الأرض أفنان شتى من ذلك حتى الزنوج !

إن الفردية تعلوا فتكون الاستبداد ، وتسفل فتكون الأنانية وإن الجمعية[1] ترتفع فتكون الإنسانية ، وتنخفض فتكون العصبية وإن بين الإنسانية والعصبية شعباً يعز وأمة ترق وذكراً يبقى وأثراً يخلد ولكن بين الاستبداد والأنانية تحكّم الهوى وشقاء العيش وذل الأبد فإذا رأيت الأحزاب تتناقض وتنحل ، ومشروعات الشباب تضعف وتعتل ،

---

(١) نشيدنا قبل الثورة

(١) الجمعية : مصدر صناعي يقابل الفردية .

وإدارة الحكومة تسوء وتختل ؛ فأرجع علل ذلك — غير مخطىء — إلى هذه الفردية حين تتعلى فتستبد ، أو حين تتدلى فتستأثر : فلولا هذا الطبع الأصيل الذى طغى على الشعور وبغى على الفطرة لتنبه فينا الضمير الاجتماعى فأخلصنا للأمة كما نخلص للأسرة ، وعملنا فى الديوان كما نعمل فى البيت ، وأحببنا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ؛ ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه إلا الدين الذى حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه . فهل إلى رجوع إليه من سبيل ؟



على ذكر كتاب

(٨ أبريل سنة ١٩٣٥)

فى مصر من الباشوات المثقفين فئة كثيرة تميزوا عن الأشباه لأنهم مهروا فى أداء العمل ، أو وقعوا فى طريق الفرص ، أو رقوا فى معارج السياسة ؛ ثم تهيأت لهم بالمدارسة والممارسة أسباب العلم والخبرة ، فخبروا أسرار الأمور ، وسبروا أغوار المشكلات ، وصرّفوا شؤون الدولة على نحو من الحكرة المفروضة فهم لا يبرحون معسكرين فى الميدان الحكومى فرقة فرقة ، يتقاذفون الإدارة ويتنازعون الوزارة ويتداولون الأمر ، حتى أسرفوا عَلَى خير الأمة وافتاتوا عَلَى رأى الجماعة ، فقصروا كفايتهم على الخصومة ، وحددوا غايتهم بالحكومة . فهم إذا وثبوا إلى الحكم استفرغوا الوسع فى البقاء فيه ، وإذا انقلبوا عنه استنفدوا الوسائل فى الرجوع إليه أما تسجيل التجربة بالتأليف ، ونشر المعرفة بالصحافة ، وتأييد العدالة بالمحاماة ، فعمل لا يدخل فى حساب الجهد ولا يخطر فى مرام النية ! كأن العودة إلى ملابسة الشعب ومداخلة العامة ومزاولة الحرفة أصبحت لا تتفق مع نباهة الاسم ، ولا تتسق مع جلالة اللقب ، ولا تجرى على تقاليد المنصب !

فى البلاد التى نطيل إليها النظر ونزعم لها الكمال ونحصر فيها القدرة ، نجد رئيس الحكومة إذا تعطل من الحكم ، ورئيس الجمهورية إذا فرغ من الرياسة ، عاد كل منهما إلى الموضع الذى صعد منه إلى الديوان أو انتخب فيه إلى القصر ، فيستأنف الجهاد اليومى فى سبيل الأسرة والأمة والحكومة بنشاط البادىء ونفسية التابع ورجاء الطموح ، فهو يدور مع الطبيعة دورة

العام : يبدأ لينتهى ، وينتهى ليبدأ . وفى كل طور من أطواره المتعاقبة تراه يندمج فى البيئة ، و يأتلف مع النظام ، ويرمى عن الواجب ، فينشر المذكرات ويحرر المقالات ويحضر المرافعات ، ويكابد فى خلال ذلك طمع الناشر وعنت الناقد ومنافسة الحرفة ، ولكنه على الرغم من رَهق الحياة الجافلة وكلال السن العالية ، يؤدى إلى وطنه المنعم زكاة النبوغ وضريبة المجد ، يؤديهما عملاً لا يتأبهُ ، وإحسانا لا يَمُنُّ ، وإخلاصا لا يِين .

* * *

ذلك هناك والكفاية موفورة والحجّة واضحة والأمر متسق . أما هنا ورجالات الرأى قلال ، وتبعات العمل ثقال ، وميادين الجهاد عُزْل ، ترى النابه منا متى بلغ الوزارة من أى طريق وفى أية سن ، ختم حياته العاملة فاختزل الماضى ، واعتزل الشعب . وازدرى العمل ، وغفا على رخاء معاشه . فهو وزير ما دامت وزارته ، فإذا سقط انقلب إلى مداره العالى يُزَجى فراغه للملول بالتردد بين أبهاء المستوزرين ونادى الحزب أو نادى (محمد على) يتشمم الريح ، ويتسقط الأخبار ، ويتربص بالحكومة القائمة الدوائر !

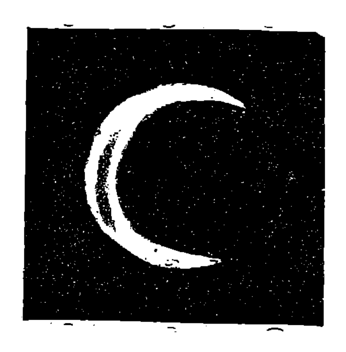
هو وزير أو منتظر فالك تكلفه أن يكتب فى صحيفة حزبه ، أو يساهم بالجد فى نهضة شعبه ؟ تلك تكاليف العيش لمن لم يدرك الثروة ، وأزواد الطريق لمن لم يبلغ الغاية ، والوزارة غاية الأمل فى الثراء والعظمة ، فإذا أدركها لا يسعه بعدها كرسى فى مكتب ، ولا يجزيه سهم فى شركة والظفر بها ولو مرة حق مكتسب يسلكه فى سلالة المتعاطين حرفة الحكم ، فيضع نفسه ولقبه فى صندوق ذهبى ، ثم يعلقه فى خيوط المنى ، ثم يدع النسيم يهدهده بين باب القصر ونافذة المندوب[1] ، حتى إذا عصفت بالوزارة

(١) المندوب السامى وهو عميد السياسية الإنجليزية فى مصر قبل المعاهدة المصرية الإنجليزية

أزمة ، أو شغر فى مجلسها محل ، رفع برأسه الغطاء العسجدى وقال على طريقة ديكارت : أنا أشْرَئِبُّ ! إذن أنا موجود !

* * *

على أن القاعدة المتيدة أخذت تحمل فى طواياها بعض الشواذ ، فقد رضى الوزير والسفير حافظ عفيفى أن ينزل إلى صفوف الباحثين والمؤلفين فأصدر كتابه القيم « الإنجليز فى بلادهم » عن استقراء دقيق واطلاع شامل ، فكان تعريضاً أليماً بذلك الذكاء المتعطل الذى يستفيد ولا يفيد ، وذلك النبوغ الفاجر الذى يدخل الحكم ليعسف ويخرج منه ليكيد !



العام الهجرى

(١٥ أبريل سنة ١٩٣٥)

ها هو ذا العام الجديد يهل ، فأين السجل ؟ تعال نقرأ ماخطه التاريخ فى صفحته التى طواها الدهر أمس ! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجابت غواشى الغفلة عن العيون السادرة ؟ هل انجاب قتام الذل عن النفوس العزيزة ؟ هل ائتلفت على عوادى الخطوب هذه القلوب الشتيتة ؟ هل اقتنع المعتدون والمستبدون أننا ماض ينبعث ، ومجد يستيقظ ، وأمة تريد أن تستأنف بلاءها فى جهاد الناس ، وتستعيد مكانها من صدر الوجود ؟

رويدك لاتطل النظر فلن تجد فيه وا أسفاه إلا عُبر عينيك[1] ! لقد طويت هـــذه الصفحة كما طويت قبلها تلك الصفحات على غير بياض ناصع ! وإن تاريخنا لايزال يكتب عرَضاً فى تاريخ الدول أو لَحَقاً فى تاريخ انجلترا ! فليس له فى التقويم العربى حساب جار ، ولا فى سفر العالم فصل مستقل !

لو كنا نسير إلى الوراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب ، ولو كنا نسير إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والإنجليز ، ولكننا سقطنا من الونى والوهن فى طريق الإنسانية يخطو فوقنا الركب ويدور علينا الفلك ، حتى رن فى أسماعنا صوت الأجداد يُهيب صارخاً بالرقود ، فنهضتنا نهضة المُنْبَت

---

(١) العبر بالضم : سخنته العين حين تبكى ورأى عبر عينه رأى ما يكرهه ويبكى منه .

الحا نستلهم الأعراق ونستنبىء الدلائل ونتملق الأحداث ونستحث القادة . ثم انقضى على هذه النهضة المتلكئة قرن ولا نزال شملا يتجمع وأملا يتطلع وعزماً يشب .

متى السير إذن يا هادى الحجة ؟ لقد مللنا قرع الطبول ودق البشائر ، وقتلنا الزمن فى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وأضعنا الجهد فى عقد لواء وحل لواء ، وخجلنا من هذا الموقف السلبي الذى يرصد الأشهب فى الخيال ، ويصور الخطط بالشعر ، ويطلب النصر فى أحلام المنى .

* * *

انطوت صفحة هذا العام المنصرم ولم تسجل فى أوطان العروبة غير الأسى والألم : سجلت فى مصر كما سجلت من قبل أهواء تتصارع ، وأطماعاً تتعارض ، وفردية تطغى ، وأثرة تُسف ، وخصومة تكيد ، وشعباً يكابد داء الضرائر[1] فى زعمائه ، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه ، وينظر فيرى فى يده العتاد وفى طبعه الاستعداد ثم لايزال برغم ذلك وضيع الشأن فى الحياة ، مسلوب الإرادة فى الحكم ، مبذول المقادة للغاصب !

وفى العراق سجلت أحداثا تُرمض القلوب وتثير دفائن الهم ، من دبيب العقارب بين الجيرة ، وسعى النمائم بين الإخوة ، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل !

وفى الشام سجلت تفريق الكلمة بالوعود ، وتمزيق الجسم بالحيلة ، وتسكين الألم بالمرقد . كذلك سجلت فى المغرب دموعاً يمسحها اللاطم بكفه ،

---

(١) داء الضرائر : الحسد .

ووشائج يقطعها الظالم بسيفه ، ونفوساً ينزو بها الحفاظ للجنس والدين فتركض في القيد ، وتضطرب اضطراب المهيض في القفص .

ثم سجلت في شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس في دار الهجرة وملاذ الدعوة ومُطمأَنّ الضريح المقدس .

أما السطور الحمر التي سجلتها لفلسطين البائسة ، فمن صبيب دمائها كان المداد ، ومن نشيج بكائها كان الكلم : هي إعلان بيعها القهري في سوق السياسة ، يتزايد فيه أهلها العرب بالحق والحق رأي واجتهاد ، وباقانون والقانون ورق ومداد ؛ ثم يهود العالم كله بالذهب والذهب إله وشيطان ، وبانجلترا وانجلترا أسطول وبرلمان ! فالعرب في فلسطين مقضي عليهم بالقتل والتشريد ، وإخوانهم في الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المشفي ، يسعفونه بالدعاء ، ويواسونه بالبكاء ، والدعاء لايرفع الواقع ، والبكاء لايدفع الموت !

* * *

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل ! فليت شعري ماذا تخط أقلام القدر في صفحة العام الجديد ؟ !

لو كنا ننتفع بالذكريات ونستفيد من العظات لما بددنا الجهود في التجارب ، وأفسدنا الأمور بالتردد . إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلا ، فيه لكل عظيمة ذكرى ، ولكل ملة تجربة . وإن لنا دستوراً إلهياً كاملا ، فيه لكل معضلة هدى ، ولكل قضية بينة . فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هدانا من وحي الله ، استقمنا على الطريقة التي نهجها الرسول فتوافينا معاً على الغاية ، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة .

إن الرسالة العربية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة ، صافرت غالبة من الشرق إلى الغرب ، بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه ودعت إليه وفازت به ، وهو توحيد الله ، وتوحيد الكلمة ، وتوحيد القوى ، وتوحيد الغاية .

وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به . فلما تراخت العرى بينهم وبينه تقاذفتهم السبل ، وتقاسمتهم الأطماع ، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم !



جمعية نهضة القرى

(٢٢ أبريل سنه ١٩٣٥)

احتفلت هذه الجمعية البرّة منذ يومين بانقضاء عامين من جهادها النبيل فى إنهاض القرية المصرية . وهذه الجمعية هى أيضاً من أعمال الشباب ولعلها أقرب أعمالهم الجليلة إلى الخير المحض ؛ فإن ما ركبوه إلى اليوم من قحم السياسة ، وما عالجوه من خطط الاقتصاد ، إنما كان مبعثه الغرور القومى ، أو الشعور الوطنى ، أو هما معاً . أما هذا العمل فمبعثه الخالص عاطفة البر فى الإنسان بأخيه الإنسان . وهذه العاطفة إنما غرستها فى القلوب يد القدرة ، وأنَّمتها قوة الفطرة ، وفرضتها طبيعة الحياة ، ليحصل بها التئام شمل الناس ، وانتظام عقد المجتمع ، واتجاه وجهة الإنسانية بالتعاون والتضامن إلى الكمال البشرى الممكن

راع الشبابَ — وهم موضع الحس المرهف من الأمة — ماجرّه تفشى الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير ، وانخزال الحركة ، وانتشار العلل ، وانفجار الأحداث ، واغبرار العيش ، والقرية هى مصدر القوة للشعب ، ومورد الثروة الوطنية ، فحشدوا جنودهم فى هذا الميدان وسددوا جهودهم إلى هذا الغرض ، وراحوا يهاجمون الجهل والفقر والمرض فى تلك الحظائر أو المقابر التى ضمنت أجوافها السود أربعة أخماس الأمة ، ثم دأبوا يقرعون الآذان بالخطابة ، ويحزون الضمائر بالكتابة ، ويهيبون بالحكومة والقادة أن يأخذوا من تجميل المدينة لتأثيل القرية ، ومن ترف الباشا لحاجة الفلاح ، ومن فلسفة الخاصة لأمية العامة ، حتى ارتفعت حجب الأسماع ، وانكشفت أغطية القلوب ، فعطف على قضية القرويين رجالات البلد من أولى الحكم وأهل العلم وذوى

المثالة ، وألقوا من قدرة الشبيبة وخبرة الكهولة دستور العمل المنتج لإنجاح الفلاح وإسعاد القرية . . .

* * *

لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذى تقوم به هذه الجمعية الجليلة ، أن أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتى ، وآلف أهلها كما آلف أهلى . وستجد حين توازن بين قريتى وقريتك أنى وصفت على الجملة قرى مصر جميعاً :

كومة من سباخ الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللبِن [1] ، سقفوها بالخشب والقصب ، وحلوها بالعلف والحطب ، وجللوها بشرفات من الروث اليابس ، ثم جعلوا ظهرها مراحيض للحاجة ، وبطونها مسرحاً مجاجاً لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطاط والعجول والدجاج والبط ؛ ثم جمعوا بين قاعة الإنسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد ؛ فالحديث يمتزج بالخُوار ، والمضغ يشتبه بالاجترار ، والرجل والثور ، والمرأة والبقرة ، والطفل والعجل ، يعيشون سواسية فى شيوعية عجز عن تحقيق حلمها (الرو ، لا يؤديك إلى هذه الدويرات العُمى مسلك واسع ولا طريق مشروع ؛ إنما هى طوائف طوائف ، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ . ولن تستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية ! . . بلى قد يشق البلدة منفذ صاعد هابط متحدر متعرج وعر ، ولكنه بين الفجوات والحفر ، يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة .

يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع ، ثم يحيط بها ويتخللها

---

[1] اللبن : الطوب الذى لم يحرق .

تلال من السرجين [1] والسماد منها الرطب ومنها اليابس ، وفى أحضان هذه التلال وعلى حوافى هذه المناقع ، قامت مجالس القوم ، يجلسون فيها تحت الجدران وفوق المصاطب يستجمّون حيناً من العمل الدائب والعناء المرهق ، لايألمون لسع البعوض ، ولا ينكرون ريح الوحل . ثم لا يجرى بينهم إلا الحديث القابض للنفس كتضاعُف الدَّين على الحقـــل ، وتحكم المالك فى الريع ، وفتك الآفات بالزرع ، وإلحاح الكساد على القطن ، وما تدخله تلك الحال على النفس الجاهلة من وساوس الأطماع وسخائم الحقد وغوائل الحسد !

اصطلحت على دمائهم الفقيرة جراثيم الملاريا والبلهارسيا والأنكلستوما ، فغدوا كواسفَ الوجوه خواسفَ الجسوم خوائر القوى ، يعالجون المرض بالصبر ، ويخنقون الألم بالتسليم ، ويدافعون الموت بالتعاويذ ، ويسيئون الظن بالمستشفيات التى لا تقبلهم إلا بالشفاعة ، ولا تعاملهم إلا بالفظاظة ، ولا تحسن علاجهم إلا بالمال فى العيادات الخاصة . . . وأين المال من رجل كل ما يملكه أجرة يومه لقوت يومه ؟ وليت هذا القوت كان من الأقوات التى تصلح الجسم وتدفع السقم وترد العافية ! إنما هو فى الغالب رُغفان من الذرة والشعير مأدومة ببعض أحرار البقول [2] والمش .

استغل الملاك ضعفهم والمرابون جهلهم ، فوضعوا أيديهم على أختامهم يطبعونها على العقود والصكوك فى غير رحمة ولا ذمة . حتى إذا انقضى الحول ، وآل كدح الأسرة الناصبة وجهد الماشية اللاغبة وشقاء الفلاح المسكين ، إلى الثمرة المرجوة ، عـــدا عليها الدائن اللص ، أو المالك الظالم ، فجباها لجيبه ، أو جناها لخزنه . .

---

(١) السرجين : الزبل .

(٢) أحرار البقول : ما يؤكل منها غير مطبوخ كالسريس والفجل والخس .

ذلك على الإجمال وصف القرية ، فهل تجد فرقاً بينها وبين أخصاص الهمج فى نشأة الحياة وطفولة الزمن ؟ وتلك هى على التقريب حال الفلاح ، فهل تجد فرقاً بينه وبين البهيم الذى لا يصطنع العلم ولا يدعى المدنية ولا يزعم لنوعه الرقى ؟

فإذا استطاعت هذه الجمعية الشابة أن تجعل من هذه الأقذار المركومة مسكناً يجمل فى العين ويجدى على الصحة ، و من هـذا الـكائن المهمل رجلا يشعر بالحيـــــاة ويسير مع الأمة ، فقدر فى نفسك أى واجب تؤدى وأى خير تفيد !



أعياد الحياة والحرية

تخرج الرسالة اليوم إلى الناس فى (شم النسيم) وشم النسيم فى مصر عيد اكتمال الربيع ، يخرج الناس من دورهم فيه إلى الطبيعة السافرة المجلوة فى العراء الكاسى بأفنان الزهر ، وفى الهواء الناسم بأنفاس الرياحين ، يشهدون افتضاح سر الحياة فى الأرض ، وانفتاح باب الجنة على الروض ، وانتشار جمال الله فى الكون ، وافترار الدهر العابس عن بسمات البشر تفيض فى العيون والصدور ، وتشرق على الحقول والدور ، وتهيىء القرب بين الله والإنسان والطبيعة .

أشدّ ماتفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكرى الحرية !

فى هذا اليوم يحتفل المصريون فى (شم النسيم) بعودة الروح إلى الدنيا ، وهبّة الطبيعة من مرقد الموت . وبالأمس كان عيد الفصح المسيحى ، احتفل فيه نصارى الشرق كما احتفل فى مثله من قبله نصارى الغرب ، برجعة الناسوت وقيامة يسوع . ومنذ أيام كان عيد الفصح اليهودى ، احتفل فيه بنو إسرائيل بخروجهم من ظلم الفراعين وعودة الحرية بهم إلى أرض فلسطين ! فلله هذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخلق ، ويرجع معه الشباب ، وتحيا به الحرية ، ويسبح منه الوجود فى فيض من الشعور القدسى يدرك فيه الإنسان أنه حى ، ويدرك الحى ، أنه حر ، ويدرك الحر أنه جميل ، ويدرك الجميل أنه صالح ، ويدرك الصالح ، أنه خليق بملكوت الله وخلافة الأرض !

تباركت يامبدع الربيع ومصور الجمال ومعيـــد الخلق ! هذا النيل يتنفس بالحياة ماؤه فما لأنفسنا تموت ؟ وهذا الوادى يتفجر بالخصب ثراه فما لآمالنا تذوى ! وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لأخلاقنا تسوء ؟ ألسنا جزءاً من الطبيعة نتجدد كما تتجدد ، وندور على قطب الحياة كما تدور ، ونجرى على سنن الكون كما تجرى ؟ إذن فلماذا يعود أبريل فى كل عام فيردُّ إلى الشجر حُلاه ، وإلى البلبل أغاريده ، وإلى العش زياطه ، وإلى الحيوان نشاطه ، وإلى العالم كله بهاءه ورونقه ، ونلقاه نحن فى كل موعد إبان وروده ، فلا نجد عنده وا أسفاه ريشة لجناح ، ولا نفحة لأمل ، ولا جِدَّة لدارس !

* * *

هكذا قضى الله أن يكون الربيع مستأنف القوة والفتوة والرجاء لكل حى ، ومسترجَع الذِّكَرَ الممضة والأطياف الحزينة لابن آدم وحده ! فهذه الشجرة التى أراها فينانة الأفرع ريَّا الأماليد[1] ، كانت فى عهد من العهود عشاً لطائرين بسط الشباب لهما فى الجناح ، وفسح الحب لهما فى الجو ، فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا ، ثم يأويان إليها ويغردان عليها ، حتى تقوّض العش ونَسل الجناح ويبست الحنجرة ! وها هى ذى الشجرة نفسها قد عرَّاها الخريف عشرين مرة ، وكساها الربيع عشرين مرة ، ولكن ذاوى الشبيبة لن ينضر وماضى الحبيبة لن يعود !

وهذا المرج الذى أراه مُوَشَّى البرود منضور الجنبات ، كان فى عام من الأعوام مسرحاً لمشهد من مشاهد الصبابة ، انتظمت به عقود الحب ،

---

(١) الأماليد : جمع أملود وهو الغصن الناعم اللين

وانتثرت فيه حبات القلب ، وتبددت عليه خطوات السعادة .

ثم تصوّح المرج وعاد فاخضوضر وأزهر ، ولـكن مضاجع الهوى لن تُمهّد ، وذواهب الخُطى لن تؤوب !

وهـــذا الجدول الرقراق الذى أسمع هسيسه فوق الحصى وتحت الصفصاف ، كان فى ربيع من الأربِعَة مرآة لوجهين حبيبين قرءا سرّيهما فى صفائه ، ومزجا حديثهما بخرير مائه ؛ ثم جف مجراه وما لبث أن فاض ، وانقطع حديثه ثم عاد فاستفاض ؛ ولـكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء ، والحديثين لن يكون لانتهائهما ابتداء !

وهكذا يجد الإنسان أنه وحده فى كل منظر من مناظر الأرض ، وفى كل مظهر من مظاهر الربيع ، أثر بعد عين ، وذُوار بعد نشوة ، وبِلًى بعد جِدّة ، وذكرى بعد أمل !

* * *

على أن للربيع يداً على النهضة المصرية لا تـكفرها له القلوب ماتجدد على الدهر عيده : تلك هى رجعة الروح فيه إلى حياتنا الاقتصادية . وما هذه الروح الراجعة إلا بنك مصر ، بثها الله فى نفحات الخلد من أوائل مايو ، فنضّرت من حياتنا ما ذوى ، وأقامت من بنائنا ما هوى ، واتحدت بطبيعة الزمن الموزون وحركة الفلك المنتظم ، فهى تتقدم ولا تتأخر ، وتجرى ولا تتعثر ، وتطلب الغاية ولا تحيد .

لذلك يعود الربيع كل عام فيفتح للنـاس هوة للمـاضى ، ويفتح لبنك مصر وحـــده باب المستقبل ، فينمو نمـو النبات بَرَكة على بَرَكة ، ويتضاعف تضاعف الحيـاة شَركة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى

معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

بعد ثمانية أيام يحتفل المصريون بمرور خمسة عشر ربيعاً على مولد بنك مصر ، وسيكون هذا الاحتفال المترقب حجة لمصر أو حجة عليها ! فإذا أجمعت على أن سيكون احتفالها بعيده احتفالاً بنهضتها به وحياتها فيه ، دلت الناس على جدارتها بفضله ، وعرفانها بجميل أهله ، واطرادها مع الكفاية والجد فى سبيله ، وإلا كان احتفالها بهذا العيد العظيم كاحتفال اليوم بشم النسيم : يحتفل فيه بالفسيخ والزبيب والتمر ، ثم لا تعبأ بجمال الطبيعة فى جنة ولا نهر !

بنك مصر

(١٣ مايو سنة ١٩٢٥)

— ١ —



غداً فى الساعة الخامسة يبدأ الاحتفال القومى بمرور خمسة عشر عاماً على مولد بنك مصر . والاحتفال بعيد هذا البنك النامى الخصيب إحتفالٌ بالنصر المؤزر فى جهاد الأمة لاستقلالها الحق ؛ فإن مصر منذ انحسر عن الأرض ذلك الطوفان الدموى الذى غمرها أربع سنين (١) هبت تقر فى الدول وجودها الطبيعى الحر ، فما صغت لها أذن ، ولا نهضت بحجتها عدالة ذلك لأن أوربا الجائعة المجهودة تريد أن تسد فجوات القنابل وحفائر الخنادق وأخاديد القبور مما بقى عَلَى الأحداث من أقوات الشرق والشرق — كما نعلم — يستطيل بالكرم ويعتز بالجاه ؛ فما دمت تحله الصدر وتبوئه الوظيفة ، فلا عليه بعد ذلك أن يكون كرسيه بالاستعارة ومأكله بالدين ومسكنه بالأجرة !

---

(١) أريد الحرب العالمية الكبرى التى شبت نارها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨

حمل المنتجون العجاف من أهل أوربا ثمر نشاطهم الصناعى إلى أسواقنا القاصرة المستهلكة ، وقاموا على أرزاقنا مقام القيم يبضون لنا منها بما لا يكاد يستر الجسم ويمسك الرمق ، ثم يحولونها عمراناً فى خرائب باريس وسلطاناً فى حكومة لندن ؛ ويسمعوننا نثور فى المحابر ، ونصيح على المنابر ، فيقولون : اكتبوا ما واتى المداد القلم ، واخطبوا ما أسعف الريق اللسان ، فلن ينزع العلق خراطيمه الماصة من الجلد ، ما دامت جنودكم مقبورة فى الثكنات ، وأموالكم مطمورة فى الخزائن حينئذ قال رجل الساعة محمد طلعت حرب . رويدكم ! سنرسلها شعواء بالذهب لا بالحديد !

*

كانت مصر فى العهد الذى أسس فيه بنك مصر فى مأزق من مآزق الحياة المشتبهة الخادعة تنعم فى رخاء كاذب وأمن مريب ، وراءها أوزار حرب ضروس ، وأمامها لوائح أزمة طاحنة ؛ وشباب البلاد تعصف فى رءوسهم نخوة الوطنية والحرية والكرامة ، فلا يفكرون إلا فى الاحتلال ولا يعملون إلا للسياسة ؛ وأغنياء الأمة جاثمون على أموالهم المكدسة جثوم الدجاجة المرخم [1] على بيضها العقيم ، لا يثمرونه بأنفسهم لنقص الكفاية ، ولا يكلون استثماره لغيرهم لفقد الثقة ؛ ورجال الدولة مشغولون بجباية الخراج وتحضير الميزانية ، واستئناف المفاوضات ، وتحرير مشروعات المعاهدة فلا يملكون حماية التجارة لقيود الجمرك ، ولا يستطيعون إنشاء الصناعة لمناوأة المحتل ؛ والأجانب عاكفون على منابع الوادى يستنزفونها بالربا ويكدرونها بالسفه ، ثم لا يسمحون للظمآن أن يألم ولا للمهان أن يغضب

وكانت عناية الله التى ألهمت سعد زغلول أن يخرج شعبه من رق الاحتلال

---

(١) أرخمت الدجاجة على بيضها : حضنته ، فهى مرخم .

السياسى ، هى التى ألهمت فى الوقت نفسه طلعت حرب أن يخرج قومه من رق الاحتلال الاقتصادى : وكلا الرجلين منذ نشأ ميسر لما قام له : فسعد باشا بطبعه رجل كفاح وخصومة ، وزعيم برلمان وحكومة ، ورسول من رسل الوطنية الروحية له عظمته وجاذبيته وإيمانه . وطلعت باشا رجل إنشاء وعمل ، وصاحب تدبير وخطة ، ورسول من رسل الوطنية المادية ، يهذب النفس برفاهة الجسم ، ويرفع العمران بوفرة الإنتاج ، ويضمن الاستقلال بقوة الثروة ، وله كذلك عبقريته ونزاهته وإخلاصه .

وثق الناس بالزعيمين الخطيرين ، فجادوا للأول بالأنفس فشاد بيت الأمة ، وكون الرأى العام ، وألف الوفد وجادوا للآخر بالأموال فشاد بنك مصر ، وأنشأ شركات مصر ، وكون ثروة مصر وربى سعد باشا لوطنه شباب جهاد وتضحية ، كانوا منه مكان القلب الشاعر ، والحس المدرك ، والروح الملهم . وربى طلعت باشا لشعبه شباب اقتصاد وروية ، كانوا منه مكان البصيرة الحازمة ، واليد العاملة ، والعقل المنظم . ثم كان من هؤلاء وهؤلاء دليل ناهض على يقظة هذه الأمة ، وشعور بإرادتها لما تفعل ، وسيادتها على ما تملك ، وحريتها فيما تريد .

ولا أستطيع بهذا القلم الموجز فى هذا المكان المحدود أن أجمل ما أضفاه بنك مصر وشركاته ومنشآته من النعمة على الأمة . وإن فى تقرير مجلس الإدارة الذى نشر منذ أيام عن السنة الخامسة عشرة من حياة البنك ، والخطبة الخطيرة التى سيلقيها المدير الجليل فى احتفال الغد عن حياة البنك ، لبلاغا لمن لم يسمع إلى اليوم ذلك اللحن القوى القدسى الذى يتألف من صريف الأموال المصرية فى البنك ، وهدير البواخر المصرية فى البحر ، وأزيز الطوائر المصرية فى الجو ، ودوى المصانع المصرية فى (المحلة) .

إن نجاح بنك مصر وشركاته هو وحده الحجة الناهضة على نضج هذا الشعب ، لأنه نسقٌ من الضرورة والقدرة والنظام والثقة لا يقوم على الهوى ، ولا ينتظم على الطيش ، ولا يدوم على الفساد ، ولا يتقدم على العجز ، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة . فبينما نجـــد النهضة السياسية تنتكس فترجع إلى الموت ، والحالة الأخلاقية تنحلُّ فتعود إلى المهانة ، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب إلى الفوضى ، نجد هـذا البنك ينمو نمو النبات بركة على بركة ، ويتضاعف تضاعف الحياة شركة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

— ٢ —

نعود إلى الحديث عن بنك مصر مغتبطين كما يعود المطرب إلى تكرار لحنه والمؤمن إلى ترديد صلاته ! وهل كان بنك مصر وعيدُه فى الأسبوع المنصرم إلا لحناً شدا به كل لسان ، ودعاء صعد من كل قلب ؟ لقد جاء هذا العيد القومى كما توقعنا دليلا على رشد هـذه الأمة الكريمة : رحض عن سمعتها الأذى ، ودحض عن كفايتها التهم ، وجلا عن نهضتها الشكوك ، وبدد عن مستقبلها السحب ، وأعلن — فى شاى (الحديقة) ، وعشاء (الكونتيننتال) ، ومهرجان القاهرة ، ورحلات الأقاليم ، بلسان طلعت حرب مدير البنك ، وأحمد عبد الوهاب وزير المالية ، والسِّر إدوار كوك عميد سياسة الاقتصاد الإنجليزية ، والمسيو هنرى نوس ممثل رءوس الأموال الأجنبية — أن مصر التى غلها العجز الاجتماعى حيناً من الدهر عن استعمال حقها واستغلال خيرها واستثمار غناها ، قد أتاح لها بنك مصر وشركاته أن تشعر

بالقوة التي كنت فيها ، وتفطن إلى القدرة التي ذهلت عنها ، وتخرج من ذلة اليتم والعدم والقصور إلى عزة الرشد والوُجْدُ والأهلية .

نعم كانت الأيام الثلاثة التي حفلت بعيد بنك مصر مظاهرة قومية موفقة ، شارك فيها قصر الملك ودار المندوب وجميع الأحزاب وكل الطبقات وعامة الشعب في الساعة التي رجعت فيها السياسة المصرية إلى ذبذبتها الأولى : تتحرك ولا تسير ، وتتردد ولا تستقر ، وتتصرف ولا تملك . وكان ابتهاج الأمة بها ابتهاجاً بحقها الذي يتخلص من الباطل ، وفوزها الذي يتميز من الفشل ، ونصرها الذي يتبرأ من الهزيمة !

* * *

تستطيع أن تناقش وتعارض وتستريب إن زعم لك زاعم أن يقظتنا للعلم والأدب والحرية والسياسة بلغت الحس العالي المرهف ؛ ولكنك أمام الأرقام التي قدمها إليك بالقول طلعت حرب ، والمنتجات التي وضعها بين يديك بالفعل طلعت حرب ، والمؤسسات التي عرضها عليك بالسينما طلعت حرب ، تعتقد اعتقاداً رياضياً أن نهضتنا الاقتصادية يقين لا يخامره شك ، وواقع لاتزخرفه مبالغة وإن في تسميتنا هذه النهضة التي نهضها بنك مصر فخلت عن الأمة حبوة العجز بالنهضة الاقتصادية ، تسمية لها بالوصف الأشهر والأثر الأغلب ؛ أما الواقع فإنها انتظمت مرافق البلد من كل نوع ، وتناولت أمور الناس من كل جهة : أجْدَت على العلم ففتحت له أبواب العمل ، وعلى التعليم فمهدت له سبل التطبيق ؛ وعلى الأدب فاستعملت اللغة في أعمال المال ونشرت الثقافة بتسهيل الطباعة ؛ وعلى الأخلاق فأحيت في الرجال الثقة وقوت في الشباب الرجولة ؛ وعلى الاجتماع فوقت الأمة شر العطلة المجرمة والأزمة المستحكمة ، باستخدامها الألوف من الموظفين والصناع

والعمال فى شركات البنك وفروعه ؛ وعلى القومية فخلقت الروح الجماعية بإنشائها الأعمال التى تقوم على رءوس المال وتوزع العمل وتساند القوى وتضامن الجماعة ؛ وعلى السياسة فكفكفت عنها شِرّة النفوذ المالى الأجنبى بمنازلتها الجريئة له فى ميادينه القوية الحصينة ؛ وعلى الإسلام فساعدت على إقامة ركن من أركانه [1] وكشف الضر عن منزل وحيه وقرآنه ؛ وعلى وحدة العرب فوصلتها بأسباب التعاون ووثقتها بسلاسل من الذهب والاقتصاد اليوم وقبل اليوم كان دستور الحياة ، وعلة السعى لها ، وغاية الجهاد فيها ؛ فلا بدع إذا أثر فى كل شىء ، وعمل فى كل حركة ، وهاج فى كل ثورة ، وصاح فى كل نهضة .

* * *

شهدت كثيراً من المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات فى أغراض شتى ، فكان شعورى الذى أجده فيها شعور الحالم الذى يتوهم الحقيقة ، والفاقد الذى ينشد الوجدان ، والآمل الذى يرجو الظفر ؛ ولكنى شهدت هذه المرة احتفالات قومى بعيد بنك مصر ، فكان الشعور الذى ملكنى وملك الناس شعور العالم الذى اطمأن إلى التجربة ، والواجد الذى اغتبط بالحصول ، والظافر الذى انتشى بالنصر ، والحى الذى استعز بالكرامة .

وكنا نلحظ البشر الذى يجول فى المحيا الذى لا ينبسط ، والابتسام الذى يجرى على الشفة التى لا تفتر ، فنتخيل فى وجه طلعت حرب وهو يشع بالإخلاص الساذج مستقبل بلادنا الذى يتهلل ، وأمل شبابنا الذى يبتسم .

نضر الله بالرضا والغبطة وجوه أولئك الأبرار المخلصين الذين شغفهم حب

(١) أريد تسهيل الحج بإنشاء شركة مصر للملاحة .

الخير ففكروا وأملوا ، ثم آمنوا وعملوا ، ثم استمسكوا بروح الله وقوة الشعب على عصف الخطوب وإلحاح المكايد ، حتى استقر بهم الإيمان على الفوز ، واستقام بهم الإخلاص على الطريقة ، فكانوا مثلا للجهاد الصابر للثائر الذي يتلمس القوة من جوانب الضعف ، ويتطلب الكثرة من أشتات القلة ، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المنى ، ويرفع فى معترك الشبه والظنون هذا الصرح الباذخ فيكون قاعدة للمصلح البانى ، ومنارة للمتخلف الوانى ، ومثابة للمتنكب الشريد !



إلى بعض الكبراء

(٢٧ مايو سنة ١٩٣٥)

عندكم ياسادتى المال ، ولكم الجاه ، وكان فيكم الحكم ، فلماذا تأبون أن يكون معكم المجد أيضاً ؟ رفعناكم واتضعنا ، وحكمناكم وأطعنا ، ثم صغنا مجدنا ألقاباً لعظمتكم ، وحشدنا أبناءنا جنداً لسطوتكم ، وجعلنا أموالنا مدداً لثروتكم ، وقلنا أفراد تقويهم روح الجماعة ، ورموز تلبسهم فكرة الوطن ، وألوية ترفعهم سواعد الأمة ، فإذا ضعفكم ينوء بقوة الحكومة ، وإسفافكم يهبط بسمو المنصب ، وارتفاعكم كارتفاع الأسهم النارية : فرقعة ولألاء ، ثم سقوط وفناء !

يزعم أرباب الشعر وأصحاب الخيال أن الإنسان ملكٌ مُرنَّق الجناح[1] هبط من سمائه ولم يصعد ، فهو لا ينفك ماعاش نزوعاً إلى موطنه ! وهم يعنون بذلك أن الإنسان بالجزء الإلهى الذى فيه مسوق إلى الكمال ، مشوق إلى الرفعة ، فهو يفرغ من مطالب الجسد ليخلص إلى رغائب الروح ، ويبتدىء بالأثرة فى ضيق الأنانية لينتهى إلى الإيثار فى سعة الغيرية ، وينشأ على هوى الطبيعة معنى جزئياً ليعود بحكم التطور فكرة إنسانية ! فما الذى قتل فيكم هذا النزوع السماوى ، وصرف عنكم هذا الطموح المقدس ، فقيدتكم جاذبية المادة ، وعقلتكم شهوة الغرض ، وأبيتم — على نداء البطولة واستحثاث الرجولة — إلا أن تكونوا ناساً كأقل الناس ، لكم كروش لا تكتفى ، ونفوس لا تشتفى ، وأطماع لا تحد . . .

---

(١) رنق جناح الطائر : انكسر برمية أو داء .

ربما علل النفسيون هذا الميل الشاذ فى بعض كبراء اليوم ، بأنهم من فقد الخلق الصالح فى قصور ذاتى معنوى لا ينفك ؛ فهم يرتفعون قذفاً فى السماء ، ثم يسقطون جذباً إلى الأرض ، ولا يشعرون إلا كما يشعر الحجر بأن القاذف المجهول [1] رمى بهم أمانئ فوق ، وسحق بهم أناسئ تحت !

كذلك من يتعلم ولا يتربى ، ومن يتربى ولا يتدين ، ومن يتحرك ولا يقصد ، ومن يتصرف ولا يريد ! أولئك يحدّون دنياهم بالأفق ، ويختمون حياتهم بالموت [2] ويزنون سعادتهم بالمادة ، ويضخّمون على أقوات الشعب ضخامة الفيلة المروضة ليكونوا مركباً للملوك وفرجة للناس وغذاء للأرض ! وهؤلاء أنماط من الخلق كانوا صُبابة العهد القديم ، رسبت فيها أكداره وشوائبه ، ثم كانوا بحكم تخلفهم جسراً محطم الأركان مهدم القواعد ، لا بد للجيل الجديد من اجتيازه لينتقل من عالم إلى عالم ، ويخرج من عصر إلى عصر . فهو يحملنا على اضطراب وخال ونحن نعبره على احتراس ومهل . وفى هذا الاحتراس وذلك الاضطراب سر ماترى فى خُطانا من قِصر ، وفى نهضتنا من بطء .

ماعلة هذه الهزيمة فى مصر ، وما سبب هذا الخلاف فى فلسطين ، وما باعث هذه الثورة فى العراق ؟ لا تلتمس دواعى ذلك كله فى كيد الدخيل وخداع العدو ، فإن الغاصب يستطيع إن شاء أن يسلبك مالك بالحيلة ، أو استقلالك بالغيلة ؛ ولكنه لا يستطيع أن يفتنك عن شرفك وخلقك وضميرك وأنت رجل ! إنما يدفع هذه الفيلة الأهلية الغُلف بخراطيمها الماحقة ، وأخفافها الساحقة ، وإهابها الصفيق ، فتسوى أمامه

---

(١) نريد بالقاذف المجهول السلطان الإنجليزى المحتل (٢) أى لايكون لهم بعدالحياة الأولى ذكر ، والذكر هو الحياة الثانية .

الأرض ، وتمهد له الطريق ، وتحمل له فوق ظهورها العرش ؟

* * *

إن مشكلة الدستور ، وقضية (نزاهة الحكم) ، برهانان صارخان على أننا أتينا يوم أتينا من ناحية الخلق ؟ وتلك ناحية لا يحصنها وا أسفاه شهادة تعطى وخطبة تلقى ومقالة تكتب ، إنما يحصنها الله بدينه ، والمعلم بتهذيبه ، والأب بسيرته ، والزمن بطوله وهل فى سادتنا وكبرائنا الذين أضلونا السبيل من لم يشدُ شيئاً من العلم فى المدارس ، ولم يدرك ذرواً من الأخلاق فى الكتب ؟ ولكن علم هؤلاء بالحلال والحرام كعلم القاتل واللص ، لا يعصم النفس ولا يوقظ الضمير ولا ينفى الجهل ولا يمس الحياة العملية فنحن كما ترى مقضىء على نهضتنا بالتثاقل ، وعلى أمتنا بالتخاذل ، حتى يصبح الدين قائماً ، والضمير حاكما ، والعمل عقيدة ، والإحسان طبيعة ، والواجب مرعياً ، والتبعة مفروضة . وحينئذا ينتظم وضعنا الشاذ ، ويتسق وجودنا النافر ، وتنفق ، من الشلال مطايا الرجعية الذميمة .

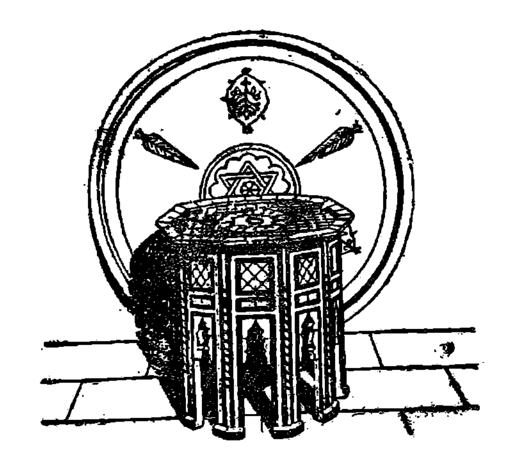
* * *

قل لأولئك الذين أحرقوا رومة وما زالوا يعزفون أناشيد الجحيم على أوتار نيرون ؟ ماذا جنى هذا الشعب الكريم حتى سفهوا حقه فى الحياة ، وأضاعوا نصيبه من الحرية ؟ كان فى يديه دستور فأين ذهب ؟ وكان فى طريقه استقلال فأين اختفى ؟ وكان فى تاريخه ستة عشر عاماً حامية بالجهاد دامية بالضحايا فأين قطوفها المشتهاة وحصائدها المرجوة ؟

تصرفتم فى حقوقه تصرف السفيه فى المال المتروك ، واتخذتم من مرافقه وسائل للكيد الأحمق وموارد للربح الخاص ، وجعلتم من أفـــــراده

المتحدين أولياء لا يعدوهم الإحسان ، وخصماء لا تغبهم الإساءة ، ونسيتم أن في البلد احتلالا يقظ الرأي كاوه العين يحصى عليكم الأنفاس ويتربص بكم الدوائر .

كان هذا الاحتلال يقظان وكنتم غارين فدلف إلينا من جهتكم ، واحتج علينا بخطئكم ، ثم ذبكم عن الحكم ذب البعوض ، وقبض بيديه العاريتين على سياسة البلاد ، ووقف الأمة المنكودة بين الحيرة والشك في عواقب هذا الفساد ؟



ذكرى المولد

(١٠ يونيه سنة ١٩٣٥)

ذكرى مولد الرسول هي ذكرى قيامة الروح . وولادة الحرية ونشور الخلق فكأن مولده كان البعث الأول الذي طهر النفس وعمر الدنيا وقرر الحق للانسان ، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدىء الآخرة ويعلن الملك لله

كان العالم يومئذ يضطرب في رق المادة وعبودية الشهوة وسلطان القوة ، فلم يكن للمثل الأعلى وجود في ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر في سعيه ، ولا للشعور الإنساني مجرى في حسه ، ولا للسمو الإلهي معنى في نفسه ؛ إنما كان حيواناً شهوته الغلب ، مادياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ، ثم أسرف في البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وفي المادية حتى اتخذ إلهه من خشب أو حجر ، وفي الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر . فلما أتى النبي العربي فتح في غار حراء باباً إلى السماء تنزلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المنحل والجسد المعتل ، فنفخت فيه سر الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السموات رثت على طول غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسر علمها في جهالته ، فتشوف إلى الأفق البعيد ، واستشرف إلى السمت العالي ، وأرسل نظره وراء النظر النبوي من فوق الجبل ، في صمت حراء الموحي ، وفي سكون الوادي الملهم ، وفي غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر في الملكوت الدائم ، ويسبح الجلال القائم ، ويفنى في الوجود المطلق .

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم[1] . وأن يحكم الله أو يحكم الإنسان ، وأن يظهر الدين أو تظهر الدنيا ؛ أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، وبين المصباح والمشكاة ، وبين الحياة الأولى والحياة الآخرة ، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلهى من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدى لإرادة الله

* * *

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف فى عبودية عقلية تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعقل التصرف ؛ فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ، إنما هو طغيان عاسف يتحكم فى الفرد ويسيطر على الجماعة : فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهى بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدين ، والكاهن ينسخ العقول بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباعٌ وأوراعٌ وهمل .

فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس فى الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوّته ، وأدرك الفقير أن بيت المال ثروته ، وأيقن الوحيد أن المؤمنين جميعاً إخوته . ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها

---

(١) أعنى موت الروح فى اليهودية وموت الجسد فى المسيحية .

إلا بالحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الإنصاف ، وليس بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه وساطة .

يارعى الله ذكراك المقدسة ياغار نور ! لقد كنت مبعث الحرية كما كان غار حراء مبعث الروح ! فأنت فى جبل الخلاص ، وهو فى جبل التجلى .

* * *

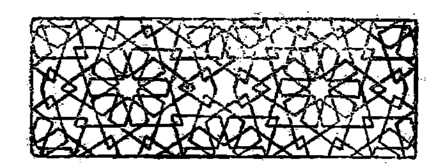
وكان العالم قبل مولد محمد يعانى تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتغلب الأثرة وتحكم السفاهة ، فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغى على الحق ، وسلطان المال يجنى على الإنسانية ، وسورة الترف تعتدى على المروءة ، فالتجارة بخس وتطفيف ، والعهود نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش : تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة ! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل ، كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى فى الخلق : كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليماً لآداب النفس بالعمل ، وتنظيما لغرائز الحياة بالقدوة ثم فعلت شخصيته ودعوته فى نفوس رويت بالدماء ونغلت بالعداء وعاشت على الفرقة ، فألفهم على المودة ، وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ، ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ومدنوا العالم وهذبوا الناس .

* * *

ذلك ماتلقيه ذكرى مولد الرسول فى روح المؤمن المقول الذاكر ! فليت شعرى ماذا يجد المسلم اليوم فى نفسه وفى قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد ! أما يعيش المسلمون اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً

كعبيد الأرض ، وهمجا كهمج الجاهلية ؟ وهل كان ذلك يكون لو أنهم اتخذوا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجْدَرَ القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة ! .



صيف الأديب

(١٧ يونيو سنة ١٩٣٥)

زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير ، فعقدت على وجه (الوادي) غشاء من سَموم ودخَن . فالطبيعة في غلافها النارى مكبوتة ، و الأرض من حُمّاها الصالب مسبوته[1] ، والناس من إلحاح القيظ متبلدون هامدون يقابلون لفحه بجلد المضطر ، ويعالجون بَرْحه بصبر الشهيد ، ولكن الجلد يماع فهو عَرَق يتقطر ، والصبر يرفَضّ فهو بخار يتصعد ، و بين هذا التقطير وذلك التصعيد نفس تذوب وجسم يذبل وعزم ينسرق و فكر يضمحل . فليت شعرى ماذا عسى أن يعمل من اضطر أن يعمل ؟ هذا مكتب الأديب الصحفى يُشع الوهَج كأتون الفرن ، وينفث الضيق كحجرة السجن ، ويبعث القلق كغرفة الانتظار ! والأديب مع ذلك مقضىٌّ عليه أن يفكر ويعبرّ ويرتب ويهذب ويقابل ويجادل ، حتى يهن عصبه وينقطع سببه ، فيعود إلى منزله الملق فى الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة ، يطلب الهدوء فلا يجده ، ويلتمس النوم فلا يناله !

ليس له وا أسفاه قصر يبسم بالنعيم ، وينسم بالعطر ، ويشرق بالجمال ، ويموج بالزهر ويتطرّى بالماء ، ويتمطى فى الظل ، ويتبسط فى السعة ، ويسجو فى الخفض ، ويغرق فى السكون ، ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة ، فيعوذ به من وقدة الجو ، ويلوذ به من مشقة العمل .

وليس له وا أسفاه مال يعبر عليه ثبج البحر ويرِد به مدن الماء ، ويبلغ

---

(١) الحمى الصالب : الشديد الحرارة التى معها رعدة والمسبوتة : المغشى عليها .

فوقه قرى الجبل ، فيسرّى عن نفسه بعض عناء العام وبلاء الأيام بما يرى من مفاتن الطبيعة على الربى ، ومجالى الفردوس فوق السهول ، ومباهج المدنية على الشاطىء .

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العلمية ، والسياحات التعليمية ، يغشاها فى منازه أوربا أو خمائل لبنان ، فينال من زهرة الدنيا ومتعة العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

* * *

الطالب يعود فى العطلة إلى الريف ، والموظف الصغير يذهب فى الإجازة إلى المصيف ، والموظف الكبير يجد فى مرتبه فضلا يشترى به السياحة والراحة والبهجة ، والموظف الأكبر يجشم نفسه الكبرى (خدمـــة) الحكومة فى (الخارج) فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأمانى ، حالما على هدهدة الأغانى ، هائماً وراء الخدمة المنشودة فى أودية الشعر والسحر ! ثم لا يكلف الخزانة العامرة إلا بضع مئات من الجنيهات لمكافأته ، وبضع كلمات من المجاملات لشكره ! والكبراء الذين يعيشون علينا ولا ينتسبون إلينا يجمعون دم الفلاح الغالى فى حقاق من ذهب ، ويلفون لحمه اللذيذ فى حقائب من حرير ، ثم يرحلون بهما إلى أسواق إبليس ، فى مونت كارلو و نيس ، فيشترون بهما أبهة أشهر وعربدة أسابيع ومخازى عُمْر !

إذن لا يبقى لسعير الصيف إلا الطبقة التى تنسج لهؤلاء جميعاً بُرد السعادة : طبقة العمل الذى لا تأخذه سِنة ولا نوم ، ولا يجدى على أهله إلا قوت يوم بيوم . هى طبقة الموظف الأصغر ، والصانع المتذَلّ ، والعامل المتغَل ، والفلاح المهمل ، والتاجر المدين ، والأديب المسكين ! فهم يعملون فى عطلة الناس — وأجرهم على الله — حتى لا تسكن الدنيا وحتى لا يقف الفلك !

أنشأت الأمة مصايف لأطفال الفقراء ، وأعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (النزهة) لأنصاف الأغنياء ، فماذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمسا كين الأدباء ؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلجوا فى الباطل ، وأعمتهم الشهوة فتدفقوا فى الشر ، ولوثهم الطمع فاطمأنوا إلى القبح ، وركبهم الغرور فجنحوا الجهالة ؟ أليسوا أحرياء بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البَرْناس) على بقعة من ضفاف النيل أو على رقعة من شواطىء البحر ، يستجمون عليه من الإعياء ، ويتصلون فيه بالسماء ، وينشدون الأمة من روائع الوحى أجمل ممـــــا أنشدته (الموز) التسع آلهات الآداب والفنون على قيثارة إله الشعر والبلاغة (أبولون) ؟

ولـكن رويدك يا أشعب ! إن الحـكومة التى لا تشترك فى مجلة الصحفى إلا بعد طلب ورجاء ، ولا تشترى نسخاً من كتاب الأديب إلا بعد أخذ وعطاء ، يشق عليها أن تقيم جبل البرناس ، على مثل هذا الأساس !

على أن الخيال عالم والحقيقة عالم آخر والأديب حريص على ألا يسبح فى عالمه غيره ، فلماذا يمد عينيه الرغيبتين إلى عالم الناس !

إن فى ليالى القاهرة الساحرة الرخيصة لرضا النفس الشاعرة : سماء كصفحة الأمل المشرق تألق بالأنوار ، وفضاء كغيب الله يموج بالأفـكار والأسرار ، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار ، وجنات الجزيرة ، وخلوات الجيزة وسمرات الجسر ومسارح النيل تخلق فى الذهن الخصيب والشعور الفنان ، مالا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض لبنان ؟

مثل من الشباب الصالح

(٢٤ يونيو سنة ١٩٣٥)

عرفت منذ أيام فتى غريض الشباب رقيق الإهاب وضيء الطلعة . يتكلم فيشع عقله فى معانيه ، ويشيع ذكاؤه فى مراميه ، ويسيل شعوره على ألفاظه ، وهو لا يتكلم إلا عن العمل ، ولا يناقش إلا فى الواقع ، ولا يرمى إلا إلى غرض . طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس ، ولا يحدُّ غايته مطلب . بعيد الهمة فلا يضله شارد الخيال ولا يغره خادع الأمل . رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء ولا يفسد طموحه أثرة ، نبت فى أكرم المنابت من إقليم الغربية ، فأبوه عميد أسرته وزعيم بلدته وسَرِى نابه من سراة إقليمه رباه فى مهد النعيم ونشأه فى ظلال الغنى وقلبه فى أحضان الترف ، فكان خليقاً أن يمسه الغباء وهو داء الغنى ، وأن يصيبه الخمول وهو بلية الترف ، ولكنه لقوة الطبع واستعداد القدرة شب ذكى الفؤاد إلى درجة الحكمة ، مشبوب العزم إلى حد المغــــامرة ، يذهب بنفسه غالباً إلى الاعتداد الواثق ، ويميل بحيائه أحياناً إلى الجرأة المؤدبة ، وينظر إلى غاية الحياة — وهو لا يزال فى بدايتها — نظرة الكيِّس اللبيب المجرب ، فيهاجم السياسيين من ناحية استحقاقهم بالخلق ، وللموظفين من جهة استهانتهم بالواجب ، والفلاحين من حيث اعتمادهم فى الإنتاج على القديم الرث ، وفى العلاج على القدَر والمصادفة . عَلَى أنه أمام أبيه — وهو قرة عينه — مثال البر ورمز الطاعة فلا ينقد له رأياً ، ولا يعصى له أمراً ولا يخالف له نصيحة .

تخرج منذ أسبوع فى كلية الزراعة ، وكان الثانى فى ترتيب الناجحين ، وإن شئت فقل الأول ، لأن الفرق بينه وبين سابقه لا يقــــدّم لضآلته

ولا يؤخر . فالوظيفة بحكم أوليته فى النجاح ومعونة أسرته بالنفوذ تنتظره فى كل مكان وتطلبه فى كل وزارة . ولـكنه زارنى منذ يومين فوجدته على غير عادته ، مشغول القلب منقبض الصدر مشترك الخاطر ، لا أثر عليه لنشوة الفوز ولا لذة الراحة ولا لفرحة المنصب ، كأنما هو آخـــــر الدبلوم أو فقير متقدم من غير وسيلة !

— مالك ساهم الوجه مكروب النفس ياأحمد ؟ هنيئاً لك الدبلوم والأولية !

فقال والأسى يبين فى صوته ولهجته : ليتنى لم أنل هذا الدبلوم ولم أحُز خطر هـذا السبق ! فقد كان فى لذة المدارسة وشهوة المنافسة وترقب النجاح وانتظار الحرية رضا لنفسى الطامحة ، وكفاية لقلبى الرغيب أما الآن فالفراغ يثقل حتى يقتل نفسى ، والوقت يطول حتى يهُكّ روحى ، والأمل يضيق حتى يُظلم حياتى ! أريد أن أعمل فيمنعنى أبى ، لأنه يضمن بصحتى على مخاطر الفلاحة ، وبراحتى على متاعب الفلاحين ، وبسعادتى على هموم المسئولية

— إذن ماذا يريد أبوك ؟

— يريد لى الوظيفة . والوظيفة سجن لنفسى الطليقة ، وتعطيل لملـكاتى الموهوبة ، ومحو لمعارفى المـكسوبة ، وقتل لآمالى الناشئة ، وتوجيه لميولى الطبيعية إلى الرض الذى لا أحب ، وإلى القصد الذى لا أريد .

إن فى مزارعنا الواسعة مجالا فسيحاً لنشاطى ، ومَراداً بعيداً لعلمى ، ومختبراً صالحاً لتجاربى ، ومغرساً كريماً لآمالى . فأنا أوثر أن أحمل عبء العمل عن والدى ، وأستغل علمى وعمـــــلى فى تحقيق مقاصدى ، فأحافظ بالاستقلال الذاتى على خلقى وحريتى ، وأساهم بالعمل المنتج فى نفع أمتى وإسعاد أسرتى ماذا تجدى علىّ الوظيفة ؟ عشرة جنيهات فى الشهر ؟ لقد كان أبى ينفق على خمسة وعشرين وأنا طالب ، فـكم جنيهاً سينفقها علىّ وأنا موظف ؟ إذن سينفق

علىّ أضعاف مرتبى لأخدم غيره وأفارق بيته ، وأظل السنين الطوال موظفاً وضيع المكانة ، مسلوب الإرادة ، محدود الرزق ، خامل الحياة !

إن شهادتى فى فن الزراعة ، والوظيفة الفنية كالوظيفة العلمية لا تصلح طريقاً إلى السلطان ولا وسيلة للجاه ولا أداة للثروة . إنما الفن مجده فى استقلاله ، وخيره فى حريته على أن وظائف الحكومة — بعد أن خفضوا أجرها ، وأخَسّوا قدرها ، وحفوا طريقها بالمكاره ، وهددوا معاشها بالنقص ، وزعزعوا ضمانها بالكيد ، وروعوا أمنها بالسياسة — أصبحت مطلباً لقصار الآمال ، ومذهباً لصغار النفوس ، وملجأ لضعاف الحيلة . فأما الذى يجد فى نفسه شعور القدرة ، وفى بيته رأس المال ، وفى أرضه مكان العمل ، ثم يتشوف إلى قيد الوظيفة وذل التبعية ، فـــلا أدرى بم أعتذر له أمام النُّبل والرجولة ؟

فقلت له وأنا موزع النفس بين الإعجاب به والرثاء له والإشفاق عليه : كلامك هذا يابنى عنوان عقلك وبرهان فضلك ودليل دعواك . وليت شعرى ما حجة أبيك الكريم أمام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح ! لعله من أولئك الذين يعتقدون أن الولد إذا دخل المدرسة ثم خرج بالشهادة ثم لم يوظف ، كان ما أنفقه خسارة لا تعوض ، وما تعلمه عبثاً لا يفيد !

فقال : كلا إن أبى من أرجح الناس عقلا وأسدهم رأياً وأعلمهم بمزايا العمل الحر ، ولكنها التقاليد الموروثة ، والعواطف الغالبة . وسأنتهى آخر الأمر على رغم هواى ومنـاىَ إلى رأيه . فقلت له : إذن دعنى على الأقل أنقل عنك هذا الحديث ليكون خطاباً إلى أبيك ودرساً لإخوانك وموضوعاً للرسالة !

كلكم حواريون فمن يهوذا ؟

(أول يوليو سنة ١٩٣٥)

لا تسمع من أي إنسان في أي مكان إلا تذمراً على حال المجتمع ، وتضجراً من نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسي تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذ الشكاة : أضاعوا استقلال البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخطاهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برة من أرواح الشباب في ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أقوات الأمة في « قانون التضمينات »[1] ثم أصبحنا وإذا المكان خلاء ، والإشارة أمر ، والكلمة رجاء ، والكرامة ضراعة !

أجل ! يقول كل سياسي هذا الكلام ، ويلوم هذا الملام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الإنجليز أكرموه فدفنوه !

* * *

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج في صدره ، والأسى يتلظى على وجهه كيف تحكمت المحاباة في دوائر الحكم ، وفشا التوا كل في دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » في التعيين زور مع التوصية ،

---

(١) قانون وضع لإخراج الانجليز من وظائف الدولة بالتعويض

والكفاية البارعة فى الترقية خُرق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ . ثم ترى « الأقلام » غاصة بالكتبة ، والمكاتب مكتظة بالملفات ، والوزارات مزدحمة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ، فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هذا الاتهام ، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب !

* * *

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهشة : متى كان البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة ؟

كان الأدب سبيلا بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً بين الجمال والحس ، ودليلاً بين الهوى والخير ، ونسباً بين القرابة والبعد ، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلا من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة .

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى

أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلماً مسوح الأدب ، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة في كل من كتب !

* * *

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنين [١] تنهل على رُدنه العريض انهلال القطر : لم يبق للدين في هذه الدنيا سلطان ، ولا للخلق في هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة في هذه المادية قيمة . ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ، ويتأبهون على العامة ، ويمدون أعينهم إلى شهوة الحياة ، ويُذهبون أنفسهم على فتنة الحكم ، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد !

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويهتم هذا الاهتمام ، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا !

* * *

وما من تاجر تعامله ، أو صانع تقاوله ، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش ، وأثروا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معاني النهب ، وحيلة من حيل الشطارة . فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفي حسك لا محالة أنك مغبون في السعر ، أو مخدوع في النوع ، أو مظلوم في التقدير !

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير

---

(١) الحسن البصري والحسن بن سيرين .

أن يصدُقوك فى البيع ويكذبوك فى التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولا يزيد رجعهم من غشه على مليم !

* * *

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممض والزراية الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل :

إذا كنتم ياقوم جميعاً حوَارِيِّين ، فمن يهوذا الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين[1] ؟ كلكم يلوم فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟ . . .

وعظ مالك بن دينار عظة تقاطرتْ عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه فلم يجده ! فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك دمعه وقال :

ويحكم ! كلكم يبكى ، فمن سرق المصحف ؟

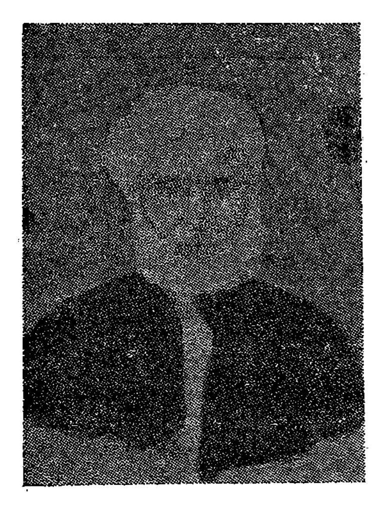
(١) ذلك هو مقدار المبلغ الذى أخذه يهوذا الإسخر يوطى ليخون السيد المسيح .



الشيخ محمد عبده

(١٥ يوليو سنه ١٩٣٥)





« عجب عجيب ! شيخ يلبس حلة مقطوعة الكم ، ضيقة الرُّدن ، مبنَّقة الجيب [١] ، ويعتم على طربوش كطرابيش الأفندية ، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية ، ويصاحب الخواجات ، ويغشى بلاد الكفر ، ويترجم كتب أوربا ، ويأخذ عن جمال الدين ، ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح [٢] ، ويريد أن يدخل فى الأزهر علوم المدارس ، ويشتغل بالأدب ، وينشىء المقالات للصحف ؛ ثم يحرم « الدوسة » ، وينكر الوسيلة ، ويحل الموقوذة ، ويسوِّغ لبس القبعة ، ويجيز الربا فى صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ، ويفسر القرآن على غير طريق السلف . !

نعوذ بالله من هذه المحنة ، وعواقب هذه الفتنة ، ونسأله أن يقبضها على منهج السنة وعقيدة الجماعة . . »

---

(١) بنق القميص : جعل له بنيقة ياقة :

(٢) ابن الصلاح أحد الذين حرموا تعلم المنطق

فابن الصلاح والنواوى حرما وقال قوم ينبغى أن يعلما

هكذا كان يقول جمهور « العلماء » فى صحن الأزهر حين انبلج نور الإصلاح من جبين محمد عبده ، كما كان يقول مشركو قريش فى فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله ! ذلك لأن دعوة الدين فاجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع فى الأخلاق والطباع ، فقال الناس حين رأوا رجلا رأسه فى السماء ورءوسهم فى الأرض انظروا كيف يريد أن يبدل نظام الكون ويغير خلق الله ! وكذلك دعوة الإصلاح باغتت الأزهر على سكون كذهول البله ، وخمود كغشية الموت ، واستغراق كخدر الأفيون ، من طول ماتنكرت له الأحداث ، وطغت عليه البدع ، وعاثت فيه الجهالة ، فارتد إلى مثل تكايا الصوفية أو صوامع الرهبان ، يقطع أهله عن الناس ، ويجرى بهم إلى الخلف ، ويعيش معهم فى الماضى ، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين أن يتوفر على مسائل الفقه ، ويتقيد بآراء السلف ، ويتعبد بألفاظ الموتى . فلما نبههم الإمام محمد عبده إلى أن الدين للدنيا وأن العلم للعمل ، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء ليظل أثر الدعوة شديداً وحبل الدين جديداً وخلافة الله قائمة ، فتحوا أعينهم على رجل يخالف سمته سمت البيئة ، ويباين زيه زى القوم ، ويناقض رأيه رأى الحلقة ، فاستوحشوا من ناحيته وأنكروه ، ثم قالوا : معتزلى مبتدع !

* * *

قال الأستاذ الإمام وهو ينفض باسماً ما حشوه على عطفيه من الظنون والتهم لا صلاح للدين إلا بصلاح الأزهر ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله ! ثم استعان على خصومه بالإحسان والنصيحة والصبر حتى آمن من آمن وهادن من هادن ، فوضع يمناه فى أيديهم ، ويسراه فى أيدى أولئك الذين فتنهم الغرب فأنفضوا رءوسهم إلى مدنية الإسلام ، وزووا وجوههم عن

ثقافة الغرب ، يحاول أن يصل بين الثقافتين ، ويوفق بين العقليتين ، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متسقة الفكر ، متفقة الهوى ، متحدة الغرض ، تؤلف بين الدين والعلم ، وتقرب بين الشرق والغرب ، وتصل بين الماضى والحاضر فتنجح على قدر ما ينجح الأنبياء والمصلحون فى إبان الدعوة ، يهيئون الأرض فى رجف من الخصومة ، ويبذرون البذر فى عصف من المعارضة ، ثم ينفثون فى أشياعهم القليلين المخلصين أرواحهم الخالقة وقوامم الخارقة ، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس وشهداء على الناس وأدلاء على المحجة .

* * *

لا ريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية من قرن إلى قرن . وأخص ما تميزهم به الطبيعة متانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وحدة الذهن ، وصفاء الملكة ورث عن أبيه وثاقة التركيب وشجاعة القلب ، وشب نابياً عن الضعف ، آبياً على السكون . يريد أبوه أن يكون تلميذاً كلداته فى المكتب ، فيأبى هو إلا أن يكون زارعاً كإخوته فى الحقل ! ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدى يطلب العلم ، فيفر منه إلى مدارج السبل يطلب الفلاحة ! لأن حفظة القرآن وحملة الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة ، وحيويته تأنف الخمود ، وحريته تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة

ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه ، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدنى . والتصوف فى الغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار ، وتلاوة

القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ، ويلطف حُمَيَّا شبابه بالذكر ، ويطفىء غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدي والكمال المطلق .

ثم اتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني فتولى عقله يثقفه بالمنطق ويكمله بالحكمة ويقويه بالملاحظة ، فكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربي جسمه ، وشيخه مربي روحه ، وأستاذه مربي عقله ، أبلغ الأثر في تكوين صفاته وتوجيه حياته وتبليغ رسالته

— ٢ —

تولدت حيوية الإمام القوية من جبلة أبيه الحرة في « محلة نصر » وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية في « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العلمية في شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة فكان سر الوراثة يجريه في الاعتقاد على الإخلاص ؛ وفي العزم على المضاء ، وفي القول على الصراحة ، وفي العمل على الجرأة ، وفي الحياة على التمرد . فالقلق المقدس الذي يشبه في الحكماء الإرهاص في الأنبياء ؛ كان لا يفتأ منذ حداثة الشيخ يساوره في كل هم يحاوله وعمل يزاوله وموضع يستقر فيه وذلك القلق مبعثه في المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ؛ فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغي التحول . ولذلك كان الإمام لا يكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمعه على رأي ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يختزل جهده عن إصلاح

دخل المعهد الأحمدي فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء الكتاب ، فكان وكْدُه طول عمره أن ينعش الدين من هذا الجمود ، ويخرج الأزهر من هذه

الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت . وظهرت مقالاته فى (الأهرام) وهو لا يزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية والمعارف العصرية والأدب المنتج . ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية فى الدواوين ، والتقاليد الإدارية فى الحكم ، والبدع الفاشية فى الدين ، والعادات المنكرة فى المجتمع وكانت مقالاته (فى الوقائع المصرية) دستوراً للغة ونظاماً للكتابة ومنهجا للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه .

ثم شايع العرابيين فى النهضة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفى إلى سورية . وهناك ذله ذلك الشعور النبوى فيه على ما جره سوء سياسة السلطان العثمانى من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الإخوان ، فوضع دستوراً لإصلاح التعليم الدينى قدمه إلى شيخ الإسلام ، ومشروعا لإصلاح القطر السورى قدمه إلى والى بيروت ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها غير هذه العاقبة .

ثم اتسع أفق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون ، واستنامتهم إلى الهون ، وقعودهم عن مسايرة التمدن ، فوافى السيد الأفغانى إلى باريس ، ودعا فى مجلة (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر .

ثم وله بعد العفو عنه القضاء ، فلاءم بين الاحكام المدنية والدينية

وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية ، وارتجل لهذه من الإصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد فى قضاتها الثقة ، وضمن لقضائها التنفيذ !

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى والدينى والمدنى فى إصلاح الأزهر لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وفى غير مصر فإذا قلبه على الوضع الذى يريد فقد وضع المكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ولكن أبا لهب وأشياعه فى الازهر وفى قصر الخديوى أرادوا وا أسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته ؟

* *

ذلك سر الوراثة الجسدية عن أبيه القروى الفقير الباسل : أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقى العارف فهو رجوعه إلى مشارع الدين الصافية وعقائد القرآن الأولى قال ذات يوم لخاله ما طريقتكم ؟ ، قال : الإسلام قال : وما وردكم ؟ ، قال : القرآن فلم يتبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة أيقظ همه للإسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة ، وجعل عزمه القرآن ففاز منه برياض مونقة وأعلام بينة ، فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره ؟

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر ، فهو ذلك النفوذ البعيد

فى علوم الفقه ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والإلمام المحيط بثقافة العصر ، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم وسر النتاج فى هذه الوراثات الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطرى ، ونفحة من روح الله ليعيد كلمته على لسانه ، ويبعث شريعته على قلبه .

* * *

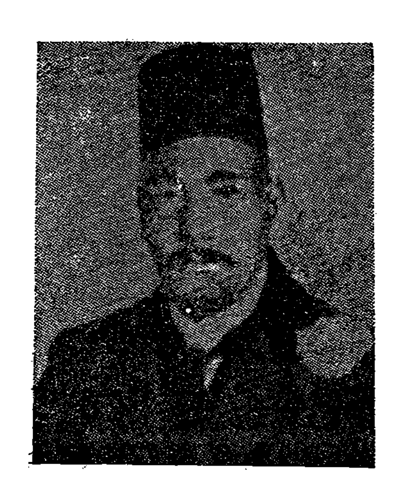
كان الإمام محمد عبقرية ثائرة ناقدة ، لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف فى الإصلاح الدينى ، فوقفت بين الدين الذى تأخر والعلم الذى تقدم ، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأى والنقل ، فذهب أكثر جهده باطلا بين الجامدين الذين يرون فى تجديد الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييد العلم بالدين رجعية ؟ فلو أنه عالج الإصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، أو السياسى من طريق الحكم ، لدفع الأمة إلى الأمام قرناً على الأقل .

وبعد ، فإن فى ساحة الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الإسلام ومصلح الأزهر ، ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفلان) وأشباهه ، لاستغفرنا الجهل سبعين مرة ، ولكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الإمام وخليفته . فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل ،

محمد حافظ إبراهيم

(٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥)

— ١ —



كان الجيل الماضى بمصر لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة فى الجماعات والأسر فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة يرتاحون للندى ، ويتنافسون فى العرف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ، ويجيزون على الشعر و(مناظر) الدور وأبهاء القصور تأخذ فى كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم ، وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة ، والبلاغة المأثورة ، يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة ، فتفتق الذهن وتصقل الذوق وتوجه الميل وتنبل الحظوة وكانت المواهب والملكات تتفتح فى جوانب هذه الأندية ، فتدل على نفسها أهلَ النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتثمر . وكانت النهضة الأدبية والحركات الفكرية يومئذ فى طور الانتعاش ، تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفى والبارودى والأفغانى ومحمد عبده

وسلمان وحمزة والشنقيطى واليازجى والمويلحى ونديم وسعد وفتحى ومصطفى وقاسم ؛ فالمجالس تشيع حر الكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة ؛ حتى قرّ فى نفس حافظ وأنداده من ناشئ الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (لليثى) ، وسبب المجد (للبارودى) ، ووسيلة الزلفى (لشوقى) ، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة ، فروى رقائق الشعر ، وجمع مقطعات الحديث ، وراض نفسه على معاناة القريض .

* * *

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً فى (ديروط) ، فنشأ فى مهد اليتم والعدم لا يجد حانياً غير أمه ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة . ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلا يزجى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البائس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً من الناس ، متجنياً على القدر ، لا ينشىء الشعر إلا فى ذلك ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين — وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل — فتبلغ[1] بالعمل فيها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وهى مطمح بصره وحديث أمانيه . ثم خرج منها ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الإنجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نفى من السودان والجيش .

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المبهمة ، لا يستريض لعمل ولا يستقر على أمر ولا يتشوف إلى غاية ؛ لأن طفولته الشاردة المهملة

(١) تبلغ بالعمل : عاش فيه عيشة الكفاف .

طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ، ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة بأن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ، أحيته عَلَى نمط مسلم بن الوليد وأبي نواس وأضرابهما ممن عاشوا صنائع الملوك وحمائل على الجوائز ووسائل للهو ؛ فأبى الوظيفة وهى على حبل ذراعه ، وآثر أن يعيش فى ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ، ويفىء إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ، وينادمهم برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شوقى شاعر الأمير بحوله وطوله .

ومن دأب الشعراء المتكسبين بالشعر أن يبذروا إلى حد السفه إذا عاشوا للحاضر كصريع الغوانى وابن هانىء ، وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا للمستقبل كأبى العتاهية والبحترى ، ومن الأولين كان حافظ .

تمتلىء يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من البرم والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب ، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان وظلم الإنسان وشقاء الأديب !

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمى لا يدخل فى نظام ، ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب فى عمل ، ولا يطمئن إلى تبعة ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس . وأينما يكن يكن الأنس الشامل والظرف الناصع والأدب الغض والحديث المشقق الذى يمتزج بالروح ويغمر بالنشوة جوانب النفس .

تقوضت أسرة حافظ وهو فى المهد ، فشب وحشى الطباع مَعرِّىَّ الغريزة لا يتضح فى نفسه معنى المنزل ، ولا يجرى فى حسه شعور الأسرة . ثم

وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الأدب ، فقصر جهده على صوغ الشعر فى المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعاق به درك ؛ ولكنه حين أريد على ترجمة البؤساء وكتاب الأخلاق ووكالة دار الكتب ، أدركته علة النشأة فقعدت به عن التمام وخزلته عن الإجادة وشلته عن العمل .

(٢)

كان حافظ فى ميعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه ، والحظوة على قدر نبوغه . ولكنه طلبهما من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس ، لا من طريق الواجب الذى يؤديه كل إنسان إلى المجتمع . فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور ، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة ، يحمل بؤسه على « حرفة الأدب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر ثم عاش عيش الطائر الغرد : عمره ساعته ، ودنياه روضته ، وشريعته طبيعته ، ودأبه أن يطير فى الغيم والصحو ، ويشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب أينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية المقيم التى حييها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشط إلى سعى ، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطىء فلم يتعمق فى فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة . كان مبدؤه الأدبى مبـــدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية فى مصر وعرش الخـــلافة فى الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع فى مدح الخديو

عباس وتمجيد الخليفة عبد الحميد . ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ فى الإنجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصيدة فى رثاء الملكة فيكتوريا ، وقصيدة فى تتويج الملك إدوار السابع ، وقصيدتان فى وداع اللورد كرومر عبر بهما عن الرأى السياسى الأرستقراطى فى ذلك الحين . ثم خلص الشعب ، فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أمانىّ الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره . ثم عطف عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل فى (دار الكتب) ، وأجزل له الوظيفة طمعاً فى مواهبه وثواباً على فضله . ولكن الشاعر حل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة ، فاستراح للخفض ، واستنام للدعة ، وفتر عن قول الشعر إلا مدفوعاً إليه من فترة إلى فترة فلما خرج على المعاش انضوى إلى أعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم سعد اتصال النديم ، وحاول أن يبعث فى نفسه الشعر الوطنى ولكنه كان قد أصفى [1]

* * *

كان شعر حافظ فيض الشعور وعفو البديهة ، ينشأ فى الكثير الغالب من آراء المجالس وأقوال الصحف ومخزون الحافظة ، فلم تمُنه حياته على التروية ، ولم يدعه اضطرابه إلى التأمل ، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة ، وإنما ظل صنيعة لوحى البيئة وإلهام الفطرة وتوجيه المناسبة ، فهو فى قصائده

---

(١) أصفى الشاعر : انقطع شعره .

الإمام يذكر تعلق الناس بالأباطيل ، وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد فى ذلك على نقد الإمام ونعيه . وفى قصائده لقاسم أمين يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه وفى قصيدته التى أنشدها فى احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم فى تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه . وفى قصائده التى نظمها فى مشروعات الجامعة المصرية الأهلية وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الإكثار من الكتاتيب وإنشاء الجامعة . وفى رثائه لتولستوى يذكر السلم والحرب والخير والشر والغنى والفقر بما لا يبعد عن متناول الناس ولا يرتفع عن مستوى الجمهور من أجل ذلك كان فكره مستقيما لا ينحـــرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش . والسر فيه اعتماده على قوة الإجماع ، لا على غرابة الإبداع ...

* * *

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربى الأول : يتزود لمجالس الملوك بالأخبار والطرف ، ولمحافل الأدباء بالأشعار واللغة ، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، وإلحاح الحاجة والحافظ فى كل أولئك مـــوضع منفرد ومكان بارز !

عكف منذ شب على دواوين الشعراء وأجزاء (الأغانى) يتنخلها ويتمثلها ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف إذا ظن أنها

تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض ؛ حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفذ منها ، لا بالقراءة ولا بالترجمة !! وثقافة الشاعر المدنى المجد ثقافة محيطة شاملة ، تشارك فى ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة .

* * *

أما صياغة حافظ فهى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة وهو فى ذلك ثانى الخمسة[1] الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانى شعبه ، وتصويره لمساوىء عصره ...

(١) البارودى وحافظ وشوقى وصبرى ومطران .



مصر والشرق الإسلامي

(١٢ أغسطس سنة ١٩٣٥)

إذا قلت إنا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق ! فإن التبعية المثلثة التي ضربتها علينا الأقدار الخصيمة في السياسة والاقتصاد والأدب قتلت في عقولنا الرأي الأصيل ، وفي نفوسنا العــــزم المستقل ، وفي مواهبنا العمل المرتجل . فنحن في مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرُها مدى العجب ! وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) . رُبُّوا على مقاعد المدارس ، وثُقِّفُوا على مباحث الكتب ، ودرِّبوا على مكاتب الدواوين ، وحرموا التربية العسكرية وهي وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف ؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف ، لا يُصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه أو تقرير خبير أو إشارة (مندوب) أو رغبة سلطان أو إرادة حزب . وذلك هو الفرق بين ساسة مصر وفلسطين وسورية ، وبين ساسة العراق وإيران وتركية فبينما تجد الأولين وهم رجال قانون مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى ، تجد الآخرين وهم رجال حرب لا يتبعون غير قانون الطبيعة ، ولا يفهمون غير سطور الجيش ، ولا يعبأون إلا بالواقع ، ولا يمضون إلا على العزم ، ولا يأوون إلى إلى الأمة .

ففي مجلس من مجالس الحكم أو في ناد من أندية السمر ، تجول

فى خواطرهم الفكرة ، أو تجرى فى نفوسهم الأمنية ، فما هى إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً مرسوماً كالخطة ، ماضياً كالنظام ، شاملا كالتعبئة والعسكرى لا يتردد ولا يتلكأ ، وإنما ينطلق ماضى الصريمة قدماً إلى وجهه : مبدؤه الأمر وطريقته المعركة وغايته النصر !

تدبر ذلك ووازن بين هذه السياسة الدبلوماسية التى تضطرب ولا تستقر ، وتدور ولا تتقدم ، وتناقش ولا تنتج ، وبين تلك السياسة العسكرية التى تهجم ولا تضطرب ، وتقدم ولا تتقهقر ، وتعمل ولا تناقش ، فلعلك واجد فى الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذى نحن فيه ! أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالا ولا مالاً ولا قوة ، يدفعها ماض مجيد ، ويحفزها حاضر ملح ، ويغريها مستقبل واعد ، ثم موقعها من أعظم المواقع ، ومغرسها من أكرم المغارس ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطى بالقهر ، وقاصرة لا تملك التصرف !

هل تجد بربك علة خمودها ووناها فى غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وإرادتها المعطلة ؟ ما منهج سياستنا فى الغرب ؟ متابعة إنجلترا على هوى الاحتلال ، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات ، وإطفاء هذه البقعة المشرقة فى وجه إفريقية بهذا المظهر الكاسف . وما منهاج سياستنا فى الشرق ؟ إن كنت تسمى الإغفال سياسة والقطيعة خطة ، فأثرها ما ترى بيننا وبين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة ، وما تشهد بيننا وبين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجرى معه تعاون ولا تنتظم به وحدة ؛ ثم ما نسمع بيننا وبين الشرق الإسلامى من

تغاضب على التمثيل السياسي ، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من التواصل والتعاطف والمجاملة

سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجي في أوربا ، حتى في العواصم التي لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية . فلما نجهنا إخواننا في آسية إلى أنهم أمم كأولئك الأمم لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة ، فضلا عما بيننا من أواصر التاريخ ووشائج القربى ، مثلنا أنفسنا هناك في الغالب بمن تنفيهم الأهواء لا بمن تدعوهم الحالة ، وجعلنا للعراق وإيران وأفغانستان سفيراً واحداً يقيم في طهران !

مَسَّ ذلك من كبرياء الأمتين الأختين فتثاقلت العراق عن تعيين سفيرها في القاهرة ، ونقلت الأفغان وزيرها إلى مكة ، ذلك والغرب يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق ، فهو يستعين عليه (بالعصبة) ويحتال له بالتجارة ويتدسس إليه بالعلم ويدور من ورائه بالمعاهدات ؛ ثم يرى أن العرب صلبه والإسلام روحه فيهجم عليهما بالمودة ويتسابق إليهما بالخديعة ، ولكن الإسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة ؛ وتحقيق هذه الإرادة موكول إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتساير الهوى في الأمم الإسلامية التي ألفت بين قلوبها العقيدة ، وفرقت بين جسومها المطامع .

ومَن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحركت كفايتها بجمع هذه القلوب الخالصة على جهاد الاستعمار ، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصرة الحق .

إن وطننا ياقوم مترامي الحدود فلماذا تحدونه على الضيق وإن

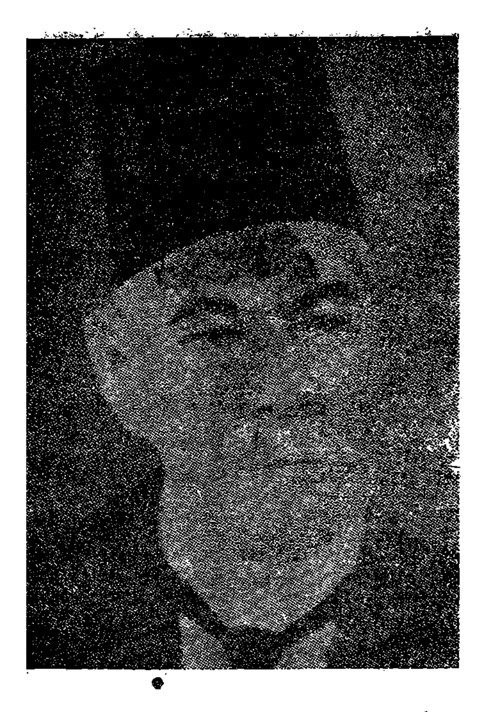
قومنا ضخام الحديد فلماذا تحصرونهم على القلة ، وإن إخواننا كرام يصفون للودة ويولون المعونة فلماذا تجعلون بيننا وبينهم سدا من الإهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص الأموال والأنفس فى التمكين لأدبها ونفوذها وتجارتها فى الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة فى البلد والنسب ، والوحدة فى اللغة والأدب ، والمشابهة فى الحظ والحالة .



سعد باشا زغلول

(٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٠)

— ١ —



كان سعد رحمه الله كالبحر لا تطالعه من أى جهاته إلا غمرك بجلال العظيم، وشغل رأسك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول، ولم يكن إنساناً كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ فى بشريته، وعبقريته بعض الكمال فى نقصه، وقوته عرض منتقل فى ضعفه؛ إنما كانت العظامة أصلا فى طبعه، والعبقرية فطرة فى خَلقه، والقوة جوهراً فى إرادته. وإذا كان النبوغ قوة فى مَلَكة على حساب ملكات، وارتفاعاً فى جهة بانخفاض جهات، فإن نبوغ سعد باشا كان نظاماً عدْلا فى نوعه. ظهر فى كل موهبة من مواهبه بمقدار واحد، وبهر فى كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز. فهو فى صرامة المنطق مثله فى لطافة الشعر، وفى جرأة القلب مثله فى رقة الشعور، وفى

بلاغة اللسان مثله فى براعة الذهن ، وفى كيد الخصومة نفسه فى شرف الرجولة ، وفى قيادة الجمعية التشريعية عينه فى قيادة الأمة المصرية .

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصة ، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربية الصحيحة . نشأ كلاهما قرويين لم يَشُب دماءهما عنصر دخيل ، أزهريين لم يشلّ تفكيرهما تقليد عاجز ، ثم مضيا عَلَى إلهام الجنس ورسم التاريخ وهدى العقيدة ، يدعو أحدهما إلى إصلاح الدين ويدعو الآخر إلى إصلاح الدنيا ، برجولة الخلق وفحولة التفكير وبطولة التضحية ، حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجدان وثورة الحمية .

كانت معجزة الرجلين فى رسالتهما الإنسانية من نوع معجـــزة الرسول فى رسالته الإلهية . رجولة قاهرة ، وفصاحة ساحرة ، وخلق عظيم . وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك ، وتقودك وكأنها تتابعك ، وتتطامن إليك وأنت منهـــا كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة .

* * *

إذا شئت أن نختصر رسالة سعد فى كلمة فهى (الدفاع عن الحق) . تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة ، فكان فى كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة وسلطان الهوى وعدوان الرذيلة . عين بعـــد خروجه من الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام ، فكان يكتب فى الاستبداد والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين

ناظراً لقلم قضايا الجيزة وكان حكمه حكم القاضي الجزئي ، فعزل الحق من عدله وعقله في حي أمين . ثم أصغى لصرخة الحق في النهضة العرابية فصل من وظيفته ، فزاول المحاماة وهي يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق ، فأنقذها من هذه المراغة ، وطهرها من ذلك الرجس ، وردها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم تساعد القانون وتؤيد الحق .

وكان سعد أفندي زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر ، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذي أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامي فقال :

« درس القضية ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء »

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف ، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص ، والدرس المحيط ، والتوجيه النزيه ، والاستدلال الصحيح ، والاستنباط الدقيق ، والحكم الموفق ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف ، وكان المستشار الإنجليزي دنلوب فيها استبداد الطاغية ، وفساد المستعمر ، وعناد القدر وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية فطأطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار ، وأعز جانب العربية في وطنها فجعلها لغة الثقافة ، ووضع الأقدار في مواضعها فرفع بذلك من قدر الكفاية !

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها في « الجمعية التشريعية » فكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتجه الأفئدة . وكان منهجه فيها قوله المأثور :

الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » !

ثم أعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساى) ، فدوى فى سمعه صوت الحق الصريح ، وعصفت فى رأسه نخوة الشعب المستذَل ، فنهض للغاصب المزهوّ نهضته المعروفة ، فخيس بها أنف الجبار العنيد ، وفتح بفصلها الدامى تاريخ مصر الجديد .

* * *

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق فى أمة سفهته فى نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه ، ثم ركبه على الصورة التى أرادها لتبليغ هذه الرسالة ، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة ، وجعل الذين اتبعوه بالحق فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

— ٢ —

كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحـــــق) فى عهد خذل الحق فانتهى فيه الحكم إلى الأثرة ، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل وكانت عدة هـذا المحامى المِدْره لذلك الدفاع البلاغةَ والمنطق والقانون فالبلاغة للجمهور ، والمنطق للخصـوم ، والقانون للحكومة ، ولست أرمى بذلك إلى تقسيم كلام سـعد إلى التأثير المحض والإقناع المطلق والتطبيق المجرد ، فإن خطبته فى كل موضع وفى أى موضوع لا تخلو من هــــذه العناصر الثلاثة ، وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقام ذلك الظهور ، فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الإنـكار والجهل ، ويوجهه بالعاطفة إلى النفس إذا عالج الجمود والغفلة ، ثم يوجهه بالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة ولم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بليلَ اللسان ، ندىّ الصوت ، طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق الهيئة ، حسن

السمت يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الإيقاع ، كل أولئك فى هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة ، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهى باهر ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب القاسية فتماع .

كان سعد رجل جلاد وجدل تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبى اللسان والقلم ، وتنفس به العمر فى ميادين الجهاد فى الحق فتكملت عبقريته الموهوبة بالمرة ، وتثقفت بالتجربة ، وتقوت بالمرانة ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذى يهضب [1] بالكلام أربع ساعات متواليات لايتلكأ ولا يتلجلج ولا يتكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع وكأنما كانت الخطابة لطول مازاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع الملازم والعادة المستحكمة ؛ فالفكر عميق من غير إعنات ، والأسلوب رشيق من غير تكلف ، واللفظ متخير من غير قصد ، والمعانى متساوية تختلف باختلاف العقول والميول والحال ، فتقع من قلوب سامعيها المشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض ، هذا بالصورة الأخاذة ، وذاك بالفكرة النافذة ، وذلك بالحجة الوثيقة ، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم والأداء العجيب !

أكثر ما فى خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة فإذا قرأت بعد ذلك ماسمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأى المجازف والأسلوب المهوش . أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه

(١) يقال فلان يهضب بالشعر أو بالخطب : يسح بهما سحا .

والـكاتب الماثل بروحه . ذلك لأنه يخطب كما يكتب ، ويكتب كما يخطب ، متوخياً فى الأمرين براعة التفـكير وبلاغة الأداء وجمال الأخيلة وصحة الأقيسة وقوة الأدلة . !

* * *

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الـكلام كما يحب العمل ، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل ، ويطرب للفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصوم ، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه ، ويقوى بالـكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استجم .

دخلت ذات يوم (بيت الأمة) [1] فى وفد من قومى نجدد الثقة بالرئيس حين انصدع من حوله الوفد ، وائتمرت به الحـكومة ، وتخشن عليـه الإنجليز ، ودس له المراءون الغدر فى الملق ، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه ، واعتقاده بحقه ، وثقة الشعب الأعزل به . وكان فى ذلك اليوم عليلا لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد ، ولـكن الوفد للسافر المشوق يأبى فى إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل ، ويسمعه رأيه وإن لم يتـكلم . فنزل الزعيم النبيل مدثراً بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده . وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة .

قدم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة فى غلاف حريرى جميل ، ثم تعاقبت الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل ، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصفق لـكل خطبة ، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشـكر ، فبدأها بصوت خافت متهافت ، ثم ما لبث أن شبا وجهه

---

(١) لقب أطلق على بيت سعد المتاس .

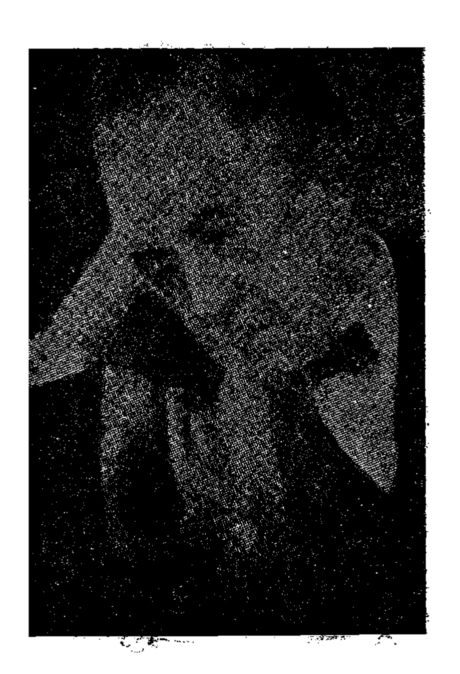
واستقام عوده وارتفع صوته ، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة ، وتحركت يده بالإشارات المبينة ، ثم تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم ، فاسمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحي ، وأسلوباً يتسامى للإعجاز ، وصوتاً يمتزج رنينه الفضي بأجزاء النفس ، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجاً كاملا للفن .

تلك صورة جانبية لناحية من نواحي فن الزعيم ، جلوناها على قدر هذه الصفحة . ولعلنا نعود يوماً إلى هذا الإجمال فنفصله ، وإلى هذا التركيب فنحلله .



أحمد شوقي

(٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٥)



اجتمع رأى المعاصرين — ماعدا الشعراء — على أن شوقى طيب الله ذكره ، كان تعويضاً عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحى الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب ، ويحفظ للبيان العربى قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المثبتة فى الكون ، وأسرار الجمال المضمرة فى الطبيعة ، ومعانى الخير الغامضة فى الحياة . وأجمعوا على أن فقده كان فقداً للوجدان الفنى فى الشعب الذى علمه كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضج عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابضة الثرة فالأعوام تعقب الأعوام ، والذكرى تخلف الذكرى ، والأسى لا يزال يرمض الجوانح لامتناع الصبر عليه وإعواز العوض منه . وسيبقى شوقى كما وضعه القدر كمالا فى نقص كان ، وهيهات أن يصير نقصاً فى كمال سيكون . وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق ويسمو ، وشعر شوقى ثابت ما ثبت الحق ، خالد ما خلد القرآن ، مقروء ما بقى العرب .

ذلك لأن الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة موئسة من الرسل ، ثم آثرته بالنصيب الأوفى من الفكر والخيال والعاطفة ، وهن الملكات الثلاث التى ترفد القريحة وتمد الطبع وعلى تفاوتها فى القوة والضعف يتفاوت الفنان فى السبق والتخلف ثم زودته بالأذن للموسقية والقريحة السخية والأداة الطيعة ، فشب عبقرياً بالفطرة لا شأن للبيئة فى تنشئته ولا للمدرسة فى إعداده ولا للفرصة فى توجيهه . وهل كان أثر البيئة وقفاً عليه ، وتعليم المدرسة خاصاً به ، ومواتاة الفرص امتيازاً له ؟ إنما كان مثله فى رسالة الشعر كمثل الأنبياء فى رسالة الدين ، يختارهم الله من الضعفاء والفقراء والأميين ليكون جلاله عليهم أبهر ، ومعجزته فيهم أظهر ، وحجته منهم أبلغ .

وشوقى رجل روحه أقوى من فنه ، وشعره أوسع من علمه ، وحكمته أمتن من خلقه ، وقدرته أكبر من استعداده . فلا يشك قارئه فى أنه وسيط لروح خفية تقوده ، ورسول لقوة إلهية تلهمه . وما اكتسب من القراءة والأسفار إلا إرهاف الذوق وتحصيل المادة وتوسيع الخبرة . والذوق فى الفن كالعقل فى العلم إنما يحصلان بالدرس والتجربة والسن . والطبيعة تصنع صاحب العبقرية ، ولكنها تبدأ صاحب الذوق .

* * *

الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة ، وينفعل قلبه بسرعة ، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر . له أذن مرهفة الحس تفطن للإيقاع وتقارب النغم ، وذوق سليم الإدراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الكلم ، ونفس ترى للمُثل الروائع فتحمى وتتحمس . ثم يدفعها السمو الفنى فيها إلى المنافسة الحرة والمعارضة النبيلة . وإذا تناول الفكرة الأساسية الأولية لموضوع ما ، لا يلبث أن يراها فى دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتتركب وتتشعب

وتتلون ، ثم تغدو ولوداً خصبة ثم لا ينفك شاعراً بالحاجة الملحة إلى الإنتاج الناشىء عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة ثم يدرك فى يسر ما بين المعانى المجردة والمواد المحسة من علاقة ، فيتخذ من هذه ألواناً لتلك ، بحيث تولد هذه الأفكار فى الذهن مكسوة بهذه الصور تتمثل فى خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الأنسب للتصوير ، والوضع الأجمل فى النظم فإذا كان الموضوع مؤثراً انثالت عليه العواطف معجلة تريد أن تظهر ، مزدحمة تحاول أن تفيض .

ذلك هو الشاعر المطبوع وذلك هو شوقى علمناه بالدرس وعرفناه بالصحبة فما انخزل يوماً فى تحليقه وإسفافه عن مواقف العبقرية . وإذا كان فى شعر شبابه مأسور الفكر محصور الخيال محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأى القصر ، ولا يصور إلا بألوان البيئة ، فقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذهولا منه عن وجوده وقديماً كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة للعبقرية . فلما أعتقته الحرب الكبرى من رق الوظيفة ، وأطلقته إنجلترا بالنفى إلى الأندلس ، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فحلق بخياله فى كل جو ، وسطع بعقله فى كل أفق ، وشدا بالإسلام والعروبة والمصرية شدواً ردده كل لسان واهتزله كل قلب . ثم زاد فى القيثارة العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصى والشعر التمثيلى إلى شعرنا الغنائى ، فكان بذلك وحده الشاعر الكامل !

شوقى كان كله من صنع الطبيعة . ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً . فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه فى مكانه ولا يزنه بميزانه اقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر فى أثره

حيك حسك . فإذا وجدت ذهنك يشتغل ، وشعورك يشتمل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك يرتاح لذوقه ، فثق أنك بإزاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه بالقيود . . .

* * *

إن شوقى سيظل على رغم الهتاف به مغموط الحق مادام الشعر العربى للخاصة ، لأن الخواص أكثرهم لا ينصفونه ، والعوام كلهم لا يفهمونه . فمتى زالت معرة الأمية عن الأمة العربية أصبح لشعره يومئذ شأن وأى شأن !



١٧ رمضان

(١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٥)

كان الإسلام للمهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح في يثرب . وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء : يمتحن الله صبرهم بالألم ، ويختبر إيمانهم بالفتنة ، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة ، ويعلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة . فالقرشيون يوثبون عليهم القبائل . واليهود ينصبون لهم الحبائل ، والمنافقون يدسون لهم الغدر في الملق . فلما أذن الله لدينه أن يعود ولجده أن يسود ولنوره أن يتم ، أرسل جنوده الثلثمائة إلى وادي بدر ، يتعاقبون على سبعين نضواً من أباعر المدينة ، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة ، وبعزة المؤمن على الذلة ، وبعفة الزاهد على الفاقة ؛ ويسهرون في استغراق الصوفي إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين : العير أو النفير[1] ، وإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . ولكن العير الذي يفهق بالثراء الضخم نجا به أبو سفيان على الساحل ، فلم يبق إلا مكة الغاضبة . ثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعدوة القصوى من الوادي مع أبي جهل في تسعمائة وخمسين من فلذات أكبادها أرسلتهم في الخيل والحديد يجيشون على محمد بالغل ، ويفورون على صحبه بالحفيظة ، ويرون الإسلام في هذا العدد القليل و المظهر المزيل فيحسبون أنه أمكنهم من نفسه ودلهم على مصرعه .

---

(١) العير قافلة التجارة التي كان يقوم بها أبو سفيان من الشام . والنفير القوة التي قام بها أبو جهل من مكة لنجدة العير . ولقد اجتمع في الطائفتين فرسان قريش ورجالاتها ، فمن لم يكن فيهما كان من الحقراء الذين لاغناء فيهم . ومن هنا سار المثل المشهور : فلان لا في العير ولا في النفير .

التقى الجمعان فى صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش . فوقف الإسلام من الشرك كان يومئذ موقف محنة . كان بين العدوتين فى بدر مفرق الطريق ؛ فإما أن يقود محمد زمام البشرية فى سبيل الله فتنجو ، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك . وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب[١] ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبى جهل على الكثيب فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة ، وإله وشيطان ! فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله فى هذا القفر ؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر ، ويتصل الماضى بالمستقبل من هذا الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة !

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض ! » .

ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة ، ويداه إلى السماء ، ورداؤه من الذهول فى الله يسقط عن منكبيه فيرده الصدّيق ويقول : بعض هذا يانبى الله ، فإن ربك منجز وعده ! وما هى إلا خفقة من خفقات الوحى حتى نزل الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون فى إشراق عجيب من الإيمان ، لا يرسم فى أخيلتهم إلا الحور ، ولا يصور فى أعينهم إلا الملائكة . وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض

---

(١) القليب : البئر

من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الإلهيـــة عن انتصار ثلثمائة على قرابة ألف !

موقعة بدر الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها فى تاريخ الحرب ، فلعلها فى كل أولئك لا تزيد على معركة بين حيين فى مدينة ؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها فى تاريخ السلم ، لأنها كانت حكماً قاطعاً من أحكام القدر غير مجرى التاريخ ، وعــدّل وجهة الدنيا ، ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله ، ويؤدوا أمانة الحضارة ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم .

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق . والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل والمثل ، وفيهـا الحب والإيثار ، فلا تبالى العدد ، ولا ترهب السلاح ، ولا تعرف الخطر !

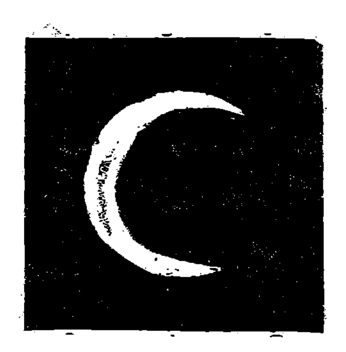
بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة فى بدر والقادسية واليرموك . وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمرانآ طبق الأرض بالخير ، ومُلْـكا تنظم الدنيا بالعدل ، وديناً ألف القلوب بالرحمة .

* * *

بهذا الشعور القدسى الذى يحس ويبعض ويقود ، وبهذا اليقين النفسى الذى يجاهد وينتصر ويسود ، وقف الشباب المصرى الباسل من دخلاء الجيش ، موقف البدريين من كفار قريش ، يشقون بهتافهم أذن الأمم ، ويقرعون باحتجاجهم ضمير المصير ، ويجدعون بثباتهم أنف المستكبر ! لا ينكلون أمام الرصاص ، ولا يرهبون وحشة السجن ، ولا يجزعون عند الفاجعة وعاطفة الوطنية كعقيدة الدين : فناء فى الغيرية ، واندماج فى الجمعية ، وتوجيه

الأمل الطموح إلى المقصد الأعلى . وأجمل ما فى وطنية الشباب المصرى اليوم هو أجمل ما كان فى عقيدة الشباب العربى أمس : اتحاد قائم على الألفة ، وتضامن مبنى على الوحدة ، ومزاج مركب من الشعور الدافق والإيمان الصادق والتفكير المنظم .

إن اليوم السابع عشر من شهر رمضان سيظل يوماً مشهوداً فى تاريخ الأمة العربية بنزول القرآن وغلبة الحق ، وفى تاريخ الأمة المصرية بنصرة الشباب ووحدة الأحزاب وعودة الدستور .



أبو الطيب المتنبي

(٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥)

— ١ —



(المتنبي كما تخيله جبران)

فى مثل هذا الأسبوع من سنة أربع وخمسين وثلثمائة للهجرة طُلّ فى سواد بغداد دم الرجل الطموح والبطل الشاعر أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ، فهمدت بهموده نفس دائبة الشبوب ، وعزيمة دائمة الوثوب ، وهمة رفيعة المصعد وكان المأمول أن يكون هذا العدد من الرسالة ديوانا لما يلقيه أساتذة الجامعة المصرية من المحاضرات فى (أسبوع المتنبى) ، ولكن العواطف الهوج التى ثارت بالبلاد فروعت قلوب الناس وزعزعت سلام الجامعة حالت من دون هذا الأمل . وأبو الطيب الذى رزق السعادة فى شعره ، وأوتى النباهة الخالدة فى ذكره ، لايزال حظه العاثر لعبة الأيام وألهية القدر هذا العراق الذى ولد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن ذكراه وهو المثل الذى يرتجيه لشبابه ، والروح الذى

يبتغيه لنهضته! وهذه حلب التى جعلها نشيداً فى فم الزمن قد قسم الهوى رأيها على ذكراه فجاءت بما لا يتفق مع قدره ولا يسمو إلى جلاله! وهذه مصر التى كان أول من أخذها بالخضوع الضارع[1] ، وعابها بالزهد الوضيع[2] : ونبه عينيها الوسنى إلى فساد الحكم[3] قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربى) عَفَّى عليه النسيان ، ونية من الجامعة المصرية ثبطت عنها الحوادث ؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله : حفلة قومية أقامها شباب العرب الأبرار فى (سان باولو) ، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الأدب الأخيار فى (دمشق)! وسان باولو لم تخلق فى دنياه ، ودمشق لم تذكر إلا مرة واحدة فى شعره .

كان أول عهدى بالمتنبى أن والدى — سقى الله ثراه — أهدى إلى فى يوم من الأيام ديوانه ، وكنت لا أزال غلاما يافعاً قد ارتفع قليلا عن سن الحداثة ، فأنا أقرأ القصص وأحفظ المتون ، وأتلقى الدروس الأولية فى الأزهر ، وأكثر من نظم الشعر فى المناسبات المختلفة على معان سقيمة وقوالب مشوشة ؛ فأراد أبى أن أستعين بالنظر فى هذا الديوان على تقويم ملكتى وتهذيب طبعى فأقبلت عليه إقبال المنهوم المحروم ، لأنه الكتاب الوحيد الذى أملك ، والغذاء الشهى الذى أحب ، والحنان الأبوى الذى أقدس كنت أقرأه فأدرك موسيقاه بشعورى وإن كنت لا أدرك معناه بعقلى ، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره فيغمر

---

(١) فمن قوله فى ذلك :

سادات كل أناس من نفوسهم — وسادة المسلمين الأعبد القزم

(٢) ومن قوله :

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم — ياأمة ضحكت من جهلها الأمم

(٣) ومن قوله :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها — حتى بشمن وما تفنى العناقيد

القلب بالنشوة ، ويرفع النفس بالحماسة ، كاللحن القوى ينساب فى الأذن الأمية نغماً من غير معنى ، وجمالا من غير تحديد ، ووحياً من غير بيان ، ولذة من غير وعى .

ازداد على الدرس والأيام فهمى للمتنبى ، فصار للذوق الساذج حجة من الفن ، وللحب الذى صادف خلاء من القلب قوة من المنطق وكان أستاذنا المرصفى — تغمده الله بالرحمة — لا يصح فى رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب ، فدس فى أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره وتأثر بذلك الإيحاء رفيقاى طه حسين ومحمود زناتى ، وقاومه فى نفسى تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه ، ولم أمالىء تعصبهما عليه . وما أكثر ما كنا نمارى فى أدبه و نتهاجى بسببه ! وما زلنا نتذكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبا الغريض ، ونسيم العيش الأبله ، ونفح الولاء الخالص .

إن أبلغ ما أثر فى نفسى من حياة المتنبى منذ عرفته هى هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز ، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية سمت نفسه منذ أيفع إلى معالى الأمور ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة . أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق . وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية ومن تلك الغاية السماوية بين عاملين مختلفين : عامل يرفعه فيُدل على الملوك ويتأبه على السوقة ويتجافى عن الهون ويقول لبعض الأمراء :

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يُرى من الشعراء

وعامل يضحه ، فيهش المهبـــة هشاشة السائل ، ويحرص على المال حرص الشحيح ، ويعفر خدّه الأصعر فى البحث عن درهم ، ويقول لبعض الأغنياء :

أمُلّ قبـل تسليمى عليه وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه فى كلتا الحالتين كان طالب مُلك وعاشق مجد وخاطب دولة .

— ٢ —

ولد أبو الطيب فى ذرور القرن الرابع الهجرى عظيما بالاستعداد ، قويًا بالنشأة ، طموحًا بالفطرة . فلا تحاول أن ترجع هذه الصفات فيه إلى أحوال داعية وأسباب موجبة ؛ فإن إعجاز القدرة أن يولد الملك فى حجر السوقة ويدرج العبقرى فى عش القدم[1] ، ويظهر النبىّ فى بيت المشرك . إنما العظمة خِلْقة فى العظيم ، تقويها عوامل وتضعفها عوامل . فولادة المتنبى بالكوفة ، وتجوله فى البادية ، وتنقله فى القبائل ، وكدحه الدائب أربعًا وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود ، يضرب من أفق إلى أفق ، ويخرج من هول إلى هول ، نمّت فيه أخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة والأَنَن . وإن اتصاله بسيف الدولة الأديب الشجاع السمح هذب فيه الشعرية والفروسية ، وهما غريزتا البداوة وخصيصتا العروبة ؛ ثم ظهوره فى العصر الذى تحللت فيه روابط الخلافة ، وتعددت حواضر الأدب ، وتطاولت كفايات السيف والقلم إلى العروش العظيمة والمناصب الفخمة ، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة ما أثمر من شمول العلم ونضج العقل واعتراض الشكوك وتعدد الفرق ، كل أولئك وسع فى ذهنه أفق المعرفة ، وقوى

---

(١) القدم : النفى

فى نفسه الطموحَ إلى الرياسة ، وهيج فى رأسه الثورة على القدر ، وأراه فى بغداد كاتبا من الكتاب يصل بالأدب إلى الوزارة ، وفى مصر عبدا من العبيد يصل بالحيلة إلى الإمارة ، فطوّع له رأيه فى نفسه أن يبايع لها بالملك ، ثم أخذها بسمت الملوك ، وألزمها شارة الخاصة ، وعاشر الدهماء معاشرة الأنوف المكرَه ، وساير الرؤساء مسايرة الغريم الحاقد ، وسخر قوته وعبقريته فى طلب هذا (الحق)[1] وتحقيق هذا المطلب حتى ملأ الدنيا بذكره ، وشغل الناس بأمره .

* * *

للمتنبى فى كتاب الأدب العربى فصل قائم بذاته ؛ لأن حياته التى اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت فيها الأحداث ، واعتركت بها الآمال ، وفاضت منها التجارب ، أمكنته من نوع جديد فى الشعر يتسم بالتفكير الحى والابتداع الجرىء والأداء الحر ، فأقبل عليه عشاق الأدب وطلاب الشهرة من ذوى السلطان فى خراسان والعراق والشام ومصر ، يتسابقون إلى وده ، ويتنافسون فى رضاه . وقد توسل بعضهم بالشفاعة ليحطبه فى حبله ، وجلس أحدهم بين يديه ليسمع مدحه فيه ! وكان يتصوّن عن مدح السوقة ، ويتكرم عن موقف الشاعر ، فسعى إليه الرؤساء المحرومون بالعداوة ، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالحسد ، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله ، فكان من أثر الكتب التى أثيرت من حوله ، والحركة الذهنية التى نشأت من شعره ، أن سار ذكره مسير الشمس ، وصار شعره سجل الخلود ، وغدا مدحه مطمح الملوك ، وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة !

* * *

عقلية المتنبى عقلية بدوية خالصة . تتعلق بالحس أكثر مما تتعلق بالمعنى ،

---

(١) قال فى قصيدة له .

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهمو من طول ما التثموا مُرد

وتعتد بالواقع أكثر مما تعتد بالخيال ، وتعتمد على القوة أكثر مما تعتمد على الحيلة . لذلك كان ذهول الصوفية نابياً فى عقله ، وشعور الجمال خابياً فى قلبه ، وأثر الدين ضعيفاً فى حياته . ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا ، وخطته سنة الطبيعة ، وفكرته صورة الواقع ، وغايته غاية الرجل الطماح ، فشخصيته تبغى الظهور ، وشهوته ترغب المال ، وحيويته تطلب الغلب ، وعظمته تريد الحكم . ومن ثمَّ كان أخص ما يميّزه بروز شخصه فى شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأغراض الحياة .

* * *

عبقرية أبى الطيب سبّاحة الجناح لماحة الطرف مبسوطة الأفق ، ولكنه قيدها بالمادة وحصرها فيما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء ، فقرت قرار الطائر الحبيس تخافت بالأغاريد المزورة على طبيعتها ، وتكايد الشوق الملح إلى الهواء والسماء والروض . ثم تفلت أحياناً من ربقة القيد فتحلق فى سماء الإلهام ، وتهتف بالمعجز من قلائد الحِكم وشوارد الأمثال وطرائف الذهن ، حتى فى الأغراض المبتذلة والمواقف الوضعية .

وهكذا كانت قوى المتنبى ومواهبه مقهورة معذبة . ولذلك كان أقسى ما يكون على قريحته وعبقريته فقد أرادهما على الإبداع فى مدح لا يعتقده ، ووصف لا يحسه ، فجاءت معانيه فى أمثال هذه الأغراض توليداً من عقله لا نقلا عن شعوره . ولهذا كثر فيها الإغراق لقيامها على الدعاوى المرسلة ، والغموض لانتزاعها من الخوالج المبهمة ، والتناقض لتعبيرها عن غير كائن ، والتشابه لتفصيلها على غير معين .

أما فيما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى ، فسبيل

لا يحجزه سد ، وبحر لا يحصره ساحل وحاله فى تدفق الأسلوب وبعد الغور وسعة الأفق ، كحاله فى بطء الحركة واختلاج الأداء وضيق الفكرة : شخصية مفروضة على الذهن ، وروح شماعة على الإحساس ، وزفيف فى الارتفاع والإسفاف يذكر بجناح النسر .

والحق أن للمتنبى شاعر القوة ، شاعر الحرب ، شاعر المغامرة ، شاعر المجد ؟ فلو كان سياسياً لكان مكيافيل ، أو قائداً لكان نابليون ، أو فيلسوفاً لكان نيتشه ؟



من أحاديث النيروز

(١٣ يناير سنة ١٩٣٦)

كنا ليلة النيروز المسيحى[1] نسمر فى دار صديق . ولهذا الصديق زوجة من (لوزان) دقيقة الفهم رقيقة الشمائل لطيفة التكوين أغرمت بمصر وأخلاق أهلها إغراقا شديدا ، فهى تحاول أن تتكلم العربية ، وتؤثر أن تعيش على الأوضاع المصرية ، وتتابع بالنظر العطوف نهضتنا المجاهدة ، وتدافع بالحجة القارعة ما تفتريه علينا الألسن الأوربية الجاحدة ، وتحب كلما حضرت أن تناقلنى الحديث عن مصر والعرب والإسلام والشرق وهى فى كل أولئك واسعة الاطلاع من طول ما تسافر ومن كثرة ما تقرأ .

كان زوجها وفريق من المدعوين يلعبون الورق على المائدة اليهودية المغرية وكان فريق آخر يستمع إلى (الراديو) وهو يذيع الأناشيد الكنسية المهللة . وكنت أنا وهى على كرسيين متقابلين أمام المدفأة ، نتجاذب على عادتنا أطراف الحديث المشقق ، ونتصفح على طريقتنا أوجه الرأى المختلف ، فأجد فى حديثها الشهى الممتع ما تجده ذلك الذى يلعب ، وذاك الذى يشرب ، وهذا الذى يسمع ؟

* * *

وتناهزت النفوس المتحابة لذة الصفو فى الساعات المودعة[2] ، وتجاوبت فى البيع القريبة أصوات النواقيس المرنة ، وتلاقت آلحياة والموت فى قلب

(١) النيروز هو اليوم الأول من السنة الشمسية .
(٢) الساعات الأخيرة من السنة المنصرمة .

الليلة المخضرمة[1] ، وتهتكت سدول المهد المحجب عن العام الوليد ، قالت لى ساعتئذ والرفاق يتبادلون المودة بالعيون ، ويتناقلون التهنئة بالشفاه :

أنظر كيف يولد العام المسيحى فى بقاع الأرض : إنه يولد كما يولد الأمل المعسول فى النفوس المرحة الفضة فالكنائس تعج بالصلوات المستبشرة ، والمنازل تفيض بالمسرات المتجددة ، والعالم الغربى كله لا يذكر فى هذه اللحظة عاماً دفن مع الأمس ذوت فيه بواضر المنى وذهب معه بعض العمر ، وإنما يذكر عاماً يولد مع اليوم يستأنف نشاطه فيه ، ويستمد رجاءه منه ، ويستقبل حدثان الغد بالثغر الباسم والعزم الصارم والنظر الرغيب . وما أدرى — وقد نشأت فى ربوع الغرب وطوفت فى بعض أنحاء الشرق — لماذا كان للسلمون وحدهم اليوم رماد الموقد المضطرم : يتحرك بهم الفلك وهم ساكنون ، وتتفجر عليهم الأحداث وهم غافلون ، ويلقون فى مراغة الذل وهم راضون ، وتؤكل بهم أرزاق الأرض وهم قانعون ، ويجادل عنهم خصومهم وهم ساكتون . أيرجع ذلك إلى العقيدة أم إلى الطبيعة .

فأجبتها والخجل يكسر من طرفى ويعقد من لسانى ؟

ربما كان مرجعه إلى الاثنتين معاً .

وكانت تنظر إلى لهب النار يرقص وارياً بين وقود المدفأة ، فحولت فى دهشة وسرعة وجهها إلى وثبتت نظرها فى ، وقالت .

كيف ؟ ألم تكن عقيدتهم اليوم هى العقيدة التى أتت من شتات البدو دولة ، وبعثت من جوف الصحراء حضارة ، ونفخت من روح الله فى قلوب الصعاليك فطمحوا إلى ملك كسرى وهم جياع ، وسموا إلى عرش قيصروهم عراة ، وصمدوا إلى حكم العالم وهم سذج

(١) مخضرمة لأنها أخذت شطرها الأول من العام الماضى وشطرها الآخر من العام الجديد .

ألم تكن طبيعتهم اليوم هى الطبيعة التى تكرمت عن الدون ، وتجافت عن الهون ، وتسامت إلى القدر الخطير ، وتمردت على الطغيان المستبد ، وجعلتهم يضعون أنفسهم فى كفة والعالم كله فى كفة ، فسمّوا — كما علمت منك — من عداهم بالعجم كما سمى الرومان مَن عداهم بالبربر !

فقلت لها : كلا وا أسفاه ! ليست العقيدة اليوم هى تلك العقيدة ، ولا الطبيعة هى تلك الطبيعة ! كانت عقيدتهم كما قلت سامية تبعث الطموح ، صافية تكسب الخلوص ، بسيطة تنتج الوفاق ، جامعة توجب الوحدة توفق بين الدين والدنيا من غير كلفة ، وتصل بين الله والإنسان من غير وساطة ، فاختلط بها فى القرون الأخيرة شعوذة الهنود ، وأساطير اليهود ، وصوفية الفرس ، ولاهوتية اليونان ، فأصيبت بالخدر الذاهل ، والتواضع الجبان ، والزهد الكسول ، والاتكال المخلف ، والجدل العقيم ، والاختلاف المفرّق . ثم تبخر من هذا الخليط المشوه إكسير الحياة فلم يبق إلا الرواسب الغريبة ، وتصعّد منه عبير الروح فلم يبق إلا الأوراق الجفيفة . فالدين اليوم شعار من غير شعور ، وتقليد من غير فهم ، واعتقاد من غير تطبيق ، وشعوذة من غير حقيقة ، وأحكام من غير حكم .

* * *

وكانت طبيعتهم كما قلت أبية تأنف الضراعة ، طامحة تكره القناعة ، وثابة تحاول التفوق ، طلاعة تحب المغامرة ؛ فامتزجت بها من بعد الفتوح دماء الأجناس المملوكة ، وأدواء الأمم المنهوكة ، وأوباء الأقاليم القصية ثم قرت فيها صبابة الأحقاب ، وانتهت إليها نفاية الأعقاب ، وناءت بها أعباء التقاليد فالعقلية الإسلامية اليوم مشوبة غير صريحة ، معقدة غير واضحة . وهى من عبث الأحداث متنافرة لا تلتئم ، متخاذلة لا تقاوم .

وإنما العقيدة الخالصة والطبيعة السليمة لاتزال فى بوادئ الحجاز وهضبات نجد . ولكن الفرق بين عرب الجزيرة اليوم وبينهم بالأمس أن العالم غير العالم ، والوسيلة غير الوسيلة ، والغاية غير الغاية !

فإذا لم نجل عن عقيدتنا هذا الصدأ العارض ، وننف عن ثقافتنا هذا الهراء الغث ، ونجذ من خلفنا ذيل التقاليد الفاسدة ، ظل سيرنا ياسيدتى بطيئاً لا يلحق ، وجهدنا باطلا لا يفيد .

* * *

وكانت فورة اللعب والطرب قد قرت فى نفوس القوم ، فخلت المائدة ، وسكت المذياع ، وفتر الحديث ، وتهيأ السامرون للخروج ، فلم تستطع السيدة الفاضلة أن تعقب على هذا الكلام .

ملك وشاعر

(٢٧ يناير سنة ١٩٣٦)

حل أصدق المواعيد [1] في يومين متعاقبين بالملك جورج الخامس وبالشاعر رديارد كبلنج ، فارفض لخطبهما الصبر الانجليزي الذي يتماسك بطبعه على مض النوازل ، وتجاوبت بأصداء الأسى الوقور أقطار الملك البريطاني الشامل ، وشعر القلب الإمبراطوري برجفة صماء لموت الملك ، وأحس اللسان الاستعماري بعقدة بكاء لموت الشاعر . ذلك لأن صاحب الجلالة كان يمثل شعبه في نبله وديمقراطيته ، وصاحب العبقرية كان يمثله في طموحه ووطنيته . فالأول كان رمز السمو الخالق في طبع السياسة ، والآخر كان لحن الغرور القومي في معنى الأدب ؟

* * *

كان الملك جورج الخامس معنى جديداً من معاني الملكية الجديدة وفق بين غطرفة الملك وتواضع الديمقراطية ، وألف بين قيود الحكم ونوازع الحرية ، وصالح بين حفاظ التقاليد وطبيعة التطور ، ولاءم بين إرادة العاهل وسلطة الدستور ، ووائم بين سياسة الدولة ورغبة الأمة ، واستبدل بالسلطة الزمنية التي أماتها فيه الزمان وحملها عنه البرلمان ، سلطة روحية أحلته من شعبه محل القداسة ، ورفعته في أفقه مكان السلم ، وجعلته في حكمه سلام الحزبية إذا احتدمت ، وقرار السياسة إذا اضطربت ، وصلة

---

(١) كناية عن الموت .

الامبراطورية إذا تقاطعت ، ومواساة للرضى من برح الألم ، وتعزية البؤس[1] من مس الحاجة . ثم تكرم عن أثرة الملوك وتميز السادة فكان فى الحرب يأكل ما يأكل الناس ، وفى الأزمة ينفق ما ينفق الأوساط ، وفى المحنة يكابد ما يكابد الشعب ، وفى الرخاء يكاد الإحسان العام لا يترك فى يديه من مخصصاته النصف مليون جنيه إلا قرابة الألفين .

كانت ملكية الملك جورج الخامس كما رأيت لفظاً معناه الحب والخير والواجب ، ومن هنا وجدت الأحزاب على اختلافها مضامينها فيه ؛ فهى تثور فيما بينها وتسكن إليه ، وتختلف فى رأيها وتتفق عليه ، وتفترق فى طرقها وتلتقى عنده ، حتى قال زعيم من زعماء الأحرار وهو مستر أسكويث : « إن العروش تتهاوى حولنا ؛ لأن بعضها قائم على أساس من الظلم ، وبعضها مرفوع على غثاء من التقاليد ، ولكن عرش هذه البلاد محمول على مشيئة الشعب البريطانى ، فهو مستقر لا يتزعزع وراسخ لا يميد » ، وحتى قال زعيم من زعماء العمال وهو مستر استافورد : « إن الملكية الدستورية ستظل طويلا فى هذه الأمة خير أداة لاختيار رأس الدولة » .

من أجل هذا الخلق الأقوم كان حزن الإنكليز على مليكهم خالصاً من الرياء الرسمى ، صادراً عن الشعور الصادق بالحب لرجل غلّب الأبوة على الملك ، واستغنى بالطيبة عن البراعة ، وسد بكمال الخلق نقص القدرة .

* * *

---

(١) البؤس جمع بائس قال الشاعر :

« حتى غدوت من البؤس المساكين »

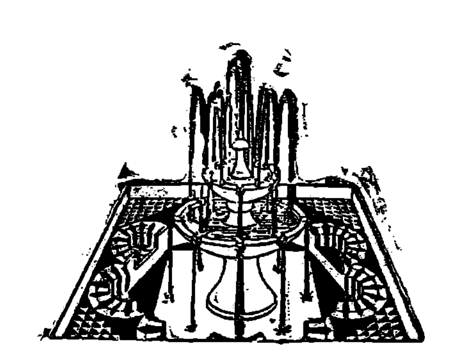
وكان الشاعر كبلنج مفتوناً بعظمة الأمبراطورية . صاغ من نسبها النضار شعره ، وألف من لجبها المتناسق أغاريده . ثم شدا بالمجد الطواف على أثباج الماء ، وهتف بالنصر الرفاف على وجوه الأرض ، وجعل من شعره الجوّاب نشيداً قومياً ترّدده الآفاق البريطانية كما تردد نشيد الملك !

ولد كبلنج فى بلاد قال فيها « إنها أعجب بلاد خضعت للمخلوق وفتحت للخالق » ولد فى الهند بمدينة بمباى كما يولد الهنود ، ولكنه وعى فوجد نفسه سيداً ، ووجد الهندى الذى ولد معه عبداً يعيش على كده وهو ناعم بين سكيّه وحصانه ، ويرقى على ظهره إذا هم بركوب حصانه . الخلقة هى الخلقة ، والبيئة هى البيئة ، والطبقة هى الطبقة ؛ ولكن كبلنج رأى بشرته ودمه من لون العلم الخفاق ، ورأى بشرة الهندى ودمه من لون الأرض المستغلة ، فأدرك علة الامتياز وسر التفوق . وعرف أن البريطانى بحكم الجنس قد يدعى ذكياً وهو فدم ، وكيّسا وهو أخرق ، وكافيا وهو عاجز ، وسابقاً وهو متخلف ؛ فاستهام بهذه القوة التى تشع مع الشمس فى كل أفق ، وتنتشر مع الحياة فى كل قطر ، وتنبسط على حواشى البر والبحر أمناً وحماية فحبس على إعلان مفاخرها ولسانه ، ووقف على تسويغ عدوانها عقله ؛ فموه حجج الاستعمار بالشعر ، وألهب سعار العصبية بالحماسة ، وشوه جمال الوطنية بالأثرة ، وجعل الأدب وهو شعاع الروح دليلا لبغى القوى ولؤمه ، ومهد لأساطيل الطغيان استعباد الإنسان للانسان بقوله : « إن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان » إلا على شر ، ولا يفترقان إلا على ثأر !

من أجل ذلك الإخلاص الملهم كان مرض كبلنج تحت الرعاية الملكية ، وكانت جنازة كبلنج جنازة « شبه رسمية » !

إن فى مثل سياسة الملك جورج الخامس لأمانًا من طغيان الرءوس ، وثوران النفوس ، وقيام الدعوات الباطلة ، وشيوع المذاهب الجريئة ، وانقلاب الحكم فى الدولة ، واضطراب السلم فى الأمة ، واغبرار العيش فى أوجه العامة وإن فى مثل أدب الشاعر كبلنج لروحاً مزهوة تهتاج بالشعور الوطنى ، وتختلج بالغرور القومى ، وتدفع بالهمم الوانية إلى اللحاق ، وتنزع بالنفوس الضــــارعة عن المذلة ، وتـكشف القلوب المنخوبة عن معانى الرجولة !

إن فى كل حادث ذكرى ! وإن فى كل حديث بلاغاً !



تاريخ يثور

(١٠ فبراير سنة ١٩٣٦)

على ضفاف الوادى ، وهضاب فلسطين ، ورياض سورية ، يثور تاريخ ويغضب مجد ويستغيث مظلوم . !

على الوطن الذى ورفت على نيله أول حضارة[١] ، وفوق البلد الذى هبط على طُوره أول دين[٢] ، وفى القطر الذى انبثقت من ساحله أَول ثقافة[٣] ، تمتحن الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور[٤] ، وتمتهن العدالة ممن حملوا لله أول كتاب[٥] ، وتبتلى الإنسانية بمن أعلنوا للانسان أول حق[٦] !

على هذه الأقطار الثلاثة التى شع منها السلام والإسلام والخير ، يستكلب الطمع ويشتجر الهوى وينفجر البغى ؛ فالمفاوضات وعيد ، والاحتجاجات حديد ، والمواعيد مراوغة ، كأنما عىَّ المنطق من طول ما مارس العلم ! ومات الضمير من كثرة ما دارس الخُلق ! وزهق العدل من شدة ما زاول القانون !

فى القاهرة وأورشليم ودمشق شباب يحمى على لذع البنادق ، ودم يفور على مس الأسنة ، وأمل يشرق فى الوجوه الوضيئة ، وطموح يومض فى العيون الرغيبة ، وماض تميز فى إبهـــام الدهر يتمثل فى الأذهان الصافية ، ومجدٌ تأثّل فى أربعة عشر قرناً يعصف بالنفوس الفتية ، فماذا

---

(١) مصر (٢) فلسطين (٣) سورية (٤) الانجليز (٥) اليهود (٦) الفرنسيون .

تصنع مدية اللص فى قلب تدرع بالإيمان ؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجل فى لوح الزمان ؟ !

* * *

يالله ! ألم يأن لدعاة المدنية وحماة الحرية ورسل العلم أن يروضوا عقولهم على الحقيقة ، ويفتحوا عيونهم على الواقع ؟ إن هذا الشعب الذى تتحلب أفواههم قرماً لأكله لا يزال يعيش فى ملك آبائه الفاتحين ، ولا يزال مطوى الحنايا على العزيمة التى قبض بها من قبل على زمام الدنيا ، وشارك فى تصريف الأقدار ، وأملى إرادته على سجل الزمن ! إن حلمه لثقيل ، ولكن غضبته مفزعة . وإن نومه لطويل ، ولكن يقظته مروعه ! إنه على اختلاف أقطاره لا يزال يحمل فى نفسه سر (الجزيرة) التى يعيش فيها الجمل الوقور الصابر ، والأسد المصور المتوثب .

إن فى كبد أوربا جمرة من العرب منذ غزتها بالدين والمدنية والعلم سفائن طارق ! ولقد انطفأت البراكين ولما تنطفىء هذه الجمرة ! أجلت العرب عن أرضها بالبربرية الهوجاء والتعصب الحاقد والقسوة الجامحة . ثم كتبت الكتائب المتحالفة وغزتهم فى عقر بلادهم باسم الدين المظلوم فى عهد (صلاح الدين) ، ثم بالعلم المسموم فى عصر (عبد الحميد) ، ثم بالمدنية المغشوشة فى عهد (عصبة الأمم) ! فما كان الدين والعلم والتمدن إلا ألفاظاً حملت بالكره على معانى الثأر والاستعمار والنصب ! ثم أغروا بنا الجهالة والمجاعة والفوضى . ومضوا فى ظلال الأمن يعقدون [1] من دمائنا الذهب ، ويتخذون من لحومنا القوت ، حاسبين أننا مخدرون بالأباطيل

(١) مجاز من قولهم : أعقد العسل وعقده بالتشديد أغلاه حتى غلظ .

فلا نفيق ، مُثقلون بالتقاليد فلا تنهض ؛ ولكن المعدنْ يا غُلف القلوب كريم ، وهذا الذى يعلوه غبار لا صدأ ! وها هى ذى سياسة الإرهاب والاغتصاب تجلوه عن شباب عرفوا كيف يموتون أكثر مما عرفوا كيف يعيشون ! وها هم أولاء يمشون على ما يلى من هيا كل الشيوخ ، كما يمشى المرحون على ما جف من سفير[1] الشجر . إنهم يسرعون الخطى إلى الربيع الباسم والجو الطليق ، وفى أسماعهم المرهفة دوى لا ينقطع بهذا الهتاف : لقد فتح آباؤكم ثلاث قارات فى ربع قرن ، أفتعجزون عن تحرير ثلاثة بلاد فى نصف قرن .

* * *

إن شبــــاب العرب مصريين وسوريين قد أخذوا موثقهم من الدم الشهيد أن يعيشوا أعزة أو يموتوا كراماً . فلا تتحدّوا بالعذاب السفيه جنساً برمته وتاريخاً بأسره . ولا تعبثوا بالمعجمات التى تعب فيها اللغويون والمجامع فتسموا النهب تنظيما والقتل تعليما والغزو صداقة جربوا الصداقة بمعناها اللغوى الصحيح توفروا المال والرجال والسمعة ، فإن هذا الشعب الذى وقعتم فى صفوه ، وتعبتم من غزوه ، ويئستم من خداعه ، كان له فى السياسة العالمية شأن ، وفى اللغة الدولية اصطلاح ، وفى قيادة الإنسانية محل ، ومن إصلاح المجتمع نصيب فهو يفهم الصداقة ويقدر المعاونة ويكبر التضامن ويعقد صلاته بالناس على ضوء شريعته وقرآنه .

إن سلام الشرق منوط بسلام العرب . وإن السلام والإسلام لفظان

(١) السفير : ما سقط من ورق الشجر وتحات ، لأن الريح تسفره أى تكنسه .

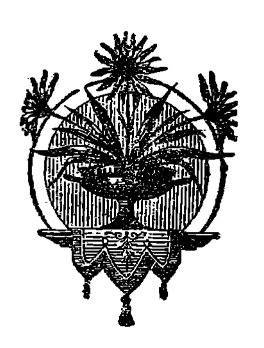
(٢) أى كدرتموه كما يقع القذى فى صفو الماء

مترادفان على معنى واحد وليس من معانى السلام المهانة ، ولا من دلالات الإسلام الاستكانة ، إنما هما الحياة القائمة على الحرية والإخاء والمساواة ، وهى الأقانيم الثلاثة التى رسمتها الثورة على علمكم المثلث .[1]

بغير هذا لا يرضى العرب ، وبدون هذا لا يحيا العرب فراجعوا فى سياستكم العقل السالم من الهوى ، والضمير الخالص من الريبة . وحكموا بينكم وبينهم مبادىء الناس ، فإنهم كما تحسون وتلمسون من الناس .

---

(١) الخطاب لفرنسا .



شبابُ العراق في مِصر

(٣ مارس سنة ١٩٣٦)

قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نَبَتْ على العروبة فقطعت الأسباب الموصولة ، وأيبست الأرحام الندية : تعالوا فانظروا كيف بَشَّت بالعراق بشاشة الألفة ، ورفت لبنيه رفيف القرابة ، وأشبلت عليهم إشبال الأمومة !

قل لهم : تعالوا فاسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، وفي بيئة غير بيئتهم ؟ لقد كان إقبالهم على محطة القاهرة كإقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبال العافية ! نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي ، وهتفت الجموع الحاشدة باسمي فؤاد وغازي ، وجرت الألسن الخاطبة بلفظي القرابة والوحدة ، وتلاقت العواطف الظامئة على ورْدي الإخاء والمودة ، ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المُهلّلة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأماني ، وترجمت اللغة ! ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم غبطة القاهرة وبهجة الأندية وحديث الصحف . يظلون من مطالع النهار إلى مقطع الليل غرقى في احتفاء المدينة بين ترحيب يومض في العيون ، وتسليم يفترُّ في الشفاه ، وإعجاب يدوِّي في الأكف ، وكرم يفيض على الموائد ، لا يسمعون كل مشوق لسعة الحركة ، ولا يجيبون كل داعٍ لضيق المدة .

والحق أن الشباب العراقيين كانوا كما قال الدكتور محجوب ثابت :

طاقة من شتيت الزهر النضير قدمتها بغداد إلى القاهرة في العيد . مثلوا

العراق فى الرجولة والعزة ، ومثله كبيرهم الأستاذ القاضى فى الوقار والنبل ، فكانوا بهذا المظهر الجميل دليل اليقين لمن يطمع فى أمتهم الشك ، وشاهد الاطمئنان لمن يعقد على نهضتهم الأمل !

* * *

كان مبعث الجفاء بين أقطار العروبة انقطاع الأسباب وبعد الشقة . ثم غشيت كل سماء من سماواتها الزُّهر غمةٌ من أطماع الغرب حجبت عن العيون الضياء ، وعن النفوس الصفاء ، وعن العقول المعرفة ؛ فذهب القوم أشتاتاً يتلمس كل امرىء فى الظلام طريقه ! حتى إذا استيقظ فى الوجدان شعور العروبة ، وعاد فأشرق فى الأذهان نور الدين ، أبصرنا فإذا بيننا من بغى الإنسان على الإنسان حواجز تتقاصر عندها الخطى ، وتتناكر عندها المعارف !

أزيلوا قائم الحدود وجددوا دارس الطريق تتلاق الوجوه وتتعارف الإخوة ، واعملوا مايعمل فى العراق رسول الوحدة ياسين ، وفى مصر أمثال الوزير محمد على والزعيم طلعت حرب ، تجدوا الاتحاد العربى جارفاً كدعوة محمد ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس !

هـذه هى مصر الصحيحة ياشباب الرافدين ! لايزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم إنها لم تركم ولم تروها لأنها فى جوف الحوت[1] وها أنتم أولاء تسمعون حشرجتها الأليمة فى حلقه وستجيش بين معدته وأضراسه جيشان السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة كيونس[2] حينئذ تتجه (ابنة الشمس) إلى مطلع الشمس ! وهناك يكون مجد العرب

---

(١) المراد به الاحتلال .

(٢) يونس بن متى (ع) وقصته مع الحوت معروفة .

اليوم كما كان مجدهم بالأمس ! وليس الشرق موطنُ الديانات وللدنيات بضيق ولا جديب .

إن الأرض لتزلزل فى كل مكان بالدخيل يأبى الهلال الخصيب(٢) ! وإن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً من صحون المساجد الجامعة ! هل تذكرون ثورة بغداد فى جامع الحيدرخانة ؟ هل رأيتم غضبة دمشق فى الجامع الأموى ؟ هل سمعتم صرخة القدس فى الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجيباً لاينِدُّ عن خاطر ولا يلتوى على ذهن : ذلك أن المنارة التى يذكر عليها اسم الله لاتزال هى المكان الذى يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن المحراب الذى يقوم فيه الدين لايزال هو الركن الذى يأوى إليه الحق ، وأن الإسلام الذى ألف شتيت البدو فى الأول هو النظام الذى يجمع شمل العرب فى الآخر !

* * *

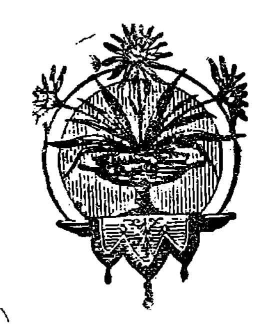
لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة . صافحونا بالأيدى ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالآذان ، فانمحت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكثيفة ، واستبان للناس أن الخيال جان على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع !

نعى البرق شاعر العراق الزهاوى والمصريون والعراقيون فى حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب فى نفوس الفريقين واحداً لااختلاف . وقام كبير الأدباء فأبن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بعاطفة واحدة وشعور مشترك ؛ لأن الزهاوى كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة ، فتردد أصداؤها

(١) مصر (٢) العراق

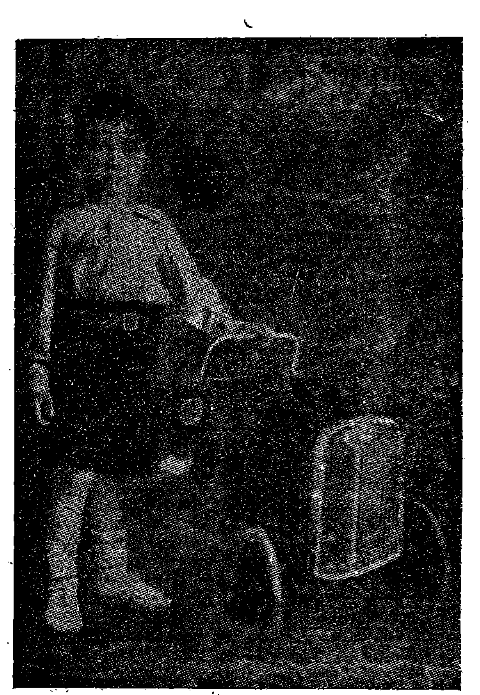
الموقظة فى ربوات بَرَدى وخمائل النيل وسواحل المغرب ! وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لما تهيأ للعراق هذه الزورة ! وبهذه الزورة وأمثالها نتعارف ونتآلف ونتحد . فتعالوا يا أخلاف المجد الفقيد وأسلاف المجد الوليد نتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة ! تعالوا نقرّ فى سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدى الأمانة ! ولكن قبل ذلك كله :

تعالوا نجدد دارس العهد بيننا ··· كلانا على هذا الجفاء ملوم



ولدى

(٦ أبريل سنة ١٩٣٦)



ياقارئى أنت صديقى فدعنى أرقْ على يديك هذه العبرات الباقية ! هذا ولدى كما ترى ، رزُقته على حال عابسة كاليأس ، وكهولة يائسة كالهرم ، وحياة باردة كالموت ، فأشرق فى نفسى إشراق الأمل ، وأورق فى عودى إيراق الربيع ، وولد فى حياتى العقيمة معانى الجدّة والاستمرار والخلود !

كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجـد الظل ، وأفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس ، وأكسب المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية . كنت كالصوت الأصم لا يُرجعه صدى ، وكالروح الحائر لايقرّه هدى ، وكالمعنى المبهم لايحدده خاطر كنت كالآلة نتجتها آلة واستهلكها عمل ، فهى تخدم غيرها بالتسخير ، وتميت نفسها بالدءوب ، ولا تحفظ نوعها بالولادة . فكان يصلنى بالماضى أبى ، ويمسكنى بالحاضر أجلى ، ثم لايربطنى بالمستقبل رابط من أمل أو ولد . فلما جاء

(رجاء) وجدتنى أولد فيه من جديد فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال ، وأضطرب فى الحياة اضطرب الحى الكامل ، يدفعه من ورائه طمع ، ويجذبه من أمامه طموح ! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً فى جسمى ، وبالأمل القوى ينبعث جديداً فى نفسى ، وبالمرح الفتىّ يضج لاهياً فى حياتى ، وبالعيش الكثيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى ! فأنا ألعب مع رجاء بلعبه ، وأتحدث إلى رجاء بلغته ، وأتبع عقلى هوى رجاء فأدخل معه فى كل ملهى دخول البراءة ، وأطير به فى كل روض طيران الفراشة ثم لم يعد العمل الذى أعمله جديراً بعزمى ، ولا الجهد الذى أبذله كفاء لغايتى ، فضاعفت السعى ، وتجاهلت النصب ، وتناسيت المرض ، وطلبت النجاح فى كل وجه ! ذلك لأن الصبى الذكى الجميل أطال حياتى بحياته ، ووسّع وجودى بوجوده ، فكان عمرى يغوص فى طوايا العدم قليلا قليلا ليمد عمره بالبقاء ، كما يغوص أصل الشجرة فى الأرض ليمد فروعها بالغذاء .

شغل رجاء فراغى كله ، وملأ وجودى كله ، حتى أصبح هو شغلى ووجودى ! فهو صغيراً أنا ، وأنا كبيراً هو يأكل فأشبع ، ويشرب فأرتوى ، وينام فأستريح ، ويحلم فتسبح روحى وروحه فى إشراق سماوى من الغبطة لا يوصف ولا يحد .

ما هذا الضياء الذى يشع فى نظراتى ؟ ما هذا الرجاء الذى يشيع فى بسماتى ؟ ما هذا الرضا الذى يغمر نفسى ؟ ما هذا النعيم الذى يملأ شعورى ؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة ، وتدفق روح فى روح ، وتأثير ولد فى والد ؟

ثم انقضت تلك السنون الأربع ، فصوّحت الواحة وأوحش القفر ،

وانطفأت الومضة وأغطش الليل ، وتبدد الحلم وتجهم الواقع ، وأخفق الطب ومات رجاء !

ياجبار السموات والأرض رُحماك ! أفي مثل خفقة الوسنان تُبدَّل الدنيا غير الدنيا ، فيعود النعيم شقاء والملاء خلاء والأمل ذكرى ؟ أفي مثل تحية العجلان يصمت الروض الغرد ، ويسكن البيت اللاعب ، ويقبح الوجود الجميل ؟

حنانيك يا لطيف ! ما هذا اللهيب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب ؟ اللهم هذا القضاء فأين اللطف ؟ وهذا البلاء فأين الصبر ؟ وهذا العدل فأين الرحمة ؟

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها معول ! فهل لبيان الدمع ترجمان ، ولعويل الثاكل ألحان ؟ إن اللغة كون محدود فهل تترجم اللانهاية ! وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الواري ؟ إن من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف حالي بعده ! أشهد لقد جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة ! كنت أنفر ممن يعزيني عنه لأنه يهينه ، وأسكن إلى من يباكيني عليه لأنه يُكبرُهُ ، وأستريح إلى النادبات يندبن القلب الذي مات والأمل الذي فات والملك الذي رُفع ؟

لم يكن رجاء طفلا عادياً حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه . إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق ! كان وهو في سنه التي تراها في صورته يعرف أوضاع الأدب ، ويدرك أسرار الجمال ، ويفهم شؤون الأسرة ، ويؤلف لي (الحواديت) كلما ضمني وإياه مجلس السمر ! كان يجعل نفسه دائماً بطل (الحدوتة) فهو يصرع الأسود التي هاجمت الناس من حديقة الحيوانات ، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات ، ويجمع

مساكين الحى فى فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير !

والهف نفسى عليه يوم تسلل إليه الحمام الراصد فى وعكة قال الطبيب الغفلان إنها (البرد) ، وقال القدر اليقظان بعد ثلاثة أيام إنها (الدفتريا) ! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة ! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه لم تبرح قوية ناصعة ، تصارع العدم بحيوية الطفولة ، وتماحك القدر فى حكمة الحياة والموت !

والهف نفسى عليه ساعة أخذته غصة الموت ، وأدركته شهقة الروح ، فصاح بملء فمه الجميل : (بابا ! بابا !) كأنما ظن أباه يدفع عنه مالا يدفع عن نفسه !

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء ، وللذين تطولوا بالمواساة نيك السلامة والبقاء !

محمد الوالد

إن فى حزن القوى عزاء لجزع الضعيف
(٢٠ أبريل سنة ١٩٣٠)

تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين ، فلم يبق إلا فاطمة قرة لعينه وعزاء لنفسه . وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسها للمض فراغاً بين آلام الرسالة فتندمل فى سكوت وصمت . فلما عنت سورة الشرك فى مكة ، وعلت كلمة الله فى الجزيرة ، وتحققت وحدة العرب فى الوجود ، وأخذت نفحات السلام الإلهى تنضح الجو المشتعل بالنار ، وتطهر الثرى المخضوب بالدم ، تنبهت فى الإنسان الأعلى مشاعر الطبيعة وتجددت فى العربى الرسول عواطف الأبوة ، وحز فى نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة ، فبيوتهن التسعة حول المسجد الآهل الذاكر غرق فى السكون الرهيب والصمت الموحش ، لا يؤنس حجراتها غناء للمهد ، ولا يبهج أفنيتها مرح الطفولة .

لا ريب أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الإسلام أجمع ، ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال لنقصها ألما من آلام العبقرية ، ومحنة من محن البطولة .

تدرع باسم الله وبرز وحده لشياطين الأرض فجاهد الوثنية حتى أقر الحق ، وعالج الإنسانية حتى أعلن الخير ، وشذب الطبيعة حتى أنمى الجمال ، وبلغ الرسالة حتى لم يبق لرضا الله غاية لم تدرك ، ولا لصلاح الناس سبيل لم تشرع ؛ ولكنه هدف الستين فى جهاد الشرك والجهل

والهوى ، ولا يزال يجد فى جوانب نفسه الكبيرة عاطفة لم تُرْضَ وحاجة لم تقض ورسالة لم تتم ! تلك هى عاطفة القلب الوالد ، وحاجة النفس إلى التجدد ، ورسالة الحياة إلى الحياة .

* * *

بين ظلال النخل والكرم ، وفى بيته المصرى على العالية من ضواحى المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر إبراهيم ! يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة النيرة[1] ؛ ومست يد الربيع الخصبة دوحة النبوة ، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر يهنئون النبى بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه وبضعة كبده ، فوجد فى طلعة إبراهيم الأنس الذى يعوزه ، والرضا الذى يرجوه ، والخلف الذى يتمثله ؛ ففاضت غبطته لله حمداً وعلى المؤمنين بركة وفى الفقراء صدقة . رفع أمه إلى مقام أزواجه ، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه . ثم عق له بكبشين أملحين ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وتعود كل صباح أن يزور أم ولده فيحمله منها ليضمه ويشمه ويتذوق طعم السعادة الأرضية فى ريحه ، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المؤمنين ولم يلدن ، فيباهى بحسنه ، ويغتبط بنموه ، ويحتمل راضياً فى سبيل ذلك كله غيرة حميرائه[2] وكيد نسائه .

* * *

---

(١) الملائكة (٢) أم المؤمنين عائشة .

ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ! دعوتهم الحق والحق ثقيل ، وعدتهم الصبر والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ! غرباء في الأرض لأنهم من السماء ، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة البؤس العيش لأنهم عِبرَ ! هذا إبراهيم حبة قلب أبيه وسواد عين أمه مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل ! تذوى نضارته على وهج الحمى ، وتذوب حشاشته على عرك الموت ، وأمه وخالته قائمتان على سريره تشهدان منظراً يهون في جانبه على الوالدين الجنون والكفر والعدم ! وهذا أبو إبراهيم يضعضعه النبأ المروع فيتحامل على عبد الرحمن بن عوف ، ويمشى ثقيل الخطى لهيف الفؤاد إلى الصغير المحتضر !

لو كان لمتاع العيش غَناء لتقلب فيه المؤمن ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح . ولو كان في قلب الثاكل المحزون شبهة لجاتها محنة الله لرسوله !

أخذ النبي إبراهيم من حجر أمه فوضعه في حجره ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج وفؤاد متأجج واستسلام مطمئن : « إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً » .

يا لله لقلوب الوالدين ! إن النبي الذى ولد في مهد اليتم ، ودرج في حِجر العُدم ، وتقسمت عمره عوادى الخطوب ، فكابد أذى قريش وحقد المنافقين وكيد اليهود ، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل أولئك بصبر المجاهد ويقين المؤمن وعزم الرسول ، ثم يصيبه الله في إبراهيم وهو رضيع فيرفضُّ عنه الصبر ويتملكه الجزع ، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاءه الناشىء يخيب ، ثم يقول : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع ،

وإنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون . أما والله لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك بأشد من هذا ! » . ويتال من الصحابة حزن الرسول فيتقدمون إليه يذكرونه مانهى عنه فيقول « ما عن الحزن نهيت ، وإنما نهيت عن العويل . وإن ماترون بي أثر ما بالقلب من محبة ورحمة ومن لم يبد الرحمة لا يبد غيره عليه الرحمة » .

على أن حزن الرسل لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف الإنسان . لذلك لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه فصلى على ولده ، وسوى عليه القبر بيده ، ثم رش فوقه الماء وأعلم عليه علامة ، وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » .

* * *

تعزيت يا رسول الله لأن الألم سبيل من سبل دعوتك والعزاء أصل من أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من دمعك ، والسماء وما فيها ثواب لصبرك ، ولكن ماذا يصنع اليائس المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له في يومه صبر ولا في غده عزاء[1] ؟

---

(١) كتبت هذه المقالة وعهدى قريب بفقد ولدى رجاء .

بين أسلوبين

(٩ يوليو سنة ١٩٣٦)

بين الإطناب الذى تؤثره (الوادى[1]) ، وبين الايجاز الذى تحبه (الرسالة) كادت تضيع صداقة رسخت قواعدها على الإكبار والحب ، وتأكدت أسبابها على الخفض والشدة ، وتمكنت ألفتها على ربع قرن من الزمان المضطرب تغيرت فيه مودّات الأخوة ، وتنكرت قلوب الجماعات ، وتحللت روابط الأمم .

وجملة الأمر أن صديقى طه حسين قد بنى قصة من الأدب الجميل على رسالتين خاصتين أرسلهما إليه توفيق الحكيم ، ثم نشرها ونشرها فى الوادى ؛ فلما أصبح كل ذلك للجمهور وللتاريخ جاءت الرسالة فنشرته ، لأنها كانت مسرحاً لهذه الرواية فمن حق قرائها أن يشهدوا فصلها الأخير ؛ ولأنها سجلّ لألوان الأدب الحديث فمن حق الأدب أن نسجل فى تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدى فيه كاملاً غير منقوص . وإن بقى لأصحاب الظنون والفروض سبب ثالث فلن يكون غير تعصب الصديق للصديق   وكان توفيق الحكيم فيما بين ذلك قد نشر بيانه الذى نقلناه عن الوادى بعنوان (خصومة) ، فلم يُتَحْ لى الاطلاع عليه لحالة خاصة صرفتنى عن قراءة الصحف ذلك اليوم   ولو كنت قرأته وقرأت بجانبه تعريض الدكتور بالأستاذ فى مقاله (أخلاق الأدباء) لشق

---

(١) جريدة يومية كان يتولى تحريرها يومئذ طه حسين وفيها كتب الفصل الذى رددنا عليه بهذا المقال .

على فهمي أن يستنتج من المقالين عودة الصفاء وزوال الجفوة .

تصافى الصديقان إذن على غير علم من الوادى ولا من الرسالة فلما رأى توفيق الحكيم عودة المقالة فى الرسالة خالجته فى الصفاء ريبة . وأراد صديق الدكتور أن يجلو شبهة الأمر ، ويخرج من تبعه النشر ، ويترضى الغاضب المرتاب ، فأرسل إلىّ كلمته العاتبة تتنمّر على صفحة الوادى .

كان المألوف فى مثل هذه الحال أن يقف العتاب عند الترضى والتنصل ، ولكن الأسلوب المطنب الذى يؤثره صديق من خصائصه التدفق ، والتدفق لا يخلو من كدورة ، فأخذ يولد من العتاب ويفرع فيه حتى خرج به إلى التلويح والتجريح والاستعداء ، لأننى نشرت ما نشرت بغير إذنه علقت على هذا (العتاب) الموجع بأن صديق طه استغل حيائى منه ووفائى له فى إرضاء الحكيم وإنصاف الوادى ، لأنه يعتقد أنى إذا عاتب واشتد لا أجيب ، وإن أجبت لا أعيب ولكن الأسلوب الموجز الذى اصطنعته كان على ما يظهر أقرب إلى الاخلال والغموض ، لأن صديق لم يفهم (الاستغلال) على الصورة التى اقتضاها المقام وبالمعنى الذى قصدته ، وإنما فهمه بمعناه الشنيع الذى لا يكون بين أخوين . ثم رتب على هذا الفهم فى رده على تعليقى ما رتب مما لا أعده موجهاً إلىّ مادام قائما على هذا الأساس !

فأنت ترى أن أكثر ماحدث إنما نشأ من أسلوبين استعمل كل منهما فى غير موضعه ، وأن الأمر كله ما كان ليقع لولا حرفة الصحافة التى تغرى بالنشر كما يغرى على القتل حمل المسدس ! فإن أكثر من هذا يقع كل يوم بين الأصدقاء والإخوة فتزيله كلمة فى التليفون أو تحية عند اللقاء .

قال الذين وقفوا على ملابسات هذا الأمر إنى إذا كنت أخطأت فى نشر

المقالة وهى عامة ، فإن صديقى أخطأ فى نشر رسائل الحكيم وهى خاصة وما يسوِّغ موقفه من الحكيم يسوغ موقفى منه ؛ ولكنى لا أقول هذا القول ولا أستعين به ، فإن الواقع أن الذى صرفنى عن الاستئذان فى النشر إنما هو اعتقادى بارتفاع الكلفة بين طه والزيات ، و بين الوادى والرسالة .

* * *

أما بعد ، فإذا جاز لهبة الريح أن تزعزع الجبل ، أو لحبة الرمل أن تكدر البحر ، جاز لنشر مقال أدبى من غير إذن أن ينال من صداقة رفيق الصبا وخدين الشباب ، فينتزع المحبة من خلال النفس ، ويقتلع العلاقة من صميم القلب ، ويقتطع الماضى من حساب الزمن ، بالسهولة التى تنشر بها كلمة فى صحيفة !

وما كان ليقع فى الوهم أن قلبين ألفت بينهما بزاءة النشأة وطول الصحبة ووحدة الهوى وطبيعة الثقافة ، يجرى بينهما من سوء التفاهم ما يجرى بين القلوب المتناكرة والصلات الحديثة !

كذلك ما كان ليسبق إلى الظن أن صديقى الذى لم تكشف الحوادث والأيام منه إلا شعوراً سليما وخلقاً كريما وذكاء متقدا وضميراً يقظاً ونفسا طيبة، يخضع لأثر الحر وثقل العمل وعنت الظروف فيقول فى صديقه مالا يحب ، ويرميه بما لا يعتقد !

أخى طه !

إن بينى وبينك ماضياً جليلاً لاتمحوه طوارىء الحاضر الحقير ، وصداقة خالصة لاتكدرها شوائب الظن السوء ، وذمة وثيقة لا تخفرها بوادر الكلام السريع ، وإخوة كراماً جزعوا لهذا الخلاف و يسرهم أن ينقضى .

وإذا أمكنك أن تجد فى ذاكرتك القوية غميزة فى خلق أخيك على طول عهدك به ، كنت خليقاً أن تطيع فيه نوازى الغضب ، وتقبل عليه شواهد الظن ، وتسلكه فى ذوى الخلق المعوج والطبع اللئيم !.

أما إذا كان من طبيعة الصحافة أن تعبث بكل ما بقى بيننا وهو الود ، وتعتدى على كل ما بقى لنا وهو الخلق ، وتمتد إلى رأس ما لنا الوحيد وهو الشرف ، فادع الله لى ولك أن يخرجنا منها ، وأن يغنينا عنها ، وأن يحفظ البقية من عمرنا الكادح فى كنف رعايته وفضله .



النقد المزيف

(١٨ مايو سنة ١٩٣٦)

كاد الأدباء الناشئون فى مصر وفى غير مصر ينصرفون عن الإنشاء إلى النقد . وأريد بالنقد هنا معناه العامى أو مدلوله الأعم ، فإن النقد المنطق بمعناه الأخص إنما هو ملكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة . والناقد بهذا الاعتبار يشارك المشرع فى صدق التمييز ، والفيلسوف فى دقة الملاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم ومن ثم كان نوابغ النقد فى العالم أندر من نوابغ الشعر والكتابة وهذا الذى تقرأه فى الصحف العربية من حين إلى حين لا يدخل فى هذا الباب إلا كما يدخل المجون فى نطاق الجد ، أو العبث فى سياق المنطق ، كالرجل يقعد به العجز عن اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، يلمز هذا ويتنادر على ذاك ، ويزعم أنه وحده المسيطر على ثمرات الذهن ، فيحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح وعلى تلك بالفجاجة . وأمره كله لا يخرج عن مألوف الطباع الساخرة الفكهة : تصور الحق بألوان الباطل لتُضحك ، وتبرز الجميل فى مظهر القبيح لتسوء . وعيب الناس طبيعة فى بعض الناس لا يكلفهم إلا تحريك اللسان إذا لقوا سامعاً ، أو تجرير القلم إذا وجدوا صحيفة .

هذا طالب فى ثانويات القاهرة يملى خطة فى الكتابة على الجامعة ! وذاك معلم فى ابتدائيات بيروت يلقى درساً فى الصحافة على القاهرة ! وذاك صحفى فى مطارح المهجرة يقضى بالموت على الأدب العربى كله !

علام اعتمدت يا بنى فى إنشاء خطتك ؟ وإلام رجعت يا أخى فى إعداد درسك ؟ وبم اتخذت يا زميلى أسباب حكمك ! وهل تظفر من هؤلاء بجواب ما دمت فى الزمن الذى ترى فيه الناظم ينظم ولا يعلم العروض ، والكاتب يكتب ولا يدرس النحو ، والجادل يجادل ولا يفقه الأصول ؟ إنها فوضى تتولد فى عصور الانتقال وتفشو فى ابتداء اليقظة ، فلا يسكن أمر إلى قرار ، ولا يطمئن نظام على وجه ، ولا يخلص رأى من حيرة ، ولا يصدر حكم عن اختصاص !

* * *

إن هذا الضرب من النقد إما أن ينبعث عن مكامن الحقد فيرمى إلى التجريح ، وإما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى إلى الهدم : كان الناقد منذ قريب يعمد إلى الكتاب القيم فى الفلسفة أو التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد فى بعض صفحاته فعلا عُدى بغير حرفه ، أو اسما جمع عَلَى غير قياسه . — وقد يكون لكل منهما وجه — ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لايقرأ ، وضعيف لايعيش ! ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول : هذا قديم لأنه يدور عَلَى بحث فى تاريخ الشرق ، أو على معنى من معانى الدين ، أو على أثر من آثار البلاغة . وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب ، أو على رجل من رجال الأكاديمية ، أو على غانية من غوانى المسرح . وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع . وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ! ثم تعصف بأقلامهم اللينة نخوة الحفاظ وحماسة القوة فيصيحون :

أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة !

أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب

أنبذوا أدب المقالة والزموا أدب القصة

صيحة قرارها حق ومقامها باطل ! فإن إجماع الناس واقع على أن خلو الأدب الحديث من أدب القوة وأدب الشعب وأدب القصة خلل لابد أن يسد ، ونقص لابد أن يكمل . ولكن من الذى يقول ويعنى ما يقول : إن وجود هذه الأنواع يقتضى عدم الأخرى ؟ إن لكل فن من الأدب طبقة من الناس تتذوقه ، فإذا منعتها إياه طلبته . والناقص لايكمل برفع نقص ووضع نقص . والبناء لايتم بهدم ركن وإقامة ركن .

أرأيتك[1] إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحماسياً يورث الحفائظ ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذى يصور ألوان الحياة المريرة ، ويترجم أشجان القلوب الكسيرة ، ويرقق حواشى الأنفس الجافية ؟

أرأيتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بألسنة السوقة وينقل عن عواطف العامة ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذى يرضى أذواق الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الأسلوب فى صورة من الفن الرفيع تسمو بالنفوس إلى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ؟

الأدب صورة النفس فلا بد أن ترتسم فيه مشاعر الفرد . والأدب مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع . وما دام فى الناس الحساس والهامد والخوار والجليد ، وفى الدنيا التفاوت الذى يوجد التمايز ، والألم الذى يفجر الدموع ، واللذة التى تبعث المسرة ، والمدنية التى تخلق التنوع ، فلابد أن يكون الأدب الصحيح صدى لكل أولئك .

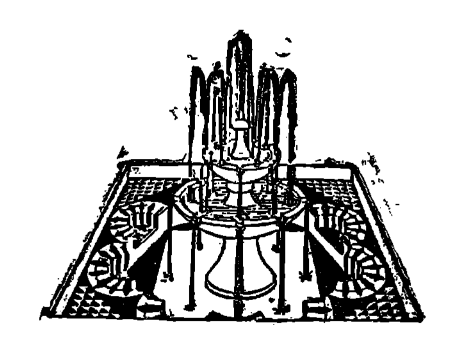
ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميت أو يشرع . تلك وظيفة الطبيعة التى تطور كل شىء ، وتغير كل نظام ، وتسد كل عوز ، وفق قانون ثابت

(١) أرأيتك بمعنى أخبرنى .

إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود وينبه الأذهان إلى المفقود . أما أن يحاول تغيير الطباع بقانون ، وقلب الأوضاع بمقالة ، ومحو الثابت بنكتة ، فذلك عبث لا يخلق بكرامة إنسان ، وتهريج لا يزكو بضمير فنان .

* * *

أما بعد فلعل فى هذا الإجمال يا صديقى (نجيب) بعض الجواب عن مقالك (فوضى النقد) . ولعلك تكتفى منى بذكره عن نشره ، فإنك سميت أشخاصاً وعينت كتباً وحددت حوادث ، وفى بعض ما قلت مشابه مما يقول هؤلاء . ومن خلق الرسالة كما تعلم أن تكتفى بالتلميح ، وتتأبه عن التجريح ، وتعوذ بفطنة قرائها من شر ذلك .



أروع أيام سعد

(٢٩ يونيو سنة ١٩٣٦)

لعل يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يونية كان أروع أيام سعد ! إنتصر فيه وهو رفات وفكرة وذكرى على الحقد الذى طالما نبح المجد ، وعلى السلطان الذى طالما قهر الزعامة كانت روعة أيامه الغر التى أسفرت عنها ليالى مالطة وسيشيل وجبل طارق آتية من شخصيته التى طاولت العروش ، وعزيمته التى صاولت الجيوش ، وبلاغته التى عاجزت القدر أما يوم نقل رفاته إلى الضريح الرسمى فكانت روعته آتية من الفكرة التى ثبتت على الاضطهاد ، وغلبت على الاستبداد ، وظهرت على الإفك ظهور الدين على الشرك بالإيمان والإخلاص والتضحية . وسر الجلالة العظمى فى سعد أنه كان وهو حى يمثل كبرياء الشعب ، ثم أصبح وهو ميت يمثل سلطان الأمة كان يمثل كبرياء الشعب لأنه خرج منه ونبغ فيه ، فكان حجة له على كبرائه الذين كانوا يتأبهون عنه ويلمزونه بالضعة وينبزونه بالفلاحة ثم عاد يمثل سلطان الأمة لأن جهاده الباسل بها ولها جعل اسمه رمزاً للاستقلال وعلماً على الدستور وعنواناً على الديمقراطية فظاهر الفرح المستطير أو الحزن المرمض أو العزة المستطيلة التى أعلنها الشعب يوم خرج من معتقله أو رجع من منفاه ، ويوم الاحتفال بوفاته أو بنقل رفاته ، كانت مظاهر صادقة لعواطفه المتحدة ، صدرت عنه بدافع من نفسه وباعث من شعوره ، لأن سعداً لم يعد رجلا محدود الوجود بذاته ومميزاته ورغائبه ، وإنما أصبح معنى مقدساً من معانى الشمول يختصر فى نفسه خصائص جنسه ، ويجمع فى قلبه

أمانىّ شعبه فهو علم يخفق بالأمل ، ومنارة تشع بالهداية ، ورسول من رسل القيادة الذين يبعثهم الله إلى الناس فى متاهة السُّبل وضلالة النفوس فيكونون رمزاً لرجاء الإنسان فى الله ، ومثالا لرحمة الله بالإنسان

كانت النفس المصرية فى ذلك اليوم المشهود على حال عجيبة من شتى الأحاسيس ومختلف العواطف : سرور مَزْهُوٌّ بفوز الإرادة القومية واستطاعتها بعد تسع سنين أن تصحح خطأً فادحاً من أخطاء الغرور الجاهل ، وحزنٌ دخيل هادىء لاحتجاب الشعاع وقد غام الأفق واستعجم المسلك ، ثم شماتة حانقة تصيح بالجبابرةِ الضعاف من أفواه الطرق ومنافذ البيوت وعلى أطورة الشوارع وسوح الميادين قائلة : أنا الأمة ! أنا الإرادة الأولى ! أنا الكلمة الأخيرة !

وكان فى موكب الرفات المنتصر قوم يمشون ، وجوههم إلى الأرض ، وأفكارهم إلى الوراء ، يقولون فى أنفسهم : استعنا على كبت هذا المجد الثائر بقوة السلطان وضجة البرلمان وثروة الخزانة فإذا كل أولئك معناه هَوَج العاصفة ورهج الغبار وسرف المطر ؛ وإذا الشمس من فوق أولئك لا تزال ساطعة الشعاع دائبة الارتفاع لا يرق إليها صخب ولا يعلق بها قتم ! إن الموت نفسه قد انخزلت قواه عن سعد فلم يستطع طمسه فى عين الوجود ولا محوه من سمع الزمن . لايزال ملء الحاضر وعدة المستقبل . ومن العناء الباطل أن يحاول الجبروت مهما يطغ أن يدخله فى الماضى . هؤلاء هم الجند الذين طالما أكرهوهم على أن يطاردوه فى الأقاليم ، ويحاصروه فى العواصم ، ويصادروه فى الأندية ، ويضايقوه فى المنازل ، ويحولوا بينه وبين الشعب ، قد انقلبوا — بأى معجزة لاندرى — فصاروا زينة لمجده وقوة لوفده وحراساً لمبدئه ! »

وكان بإزاء واحد من هؤلاء الباشوات المفكرين طالب صادق الحدس ألمعى الفراسة ، لايزال على وجهه الأبلج أثر من عصِىّ الشرطة وبنادق الجند ، فرأى بين الحى المستذل الضارع ، وبين الميت المتجبر الشامخ ، عبرة من عبر الدهر وحكمة من حكَم القدر ، فهب يصوغ من هذا المعنى هتافاً له ولرفاقه ، ولـكنه تذكر أن الوطنى لايحقد ولا يشمت ولا ينتقم . فاكتفى بأن يقول لهذا الزعيم الرجيم فى نفسه : لقد أدركت بعد الأوان أن المجد خير من الحطام ، وأن الشعب أبقى من الحـكومة ! لقد بلغت كل عال غير المجد ، وربحت كل نفيس غير الشرف

ذلك سعد مثال الزعامة الحق يا نواب الأمة ! كان فى مماته كما كان فى حياته موضع القداسة منها وموطن الرجاء فيها ، لأنه أول مصرى حكمها بأمرها ، وساسها برأيهـــا ، ونقلها من نظام القطيع إلى نظام الشورى ، وحوّل خزائنها من المتاع الخاص إلى المتاع المشترك ، وجعل العلاقة بين الأمة والحـكومة كما قال : « علاقة الجندى بالقائد ، لاعلاقة الطائر بالصائد » .

كان سعد من الشعب وظل طول عمره مع الشعب تجبر ولـكن على طغيان الثروة ، وتـكبر ولـكن على صلف المحتد . أما علينا وعلى أمثالنا من سواد الناس فـكان الأخ العطوف والوالد الحدِب .

بهذه السيرة المجيدة فى الحياة يجب أن يقتدى أصحابه البررة وبهذه العقلية السليمة فى الحـكم ينبغى أن يسـير أتباعه إلى الفوز وبهـذه الصفحة المشرقة فى التـاريخ يضع سعد للخاصة دستور الزعامة ، ويضرب

بعامة مثل البطولة وبهذه المنزلة الفريدة التى نزلها من شعبه يتولد فى النفوس الشابة الرغيبة طموح العظمة فيسعون لها بالحق ، ويتنافسون فيها بالكفاية

هاتان سبيلان واضحتا المعالم بينتا الحدود فى سياسة الأمة . أدت أولاهما بسعد إلى حياة الموت ، وأسرعت أخراهما بفلان إلى موت الحياة ! فهل لأكياس الناس بينهما خيار !



المصاحب السعادة المحافظ

(٢٠ يوليو سنة ١٩٣٦)

أمين أفندى الحاوى (كاتب عمومى) له فى هذه الصناعة القدم الأولى والمكان المنفرد . حفظ فى صدر أيامه كتابىْ (إنشاء العطار ، للمحبين والتجار) ، و (أبدع الأساليب ، فى العرائض والمكاتيب) ، وهما كتابان يجمعان أعاجيب شتّى مما يخطر للبُكم من أهل الهوى ، ويعرض للجهال من ذوى الحاجة ثم دخل الجندية فى قرعة الخديو عباس ، وهى القرعة التذكارية التى طلب فيها لداتُه (للجهادية) ؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام كل رسالة بنصف قرش . فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك نفسه فى نظام (البوليس) تسع سنين كوامل ، ازداد فيها علماً بطرائق النظام وطوائف الحكام وأحوال المجتمع . وكان من الممكن أن يتقلب فى نعيم الشرطة مدة أطول ، لولا أن خيرها المتدفق فى يديه من الشوارع والحوانيت قد فاض على جسمه ، فتراكب لحمه وتدلى بطنه واستفاض فيه الشحم حتى كاد ينقطع قيامه فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِماح عينه وطول يده وقعود همته . فخرج إلى حياة (التحرير) ، وهى منذ شب حديث عبقريته ومطمح أمانيه واتخذ له مكتباً تحت السماء أمام سراى (المحافظة) ، وألقى حبله للموهوبة والمكسوبة فى غمرة الحياة وزحمة العيش ، فعادت له بالشهرة الرابحة فى دنيا القضايا والشكايا والسمسرة . فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبيالة) التى يحررها الحاوى أملأ لحرفائه فى ضمان الفوز ، ومثلاً

لزملائه فى فن الكتابة ثم تدخّل فى زوايا البيوت ، وتغلغل فى طوايا السرائر ، وتبسط على موائد الأنس ، وتفنن فى أساليب الوساطة ، فكان دليل « الخاطب » ونديم الشارب وسلوة المحزون وسمسار المشترى ووكيل المدعى وسفير الخصوم ورسول الأحبة . تراه أكثر النهار على مقعده الخشبى الضيق فى جلباب فضفاض من الكستور المخطط ، ومعطف رقيق من النسيج المهلهل ، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل العاسلة على الخلية الضخمة : هـذا صاحب مظلمة يريد عرض حال ، وذاك طالب مصلحة يتلمس طريق المسعى ، وتلك زوجة هاجر أو عشيقة فاجر تطلب المعونة من قلمه أو لسانه ، وهذا رافع دعوى يريد توكيل محام ، وذلك زميل عجلان يطلب كلمة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونته) الرفيعة القدر ، وأمين الأريب فى يده قلم ، وفوق أذنه قلم ، وعلى شفته بسمات تتعاقب مختلفاتٍ فى السعة واللون والدلالة ، يتلقى كل طالب برغبته وكل سائل بجوابه . وهو بعد ذلك لكثرة ما يغشى بيوت الناس عارف بأحاديث الأسر ، عالم بأحداث المجتمع ، خبير بألوان المطاعم ، فعنده قصة كل زوجين ، وخبر كل صديقين ، وخصيصة كل صحفة من صحاف المائدة ؛ فالقرع شفاء من كل داء . والرز نصيب الأرض من حقول السماء وفى الكبد خروق لا يسدها إلا الملوخية وفى الجسم عروق لا يُنبضها إلا الكنافة !

* **

من عادة أمين أفندى أن يزورنا كما يزور غيرنا حيناً بعد حين ، فيمتعنا ساعة بأخباره وأسراره ونوادره ؛ ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكدّس

عندنا من المجـلات المقروءة دخل علينا أمس جاداً على غـير عادته ، وقوراً على خلاف طبعه ولم يكد يلقى التحية حتى ألقى إلىّ فى شىء من الزهو صحيفة مسطورة من ورق (العرائض) وفى رأسها بقلم الثلث : (إلى صاحب السعادة المحافظ) ، وفى ذيلها بقلم الرقعة : (أمين الحاوى) : وقال :

ذلك كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ أرسله إليه عن طريق الرسالة . أتنشره أم تطويه ؟ فقلت له : وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمـين أفندى ؟

فقال : قرأت فى الصحف أنه ألغى (مصايف الأطفال [1]) فهزنى الخبر وملكتنى شهوة الكلام ، فكتبت إليه هذا الكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى (مصايف) ، تصبح بفضله (مضايف) والكتاب بين يديك فاقرأ

قرأت الكتاب فى غمر من أحاسيس شتى تتلون تباعاً بالإعجاب والإنكار ، والحزن والضحك ، والانفعال والتبلد ثم قلت له إنى أقبل كتابك موضوعاً وأرفضه شكلا ، لأنك عرفت كيف تفكر ، ولكنك م تعرف كيف تعبر ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لايدخلان من أبواب (الرسالة) .

فقال وقد طغى فى وجهه الدم ، ونزا فى رأسه الغضب ، وانتشر على شفتيه شاربه الأزرق كيف ! لقد حفظت الكفراوى ، ولزمت الشيخ

---

(١) مصايف الأطفال كانت خياماً أو أكشاكا تقيمها المحافظة كل صيف للاطفال الفقراء برمل الاسكندرية .

عليش ، وصحبت الشيخ رشيد ، وجادلت الأستاذ وجدى ، وقضيت فى التحرير أربعين عاماً ! أفتجابهنى بعد ذلك بأننى لا أعرف كيف أكتب ! فقلت له : هون عليك ! سأكتب لك هذا الكتاب بلغة المجلات ، فإن أعجبك أمضيته . ثم شرعت أكتب :

صاحب السعادة محافظ القاهرة :

« يتقدم إليك بهذه الكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد ما جعله مثلا صحيحاً لآلام طبقته إنك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقاً كسبه الفقير من الغنى ، وأخذته العامة من الخاصة . كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظارة أهل النار إلى أهل الجنة ، قضاعف ألم الحرمان وجسم شقاء البؤس ، ولكنه عَلَى أية حال كان ترضية لكرامة الشعب .

ولقد كان فى نفسى أن أطلب إلى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضايف تؤوى شرداء الطفولة وطرداء الفاقة ، فتنقلها بذلك من الخصوص إلى العموم ، وتحولها من تملق الكمال إلى معالجة الضرورة فأفاريز الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية مغطاة فى الليل القارس القاسى بجسوم اليتامى والهمل من أطفال القاهرة ، تترعرع فى أحضانهم القذرة أغراس الرذيلة ، وتتكاثر على روائحهم الكريهة جراثيم المنكر والملاجىء وحدها علاج هذه الحال الأليمة . فإذا كان هذا الإلغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد فما عدوت الصواب ولا أخطأت الحزم . وأما إن كان لقلة المال أو ضعف الرغبة ، فقد قضيت على فكرة جميلة ، واعتديت على حق مقدس . . . » . .

وكان أمين أفندى قد سكت عنه الغضب ، فنظر فيما أكتب ثم قال منفعلاً : ما هـذا ؟ أين الديباجة ؟ وأين ما يجب لمثل هـذا العظيم من عبارات التفخيم ؟ أرجو ألا تـكمل ! سآخذ كتابى وأسلمه إلى الباشا يداً بيد ! فقلت له : أرحتنى أراحك الله ! وسلمته الـكتاب يداً بيد ، ثم صافحته يداً بيد وخرج الحاوى وأنا أرجح أنى كسبت عدواً جديداً من جرّاء النشر فى الرسالة !



الحلقة ...

ذلك اسم كان[1] يطلقه زعيم العراق (ياسين الهاشمى) على ستة من الإخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألف بينهم تجانس الهوى ، فتساهموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض ، فما كانوا يفترقون أصائل الأيام ولا عشايا الليالى كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة فى دار أحدهم ، فيتحلقون على مائدة الشاى السخية ، أو يتقابلون أمام المدفأة الواهجة ، ثم يديرون بينهم سِقاط الحديث على أروع ما تُشققه الأذهان الخصيبة من براعة الفكرة وملاحة النكتة وطلاوة الخبر وسلامة النقد وصحة الحكم ، فلا يدعون شأناً من شئون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ، ولا أمراً من أمور البلد ، إلا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل فهم معارضون ولا لسان لهم فى حزب ، ومصلحون ولا يد لهم فى زعامة .

كانوا يمثلون نواحى النشاط الفكرى فى العراق أصدق التمثيل . ففيهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب . ذلك إلى امتياز كل منهم بسمة من سمات الطبع ، وصفة من صفات الخلق فطه الهاشمى[2] عذب الروح ، مرىءُ الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل

---

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٣٢ وأنا أحاضر فى الأدب العربى وتاريخه فى دار المعلمين العليا ببغداد :

(٢) رئيس أركان حرب الجيش العراقى يومئذ .

بالتاريخ والحرب . ولو تُرِك إلى نفسه لما خرج من مكتبته ولا قام عن مكتبه . وناجى الأصيل [1] نبيل العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح للقادة ، أفلاطونى النزعة ، يعيش فى السماء ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة ويوسف عز الدين [2] متئد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ، يتبسط فى هزل الكلام ويتحوط فى جده . وهو لا ينفكُّ لإخوانه موضع السر ومرجع المشورة . وكامل الجادرجى [3] متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ، دائب الحركة ، صليب الرأى . يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ، ويرفرف بجناحيه على الفلاح والعامل والمتعطل وموفق الألوسى [4] طموح القلب ، سريع البادرة ، بارز الشخصية ، يعتد برايه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة . وشوكت الزهاوى [5] واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين العقل ، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمع فى شىء ، ولا يشارك فى رأى ، ولا يحفل بحادث . وأولئك كانوا لما اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشتى الخلال صورة مصغرة للأمة . يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم منها ، كأنهم كانوا لآمالها رموزاً تتميز بميز العنوان ، وتنفرد انفراد العَلَم . كانوا جميعاً فى ربقة الحكومة إلا كاملا ، فكان للجماعة الكلمة الحرة والفكرة الطليقة . وقف على السياسة الصريحة قواه ، وأيقظ لأطوارها المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب مادام معارضاً ، فإذا قبِلَ الحكم تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة . كان اليد اليمنى لياسين الهاشمى فى حزب الإخاء الوطنى . وياسين أمل البلاد المرجو وزعيمها المنتظر . فلما رآه يقصد الحكم عن طريق المياسرة والمسايرة

---

(١) مدير دار المعلمين العالية .

(٢) مراقب للميزانية .

(٣) من سراة بغداد .

(٤) مدير كلية الحقوق .

(٥) طبيب بوزارة الصحة .

خالفه ومعه مقاعد البرلمان ووظائف الديوان ومزايا السلطة ، وخرج مُغاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال ، فزاول المحاماة وعالج الصحافة ، ولقى فى سبيل ذلك مايلقى المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت .

* * *

كان لى فى هـذه (الحلقة) كرسى وثير دائم . يحيطه الإخوان بالعطف ويخصونه بالـكرامة . وكنت أجد لهم فى نفسى من الأنس بهم والطمأنينة إليهم مالا أجده لجماعة أخرى . فـكنت أناقلهم شجون الحديث فأعلم منهم مالا أقرأه فى الصحف ولا أسمعه من الناس ولا أرله فى الحـكومة . كانوا يحملون فى نفوسهم آمال العراق الناشىء ، وفى رءوسهم ثورة الشباب الجديد : سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامة قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة ولـكن آراءهم كانت فى رأيى أشبه بأحلام الفلاسفة تحت رواق المعبد ، لأنك إذا استثنيت (كاملا) لا تجد فيهم من يفـكر فى انقلاب أو يجهر بمعارضة .

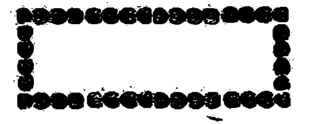
تركتُ العراق وفيصل ونورى وجعفر قد مكّنوا لدولته بالمرونة اللبقة والسياسة التجارية التى تعطى لتأخذ وكان شباب العراق قد سئموا سياسة الأمر الواقع وبَرموا بالإدارة المطلقة ، فتمنوا حكومة زعيمهم المحبوب ياسين . وتسلم ياسين مقاليد الأمور وانضوى إليه رفيقاه ، وآل إليهم سلطان البلاط بالفعل ، ونفوذ (دار الاعتماد)[1] بالقانون . وسارت السفينة آمنة من الألغام والصخور كما يرى البعيد . ثم تفرقت السبل بعدئذ برجال الحلقة .

* * *

طخ ! طخ ! طخ ! ثلاث قنابل ألقتها ثلاث طائرات على مرأى

(١) دار المعتمد البريطانى .

الحكومة ، فروّعت الموظفين وأفزعت الأهلين فأخلوا السراى وأغلقوا المدينة ! ماذا ؟ الجيش الثائر يحاصر بغداد ويطلب إلى المليك إقالة الوزارة ! وبكر صدقى الفاتك الطماح يقترح للوزارة الجديدة حكمة سليمان ! وحكمة سليمان يُدخل فى وزارته الحلقة ماعدا طرفيها ! لقد كان حكمة صديق الحلقة ، وكان فى معارضته من طراز (كامل) لايحفل الثراء ولا يبالى المنصب ، حتى رووا أنه ضاق يوماً بمرتب سائق سيارته فذهب به إلى قائد الشرطة يرجو منه أن يجد له عملا يعيش عليه !



بعد المعاهدة

(٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦)

بعد ليل غاشٍ الجوانب تراكمت على (الوادى) همومه ، وطريق داجى المسالك تشابهت على الدليل رسومه ، انجلى الغيهب الكثيف عن وضح الفجر ، وانتهى الطريق المخيف إلى أمان الغاية ، وحمدنا السُّرى عند الصباح ، ورضينا الغنيمة بعـــد المعركة ، وهدهدنا الأمانىّ على نشيد الفوز .

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل ، ومحجورين لا نجد مع الحجر سبيل التصرف ، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة ، ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة فإذا كانت مصر الأمس قد مشت عرجاء فى طريق التقدم ، وجاهدت عزلاء فى ميدان العيش ، فإنما كان وِزْر ذلك على الغاصب الذى سلط قوته على الحق ومنفعته على العدل ، فحجز البلاد عن وجهتها الحرة حقبة من الدهر أوفت على نصف قرن . أما اليوم وقد انكسر القيد ، وارتفع الحَجْر ، وتقلص الاحتلال ، وتصاغر الامتياز ، وقال لك القوى الغالب : لقد رشدت فتصرف فى أمرك ، وشببت فدافع عن حَوزتك ، واستقللت فاحكم فى بلدك ، فلا يسعك فى تقصير عذر ، ولا يسعفك فى دفاعٍ حجة .

هذه ثروةُ النيل التليدةُ والطريفة عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل ، فنقص النامى وبَلد الحساس وفسد الصالح واعوج المستقيم وتنافر المنسجم ؛ فكل شىء فيها معتل يفتقر إلى علاج ، أو منتشر يحتاج إلى ضبط فإذا

قصرنا الجهد أو أكثره على تنفيذ المعاهدة من إنشاء الجيش وبناء الثكنات وشق الطرق ، ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش ، ونقص الكفاية ، وعجز القدرة . وهل يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال في السعي إليه أو في المحافظة عليه ؟ وهل يزيد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية المسلوبة ، تنعم الأمة في ظله وهي آمنة ، وتعمل في حماه وهي حرة ، وتحكم على مقتضاه وهي سيدة ؟

إن إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد المحالفة ، يقتضي أن تتظاهر ملكاتها الموحّدة وكفاياتها المدبرة وقواها المنفذة على طرد الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها . وهذه العلل الثلاث هي جُمّاع العلل ، لا تجد عاهة من عاهات الجسم ولا آفة من آفات الروح في الفرد أو في الجماعة إلا ضاربةً فيها بعِرْق ، أو واصلة إليها بسبب والأمة كلها خَلق سَويٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو ، وشغلت بملكة دون ملكة .

كل ما فينا فارغ يبغي العمل ، وباطل يريد التغيير ، ورَثٌّ يطلب التجدد وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة ، نمت فينا نمو الجراثيم يزرعها ويغذيها المحتل الذي لا يرحم ، والحاكم الذي لا يعدل ، والواغل الذي لا يعف .

كان من جرائر فقد الاستقلال في الحكم أن نقدناه في كل شيء حتى في الذات فنحن نفكر تابعين ، ونعمل مقلدين ، ونعيش متواكلين ، ونسعى على غير اطمئنان ولا ثقة . وقد ظهرت هذه التبعة واضحة في الآداب والعادات ، وهي أدخل الأشياء في بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة .

ولعل أقبح آثاره ما نجده فى الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق ، وفى الكهول من ضراعة النفس وضعف الإرادة ؛ فإن ترك الدفاع عن أنفسنا لغيرنا كسّبنا طباع العيش الأبله من الوداعة والإغضاء والرضا فلا ترى فى الجملة من يغضب للإهانة ويثور للعدوان ويتحمس للخصومة . وإن استبداد الأجنبي بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير ، وأنام فينا الضمير ، ودهانا بطائفة من طبائع الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة ؛ فالأمة مستنيمة لهوى الحكومة ، والحكومة مستكينة لإرادة المحتل ، وبين طبقات الشعب ودواوين الحكم منافع مصورة لا ترتوى ، ومحاباة مهتوكة لا تستحى ، وتواكل غفلان لا يفيق .

نعم كل أولئك كان نتيجة لفقد الاستقلال ما فى ذلك ريب . ومن الممكن أن يكون وجوده علة فى عدم هذه النقائص على التدريج مسايرة لفعل الزمن . ولكن الوقت ضيق والفرصة عجلى والضرورة حافزة ، فلا بد لأولياء العهد الجديد أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم ، ويحسموا أدواء الماضى بالكى ، ويجعلوا بين العهدين سداً من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهّر .

نريد أن ندخل العهد الجديد فى لباس الإحرام صدورنا نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية ، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع .

كنا نعيش كما يعيش السّوّام فى البر أو السمك فى البحر ، لا تجمعنا وحدة شاملة ، ولا توجهنا غاية معينة . وكان ذلك أثراً محتوما للسلطات التى كانت تتنازع الحكم ، والتيارات التى كانت تتوزع الثقافة ، والامتيازات التى كانت تمزق المجتمع .

أما اليوم فنريد أن نعيش كما يعيش الناس فى كل أمة وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة لا سلطان لقوة خارجية عليه ، ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوروبية به ؛ وحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ، ويأمن بها على رأيه ، ومجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافره الخلق ، ويجمع شتيته الحب ، ويرفه حياته التعاون ، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم ودستور ذلك ما نرجيه فى الحياة الجديدة ، وذلك ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة .



استقلال اللغة

(٣ ديسمبر سنة ١٩٣٦)

استقلال اللغة مظهر استقلال الذات ، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة ، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأى والهوى والثقافة ، فإذا سمعت امرأ يتكلم غير لغته من غير ضرورة ، أو يلهج غير لهجته من غير مناسبة ، فلا يخامرك شك أنه كذلك فى خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله . وإذا رأيت أمة تدير فى أفواهها ألسنة الأمم ، وتستعير فى أعمالها دلالات الناس ، فلا تتردد فى الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفق وإذا شق عليك أن ترى فى الأرض هذه الأمة ، أو تسمع فى الأمة ذلك الإنسان فتحامل على شعورك وجل جولة فى إحدى عواصم مصر فهنا أو هناك تجد فى معارض التجارة ودور الصناعة وبيوت المال وأماكن اللهو ، خليطاً من الناس كجيش الدُّمستق[1] .

تجمع فيه كل لِسْن وأمــــة فما يُفهِم الحُدّاثَ إلا التراجم

تدخل متجراً من المتاجر ، أو مصرفاً من المصارف ، أو مقصفاً من المقاصف ، أو شركة من الشركات ، فلا تقرأ فى الإعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبية ، ولا تسمع فى المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية . فإذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها ، تضاءلت فى رأى مخاطبك فينظر إليك بشَطر عينه ، ويكلمك ببعض شفته ؛ وربما

---

(١) الدمستق لقب لقائد جيش الروم . والبيت للمتنبى فى وصف معركة (الحدث) وكانت بين سيف الدولة وبين الروم .

صفرت وصفرت حتى ينسرّ عليه مرآك فلا يحفلك وتغشى قصراً من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء ، فتسمع النادين (١) يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية ، فإذا شاركتهم فيه بلغتك وقَروا آذانهم عن سماعك ، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوقة ، وأنزلت البهو الوثير إلى مجلس العامة . وتلقى أبناء (الذوات) في المشارب والملاعب والأندية فتسمعهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف مدخولة الوضع بغيضة اللهجة ، من نحو قولهم . دانيء (Incroyable يا mon cher) أو :
(l'escalier أطلع je ne peux pas) .

ولو وجدت في هذا الخلط تظرفاً من أولئك الأيفاع المدللين الذين نشأتهم المهود الأرستقراطية وثقفتهم المدارس الأجنبية ، فإنك لا تجد غير حمى الروح إذا تكلفه من درج في البيئات الشعبية ، وخرج من المعاهد الدينية . فقد حدثوا أن شيخاً من شيوخ اللغة ومعلميها أوفدته وزارة المعارف إلى انجلترا ليلم بطرائق التعليم ومذاهب التربية ، فمكث تحت ضباب لندن عاماً أو عامين ثم عاد فاذا لسانه قد اعوج وسمته قد تبدل ! يكلمك فتسمع من وراء (البيبة) كلاماً عربي الحروف سكسوني المخارج ! فاذا تمضمض بالجملة أو الجملتين في المعنى المألوف توقف وتأفف ، ثم ذهب يزاوج في الفقرة الواحدة بين العربية والإنجليزية ، لأن العربية أصبحت أمام الخاطر الدقاق والخيال السباق والمعاني الجديدة أعجز من أن تسعف اللسان وتجاري البيان وتجدد الفكرة !

كل ذلك كنا نراه فنشعر بالغربة وسط الدار ، وبالذلة بين الأهل ، وبالتبعية تحت العلم وكل ذلك كنا نسمعه فنحمل الأذان على مكروهه ،

(١) ندا القوم : اجمعوا أو حضروا النادي .

وروض الأنفس على أذاه ، لأن أمورنا كانت فى كل ناحية من نواحى الحياة شذوذاً لا يستقيم فى عقل ، ونشوزاً لا يتسق فى شعور فلما أذن الله لوجودنا أن يتميز ، ولا ستقلالنا أن يتم ، كان من المحتوم على أولياء العهد الجديد أن يعالجوا الضعف الذى يوهن وثبات العزة ، ويزيلوا النقص الذى يعوق خطوات الكمال .

تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن يطردوا الاحتلال اللغوى من الشركات كما طردته تركيا ، فيمدوا لها أسباب السيادة ، ويهيئوا للمتعطلين وسائل العمل ، ويضمنوا للأهليين صحة التعامل ، ويعمروا هذه البيوت[1] التى تطاول الحكومة فى النفوذ ، وتجابه الأمة بالعجز ، ويشتمل كل منها على دولة وسفارة وامتياز !

تريد العربية أن تكون لسان العلم فى المدارس الأجنبية ، وفى كليات الجامعة المصرية ، فان التعليم باللغة الأوربية ينقل بعض الأفراد إلى العلم ، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة . وما دام للغة مجمع لغوى قوى يساعد على النمو فلن يخشى عليها فى الطريق قصور ولا فشل .

تريد العربية أن تأخذ مكانها الشرعى فى المحاكم المختلطة ريثما تدك قواعدها المعاهدة ، فان من أعجب الأمور أن يضيع القانون بين قوم يعيشون بالقانون ، ويزهق العدل فى دار أقيمت للعدل وقد كان الإغضاء على ذلك يحمل على مصانعة القوة ومخادعة السياسة ، ولكنه اليوم لا يحمل إلا على تفريط العجز وترويض الاستكانة

كذلك تريد العربية أن تطهر من شوائب التركية فى الدواوين والقوانين والمدارس والجيش ، فلا تحب أن يدخلها بعد اليوم (باشكاتب

---

(١) كل ذلك قد حدث الآن بفضل ثورة الجيش

وبوبتجى وبوصنجى وقلفة وطابور وبكخانة ويوزباشى وصاغ وأميرالاى)
الخ . ولنا فيما يعمل الترك والفرس بالعربية مثل ماثل وواقع محرض .

ذلك ما تريده اللغة من الحكومة . أما ماتريده من الأمة فذلك شيء تلهمه العزة وتمليه الكرامة ، فان لغة المرء تاريخه وذاته . فالغض منها غض منه ، والتفضيل عليها تفضيل عليه ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مهين أو عاجز .

بين سلطان وسلطان

(٤ ديسمبر سنة ١٩٣٦)

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟ هذا ملك المغرب ، وإمبراطور المشرق ، وإله البحر ، وصاحب العرش المحمول على أعناق الشعوب ، ووارث التاج المتألق على جباه القرون ، وخليفة المجد المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق والسنة المقدسة ، وسليل الدم الثرى الذى يتدفق بالحياة فى هدوء ويجيش بالنشاط فى ثبات ، وربيب البيئة التى تعظم القوانين وتقدس التقاليد وتعبد الإمبراطورية ! هاهو ذا ينزل عن العرش ، ويلقى التاج ، وينبذ اللقب ، ويهجر الوطن ، ويلحق بحبيبته أميراً لا يميزه شعار ، وإنساناً لا تحدوه أبهة ، وفرداً لا تصحبه حاشية !

* * *

ياجاحدين لسلام الروح وراحة القلب ورضا العاطفة ! أتمارون بعد اليوم فى هذه الآية ؟

زعمتم أن الأرض بدلت غير الأرض ، والدنيا أصبحت غير الدنيا ، فقدرتم سعادة الحياة بالوزن والكيل والمساحة ، وقلتم أودى منطق العقل بإلهام القلب ، وأزرت مادية العلم بروحية الأدب ، وغلبت أثرة المنفعة على إيثار التضحية ؛ وذهبتم تتجهزون بما صنع العلم من صواعق وزلازل وبراكين ، لتنسفوا ما قام من المدنية ، وتقتلوا ما بقى من الإنسانية ،

وتقرروا فى ملكوت الله نظاماً لا يعيش فيه جمال ولا خير ولا حق ؛ فقام أكبر ملك فى العالم ، على أظهر مكان فى الأرض ، يعلن أن عظمة الملك لا تضمن سعادة النفس ، وأن سلطان العرش لا يعوض حرية الإرادة ، وأن جواهر التاج لا تساوى بسمة الحبيب !

سبحانك يابديع الحياة والحب ! ماهذا الذى تضعه فى العيون فنسميه سحراً ، وتجريه على الشفاه فندعوه جاذبية ، وترسله فى الأعضاء فيكون رشاقة ؟ ما هذا الذى تودعه هذا الجسم الرقيق الناعم فيقهر سطوة الجبار ، ويُسوِّى أخدع المتكبر ، ويطأطىء إشراف الملك ؟ أهو إعجاز القدرة التى تغلب بالأضعف ؟ أم سر الحكمة التى تمكر بالأقوى ؟ أم روح القدس الذى ينفذ قانون الحياة فى هذا الكوكب ؟

بين سُورة الملك وأمانة التاج ، وبين فتنة الجمال ومحنة الهوى ، وقف العاهل إدوار الثامن ملك انجلترا وإمبراطور الهند يتحسس فى مطاوى الغيب مشيئة القدر ! أيعيش فى نفسه ولنفسه ، أم يعيش فى جنسه وللناس ؟ أيظل رمزاً لأمته يخفق فوق رءوسها كالعلَم ، ويتغلغل فى قلوبها كالإيمان ، ويتردد على ألسنتها كالصلاة ، ثم لا يكون له ما للعامل الفقير من وجود مستقل وإرادة مختارة ، أم يرتد إلى طبيعة الإنسان فيضرب بنفسه فى الزحام ، ويبحث عن نصيبه فى الرغام ، ويضطلع بعبئه ككل فرد ؟ أيبقى أسير التقاليد التى نسجتها عناكب الماضى البعيد على نوافذ البلاط والبرلمان ، فلا يفكر إلا بإيحاء ، ولا يتحرك إلا بميقات ، ولا يتكلم إلا بمقدار ، ولا يعمل إلا بإشارة ، أم يتمرد تمرد الحى المريد ، فيدفع من أمامه ذلك الحاجز الصفيق الثقيل ، ويجذ من ورائه ذلك الذيل العتيق الطويل ،

ثم ينطلق في جواء الله انطلاق الطائر المرح ، يقع في كل روضة ، ويهبط على كل غدير ، ويتملى أليفه فوق عروش الزهور وعلى بُسُط المروج وبين أفنان الخمائل ؟!

كانت هذه الآراء الحائرة تعصف نكباء فوق رأس الملك ، بينما كان في (لندن) الواجبُ المرير الخشن يتمثل في وجه (بلدوين) الحازم الجبار ، ومن خلفه برلمان متحد يؤيد دستوره ، وملكوت واسع يريد امبراطوره ، وشعب مخلص يحب ملكه ؛ وفي مدينة (كان) حب عنيف مُلح يشرق في قسمات (مسز سمبسون) الفاتنة ، ومن ورائه إنسان يطلب حريته وقلب ينشد سعادته وحى يبتغى حظه من الحياة .

وهنا يتدخل القدر الذى يحكم وحده على الملوك فيحل عقدة الرواية التى يشهدها العالم كله على غير ما يحلها به الروائيون الخياليون ، فينصر تجديد الطبيعة على تقاليد العرف ، ويُغلب سلطان الحب على سلطان الواجب ، ويرفع سرير العائلة على عرش الأمة !

* * *

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟ أيها الناسون ما صنعت حواء بأبيكم آدم ! لا تحسبوا أن الماسونية والجاسوسية والشيوعية والصهيونية والفاشية والنازية هى التى تقلب فى السر أو فى العلن أو ضاع المجتمع . فتشوا فى زوايا كل أولئك عن المرأة ! وإذا كانت مأساة البرنس إدوار تذكرنا بمأساة البطل أنطون ، فليست كليو بطره أول النساء ، ولا مسز سمبسون آخرهن . وسيظل هذا الجنس

القوى الخفى الغامض سلطان الكون المطلق ؛ فهو محور الطموح والمنافسة ، ومصدر الخير والشر ، ومنبع السرور والألم وإن خضع له اليوم إدوار فمن قبله خضع نابليون ، ومن قبل نابليون خضع الرشيد وقال فيما حدّث الرواة :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ⁂ وحللن من قلبى بكل مكان

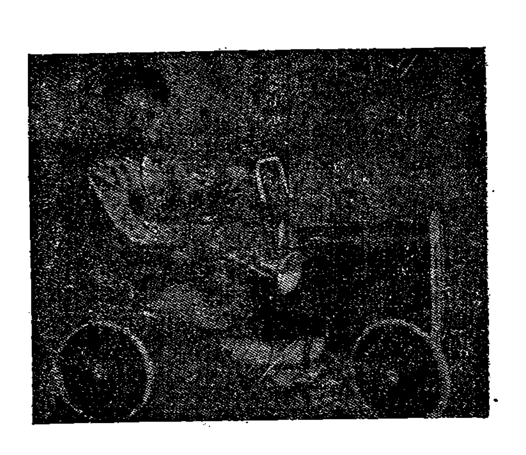
مالى تطاوعنى البرية كلها ⁂ وأطيعهن وهن فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ⁂ — وبه قوين — أعز من سلطانى



ذكرى ميلاد

(١١ يناير سنة ١٩٣٧)



فى مثل هذا الأسبوع من عام ١٩٣٢ وأنا فى دار السلام ، هبط على برق الأثير هبوط الملك البشير على زكريا الواهن اليائس بشرنى بأن اسمى قد اشترك ، ووجودى قد ازدوج ، وعمرى قد امتد ، وأصلى قد تفرع ! فأخذنى شعور لا عهد لى بمثله لا أصفه لأنه أعمق من الإدراك ، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة هو شعور خليط مبهم : لا هو حماسة ولا هو نشوة ، ولا هو جذل ولا هو غبطة ، وإنما هو كل أولئك وشىء آخر لا أدريه لون مشاهد الطبيعة بألوان الأمل ، وعطر نسائم (دجلة) بروائح الجنة ، وزين مغانى الكرخ بأوشية السحر ، فخرجت إلى بساتين (الصالحية) وفى إهابى المشبوب رجل آخر ، يحيا لأنه يحب الحياة ، ويعمل لأنه يريد العمل ، ويزهى لأنه يسعى لأسرة مررت بالأطفال الذين كنت أراهم كل يوم ، فبدت لى فى قسماتهم وبسماتهم معان جديدة لم يعودوا شقاء الوالدين وهم الحياة كما كنت أشعر ، وإنما أصبحوا كطفلى بهجة الوجود وراحة المكدود ورجاء

المستقبل ثم وجدتُنى آنس بكل أب ، وأسكن إلى كل أم ، وأشعر كما يشعر كل والد يحمل رخيٍ رضيٍّ يثقل رويداً رويداً على البال المطمئن الوادع !

* * *

عدت إلى مصر فرأيتنى أرسخ فى الوطنية لأنى غدوت أصلا من أصولها ، وأعزّ فى القرابة لأنى صرتُ فصلا من فصولها . ثم تجددت الأفراح ، وتسابقت التهانى ، وتنافست الهدايا ، وتعاقبت المآدب ، وغرقت الدار الكئيبة فى فيض من البهجة ، ورقصت الروضة الموحشة على ألحان البلبل ، ورفرفت السعادة الهشة على مهد الوليد .

وكان عشنا الآمن الغارّ يعلن فى كل رابع عشر من شهر يناير ذكره النعمة وشكره لله ؛ فيرفُّ للأصدقاء بالأنس ، ويخف للفقراء بالصدقة ، وتتفتح مصاريعه الضاحكة لتهنئات الصحاب ودعوات الأحبة ، ويخرج المرموق المشوق صاحب العيد فى زينته وبهجته كالسوسنة النضة ، يقابل مهنئيه ، ويتقبل هداياه ، ويستعرض لَعبه ، ويشع على الحفل البهيج من روحه الجذاب وحسنه الفاتن وذكائه الباكر ، إشعاعاً من وراء المعلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب الشاعر . .

حنانيك ياربّاه ! أكل أولئك أصبح اليوم ذكرى ؟ أغاية السعادة فى الأرض أن تنقلب وحشة فى النفس وظلمة فى العين وحسرة فى الفؤاد ؟ لا يزال صوته الصافى الجميل يرن فى شعورى كله : فأنا أسمعه يقول ويده الصغيرة تجذب يدى « يالله نشترى خروف عيدى يا بابا عاوز أتمبيل أحمر زى أتومبيل الملك يا بابا » ، فأخرج معه كما يخرج الصديقان

الأليفان لأمر مشترك ، فينتقى ثيابه بذوقه ، ويختار لعبه بنفسه ، ويقترح عليّ أن نذهب إلى (حديقـة الأندلس) ، فيمشى بين أفواف الزهر أو عَلَى زخرف الممشى ، فلا أدرى أجمال الروض زها فيه حتى فتن ، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر ! ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد ، فيذهل عن طريقه فيخوض فى الماء فجأة ، فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلا من الأسئلة لا ينقطع ، وفيضاً من المسرة لا ينضب ثم يعود إلى بيته المزدان المرح ، فيستقبل فى المساء أعمامه : أحمد أمين وزكى وخلاف والعبادى وعوض وزناتى ويونس وسائر محبيه ومحبى أبيه ، فينقلهم بإشراق نفسه وائتلاق طبعه من عالم النـــــاس إلى عالم الملائـكة !

* * *

ثم دار الفلك وتجرّم العام ، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولـكنه واحسرتاه يعود هـذه المرة على بيت غير البيت ، ودنيا غير الدنيا ! فلا العش مرحٌ بفرخه ، ولا الروض شادٍ ببلبـله ، ولا (الأتومبيل) حال براكبه !

يعود على ثياب مطوية ، ولُعَب مخفية ، وصور مستورة ، وعيون مقروحة ، وقلوب محطمة ، وآمال مهيضة ! فلا بساط الأنس ممدود بارفاق ، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة !

* * *

أجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولـكنه والهفتاه يعود على قبر

جنى الأزاهير بين حقول القرية البعيدة ، تسهر عليه الشجرة الصغيرة وترعاه من قرب عيون الأهل !

فيامن دعوت نفسك الرءوف الرحيم ؟ أين أجد رأفتك فيخف أساى ، وأصيب رحمتك فيندمل جرحى ؟ !

ويا شاعر العروبة وحكيم الدهر وطريد الغير ، متى أجد مصداق بيتك المعزِّى الخالد :

مستأنف فقدان الذى قد فقدته كآلفك وجدان الذى أنت واجد !



الدفاع المقدس

(١٨ يناير سنة ١٩٣٧)

قانون الحياة مادتان : هجوم على القوت ، ودفاع عن الذات وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات فى يد الطبيعة ، تتذرع بها إلى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة إلى بقاء النوع بالولادة . فالحى الخليق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعى لنفسه ، وقوة الوقوف لغيره ، فإذا فقد هاتين القوتين أو إحداهما كان طفيلياً على مائدة الحياة ، وفضولياً فى ملكوت الطبيعة . وليست العزة التى تملك القاصر حين يرشد أو التابع حين يستقل ، إلا يقظة الأنانية فى طبعه ، وثورة الحيوية فى دمه وهذا الذى نشهده اليوم فى مصر المستقلة من التسابق إلى إعداد القوة ، والتنافس فى إنشاء الدفاع ، إنما هو استكمال لإحدى وسيلتى العيش ، واستشعار لأرق طبيعتى الوجود . فقد كانت مصر قبل عهدها الجديد تجرى على قدر مجهول فى الغيب . وتعيش على خطر معلوم من العدو ؛ ثم لاتجد فى واديها ولا فى أيديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة . فهى كالمرأة حمايتها على الزوج ، وكالقاصر تبعته على الوصى لذلك خشعت نفوسها أمام القوى الساطية خشوع الوحش المروض إذا حطم نابه وقلم ظفره ، فلا تدخل فى شر ، ولا تشارك فى مراء ، ولا تملك من دون وليها المحتل نفعاً ولا ضراً كان ذلك وأكثر الدول السيدة الأيدة كالبلجيك واليونان والترك لايطولها أصلا ، ولا يكثرها نفراً ، ولا يفوقها ثروة وكان ذلك والقوة هى الدستور النافذ فى الأرض ؛ فالتسليح خطة السياسة ، والحرب عماد السلام ، والمنفعة حجة القانون ، وعصبة الأمم والمعاهدات

تدريم [1] لمخلب الأسد. ولكن الاحتلال الذى غل اليد وشل الإرادة قد سلبنا فيما سلب الثقة بالقدرة ، والاعتماد عَلَى النفس ، فكنا فقراء مع الغنى ، أذلاء عَلَى الكثرة ، لا ندرى على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق .

أما اليوم وقد تحطمت حلقات القيود على ضغط الجهاد المُلح والقيادة المخلصة ، فهاهى ذى مصر طليقة على سجيتها ، سافرة عن طويتها ، وقد عصفت فى رأسها النخوة ، وتمرد فى نفسها التاريخ ، فهى تتأهب لإعلان قوتها وإعزاز كلمتها وتحصين عزتها فى ميادين الحرب الثلاثة ! وهاهم أولاء أبناؤها الميامين البررة يتدفقون فى التبرع السخى لمشروع الدفاع الوطنى تدفق الدماء الحية فى قلوبهم الحرة ! وسيدهش العالم لهبتهم العاصفة كما دهش من قبل لنفوتهم الثقيلة ، فإن مصر فى كل شىء فريدة عجيبة !

لقد هبوا أول الجهاد فسخوا لها بالأنفس . وهم يهبون اليوم أول النصر ليسخوا لها بالأموال . وعلى قدر الإخلاص والتضحية فى الهبة الأولى ، سيكون البذل والإيثار ولا ريب فى الهبة الثانية

صحيح أن تلك النهضة بدأت من الشعب وانتهت إلى الحكومة ، وأن هذه النهضة ابتدأت من الحكومة وستنتهى إلى الشعب ، ولكن ذلك لا يقدح فى حقيقتها ، ولا يشكك فى نتيجتها ، فإن حكومة اليوم هى شعب الأمس ، والذين ألبوا الأنفس على ذل الاحتلال ، هم أنفسهم الذين يحسون الأفئدة لعز الاستقلال .

* * *

(١) التدريم تجميل الأظفار بالقص والصقل والصبغ (Manicure) .

افتتح التبرعَ للدفاع المقدس الوزراء فتبعهم الموظفون ، فهل يفتتحه من الجانب الآخر الأمراء و الأغنياء ليتبعهم الأهلون ؟

يريد الوطن الضعيف الأعزل من أولئك الذين ربّبهم على دلال السرف ، وقلبهم فى أعطاف النعيم ، فحشا جلودهم بخيره ، وأفعم خزائنهم بذهبه ، وبسط ملكهم على أكثر أرضه ، ومد نفوذهم على معظم بنيه ، أن يعززوه ليُفىء عليهم ، ويسلحوه ليدافع عنهم ، ويبروه ليدوم لهم بره وظله .

ما الذى يحبس هذا الأمير المترف أن ينفق على سلاح وطنه مثل ما ينفق على سلاح صيده ، ويبذل فى سبيل أمته بعض ما يبذل فى سبيل شهوته ؟

وما لهذا الباشا البطين صاحب الخيْل و الهيلمان[1] ، ومالك الثيران والأطيان ، ورب النفوذ والسلطان ، يصمّ أذنيه عن نداء وطنه ، وإنما عظمته من فضله ، وعزته من أهله ، وثروته من ثراه ! أيتلكأ الباشا ويتبطأ الأمير حتى تنشأ عُدة الدفاع مما يرضخ[2] به الفقير والأجير والعامل ؟ وهل ترك هذا أو ذاك لأحد من هؤلاء شيئا يعطيه ؟ وهل من المروءة أن يدعا الفقير أو الأجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه ؟

* * *

سادتى أصحاب السمو وأرباب السعادة ! إن الفقير يغذيكم طيلة العمر بعرقه ، وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه . ولن يكلفكم هذا الصابر المسكين إلا أن تشتروا له الفأس وتقدموا إليه السلاح ، فهل هذا كثير .

---

(١) المال الكثير

(٢) رضخ له بالمال : أعطاه قليلا منه

لو كنا نقرأ

(٨ فبراير سنة ١٩٣٧)

فى مصر تسعمائة وتسعون فى كل ألف لا يقرأون ، وتسعة من هذه العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية ، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة ، وواحد فى الألف هو الذى يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهذبة . وهذا الواحد الأحد يدركه فى أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام ، فيعاف الكتاب ، ويجتوى الصحيفة ، ثم يقعد فى مشارب القهوة يتقمع [1] ، أو يسير فى مجالى الطبيعة يتأمل ، أو يضطجع فى مراقد السكينة يستجم ذلك تقدير مقارب نهجم به على (مصلحة الإحصاء) وفى أيدينا استقرار متتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر فى التعليم والتأليف والصحافة . وتقدير المؤلفين والكتاب فى هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة الأصيلة والرقى الصحيح أما قياس درجة الرقى على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل ، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة فى سجل التعداد . ماذا يعود على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة فى المائة ، مادام فك الخط لا يطلق عقلا أسيراً ولا يجلو بصراً حسيراً ولا يذكى قريحة كابية ؟ أوافق مصلحة الإحصاء على أن فى الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليونى قارىء ، وأن فى هذين المليونين ألوفا من ذوى الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن يكشفوا للعقل آفاق المعرفة ، وينهجوا

---

(١) يتقمع أى يطرد الذباب من فراغه ، من قولهم : تقمع الحمار إذا حرك رأسه ليطرد القمع بالتحريك وهو ذباب أزرق يدخل فى أنفه .

للنفس طرائق الكمال ، ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب وما يوزع من الصحيفة خامرك الشك فى إحصاء المصلحة ، أو فى تعليم المدرسة ، أو فى عقلك أنت ! ينشر فى العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة الآلاف ، ثم تساق إلى قراءته بالطبل والزمر مصر جماء وفى معونتها العالم العربى أجمع . ومع ذلك لاتنفد طبعته المباركة بعد الإغراء والإهداء قبل خمس سنين !

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمى وإن عرف حروف الهجاء ، وعامى وإن تلقب بألقاب العلماء ؟ تتبع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة ، فهل تراه يقرأ — إن قرأ — إلا كتب المدرسة أو ملخصات العلم أو فكاهات الصحف ؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ ، ويده على القلم ، وعينه فى الكراسة ، يختصر مااختصر ، ويقتصر على مااقتصر . ثم تراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه ، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه ، ويغثى نفسه بإساغة مالا يهضمه . حتى إذا خرج من المدرسة خرج مكروبا لا يتقارّ من الكلال والسأم ، فينفس عن نفسه بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ! فاذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى ديوانه إذا كان عبد الوظيفة ، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل ، فيكره الأدب لأنه يتذكر دروس (المحفوظات) ، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة) . وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد ، فيعود كما بدأه الله أمياً يعمل بالإرشاد ، وفطريا يهتدى بالغريزة . والمعلم الذى يخرّج التلميذ اليوم كان هذا التلميذ نفسه بالأمس أرسل إلىّ مدرس الجغرافيا فى كلية الآداب كتاباً يسألنى فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لا نه لا يجد وقتاً لقراءتها ، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة ، فلانة وما تهزأت به المجلة الآخرى من

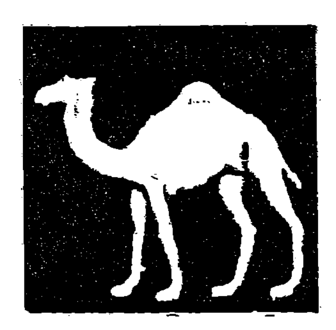
الأستاذ فلان . ثم سأله أحد طلابه يوما عن مدينة (واسط) فقال له : أحسبها مكاناً فى طريق (القصير) ! قرأت هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزراعى الصناعى وقد دخل عليه مندوب « الرسالة » يطلب منه « تصريحاً صحفياً » بدخول المعرض ، فقال له وأمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض ، ولكننى لم أر هذه (الرسالة) قط ! فلم يجبه مندوبنا وإنما أجابه حاجبه هو بقوله : لأ ، يابك ! هذه مجلة صفتها كيت وكيت ، وأنا وابنتى نقرأها كل أسبوع ، ونجلدها كل سنة ! سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القارونى الذى أهديت إليه « الرسالة » لصلة بين أسرتى وبينه ، فردها على وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ (مرفود) ! فوقع فى نفسى أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء ، فى رفد المعوزين من الأدباء والشعراء ، فهممت أن أكتب إليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهنى صديق ممن أوتى منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) ولا أريد الترسل فى هذا الحديث ، ففى ذاكرة كل صحافى من بابه طرائف وأعاجيب !

الحق أننا أمة أمية تنظر إلى الكتاب نظر المتعظم الخائف ، أو المتقنع العازف وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورة الروح ، كما نرى الرغيف ضرورة البدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود .

تتطور المذاهب والآراء ، كما تتطور الحلى والأزياء . فإذا لم تتقص بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور من أطراف الأرض عشت فى عصرك غريب العقل أجنبى الشعور وحشى الثقافة ، كالذى يلبس فى الناس زياً مضى بدل زى حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القــراءة وتعلمك كيف تقرأ . وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ . فإذا لم تفعل هى فقد قصرت عن رسالة ، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت فى واجب .

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الإنتــاج ، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة فلو كنا نقرأ لخلقنا الـكاتب والـكتاب . ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فازدهرت فى كل مكان وأثمرت فى كل نفس . ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذى تتذبذب فيه الأفــكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية . ولو كان العالم العربى يقرأ لنشر من الـكتاب زهاء مائة الألف ، ووزع من الصحيفة قرابة المليون . وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب !



جميل صدقي الزهاوي

(٢٧ مارس سنة ١٩٣٦)

(١)

من حق الزهاوى على (الرسالة) وهى ديوان العرب وسجل الأدب أن تقف عَلَى ذكراه العظيمة الأليمة وقفة الذاكر للجميل ، تُحَيي بنثير الورد خلود مجده ، وتحيى بنثير الدمع مصاب فقده . فلقد ساعد على إنهاض العرب بوثوب فكره ، وعلى إحياء الأدب بوميض روحه ، وعلى إنعاش (الرسالة) بعيون شعره ومن حق الزهاوى على صاحب الرسالة أن يقوم فى هذه المناسبة فيفرغ فى سمع الزمان الواعى هذا الحديث الذى يتسم على ما أظن بخبرة الصديق وثقة المطلع ونزاهة المؤرخ فإنى ما ذكرت العراق إلا ذكرت فى أول أشيائه فندق (كارلتون) ، وفى أول أشخاصه شخص الزهاوى ذلك أن أول مكان لقيت فيه العراق هو هذا الفندق ، وأول إنسان سمعت منه العراق هو هذا الرجل !

* * *

كنت جالساً فى بهو هذا الفندق صباح اليوم الثانى لقدومى بغداد ، أروض قلبى على روعة الفراق ، وأذنى على لهجة العراق ، وعينى على غرابة الصور ، وإذا بأحد النُّدل يلقى إلىَّ بطاقة كتب عليها (جميل صدقى الزهاوى) . ولم تكد تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخاً فى حدود الثمانين قد انخزع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فلا يحمل بعضه بعضاً إلا بجهد .

أقبل على يتخلع على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض ، وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم على تسليم البشاشة بيد مرتجفة ، ورحب بي ترحيب الكرم بصوت متهدج ، ثم انطلق يشكو جحود الأمة ، وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم ، وإلحاح المرض . وتطرق إلى خصومته عامئذ مع الأستاذ العقاد فذكر ـ والأسف المريكسبه لهجة المظلوم وهيئة الشهيد ـ كيف استغلها فى العراق من سدد هو خطاه فى الشعر ، وأرجف بها من تولاه هو بالرعاية ، وحمد الله على أنى جئت بغداد بدل العقاد فقد كان وجوده ـ كما كان يظن ـ قأليباً متصلا على فضله ، وإزعاجاً مستمراً لسكينته .

لم يدع لى الزائر الكريم فرجة بين كلامه الدافق أدخل عليه منها بالتخفيف والتسرية ؛ فإن الزهاوى ـ كما علمت بعد ـ ديدنه أن يتكلم ، كالبلبل خاصته أن يغرد ، وكالزهر طبيعته أن يفوح . فهو فى مجلس الصداقة شاك أو شاكر ، وفى مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفى مجلس الأنس مفاكه أو محدث .

كان الشيخ يتكلم أو ينشد ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف ، وشاربه النائم على فمه الأهرت [١] ، وعينه البراقة ترأرىء [٢] من خلف المنظار ، وشعره الأشمط يتهدل على نتوء الصدغ ، كل أولئك كان يخيل إلى أن طيفاً من أطياف الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة فى هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب . ولكن الحيوية التى تفيض فى

---

(١) الوسع .
(٢) رأرأ : حرك كلتا عينيه وأدارهما .

كلمانه ، والعزيمة التى تضطرم فى نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلنى وجهاً لوجه أمام (كتلة) من الأعصاب القوية المشدودة ، تتكلم وتتألم ، وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لايخرج أبداً عن (الأنا) إذا صح هذا التعبير .

* * *

دأبت عربانة[1] الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلى صباح يوم الجمعة من كل أسبوع ؛ فكنت أستقبله استقبال العابد للتحنث للكاهن الملهم ؛ ثم نقضى ضحوة النهار معاً يحدثنى فأعجب ، أو ينشدنى فأطرب . وقد تكون أذنى إلى فمه وليس معنا ثالث ولكنه يجهر بالإلقاء ، ويصور المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع وهو بين الفترة والفترة يعود إلى شكاته وشكواه ، وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحى ساهماً حالماً أفكر فى الذهن الذى لايكل ، واللسان الذى لايفتر ، والزهو الذى لايتطامن ، والطموح الذى لايتقاصر ، والقلق الذى لايسكن ، والتمرد الذى لايهن ، والشباب الذى يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة التى تتخذ هيئة الموت !

كنت ألقاه فى خلال الأسبوع مع الناس فى منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لاتنفك تعبث بسبحته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية ،

---

(١) العربانة : العربة بلغة بغداد

أو تمد « بالآنة »[1] إلى غلام القهوة كما طلب الشاى إلى صديق .

وكنت أزوره « بالصابونجية » فأراه فى مباذله قاعداً يشكو الوصب لأنه قضى الليل ساهداً يقرأ ، أو ذاهلا ينظم ؛ فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده ؛ والمسودات مدسوسة تحت مخدته أوفى ثيابه ، فلا يتمالك حين يرانى أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمرى فى شعرى والأمة تقذفنى بالبهتان ، والحكومة تخرجنى من مجلس الأعيان ، والملك يستكثر علىّ أن أكون شاعر البلاط ! « إنى سأذهب وستبقى أشعارى معبرة عن شعورى وناطقة بآلامى . فهى دموع ذرفتها على الطرس ، وهى خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة هى كل جزائى عن نظمها »

(٢)

ولد الزهاوى[2] فى يوم الأربعاء من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ ببغداد لأبوين كرديين كريمين تميزت أسرهما بالدين والفقه والأدب . فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها ، فنشأ جميل بين أبيه وأخيه يرتاض عقله ليثقف ، ويرتاش خياله ليطير ، ولكن أخاه كما حدثنى الزهاوى ، كان حَتِر اللسان[3] لايتذوق الأدب فكان يذوده عن رواية الشعر ، ويصده عن دراسة اللغة ، ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر فى الأدب ، ويروض القريحة على القريض . كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود

---

(١) الآنة : عملة هنديه تساوى $\frac{1}{16}$ من الروبية .

(٢) الزهاوى نسبة إلى زهاو وهى بلدة من أعمال كرمان شاه الفارسية كانت موطن جدته لأبيه .

(٣) لسان حتر . لايجد طعم الطعام .

أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب فى الطبع هو مشيئة الخالق فى الخلق . جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة ، وجعل من الرصافى أبا نواس وقد كان الألوسى رحمه الله يريد أن يبعث فى معروف الرصافة معروف الكرخ !

كان العراق أيام نشأ الزهاوى تركى السلطان سُنى الحكومة فالتعليم المدنى فيه كان تابعاً فى لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبى وهواه ، فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، أو رجال إدارة يذعنون للحكم . أما التعليم الدينى فقد ظل فى صحون الجوامع على ماعهده الناس ، حرى اللسان حر النزعة طليق الفكرة مستقل الغاية ، وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلى المطلق أن يخلق الجاهل للشعور البليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فيبلغ ، ويساعد الجبلة فى الإنسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط . فهو يساعد الهمة القاعدة على السقوط ، والنفس القانعة على القنوط ، والذهن المبطىء على التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع القلق على التمرد ، والإرادة المستقلة على التزعم . ورجال الثورة والإصلاح فى تاريخنا الحديث كانوا جميعاً من أهل هذه الثقافة ، كالأفغانى ، وعرابى ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، والكواكبى ، والزهراوى ، والزهاوى ، ومن إليهم

والنابهون من أهل هذه الثقافة لاينفكون دائبين على القراءة والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة القدم . وهم عسيون إذا جددوا أن يسرفوا فى التجديد كذى العاهة يدفعه النفور من ذلة الضعف إلى الإفراط فى العسف والتجبر .

— فالزهاوى الجرىء بطبعه ، الطموح باستعداده ، تثقف بهذه الثقافة ، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملتهبة . ثم نزعه عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر ، والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب. ثم ابتلى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النخاع الشوكى لازمه بقية حياته . ورمى بعد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشاءم . ثم منى من أهل عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل وانحلال الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين القائم على الانذار والنصيحة .

رأى وهو فى الأستانة عبد الحميد يلقى الأحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر ، فأرسل إليه مع رسبوتينه أبى الهدى قصيدة منها :

أيأمر ظل الله فى أرضه بما ... نهى الله عنه والرسول المبجل

فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ... ويسجن مظلوماً ويسبى ويقتل

تمهل قليلا لاتغظ أمة إذا ... تحرك فيها الغيظ لاتتمهل

وأيديك إن طالت فلاتغتر ربها ... فإن يد الأيام منهن أطول

فسجنه حيناً ثم نفاه

وسمع وهو عضو فى مجلس (المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغاً ضخما من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الأسطول للتبرك فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف ، أما أن يكون فى ميزانية الحربية فلا أفهمه ، لأن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى . فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة

ورأى ماتعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب

لإيقاظها ونصرتها ، حتى كتب فى جريدة (المؤيد) مقاله المشهور : « المرأة والدفاع عنها » فزلزل الناس فى بغداد وفى غير بغداد، فسعوا به إلى ولاة الأمر ليعزلوه ، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم داره :

ونظم فى أعقاب عمره (ثورة فى الجحيم) ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل الأول . فلما كلمه فى ذلك قال : ماذا أصنع يامولاى ؟ عجزت عن إضرام الثورة فى الأرض فأضرمتها فى السماء !

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل ، ولم يعش على مروءات الناس كأكثر أهل الشعر ، وإنما غامر فى خطير الأمور ، وطمح إلى بعيد المدارك ، فملأ حياته بالأمـــــل الدافع والعمل المثمر : عين فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف ، ثم مديراً لمطبعة الحكومة ، ثم محرراً للجريدة الرسمية ، ثم انتخب عضواً فى محكمة الاستئناف . ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الأستانة فحرك فيها لسان النقد وأقض بها مضاجع الجاسوسية ، فانتقض أمره وساء مقامه ولما أعلن الدستور عين أستاذاً للفلسفة الإسلامية فى « المكتب الملكى » ثم مدرساً للآداب العربية فى « دار الفنون » . ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق ، ثم انتخب نائبا عن العراق فى مجلس المبعوثان . وهو فى خلال ذلك كله حركة ذهنية دائرة ، وجملة عصبية ثائرة ، لا يفتر ليله عن الشعر أو القراءة ، ولا يكل نهاره عن الحديث أو الكتابة ، حتى غُلب الترك وأديل منهم فى بغداد للعرب فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة . أما الزهاوى وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش . وكان الشاعر قد ألقى للمجد معاذيره من انسراق القوى واستحكام العلل فبات يرسل الأقباس والأضواء من جسمه المتهدم وقلبه المتضرم حتى خمد .

(٣)

كأنما تفتح عقل الزهاوى قبل أن يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله ، وأدرك علمه قبل أن يولد شعره ؟ فلقد كان يهدف للثلاثين من عمره وليس له من (أولمب) الشعر وحى ، ولا فى (برناس) الشعراء محل ، إنما كان فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية والطبيعية وسبيله إلى ذلك ماترجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لاتصل فكر الإنسان بالتطور ، ولا تنقع غلة الظمآن إلى المعرفة ومع ذلك استبطن الزهاوى دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الفيزياء ، ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله : إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة ، وإنما هى دفعها لها بسبب ما تشعه من الألكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل . ورجاحة عقله هى التى حملته وهو فى ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله والمعهود فى عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك فلما هيأته الأقدار الجميلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القريحة ، ويرد إليهن إلهام العبقرية ، ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة ، أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضىء الطريق للخيال والعاطفة حتى يأمنا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ ، وإن تغلب عليهما كان

الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشاعرية . والزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التى « تموسق[1] » ولا القريحة التى تصنع فاللفظ قد لايختار ، والوزن قد لايتسق ، والأسلوب قد لاينسجم ، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبواب المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة .

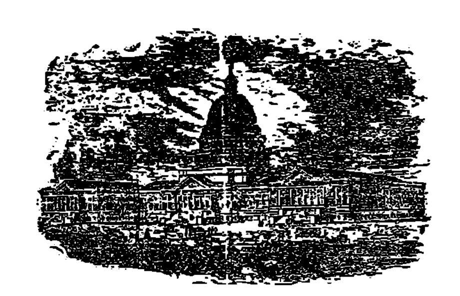
الزهاوى عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساخرة . وهذا التوثب الحماسى فيه هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره . وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف . ويكون الزهاوى معك كالآلة تدور مليئة متزنة ما دامت على شىء ، فإذا نفدت مادتها فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة وذلك لأن الفكرة الفلسفية هى المادة الأصيلة فى شعر الزهاوى . وليس الشعر كله فكرة وإنما هو فضلا عنها صورة يرسمها الخيال وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة الفيلسوف واضحة وجمالها فى هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية وسحرها فى هذا الخفاء . إما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة ، و إما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر . أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم .

كان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه ، وأن التيه يذهب به ، فيحب الثناء و يبغض النقد فهو لفرقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفوره من

(١) لامانع فيما أظن من أن أشتق هذا الفعل من الموسيقى .

معرّة الجمود يذهب بالرأى إلى التطرف ، ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

والزهاوى بعد هذا وقبل هذا كان رسولا من رسل الفكرة الإنسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها للوقظة على ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف ، ثم تسعى لتعود أمة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون .



العام الهجري

(٥ أبريل سنة ١٩٣٢)

هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة ، فتنفى الخبث وتطرح الغثاء وتركم الأحداث ، وتزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ، وابن آدم الفانى محمول على عواربها الرُّعنْ ، تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وترجع بعضه إلى العباب واللج ! ومن يرجع فسوف يعود ، ومن يعدْ فسوف لايرجع !

هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة فيلفظ القشر ويحفظ اللباب ، ويصفى أكدار الوجود بالعدم ، ويعفى حطام الصيف برياح الخريف ، ويجدد مارثّ من ديباجة العيش بأفواف الربيع ، وابن آدم فى يد القدر المصرِّف محراث ومنجل ؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير ، وبعضه يقطع السلام والوئام والحب ، وبين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هذا الكوكب المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الأتىّ فلا يركد ، ثم لاينسحق بينهما إلا هذا الغبي الذى سلط نفسه على نفسه .

* * *

لله الحمد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيمة الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة الهدم . إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأعلنت كلمة الله ، وبلغت رسالة الحق ، وحملت

أمانة العلم هـذا تاريخنا تتألق أيامه الغر فى ظلام الماضى ، كما تتألق الـكواكب الزهر فى حلك الليل . أرشدنا الضال فاهتدى ، وحمينا الذليل فاعتز ، وعلمنا الجاهل فتعلم ، ثم مكنا فى أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير فقويت فى كل نفس ، وازدهرت فى كل جنس ، وانبعثت فى كل دين ، وانتشرت فى كل أفق ، وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب فيها المدارك ، لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاها الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، وينقذ إنساناً بإنسان .

فلما أدركنا ضعفُ المخلوق ونقص البشر ، فقدحتنا تـكاليف الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنسترفه ونستجم ثم صحونا اليوم نمسح الـكرى عن الجفون ، وننفض الغبار عن الأوجه ، فاذا العالم يعصف به سعار من الجشع المسلح والطمع الباغى ، وإذا الدين الشرقى يقلبه المزاج الغربى إلى كَلَب وغلَب ، فعبقرية موسى ربا ودسيسة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ، وإذا رجل[1] لم تنبته صحراء العروبة ولم تنفحه عطور الشرق يطغيه الحديد ويبطره العديد ، فيقول وهو يحطم الصليب فى الحبشة : أنا حامى الإسلام !

واذلّ الإسلام إذا لم يعزه أهله ! لا يا سيدى ! إن الإسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا يزال كتابه فى أيدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس

---

(١) هو السنيور موسولينى زعيم الأمة الإيطالية الفاشية

بالحياة . والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح . أما قوة الأساطيل على الماء وفى الهواء فعمرها يوم وليلة ، ثم لاتكون إلا دخاناً فى السماء ، وحطاما على الأرض !

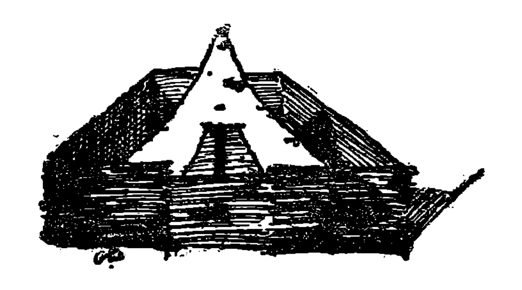
* * *

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا بد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام فى الدنيا والسلام فى العالم . والإسلام — دستور الديمقراطية الصحيحة والاشتراكية المنظمة والأخوة الشاملة — يبسط يده لكل يد تدفع الإنسانية إلى التقدم ، وترفع المدنية إلى السمو وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعهم معناه ، فحاولوا أن يطفئوه فى مشرق نوره ، ويخنقوه فى مصدر صوته ، ليسرقوا الضمائر فى الظلام ، ويسلبوا الذخائر فى الغفلة ، قد أخطأوا فهمه وجهلوا قواه ؛ فإن نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت الشمس وإن صوته من السماء ، وسيرتفع ما ارتفع الحق وإن سلطانه من العدل ، وسيبقى ما بقى الكون فإذا انشقت الأرض وانفطرت السماء وانكدرت الشمس عاد إلى مصدره الأزلى باهراً كما صدر عنه ، طاهراً كما انبثق منه ؟

لقد أصابوا أخيراً فخطبوا وده وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين الشرق والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع وجهاً لوجه ، وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر ، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان ، أن الإسلام أصدق وعداً ، وأن العرب أوفى ذمة ولعل هذه التجربة القريبة تكشف حجب الظنون

عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء فى فلسطين ، ويعيش هؤلاء حلفاء فى المغرب .

إن الإسلام روح فهو حياة ، وعقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور ، ومحبة فهو سلم . فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده ! أما الخداع والرياء ، أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفلولة إن قطعت قبل الأمس فلن تقطع بعد اليوم .



منطق الواقع

(أبريل سنة ١٩٣٧)

مصر الآن أمام اثنتي عشرة دولة في (مونترو)[1] تزيف الادعاء بالقانون ، وتكفكف الغلواء بالحزم ، وتكشف المغالطة بالحجة ، وتقول للذين ظلموها وظلموا العدل : هأنذى أمامكم وجهاً لوجه ، وعقلاً لعقل ، ولساناً للسان ؟ أخاطبكم بلغاتكم كأنني منكم ، وأجادلكم بعلومكم كأنني فيكم ! فهل تجدونني أقل منكم فقهاً لفلسفة التشريع ، أو علماً بمدنية العدل ، أو فهماً لسياسة الحكم ؟ ها هم أولاء بعض أبنائي أوفدتهم إليكم يحملون كلمتي ويمثلون إرادتي . فهل رأيتم أروع خطاباً من مكرم ، أو أبرع برهاناً من بدوى ، أو أقطع بياناً من ماهر ؟ أليسوا هم حجتي العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساغاً من طبيعة الناس ، ولا مساكاً من منطق الأشياء ؟ .

لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة في ديارهم بين مجرميكم ، وهم يجرون مع أخياركم في عنان ، ولا يتخلفون عن أقطابكم في ميدان !

لماذا تأبون أن يتساوى الوطني والأجنبي في الحق والواجب ، وأنتم ترون هذا النهر المبارك يضفى عليكم النعمة ، ويميزكم على أبنائه في القسمة !

* * *

ذلك ما تقوله مصر لخصومها (للمتازين) الذين احتشدوا في مونترو يفاوضونها في تنظيم العدوان ، ويعارضونها في محو الإهانة . وهذا القول

---

(١) اجتمعت هذه الدول في مونترو للبحث في إلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر .

لا عيب فيه إلا اعتماده على الحق الذى زهق فى دول أوربا ، وإلا استناده إلى المنطق الذى اختنق فى كتب الفلاسفة . فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر ، وجرى على منهاج المنطق الحديث ، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق . والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول وإذا كان مدار المنطق الكلامى على القياس ، فإن مدار المنطق العملى على الواقع . والواقع فى قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشىء المحكوم به . والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة فى النية المكتوبة والفكرة المقترحة .

كان بيننا وبين جيراننا فى المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم ، فاختلط الحق بالحق ، ودخل من ملكنا فى ملك الجار مقدار كبير . وفى الأسبوع الماضى مديت الحكومة مهندساً يبين الحق المشتبه ويعين الحد المجهول ، فمسح الأرض ورد المأخوذ ودق الحديدة وحرر المحضر ، ووقع عليه الجيران وفيهم العمدة . وكان الحد بين مزرعتين ، ولكن الخلاف كان بين قريتين . فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد فى اليوم التالى ونجعله مصفى ومروى بينهما طريق . ولكننا علمنا فى الليل أنهم طمعوا فيما تحت أيديهم ، فلا يودون أن يزلوا عنه وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف . وفى الصباح الباكر كانت قريتنا فريقين فريق الفأس والعمل وقد ذهب إلى المزرعة ، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة وانعقد مجلس الفريقين فى دار العمدة ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل فى أعشاش الربيع وكانت قوافى الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق ، فتطرب الآذان وتهتز القلوب وتشرق الأوجه !

فلما انتهينا إلى أن هناك حداً يجب أن يقام ، وحقاً يجب أن يُعطى ،

تكشر الوجه الضاحك ، وتنكر الصوت الرخيم ، وانتفخت لغاديد الشر ، تهور بالكلام وتهدد بالمعارضة . وكان فيهم رجل رشيد ، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويفرغه عَلَى القوم فتقر الفورة ويهدأ الحديث وفى فترة من تلك الفترات الساكنة ، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلا متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولا مطل . وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر ، ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين الفريقين ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة .

وكان الخلاف أشد ما كان عَلَى مدة الأجل ، فبدأت بشهر وانتهت بخمسة : وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لساناً فى الرفض ، وأصلب عوداً فى القبول ، أما نحن والقانون والحكومة فكان ارتكازنا على خلاء .

كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه ، ثم أخذنا نستعد لإنشاد نشيد الختام فى تمجيد الوئام والسلام لولا أن أقبل رسول من المزرعة يعلن أن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر فحفروا المصرف وشقوا المروى وأقاموا الطريق ، وحرثوا الأرض وأنجزوا فى ساعتين مالا يُنجز فى يومين !

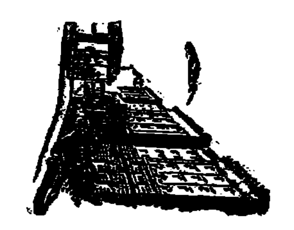
كان هذا الخبر أضخم الدلاء التى صُبت على المؤتمر ، فدهشنا نحن ، وخجلوا هم ، وتذكر الجيران الأعزة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا هذا هو الحق ! ذلك ملككم وما ينبغى لأحد أن ينازعكم فيه !

* * *

كان فى قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع ، فتلقى بإرادتها المطلقة الامتيازات الأجنبية التى ورثتها عن الترك كما يورث الزهرى الأفرنجى عن الأب

المريض . ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها فى القانون لا فى القوة ، ولكن مصر الكريمة للضيافة لا تزال تجرى على أعراق أبنائها الميامين ، فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان !

على أن قوة الحق المصرى ، وقدرة المفاوض المصرى ، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتاً من المدافع ، وأبعد نفوذاً من القنابل وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التى سايرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرنا وثلث قرن ، كانت هى وحدها التى تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض ، وأن لها ديناً سماوياً يهدى إلى الحق ، وتشريعاً مدنيا يرمى إلى الخير ، وخلقا شرقيا يدعو إلى المحبة ، وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون فى خيرات النيل ، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النبيل .



حول الديمقراطية

(٢٦ أبريل سنة ١٩٣٧)

— لا يا عزيزى ! أنا لا أتابعك على هذا التفسير . إن رأى الإمام محمد عبده جلى صريح ، وكلمة (ينهض) فى قوله المأثور : « لا ينهض الشرق إلا بمستبد عادل » أساس فكرته وعمود رأيه . فإن النهوض لا يكون إلا من القعود . والأمة القاعدة أو الراقدة لا يبعثها إلا القرع الشديد والهتاف القوى . ولا يمكن أن يكون هذا القارع الهاتف رأيها العام لأنه مفقود ، ولا ضميرها الاجتماعى لأنه ميت ، إنما يكون رسالة من الله على لسان نبى ، أو هداية من الطبيعة على يد مصلح وتنفيذ الرسالة الإلهية ، أو الدعوة الإصلاحية ، يرجع إلى خليفة يحكم بأمر الله ، أو إلى طاغية يحكم بأمر نفسه . فإذا كانت الأمة قد نهضت بالفعل كان الاستبداد بأمورها كفاً لنزعاتها عن الطموح ، وحبساً لمكانها عن العمل لأن النهضة معناها غافل أحس وجوده ، وخامل فهم نفسه ، وجاهل عرف حقه ، وضال وجد سبيله والحياة التى تسرى فى أفراد الشعب الناهض ، هى بعينها الحياة التى تجرى فى أعواد الربيع المنبعث : تتحرك فى الأمة على صوت النذير فى الغفلة ، كما تتحرك الطبيعة على هزيم الرعد فى الشتاء ، ومتى نفخ الله من روحه فى خمود الحى ، سيّره على سنة الوجود وبصره بغاية الحياة . وهنا يكون المستبد مهما يعدل سحاباً يحجب النور الذى انبثق ، وسموماً يصوح الزهر الذى تفتح :

فقال صاحبى الشاب وقد ألقى باله لما قلت ففترت حماسته بعض الفتور

ولكن المستبد برأيه أو الحاكم بأمره يختصر الآراء فى رأيه ، ويجمع الأهواء على هواه ، فنأمن التشرد الذى يضل ، والتردد الذى يعوق ، والتوا كل الذى يضعف ، والتساهل الذى يحابى . فقلت له :

ذلك يصح والشعب لا يزال قطيعاً من الحيوان الأبله ، لابد له حينئذ من الراعى وعصاه ، أما إذا أصبح هذ القطيع أمة لكل فرد من أفرادها كرامة وأرادة ورأى ومصلحة ، فبأى منطق تلغى هذه العقول الملايين التى جعلت لتفكر ، وتنسخ هذه النفوس الملايين التى خلقت لتريد ، لتجعل مكانها نفساً واحدة تغصب قوة الشعب لتقوده ، وتسرق ثروته لتسوده ، ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عبيداً والبلاد ضيعة ؟

— أنا أفهم المرء يقهر فيخضع ، ويؤسَر فيُسترق ؛ لأن الأمر فى ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح ؛ ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يستكين شعب بأمره لواحد منه ، فيلقى بزمامه إليه ، ويعول فى جميع أموره عليه والشعب مهما يصغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما يكبر لا يزيد على فرد ! والقوة والثروة والسلطان هى فى ذلك الجمع الذى فيه الجندى والفلاح والعامل ، لا فى ذلك المفرد الذى فيه السرف والترف والبغى

لقد مات ذلك الإنسان المغفل الذى كان يجعل إلهه حيواناً يربيه ثم يعبده ، أو جماداً يصنعه ثم يعبده .

إن الديمقراطية يا صديقى أخلق النظم بكرامة الإنسان وسلامة العالم هبط وحيها على الإنسان المفكر الحر فى أثينا ، ثم أصابها ما أصاب رسالات الخير فى الأرض من شيوع الجهالة وبلادة الحس وأزمة الهوى وطغيان الحكم ،

فصارت عروسا من عرائس الخيال كالحق والعدل والحرية ، تتمثل فى الأحلام وتتراءى فى المنى ، وتقتتل فى سبيلها الأنفس الكريمة ؛ حتى ظفر بها الأوربى الحديث بطول جهاده وكثرة ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره ؛ فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق فى الوطن ، وصاحب رأى فى التشريع ، وصاحب صوت فى الحكم ، وصار العامل الفقير والصانع الأجير والفلاح المتواضع قادرين على أن يلغوا الوظيفة التى لاتفيد ، ويسقطوا الحكومة التى لاتعدل .

الديمقراطية هى المساواة فى الحق والواجب ، والمشاركة فى الغنم والغرم . وهى الميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الأمد فيه عائق من نسب أو لقب أو ثروة . فكيف يجرى فى ذهنك هذا الخاطر وأنت من أصفى الشباب حساً وأنبلهم نفساً وأكثرهم ثقافة ؟

* * *

لم يجد الشاب مايقوله ، لأن الواقع فى ذهنه إنما هو اضطراب الحيرة لا اختيار الفكرة ، فعبر عن كل مابقى فى خاطره بهذا السؤال :

— وماذا تقول فى موسولينى وهتلر ؟

— أقول إنهما مظهر حاد من مظاهر الديمقراطية . كلا الرجلين يعمل بالشعب وللشعب . كلاهما يمثل قوة الأمة وينفذ إرادة الأمة ، وكلاهما يعتقد أن اليد التى استطاعت أن ترفع تستطيع أن تضع

* * *

ولباب الأمر أن تعترف للأمة بالسلطان ثم تظهره بعد ذلك فى أى رجل شئت وتحت أى عنوان أردت .

فابتسم صديق الشاب ابتسامة المقتنع ، وحيا تحية المسلم ، ثم قال وهو يضع يده فى يدى : إنَّ جهودنا معشر الشباب كانت مسددة إلى غرض واحد فى استقلال الوطن ، فلما أسفر الجهاد عن وجوه الفوز اضطربت الجهود وتشعبت الآراء واحتجنا فى هذا العهد الجديد إلى توجيه جديد . فقلت له : ذلك منهاج الكتاب والأحزاب والنواب منذ اليوم ، فعسى أن يهديهم الله إياه فينهجوه ؟



الطربوش والقبعة

(٧ يونيو سنة ١٩٣٧)

كان للطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناءود ، لأنه كان يومئذ تاج السلطان وشعار الحكم ولباس الجيش ورمز البطش وعلامة الخطر ، فكان يكفى أن يكون فى الحى أو فى الناحية جندى[1] واحد لتخشع النفوس وتخضع الرءوس ويحيِّى القانون وتنتفى الحكومة ، فلا يمر أحد وهو واقف ، ولا يشتجر اثنان وهو موجود ، ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة فى قسم ولا قضاة فى محكمة :

وكان للقبعة امتياز عَلَى الطربوش أيام كان الشأن لأحتلال الإنجليز وامتياز الدول ، لأنها كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الإجرام وصك النصب وجواز المرور وإشارة الثراء وأمارة التفوق ، فكان يكفى أن ترى (الخواجه) لترى الغانم الذى لايغرم ، والمتصرف الذى لايحاسَب ، والضارب الذى لاتقدر أن تغل يديه ، والسفيه الذى لاتستطيع أن ترد عليه ، والمدير الذى يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والحانات والقهوات والملاهى والفنادق ، ومن ورائه المحكمة المخصوصة ، والمحاكم المختلطة ، والتبجح الأشر ، والدعوى العريضة ، والبأو التسليط . فكان الطربوش عنواناً على ذلك الإنسان الذى أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الإنسانية فجعلتاه حياً تعافه الحياة ، ووطنياً ينكره الوطن ، ووريثاً يأنف منه التراث ، وخلفاً يعرض عنه التاريخ . وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبى المتقدم بقوته

---

(١) اسم كان يطلق يومئذ على لابسى الطربوش .

عَلَى الضعف ، وبقدرته على العجز ، وبصحوته على الغفلة . فالتمايز فى واقع الأمر كان بين ناس وناس ، لا بين لباس ولباس . فإنك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة ، وإذا وضعته على رأس القرد انقلب مسخرة ، وهل تصنع القبعة فى الرأس الذليل إلا أن تجعلَ منه زنجياً فى أمريكا ، أو حبشياً فى أفريقا ، أو صعلوكا فى كل قارة ؟

* * *

أما نحن اليوم فخلق جديد فى دنيا جديدة : تنبهت فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف ، وتمردنا على الأذى ، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالى منذ قرون فى صدارة الأمم ، فانفتح الطريق البشرى من خلفنا على المجد الأول ، ومن أمامنا على النصر الأخير وأصبح فى وضع الطربوش على جباهنا مواحٍ من سمو الشمس وشموخ الهرم ، وفى حمرته معان من أشعة الشروق ودماء التضحية وأوراد الربيع وأضواء اللهب فالتبرم به اليوم لايجد له فيما أظن مساغاً من العقل ما دام الرأس الذى يحمله قد ارتفع وامتلأ واتزن .

لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة ، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك ، وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذى ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعَلَم . فإذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لايطول القبعة ، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لاتنتشر فى كل أرض ، وأن نخرج على العَلَم لأنه لايخفق فى كل سماء ولن نجد أهون على الناس من رجل يأنس فى نفسه الضعة فيحتال على العظمة بارتداء ثوب العظيم

ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تئز فى السحاب ، وبواخر

تمخر فى العباب ، ومدافع ترعد فى البر ، وغازات تسطع فى الجو ، ومجلس ظاهر فى العصبة[1] ، وقول نافذ فى السياسة ، ورأى مسموع فى العلم ، ومذهب متبوع فى الأدب ، ووطن يدبره حكمك ويستثمره علمك و يستقل بخيره وميره بنوه ؟

وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالإقرار به ، ومن وطنك بالقرار فيه ، ورضيت أن تعيش حميلة على قوة الخليفة ، وصنيعة على رحمة الدول ، واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو ، وظللت على الغرائز الجافية والحس البليد تكذب لتمرح ، وتغش لتربح ، وتناقش فيفرط عليك صوتك ولسانك ويدك . وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب والعربدة ماخوراً فى مستشفى وتسير فى الطريق مرحاً أو ذاهلا فتصدم المار فيلتفت إليك التفاتة العاتب تُرضيه ابتسامة عاذرة ، فتهجم أنت عليه بالنظرة الشزراء والكلمة الفاحشة . وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين حتى تبلغ محلك فتنحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت ، أو ضاحك السن غير مكترث وتمر بك الآنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخز حسها بالنظر الفاجر ، وتؤذى سمعها بالمنطق الخطل ، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة وللمجتمع كرامة ؟

طهر رأسك يا سيدى من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقية أو لبدة أو أى غطاء شئت ، ترتفع منزلتك فى كل عين ، وتقر هيبتك فى كل صدر ، فإن قيمة الغطاء هى فى الرأس الذى يحمله ،والشعب الذى يمثله ،

(١) عصبة الأمم .

لا فى أصله ولا فى شكله ولا فى لونه والثوب كما يقول الفرنسيون لايصنع الراهب .

أى شرف أرفع للرأس ، واى فخر أملأ للفم ، من أن تذهب اليوم بشرقيتك ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس أرأيتم إلى الجوهر الحر والمعدن الكريم كيف طمرته القرون وصهرته الأحداث وتناهبته الأطماع ثم خرج من عَرَك العبودية ومعركة الحرية باهر اللون ، متميز الشكل ، كامل الخصائص ، حر الوجود ، لاهو ماسة فى خاتم ولا درة فى تاج ،



أدب السندوتش

(١٤ يونيو سنه ١٩٣٧)

لعلك تقول لنفسك سائلاً أو هازلاً ماعلاقة الأدب بالسندوتش ؟

ولو كنت أريد الأدب الذى تعارفه أولو الجد من الناس لأعيا نفسك وأعيانى أن ندلك على هذه العلاقة ، ولكننى أريد الأدب الذى تتأدبه ناشئة اليوم . والسندوتش أو الشطيرتان بينهما الكامخ كما قالها بعضهم متندرا على مجمع اللغة ، لقيمات تشتريها وأنت واقف فى المطعم ، وتأكلها وأنت ماش فى الطريق ، وتهضمها وأنت قاعد فى المكتب ، فلا تجد لها بين ذهول العجلة وتفكير العمل هناءة فى ذوقك ولا مراءة فى جوفك وهذا الضرب من الطعام القائم على القطف والخطف جنى على الأسرة فحرمها لذة المؤاكلة ومتعة المنادمة وأنس العشرة . وجنى على المائدة فسلبها فن الطاهى وذوقها المنظم وجلستها البهيجة وجنى على الصحة فأضعف الشهوة وأفسد الهضم ونقص العافية والثقافة الأدبية اليوم لاتختلف فى سرعتها وتفاهتها وفسادها عن هذا النوع الجديد من الأكل فهى نتفات من الكتب ، ولقفات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث ، ومطالعات فى القهوة أو فى الترام أو فى السرير يلقط الكلمَ فيها النظرُ الخاطف ، كما يلقط الحبَّ الطائر الفزع ؛ ثم نتاج مخضَّر[1] معتسر كجنين الحامل أسقط قبل التمام ؛ وصراخ مزعج فى أذنى هذا السّقط ليستهل[2] وهو مضغة من اللحم للسبخ لاتشعر

---

(١) اختضر الكلأ جزه وهو أخضر ، واختضر الفاكهة أكلها قبل نضجها .

(٢) استهل الوليد : رفع صوته بالبكاء عند الولادة .

ولا تنبض ، وأصبح مآل غرفة المكتب فى البيت كآل غرفة الطعام وقاعة الجلوس فيه ، بنى عليها سندوتش الصحيفة كما بنى على هاتين سندوتش الحان والقهوة .

يقول أنصار السندوتش فى الحياة إن المائدة لاتتفق مع الزمن الدافق والعمل المتصل والتطور المستمر والحركة السريعة ، فإن فى طول الجلوس إليها، وفى قواعد الأكل عليها ، وتعدد الألوان فيها ، واحتفال الأسرة لها ، إضاعة للمال والوقت ، وقتلا للنشاط والحركة ، وجلباً للسقام والمرض .

ويقول أنصار السندوتش فى الأدب : إن قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر ، وأساليب البلاغة عوائق لاتجارى قراءة السرعة ، وبدائع الفن شواغل لاتساعد وفرة الإنتاج والحق الصريح أن آكلى السندوتش أعجلتهم محاقر العمل ومشاغل الرزق عن النعيم الآمن والجمام الخصيب والبيت المطمئن ، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة . وإن قارئ السندوتش صرفتهم وعوثة الطريق وتكاليف الغاية عن اكتساب الملكة وتحصيل الأداة وتوفير المعرفة ، فقنعوا بهذا الفتات المتخاف ، ثم تجشأوا من غير شبع ، وتشدقوا من غير علم ، وطلبوا محو القيود والحدود والمقاييس ليصبح الأدب كوناً عاماً والفن حمى مباحاً ، فيسموا راوى الأقاويل قصصياً ، ووزان التفاعيل شاعراً ، ونهاش الأعراض ناقداً ، وسلاب القرائح نابغة . ولكن الطبيعة التى تحفظ سر الكمال ، وتحمى ندرة النبوغ ، وتبغى بقاء الأصلح ، تأبى إلا أن يظل قراء السندوتش وآكلو السندوتش فقراء ذوى عمل ، أو أغنياء ذوى لهو ، لاتهيئهم الحياة المضطربة إلى زعامة فى أمر ولا إلى نبوغ فى فكرة .

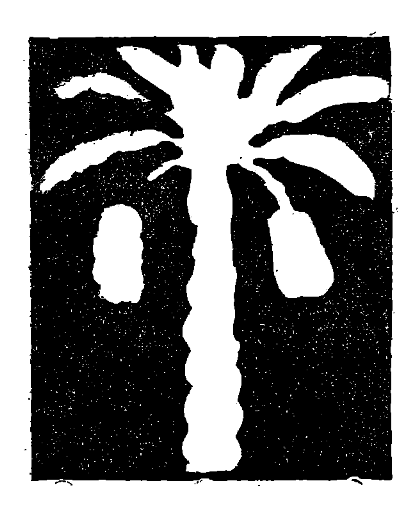
* * *

أثار هذا الموضوع فى ذهنى طائفة من الرسائل النقدية تلقيتها من أقطار العربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول وعبث الشباب ، وتشدد النكير على بعض الأحاديث الأدبية التى تبثها الإذاعة اللاسلكية ، ويعجب فاضل من بغداد وأديب من حلب كيف تمتهن مصر كرامتها فترفع صوتها الأدبى فى العالم من فم شاعر له ديوان مطبوع وذكر مرفوع ، ثم لا يدرى شيئاً فى قواعد اللغة ولا ضوابط العروض ، فكان يقرأ النثر ولا يقيم لسانه ، وينشد الشعر ولا يضبط ميزانه ، حتى قالوا والعهدة عليهم إنه أنشد قصيدة ابن سعيد المغربى ، وهى من بحر السريع على روى الكاف الساكنة ، ففتح الكاف وجعل صدور الأبيات من بحر وأعجازها من بحر آخر

الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل . فإذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين ، وجدت طبقة الأدباء كطبقات الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة لا بالدرس والمعاناة وكما تجد فى هؤلاء من ينشىء المتجر ثم يكله إلى أجنبى ينظمه ويرتبه ، تجد فى أولئك من يؤلف الكتاب ثم يدفعه إلى نحوى يعربه ويهذبه ولا تجد فى تاريخ العربية قبل هذا العصر ، ولا فى تاريخ اللغات فى جميع العصور ، من يحسب نفسه أديباً فى لغة وهو لا يعرف منها إلا مايعرفه العامى الالف . والغرور المتبجح والادعاء السفيه لا يستطيعان أن يحملا الناس على أن يقرأوا السخف ، ولا الزمنَ على أن يبقى على الضعيف .

إن رسالة الأدباء كرسالة الأنبياء فيها عبقرية وجلالة وسمو فإذا لم يكن الكاتب أو الشاعر خليقاً أن يسيطر على العقول والميول بمكانه فى العلم وسلطانه فى الأدب ورجحانه فى الرأى ، كان أشبه بمن يدعى النبوة فى مكة ، أو بمن يمارس الشعوذة فى لندن !

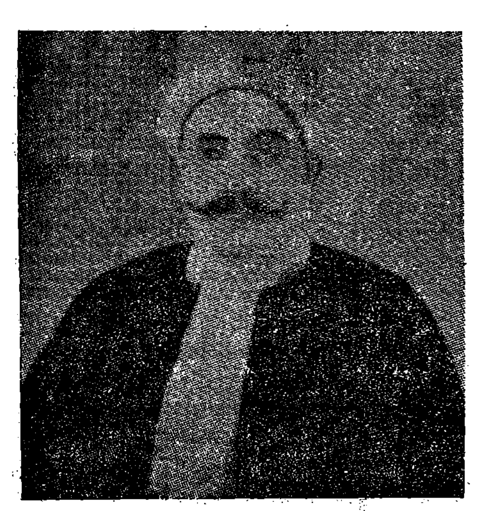
إن المدارس المصرية تعلم اللغة على منهاج غير واضح وإن الجامعة المصرية تبني الأدب على أساس غير صالح وإن الجامعة الأزهرية لاتزال تنفض البلى عن كتب ملتاثة التعبير من مخلفات العجمة إن صلحت لشيء فلن تصلح لتعليم البلاغة فليت شعرى إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع في مصر ؟ أيذهبون وبُطئان مايعوضون على رأى الأستاذ أحمد أمين ، أم يذهبون وسرعان مايخلفون على رأى الأستاذ العقاد ؟



مصطفى لطفي المنفلوطي

(١٢ يوليو سنة ١٩٣٧)

- ١ -



كان في مستهل هذا العصر نفر من الأيفاع الخلصاء يتنقلون بين حِلَق الأزهر كما تتنقل النحل بين الروض ، لا يتشممون غير الزهر ولا يتذوقون غير الرحيق . وكانوا كالفراش رقاق الجسوم خفاف الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابغ المعاصرين أينما تشع . وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودي واليازجي ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطي قد ألمعت ألماعة الموت لتنطفىء كلها متعاقبة في العقد الأول من عقود هذا القرن ، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده . وكان إخواننا اللبنانيون في مصر وفي أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربي على الأدب الغربي فأرونا فنونا من القول وضروباً من الفن لا نعرفها في أدب العرب ؛ ولكنها كانت في الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب ، فأجمناها على نفاستها كما أجمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجُوف والصناعة السمجة والمعاني الغثة ،

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم . ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد مالم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، وما لا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب .

وكان هذا النفر من الأيفاع المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام (الرواق العباسى) فى الأزهر يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون (مؤيد) الخميس ليقرأوا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسباع ، و (طه) مرهف أذنيه ، و (زناتى) مسبل عينيه ، و (الزيات) مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى[1] تلميذه المختار ولكن المنفلوطى كان فى ذلك العهد الذى قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين ، فهو قليل الإلمام بالأزهر ، لايجلس إلى شيخ ولا يأوى إلى رواق . وكان قد هيأ نفسه ليكون كاتباً لا عالماً فلم يجعل همه لامتحان ، ولم يشغل ذرعه بشهادة

وبعد سنتين نشر المنفلوطى مختار مادبج من فصوله فى المؤيد فى كتاب عنونه بالنظرات ، وكان قد حكم فيه على الشيخ عبد العزيز شاويش فى مقاله (طبقات الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له سعد باشا والشيخ شاويش يومئذ كان محرر (اللواء) بعد مصطفى باشا كامل ، ولطه حسين به اتصال ، فحرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها

---

(١) الشيخ محمد عبده .

ذلك النقد الغاضب الصاخب فى ثلاثين مقالة ونيفاً لم تدع سبيلا إلى التعارف بيننا وبينه .

ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطى وهو نهب مقسم بين أقلام الطلبة وفى سنة ١٩٢٠ ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب (العبرات) يومئذ قد بلغ الغاية فى الشهرة والأدب فرغب فى أن يرانى . وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا فى داره . ورأيت المنفلوطى لأول مرة فرأيت رجلا مجتمع الأشدّ ، مربوع الخلق ، ممتلىء البدن ، غليظ الشارب ، حسن السمت ، لاتلحظ على وجهه المطهم المصقول مخايل الفنان ولاسهوم المفكر ، ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سريًا من عامة السراة فى الصعيد لاحظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم . ثم داخلته فتكشف لى عن ألمعية أصيلة تستتر عادة بين الحياة والحشمة . ووثق الود بينى وبينه توافق المزاج المنقبض والطبع الحيى والوجود المنعزل ، فدرسته على ضوء ما أعلمه من صفات نفسى فلم أجاوز الحق فى تصويره وتقديره .

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لاتلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القدامة . كان صحيح الفهم فى بطء ، سليم الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس فى مظهر العيى الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية فى الأسرة ، ونظام التعليم الصامت فى الأزهر ، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس . ولكنك إذا جلست إليه رأساً إلى رأس ، تسرّح فى كلامه وتبارى لسانه وخاطره فى النقد الصريح والرأى الناضج والحكم الموفق والتهكم

البارع ، فلا نشك فى أن هذا الذى تحدثه هو المنفلوطى الذى تقرأه . ثم هو إلى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، نفاح اليد ، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته .

— ٢ —

كان مولد المنفلوطى كمولد الرافعى فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتى سنة . ولكنه كان خلفة لتبعتين مختلفتين : فأبوه عربى صريح النسب إلى عترة الحسين ، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة الجوربجى . ونهج المنفلوطى سبيل آبائه فى الثقافة ، فحفظ القرآن فى الكتاب ، وتلقى العلم فى الأزهر ؛ إلا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نبوة فى بعض الحالات على إرادة الوراثة والنشأة ، فهم يصدفون فى منتصف الطريق عن دروس الفقه والأصول والعقائد ، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لاتسيغ أساليب كتبها المعقدة ، وإما لأن طباعهم المدنية الحرة لاتطيق الحياة الدينية المقيدة :

فكان السيد مصطفى على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لايلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب ، فهو يحفظ الأشعار ، ويتصيد الشوارد ، ويصوغ القريض ، وينشىء الرسائل . وتسير له شهرة فى الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ الإمام ويرسم له الطريقة المثلى للغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطى من قرباه إلى الإمام صلته بسعد باشا ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تفوقه لدى (المؤيد) والإمام المجتهد محمد عبده ، والسياسى الخطيب سعد باشا ، والصحفى الكاتب على يوسف ، كانوا أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد أبيه . وأولئك

الثلاثة كانوا على ماينهم من تفاوت فى نواحى النبوغ أنهم رجال العصر الحديث لحقيقة الأدب وأشدهم حدباً على بؤس أهله .

كان المنفلوطى لايعمل جاداً لشهادة الأزهر ، وإنما كان يعتمد فى نيلها على جاه الإمام ، كما كان يعتمد من هم على شاكلته من أبناء الفقهاء على وساطة والديهم . والإمام المفتى مفسر وحى الله وشارح فن عبد القاهر ومعيد الأدب إلى الأزهر ، كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه لابمقياس أبى حنيفة . فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطى فيه على سنده وأمله ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن فهب يبتغى فى (المؤيد) الوسيلة إلى النباهة والنجح . وأوى من الوزير سعد باشا حامى النبوغ إلى ركن منيع ، فخلق له منصب التحرير فى وزارة المعارف ثم فى مجلس الشيوخ فضمن به رغد العيش ووفرة الإنتاج حتى اختار الله له ماعنده .

* * *

كان المنفلوطى أديباً موهوباً حظ الطبع فى أدبه أكبر من حظ الصنعة ؛ لأن الصنعة لاتخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة . والنثر الفنى كان على عهده لوناً حائلا من أدب القاضى الفاضل ، أو أثراً ماثلا لفن ابن خلدون ، يتمثل الأول قوياً فى طبقة المويلحى وحفنى ناصف ، ويظهر الثانى ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ولطفى السيد .

ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ؛ إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره ، بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال . والفرق أن بلاغة (النظرات) مرجعها إلى القريحة ، وبلاغة (المقدمة) مرجعها إلى العبقرية .

أعلم أن المنفلوطى تأثر فى القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفى الحديث

بجبران ونعيمة ؛ ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الإلهام والإيحاء ، لا دخول التقليد والاحتذاء ، فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج ، وله من الآخرين جدّة الموضوع وطرافة الفكرة . ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحداً من أولئك جميعاً .

عالج المنفلوطى الأقصوصة أول الناس وبلغ فى إجادتها شأواً لا ينتظر من نشأة كنشأته فى بيئة كبيئته . وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالها فنطرب للقصة على سذاجتها ، أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته . وسر الذيوع فى أدب المنفلوطى ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل العيوب ، فى أسلوب طلى وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة . فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطى لم يكن عالماً بلغته ولا بصيراً بأدبها لذلك نجد فى تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ فى غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالا مباشراً بعلوم الغرب لذلك تلمح فى تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . فإذا قدر الله لأدب المنفلوطى أن يفقد سحره وخطره فى أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله يجعله فى النثر كالبارودي فى الشعر ، وكفى بذلك عنوان فضل وخلود ذكر . أما مسألة الأدب الباكى والأدب الضاحك ، أو الأدب الضعيف والأدب القوى ، فمغالطة مريضة من النقد سنعرض لها فى فرصة أخرى .

أى زمان هذا !

(٥ أكتوبر سنة ١٩٣٧)

فرغ الشيخ عثمان من قراءة « الأهرام » ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط : « أى زمان هذا ؟ » هل أتى أمر الله وقامت القيامة ؟ !

وكنا قد خليناه لنفسه ساعة شغلها بالنظر فى الجريدة ، وشغلناها نحن فى شأن من شئونه . فلما تحرك هذه الحركة العصبية ، وقال هذه الجملة التعجبية أقبلنا عليه نستفهمه الأمر ونناقله الحديث والشيخ عثمان هذا فقيه نابه من فقهاء الأزهر القديم ، قضى عمريه[1] فى خدمة الدين وعلومه ، وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والمنام والملبس ، فلم يشك داء ولم يشرب دواء قط !

أولاده مثقفون مترفون ، يشغلون المناصب الرفيعة ، ويسكنون المنازل الأنيقة ، وينعمون بمتع الحضارة ؛ ولكنه لا يزال هو وزوجه الشيخة يعيشان فى دارهما العتيقة فى حى الباطنية على النمط الأول : يأتدمان بالفول ، ويتفكهان بالتمر ، ويستصبحان بالزيت ، ولا يخرجان — إن خرجا — إلا لصلة رحم أو لزيارة ضريح . والشيخ لا ينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة ، ولم يغش قهوة ، ولم يشهد حفلة ، ولم يتعلق بشىء من أسباب الدنيا إلا بما لابد منه لسلامة البدن والدين فلولا أنه يقرأ

(١) العمران ثمانون سنة .

الصحيفة كل صباح ، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء ، لكان بينه وبين هذا العالم المتغير ، « كمال الانقطاع » . وهو اليوم يدخل فى حدود التسعين من سنيه قطيع القيام قعيد الغرفة ، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب . ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر ونقاء الجسم وفراغ البال ، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضا بقسمة القدر بلغه أن قوماً من العلماء يسكنون فى أحياء الأغنياء ، ويستطيلون على الناس بالجاه والثراء ، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاجة بعشرة جنيهات ، فاستهال الخبر وتعاظم الأمر ثم بكى وقال : ياحسرتا على الدين والعلم ! إن العالم إذا امتلأت عينه عن الدنيا فرغ قلبه عن الدين !

سأله أحدنا : ماذا قرأت يامولانا فى الجريدة فأنكرته على الزمان ؟ فأجاب بلهجته تلك :

« حرب داخلية فى الغرب ، وحرب خارجية فى الشرق ، وحرب عالمية تترقب فى البحر ، وتتوثب فى البر ، وتتمرى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة ، ثم سقوط الفرنك فى سورية ، وحبوط السياسة فى فلسطين ، وهبوط القطن فى مصر ، وقنوط الناس فى كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة ثم وباء الدنج الذى يؤازر الملاريا والأنفلونزا على خمود الحياة وشل الحركة ! لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية ، ولا نسمع بالمرض إلا قبيل الموت المرغوب ، ولا نعرف من الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات ، فيأمر بتسوية التلال ، وكنس الأزقة ، ورش

الحيطان الخارجية بالجير ! وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح فى فيض من نعيم السلام والدعة ، لا يُرمضها حقد على إنسان ، ولا يقلقها حرص على شيء . وكان الناس لا يعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف . وكانت السلامة أدوم ، والأعمار أطول ، والأرزاق أيسر ، ورحمة الله أقرب ، وأمة محمد بخير .

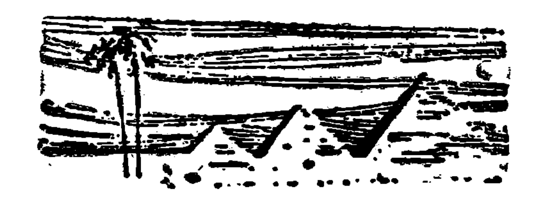
أما اليوم فكأنما أصاب الناس سعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب ، وهمّ ناصب ، وطمع شره ، وتنافس دنيء ، وعداوة راصدة . ثم فشا الطب ففشا المرض ، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة ، وفاض الخير وغاضت البركة ، واستبحرت المدنية المادية نخفت بين ضجيجها الآلى صوت الضمير ، وهلك فى عبابها المزبد سلام النفس . وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بنى الإنسان غرائز الحيوان ويهيئا لهم حياة الجنة التى حرمتهم إياها رذيلة الطمع فهل رفع الإيمان من الأرض حتى عم الناس هذا البلاء ، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء ؟ » .

فقلت له : يا شيخنا ! كان عـــدد الناس فى صدر أيامك قليلا ، وكان خير الله بالنسبة إليهم كثيراً ؛ فكانت الحياة وادعة ، والنفوس قانعة ، والجوارح عفة ، والجوانح سليمة وبراءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة ، وترفه لغوب العيش بالمعونة . وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم ، ويصد الرذيلة عن الروح فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة ، ومدت أسباب الأمن ، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة ، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة ، فتزاحم الناس على موارد

الرزق ، وتكالبوا على مواد العيش ؛ ثم أيأستهم هذه الدنية من عزاء الدين ، وشككتهم فى ثواب الله ، وأرابتهم فى غناء الخلق ، فأصبحوا فى حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأوابد الوحش ، لايقودهم إلا غريزة الحى ، ولا يحكمهم إلا قانون الحياة . والله وحده يعلم كيف يكون المصير !

فقال الشيخ عثمان فى تسليم المصدق واستسلام المؤمن :

« الأمر لله يا بنى ! لايقع فى ملكه إلا ما يريد . نسأله تعالى أن يبقينا فيكم على سلامة ، ويخرجنا من دنياكم على خير »



الخريف في الريف

(أول نوفمبر سنة ١٩٣٧)

دعنا الآن من القاهرة! فبشرها الباسم قد استسرّ في قطوب الطبيعة، وشجرها الوارف قد اقشعرّ من[1] رياح الخريف، وهدوؤها الشاعر قد غاب في صخب الفتنة. وكأنما خفقت في جوها المستنير الصافي أبابيلُ سود من طيور الليل!

دعنا الآن من القاهرة! فقد أصيب علمها بداء السياسة، ونكب رأيها بتدليس الهوى، وامتحن خلقها بشهوة المنفعة، وكأنما فرغ القادة من جهاد الأجنبي ليشوى بعضهم بعضاً في حريق الوطن!

دعنا الآن من القاهرة! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا في سكون الريف الآمن، وفي كنف الفلاح المؤمن، حيث الهوى جميعٌ والخريف ربيع والطبيعة الكهلة رُواء وغناء وسحر!

يقول هوجو: «إن الخريف هو الربيع أنبعث من القبر ناساً حُلاه وحلاه» ولكن الخريف للمصرى في الريف هو الربيع الحق في نضرته وزينته وعطره. فبينا ترى الحقول المتصلة في بياض الدمقس[2] أو صفرة النضار يجردها سبتمبر من القطن الحريرى الأشوك والرز المسجدى المائج[3]، إذا بها في خضرة السندس أو زرقة اللازورد، يكسوها أكتوبر أعواد الذرة الغنّاء وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر[4]، فأينما

---

(١) اقشعر النبات: تخشن وتقبض وتغير لونه؛ (٢) الدمقس: الحرير الأبيض
(٣) المائج من النبت: اليابس.
(٤) أزر الزرع بعضه بعضاً: تلاحق والتف فهو مؤزر.

أدرتَ بصرك لا تجد إلا رياضاً شجراء من شراب وحَب ، ومروجاً فيحاء من زهور وكلأ . ثم ترى النيل فى أعقاب فيضانه كذوب التبر ينساب هادراً فى الترع والقنوات ، فيجعل من ضفاف الجداول وحفاف الطرق وحواشى الغيطان سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب . وتنزل على الفلاح المكدود سكينة الرضا والأمل ، فينقلب شاعراً يتهادى فى ظلال الذرة الخفاقة ، على مدرجة الطريق المخضوضر ، وفكره مستغرق فى الله الذى يضع البركة فى غيطه ، أو فى المرأة التى تجلب السعادة إلى بيته .

ها هو ذا بعد صيفه الجديب المجهد يستنشى نسيم الراحة بين أولاده على مصطبة الدار ، أو بين بهائمه على رأس الحقل . ويتربص بقطنه المخزون الثمنَ الربيح ، ليقضى دينه فيستريح ، ويزوج ابنه فيفرح ثم يكسو عوارى الأبدان (بالدبلان) و (الشيت) ، ويمحو مرارة الأفواه بالرمان والبلح . وترى القرية بذكورها وإناثها تعيش فى فسحة هذا الأمل ودعة هذه الحياة وبهجة هـــذه الحقول فى فيض من الرخاء والغبطة لا يسممه كيد ولا تكدره منافسة .

خريف الريف وربيعه يتفقان فى الخصوبة والبهجة ، ويختلفان فى الحيوية والطبيعة . فبينما تجد ربيع إبريل ومايو مواراً بالحياة ، فواراً بالعاطفة ، هداراً بالهتاف ، يجعل من كل حى حركة لا تنى ورغبة لا تخمد إذ تجد ربيع أكتوبر ونوفمبر ساجى النهار سجسج الظل ساكن الطائر ينفض على كل امرىء دعة الطمأنينة وسكون التأمل وروعة العبادة . فالمشية وئيدة الخطوات ، والوقفة بعيدة النظرات ، والجلسة طويلة الصمت ، والشبان والشواب يتبادلون التحايا بغمز العيون وافترار الشفاه ، كأنما هم وهن نشاوى من رحيق عجيب يعقد الألسن ولكنه ينعش الروح ويوقظ القلب ويبسط المشاعر !

أى جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح الخريف بقزعات[١] من الغيم الرقيق كأنها القطعان البيض ترتعى فى المروج الخضر ؟ هـذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التى تتعاقب عليها بتعاقب الساعات ، تنطبق على أرض كرقعة الفردوس لا ترى فيها خلاء ولا عراء ولا وحشة ، ولا تسمع فيها لغواً ولا تأثيما إلا هتفات الطير الجاثمة على أعذاق[٢] النخل اليانعة وسنابل الذرة النضيدة ، وإلا شدوات الرعاة قد كوموا الحشيش أمام الماشية وتحلقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها أمطار الذرة[٣] وصغار السمك ، ثم يأكلون ويغنون فى لذة وبهجة !

* * *

عهدُنا بالريف فى أيام الخريف أن يـكون بنجوة من الهم وسلامة من الـكآبة ، فالأهراء طافحة بالحَب ، والمخازن مفعمة بالقطن ، والغيطان كاسية بالزرع ، والجيوب غنية بالمال ، والنفوس رخية بالرجاء ، ولـكن ما بال فتيان القرية وفتياتها على غير ما نعهد ؟ يمشون ساهمين ، ويقفون واجمين ، كأنما غاب عن كل عين حبيب ، ومات فى كل نفس أمل !

ألا تراهم يا (حسن) يدافعون الأسى عن وجوههم ببسمات مـكذوبة لاتخدع النظر عن الـكمد الباطن ؟

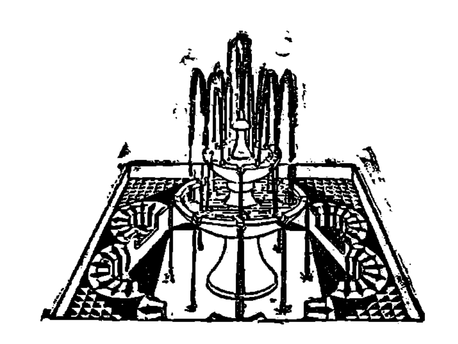
— ماذا يصنعون ياصديقى والدائن يقتضى (القسط) ، والصراف يطلب (المال) ، والمالك يريد (الإيجار) ، والأسرة تبتغى (الـكسوة) ، والقطن وهو سداد هـذا كلـه يصبح عقدة المشكلة وغَلَق[٤] الأزمة ؟ ثمنه البخس

---

(١) القزعات : قطع من السحاب متفرقة صغار .
(٢) الأعذاق جمع عذق : وهو من النخل كالعنقود من العنب .
(٣) الأمطار . جمع مطر بضم الميم وهو كوز الذرة .
(٤) الغلق محركة ما يغلق به الباب ويفتح بالمفتاح

لا يفى بتكاليف زرعه ، بله مايحمل عليه من الأسباب ويناط به من المنى . ها هم أولاء بنوهم وبناتهم كانت أحاديث أحلامهم أن يتزوجوا فى هذا العام الذى يتزوج فيه مليكهم المحبوب ، تفاؤلا بطالعه وتيمناً بجده ، فرد هذا الكساد المؤنس أحلامهم أضغاثاً وأطماعهم وساوس . فكيف تطمع بعد ذلك أن ترى البسمة التى تعهد ، وتسمع الأغنية التى تحب ؟

فقلت له والأسف يغلب على صوتى وكلامى . مهما يكن من الأمر فإن خريفكم أجمل من ربيع الشعراء ، وعبوسكم أنبل من بشر الكبراء ، وغيمكم أفضل من صفوة القاهرة .



محمد فريد

(٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦)



ما كان أحقنا ونحن نجنى ثمرات الجهاد ، ونعقد أقواس النصر ، ونحيي بطولة الزعماء ، ونحيي ذكرى الشهداء ، أن نضع إكليلا من الزهر الندى على قبر الشهيد الأول محمد فريد !

لقد استشهد فى مثل هذا الأسبوع الذى وقعت فيه موافقة البرلمان على المعاهدة واحتفال الشعب بذكرى الضحايا فكيف غفل اللسان الذاكر وذهل الفؤاد العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسب ؟ وما أقل التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لايبغون ثراء ولا دعة ، وهاجروا فى سبيل الحرية لايجدون مراغماً ولا سعة ، ولفظوا أنفسهم فى منازح الغربة ومضاجع البؤس حسرة لحسرة !

هذه دورهم ، كان للعزة فى أفيائها مراد ، وللنعمة فى أفنائها ربيع ، فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاجىء وتعاقب عليها هالك بعد هالك ! . . . وهذه قبورهم ، تناوحت عليها سواف الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها هالك بعد هالك ! وهذه ذكرياتهم ، ملأت المسامع وعمرت القلوب حينا من الدهر ، ثم أوشكت اليوم لكنود الناس أن تغوص فى لجج النسيان والعدم ! . . . وهذه أرواحهم ، كانت فى المحن السود تباكرنا بالعزاء وتراوحنا بالأمل وتغادينا بالمعونة ، ثم أقبلت ساعة النصر تخفق مخمورة مع العلم ، وتصفق مؤيدة مع البرلمان ، وتهتف مبتهجة مع الأمة ، ولكنها لم تسمع وا أسفاه من بادلها تحية برحمة ، وجازاها وفاء بدعاء ! . . .

إن الشريعة تنسخ الشريعة ، والفكرة تطرد الفكرة ، والجديد يخلف القديم ، ولكن الجهاد فى سبيل الوطن غاية ، لكل جيل فى طريقها خطوة ، وبناية ، لكل عامل فى إقامتها حجر والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل . والمثل العليا من الرجال قليلة فى عهدنا الحديث ، فما أولانا أن نضمن بهم على الفناء ، فننصب تماثيلهم فى كل ميدان ، وندرس تاريخهم فى كل معهد ، ونرفع ذكرهم فى كل مناسبة .

* * *

واحسرتا على حظ فريد من أمته ! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوته وصبر على المرض ، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد ؟ ثم كان نصيبه منها برا لا يسعف ، وتقديراً لا يدوم ، وذكراً لا يتصل ، وقبراً لا يعرف !

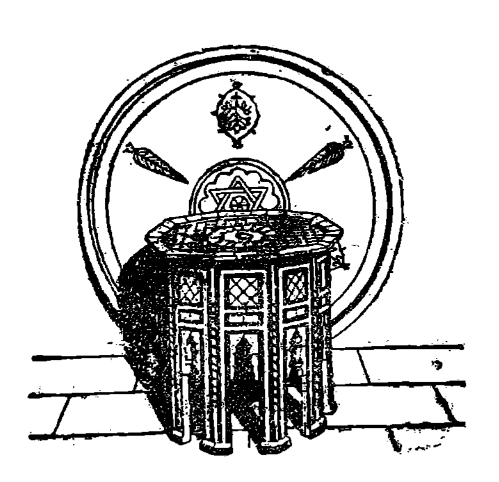
كان فريد — برد الله ثراه وخلد ذكراه — سليل مجد وربيب نعمة

وحليف جاه وكان من الجائز أن تكون سبيله فى الحياة سبيل كل أمير وكل كبير : يغتصب ثروته من عرق العامل ، وقوته من دم الفقير ، ومسرته من دمع البائس ، وجبروته من ظلم الضعيف ؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادى الفطرة ، فدخل به سواد الشعب وقرَّنه فى أغلاله وشركه فى ذله ، فدفعته الجبلة الحرة إلى أن يتطوع لإنهاضه بجهده ، ويتبرع لإنقاذه بماله ثم اتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل ، فكان منه مكان أبى بكر من محمد رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتية ، ثم خلفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية ، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد ، ويصيح فيما يقارب الجماد ، حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين. فهاجر ناجياً بحريته وفكرته ، ولاذ بالآستانة يتغنى بها متنفساً لآمال مصر ، ومضطرباً لعزائم الشباب ، فكان فى هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والحفر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث فى قلوب المصريين المهاجرين والطلاب الضوء والحرارة .

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربية فى المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها المجهولة مغنم وكأنما دس عليه أهل الإفك ، أو عارضت أطماعه أطماع الترك ، فائتمروا به ليحاكموه ففر خفية إلى برلين وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية فى الشرق ، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة لهم ليعيش وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة . وانقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر ، فعمل عمل الأجير ، وعاش عيش الفقير ، يتبلغ بما يمسك الرمق ، ويكتسى بما يستر الجسم ، ويأوى إلى غرفة

فى بعض السطوح يكابد فيها المرض والفقر والوحدة والغربة ، حتى أدركه الموت البائس الخامل وهو فى غيابة برلين المقهورة الباكية ، ليس فيه إلا فم يهتف للحرية ، وإلا قلب يخفق لمصر !

إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة والتضحية المؤمنة بذل فى سبيل الوطن ما بذل عثمان بن عفان فى سبيل الدين ، ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات عثمان شهيداً غير مفهوم . ولكن الله جازى فريداً بما جازى به عثمان : جعل اسمه للخلود وروحه للخلد !



الصيام بين عهدين

(١٥ نوفبر سنة ١٩٣٢)

التجدد أو التطور يصيب كل شيء فيجعله أعلى عال أو يرده أسفل سافل !

كان عهدنا بالصوم قبل اليوم أن يكون عصياناً للنفس في طاعة الله ، وحرماناً للجسم في مَبرّة الروح ، ونكراناً للذات في معرفة الناس . فالجوارح مغلولة عن الأذى ، والمشاعر مكفوفة عن الشهوة ، والخواطر مستغرقة في الدعاء ، بين نهار كله إحسان وتأمل وتصدّق ، وليل كله قرآن وتواصل وتهجد . فلا الغنيّ يهيج به البطر ، ولا القوى تفرط عليه القدرة ، ولا الفقير يتجهم له الحرمان ، وكأنما زالت الفروق بين الناس فأصبحوا سواسية في نعمة الدين وسعادة الدنيا !

كان الرجل الدنيوى الشهوان إذا أقبل عليه رمضان تاب وتطهر ، فلا يفتح فمه لهجر ، ولا عينه لفحش ، ولا أذنه للغو ، ولا قلبه لخطيئة . يقضى يومه مضطرباً في المعاش على أفضل ما يكون الخلق . فإذا كان تاجراً لا يدلس ، أو صانعاً لا يزوِّر ، أو عاملاً لا يفرِّط ، أو معاملاً لا يخون ويحيى ليله في استماع القرآن ومواصلة الإخوان ومودة ذوى القربى . فإذا ما انقضى بعض الشهر بدا عليه شحوب الصوم وذبول الصلاة وكلال السهر وخشوع الورع . فلو كنت حاضر ذلك العهد لرأيت رمضان عيداً قومياً ودينياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده ، ويوثق عرى الحب بين الشعب وأفراده .

ذلك عهدنا برمضان الأمس أما رمضان اليوم فبحسبك أن أصف لك

حياة من حيوات القاهرة فيه ، وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب الذى آل إليه شهر القرآن والعبادة .

هى أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر ؛ ولكنها استجابت لنوازع التجديد الأبله استجابة الإمعة ، فأصبحت تمثل ماعسى أن يكون بين التقاليد والتقليد من التناقض للضحك .

(ميم) باشا يتبوأ منصباً من مناصب الدولة الرفيعة . بلغه بعد حياة طويلة كادحة ، تبتدىء من القرية الحقيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة ، وتنتهى إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المرموق . فهو وزوجه من عهد ، وابناه وبناته الثلاث من عهد والتفاعل بين هذين العهدين هو الذى أحدث هذه الظاهرة التى نجدها اليوم فى أكثر بيوت القاهرة . لابد لهذه الأسرة أن تصوم ذلك حكم النشأة وسلطان العادة ولابد كذلك لهذا الصوم المتزمت الجافى أن يتسع باله وترق حواشيه إذا ما نزل على هذه الأسرة فهو يسبل جناحيه الرؤومين على أسرتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متوع النهار ، ثم يمس بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن ، ويهب الوالدان على زقزقتهن فى غرف الزينة وطنف القصر ؟ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأسرة لينظر فى مقترحات البطون على إدارة المطبخ ؛ فهذه تقترح ، وتلك تعترض ، وهذا يطلب لوناً ، وذلك يطلب آخر ، والباشا يدير هذا الجدل الشهى إدارة موفقة ، فيعدل أو يكمل أو يؤجل ، حتى ينتهى النقاش بثبت حافل بالمشهيات والمقليات والمشويات والمحشوات والفطائر مما لا تجد بعضه فى مطعم كبير .

يتغير هذا الثبت كل يوم فيطول أو يقصر ، ولكن لونين لا ينالهما تغير

ولا يعصمها نقص : لوناً من الأرانب مطبوخة في النبيذ يحبه الباشا ، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الآنسة الكبرى (سين) !

هاهو ذا الباشا البطين يتذبذب وئيداً بين المطبخ والمائدة كأنه رقاص الساعة ، في يده مسبحته الكهرمان الصغيرة يهش بها على الطهاة والخدم ، وشفتاه تختلجان من غير كلام ، وعيناه تتحركان من غير نظر ؛ حتى إذا دنت للغرب خفت حركته واحتد نشاطه ، فأقبل على المائدة ينسق الآنية ، وينضد الأكواب ، ويسكب أمام كل آ كل الشراب الذي تعوده فهنا قمر الدين ، وهنا منقوع التين ، وهنا الكينا ، وهناك القرمود ، وهنالك ماء إفيان ، وأمامه هو شراب صحي فاخر من صيدلية (ينى) ! ثم يدبج الخوان المخملي بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ ، ويرتب الألوان مع الغلام عَلَى أصول مقررة في الفن . ثم يسرح بعد ذلك بصره في السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعجب ! فيخرج إلى الردهة ، ومن الردهة إلى الشرفة ، فيلقى النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة ، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأهب للسهرة الراقصة ، فالحلل تُنتقى ، والحلى تختار ، والشعور ترجّل وتموج ، والأظفار تدرّم وتصبغ ، والحواجب تدقق وتخطط ، والخطوات واللفتات والبسمات تتكرر أمام المرايا لتُراض وتتقن ، حتى إذا نطق مدفع الإفطار من المذياع أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة . ثم يجلس الباشا بين بنيه ويضع المسبحة الملومة مكان القدح المجهول ، ثم يرفعه إلى فمه وهو يقول : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ! » ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره الفاره ! فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا في رمضان !

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح ! ولم يكد ينفلت منها حتى أخذ يعد مقصف الليلة من النقول المختلفة ، والأشربة الهاضمة ، والأزهار الجنية ، وأخذت الأسرة زينتها التامة الكاشفة ، واجتمعت فى البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وإخوتهن من الأيفاع والشباب ، فيعزف البيان ، ويخفق العود ، وتشدو الكواعب ، ويهزج الفوتغراف ، ويدور الرقص على نمطيه الشرقى والغربى ، فتلتف الأيدى على الخصور ، وتلتصق الصدور بالصدور ، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور . ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور !

هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس . فمن عرفها فسيقول قصر ، ومن جهلها فسيقول بالغ . والحق أنها صورة الواقع لايعوزها إلا تسمية الأسماء وتعيين المنزل .



ثورة على الأخلاق

(٢٢ نوفبر سنة ١٩٣٧)

— ما رأيتك يا خالد على هـذه الحال منذ عرفتك ! أين السماحة التى تفترّ فى ثغرك ، والغبطة التي تشرق فى صدرك ، والرضا الذى كان يجعل من حياتك نموذجاً لعلماء الدين وجهابذة العلم وفلاسفة الخلق ؟

— ماذا أصنع ياصديقى والناس أصبحوا يشككوننى فى مزايا الأخلاق وقيم الفضائل ؟ كنت أضطرب فى دائرة ضيقة من العيش فيها كل ما فى الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل ، وسرور القلب بالإخوان ، ومتاع العقل بالكتب ، ونشاط الجسم بالعمل ، وليس فيها البحران الذى يحدث من حمى الهموم ، ولا الجحيم الذى يشبّ من تحاسد الخصوم ، ولا اللجب الذى ينشأ من تنافس المجتمع وكنت وأنا فى هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التى سنها الأخلاقيون لتهذيب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته ، قد استطاعت على مر القرون أن تخفت فى دمه صوت الحيوان ، وأن تلائم بين موهوب الطبع ومكسوب العادة من تناقض الرأى وتعارض الهوى ، وأن تجعل من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس ، فيكون بها مقياس السؤدد وفيها سبب الرقى ومنها وسيلة النجاح . نعم ياصديقى ، كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون للمدنية معنى غير الثقافة ، وللثقافة مدلول غير الكفاية ، وللكفاية نتيجة غير الفوز ، حتى ألجأتنى طبيعة عملى العام إلى توسيع هذه الدائرة ، فوسعتها بمقدار ما استلزمه العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة ، فإذا كل ما قرأته زور ، وما تخيلته وهم ، وما اعتقدته

باطل . ماشيت العامة على منهج الدين فلقيت الكفر ، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور ، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة . فذهبت أفتش فى الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية .

هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها ، وله المقعد المرفوع فى البرلمان ، والصوت المسموع فى الحكومة ، والأمر النافذ فى البنوك ؛ وهو رجل لايزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة .

وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة ، وله على أغلب الأمردين ، وعلى أكثر البيوت اختصاص . ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنق الموتور بأنه الربا الذى لا يحفل القانون ، والغش الذى لا يبالى الفضيحة ، والاختلاس الذى لا يخشى الله ، والبخل الذى لا يذكر الموت .

وهذا الموظف فلان يملك القصر المنيف فى أجمل بقعة ، والسيارة الفخمة من أعلى طراز ، والمرتب الضخم من أول درجة ، وله الوصل والقطع فى أمور الناس ، والمنح والمنع فى أموال الدولة ، فهل بلغ ما بلغ بعلمه ؟ إنه لا يحمل غير الشهادة الثانوية ! هل نال مانال بكفايته ؟ إنه لا يحسن غير الإمضاء فى الموضع الذى يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة ! إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التى تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين ، فرأسه ذو وجهين ، ولسانه ذو شفتين ، وضميره ذو بالين ، وشرفه ذو رأيين ، يدارى ويجارى ، وينافق ويمالق ، ويهان فيغضى ، ويستباح فيبيح . وهو متفرق الأحاسيس فلا تجتمع له عاطفة ، متنافر

المنازع فلا ينسجم له رأى ، معوج المسالك فلا يستقيم له مذهب :

وهذا الأستاذ فلان يأكل فى صحاف الذهب والفضة كالنابغة ، ويخطر فى مطارف النعيم والجاه كابن العميد ، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبد الملك ! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطىء القياس . ولكن الأستاذ نجح وا أسفاه لأنه باع العلم بالسياسة ، واشترى الدنيا بالدين ، واضطرب فى مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متنه ، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة !

ثم رجعت أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لاتخرج عن حدود الفضائل التى تمشقها ابن آدم منذ أدرك ! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود ، كل أولئك عوائق عن درك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة . وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقرى أحوال المصابين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين فى الديوان ، وأخسر المتعاملين فى السوق ، وأضعف المتنافسين فى المجتمع ؟

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا فى الروايات والقصص أما التاريخ الذى يسجل الواقع ويروى الحق فهو دامى الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أوذوا فى سبيل الدين ، وقتلوا فى خدمة العلم ، ونكبوا فى مرضات الحق ، وشقوا فى حب الفضيلة .

فهل نقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لاتزال عدة النجاح وطريق السعادة ؟

فقلت له : أما أنها طريق السعادة فنعَم ونعَم وأما أنها عدة النجاح فلا أجد فى نفسى الآن قوة على تأييده ، لأن لى فى بعض (المصالح) مسألة لم يفسدها إلا رعايتى الخُلق ، ولأن لى فى بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقِّدها إلا محافظتى على القانون . فليس لك علىَّ إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق ، ليردوا عليك ما كذب من قولك ، أو يردوا إليك ما عزب من عقلك .



رجل سعيد

(٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧)

وعدتك ياخالد أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيه مايبرد غيظك ويرد حلمك ويقر بالك . وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرده :

دخل عليّ هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعنى حين رأيت ما عليه من سمت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما فى يدى وأفرغ له .

— نعم ياسيدى — !

— أنا رجل من أهل . . . قرأت ما كتب فى « الرسالة » عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية فى الإنسان ، فساءنى وايم الله أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادى ، وأن تعترك الظنون حتى يشك المؤمن . وليس لى قلم أضعه بين هذه الأقلام فيدلها على موضع الحق ، أو يعينها على مقطع الحكم ، فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالا حياً يقرر ودليلاً ناطقاً يؤيد .

وفى الحق أن الرجل كان فى بزته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المتزنة ، كأنما ينطق عن وحى الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله فى هذا العصر الآلى الأصم ؟

فقال . لا أظن وإنما أعتقد . لا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفى قول الرسول الكريم : « حفت الجنة بالمكاره » و « القابض على دينه كالقابض على الجمر » ما يصدق ذلك ؛

ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة ؛ فإذا أوف [1] غرسها فى النشء ، وضعف أثرها فى المجتمع ، دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة .

أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة وقد جمعت مالى الوفر من ذلك الطريق السوى الذى ألزمنى إياه أبى منذ الصغر . فليس فى نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب . ورثت عن أبى الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين . ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت مابينى وبين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بينى وبين الناس ثم أحصنت نفسى بالزواج الباكر فوهُبتُ البنين ، وعصمت شهوتى من المُتع الحرام فرزقت العافية ، وطهرت قلبى من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة . ثم جهلت البنك فجهلت الربا والدين ، وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ، ووضعت فضل مالى فى أيدى ذوى الخلق من التجار يحفظونه لى ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضى فى ذوى الدين من الزراع يقومونها على ويستغلونها عليهم ، ومسست بالمؤاساة والرحمة قلوب البائسين حولى فسلت منهم الضغينة . ثم كان لى فى كل مبرة سهم ، وفى كل مستشفى سرير ، وفى كل مشروع وطنى يد . فأنا أمشى فى الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد إلى مالى لأنه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان فى عرضى لأن جاهى موقوف عَلَى المتعطل والمظلوم ، ولا يأتمر أحد بحياتى لأن وجودى أمان للشقى من البؤس والجريمة .

أما سعادتى فى نفسى وولدى فهى أعظم وأتم من سعادتى فى عملى ومالى : أجدنى كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة ؛ وأرى فى كل نظرة وفى كل بسمة وفى كل كلمة معانى

---

(١) أوف الزرع : أصابته آفة

لاتتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتى فى نفسى ، وتجمل دنياى فى عينى ، ويغمرنى شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لأن حياتى لها هذا الخطر فى حياة بعض الناس . ثم أنظر إلى بَنىَّ الثمانية فأرى فى وجوههم صورتى ، وفى صدورهم محبتى ، وفى شعورهم عاطفتى ، وفى ميولهم رضاى ، وفى آمالهم مناى ، فأقبل يدى ظاهراً وباطناً وأقول لنفسى : احمدى الله يا نفسى واشكريه فإن علياً لن يموت ، وإن ثراءه لن يبيد ، وإن بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدى بفضل الخلق . فإذا كان قد تهيأ لمثلى على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق فى أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان ، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته ، وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة فى بنيه بالتربية وفى أهله بالقدوة وفى مواطنيه بالتقليد ، فكيف لايستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا فى كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم !

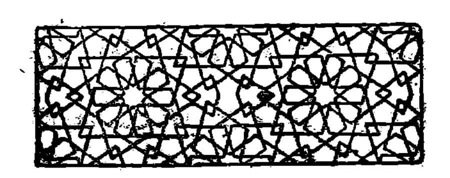
فقلت له وقد أعجبنى عقله وأمتعنى حديثه : ياسيدى إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، وأنك رجل عزيمة لا رجل رأى فلو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع فى المطابع حيناً ثم تموت فى الكتب .

لا يزال المربون ياسيدى يجادلون فى أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة فى حقولهم الخاصة فليت شعرى وشعرك أيتاح لهؤلاء فى دهر من

الدهور أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة فى ركب الحياة ! ؟ ادع الله الناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

* * *

قال صاحبى الثائر خالد وقد شيا وجهه بشيء من الإيمان والاطمئنان ، وهل نستطيع أن نعد كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ فقلت له يا صاحبى ! ليست المسألة مسألة إحصاء وعد ، إنما هى مسألة إمكان وواقع . ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال ، فلم لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين من الرجال ؟



من أحاديث العيد

(١٤ فبراير سنة ١٩٣٨)

أصبحت القرية الصغيرة غارقة فى ضباب أمشير البارد الأهوج كأنها قطع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض فالجو على قول « هوجو » كستار الغيب المسدول ، والنسيم على قول « ابن المعتز » كذيل الغلالة المبلول ، ووجه السماء كوجه الصحراء فى يوم الدجن لا ترى فيه إلا تلولاً من الغمام الجون وسهولا من السحاب الهف[1] وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل ، وأفنية الدور تنعم بالعناق والتقبيل ، والطرقات من البيوت إلى الزاوية ، ومن الزاوية إلى المقبرة ، تزدان بالشباب القروى القوى العامل ، وهو يطفر من مرح الصبا ويخطر فى زينة العيد ، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه ، وقبساً من حرارة قلبه .

أخذت « المناظر » والمصاطب زخرفها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله وأدوا الزيارة للموتى ، وقدموا التهنئة للأهل ، وانفضوا ثقالا عن سماط العيد ، ودارت عليهم أكواب القرفة ولفائف الدخان ، وتشققت بينهم مقطعات الحديث فترامت إلى عيد الملة بحج البيت ، وعيد الأسرة بيوم الأضحى . وكان اجتماع هذين العيدين السنويين فى يوم العيد الأسبوعى[2] من مصادفات الدهر النادرة ، وموافقات القدر البعيدة ، فتألقت فى وجوههم أضواء مختلفة من السرور ، وتدفقت فى قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة ؛ منها المنبثق عن

(١) الغمام الجون : الأسود . والسحاب الهف : الرقيق الأبيض .
(٢) يوم الجمعة .

مشرق الإيمان بالله ، ومنها المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت فى حرارة الحب كما تتفتح الأكمام فى دفء الربيع .

* * *

من الصعب أن تقيد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لايؤمنون بقواعد الجدل ، ولا يحفلون بأمانة التاريخ ، ولا يرون الحق للمتكلم فى أن يتم كلامه أو يشرح رأيه . وحديث الناس فى القرية كشقشقة العصافير فى الشجرة ، تسمع كل عصفور يغرد ، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع !

— كل عام وأنتم بخير ! واللقاء فى العام المقبل إن شاء الله على عرفات ! بهذه التحية وهذه الأمنية ابتدأ الحديث . وكأنما كان لفظ عرفات سبباً من الجذب الروحى حوّل عواطف القوم وأمانيهم إلى مكة ! فالذين حجوا أخذوا يذكرون وهم فى غمرة الشوق ونشوة الذكرى تجلى الألوهية فى مهابط الوحى ، وإشراق النبوة فى مطالع الرسالة ، ويروون عن كل منسك حديثاً ، ويقصون عن كل موقف حادثة . والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله الساحر فى هيام غالب وطرب نزوع .

ثم رجع الحديث من الكعبة إلى البرلمان فذكروا الحرب الانتخابية الضروس التى تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة . فالانتخاب بمآثمه ومغاومه هو المظهر الذى نحسه ونعرفه من مظاهر الدستور . وفترة الانتخاب هى الفرصة التى يرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية . ومعركة الانتخاب بين الأحزاب ، وبين المرشحين والطلاب ، هي التى تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية ، ويزوروا الفلاح ، ويعطفوا على بؤس الأجير ، ويمسحوا على رأس العامل ، ويعدونا المواعيد ويمنونا المنى ، ويصوروا لنا البرلمان فى صورة المسيح المنتظر ، فلا ظلم وهو منعقد ،

ولا بؤس وهو قائم ! فننقطع فى رضاع القرابة ، وننقض فى سبيلهم الجوار ، ونتحمل فى نجاحهم العنت . حتى إذا فاز النائب ، والتأم المجلس ، وحكم الدستور ، انصرف البرلمان إلى الأحزاب ، واشتغلت الحكومة بالموظفين ، واهتم النائب بنفسه ! أما القرية والفلاح ، وأما الدائرة والناخب ، فرآهم مفتحم العين ، وشكواهم دَبْر الأذن .

* * *

ذلك بعض حديث القوم . وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على الكبد من حديث يزوّره كاتب يتعاطى الأدب ، أو خطيب يحترف السياسة .



في حفلة أدبية

(٧ مارس سنة ١٩٣٧)

أدبت السيدة (إ . خ) مأدبة لرجال الأدب ونسائه ، كانت على رأى من شهدوها مظهراً لذلك الأدب النغل[1] الذى يعييك أن تعزوه إلى وطن وأن تنسبه إلى أمة !

تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغة والأدب ! بعضهم ملكته الحذلقة فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية . وبعضهم غلبته المجاملة فخاطب الأديبات بلغتهن ، ولغتهن الفضلى هى الفرنسية . وكان الذين يتعصبون للعربية أو يتأدبون بالإنجليزية قلالا قد انتثروا فى غمار الحفل أول ما دخلوا . فلما أنكروا اللسان للتحدث بين القوم تراجعوا متزايلين مستوحشين إلى هامشه . ثم طفقوا ينظرون بعين المتفرج للتعجب إلى جمعى المذكر والمؤنث وهما يضطربان فى الأبهاء والحجر على غير قياس .

هذا يمثل الباريسى اللبق فيسلك طريقه فى السلام ، ويتخذ لهجته فى الكلام ، ويسمتُ سمته فى التظرف . وهذه تمثل إحدى (عالمات) موليير فتتصنع للمعرفة ، وتتكلف الذكاء ، وتقدر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل ، فيالق الذكىُّ ويصدق الأبله وهذان يتضاحكان لحركة لا حظاها أو نكتة قالاها ، ثم يكتكتان فى الضحك ليلفتا إليهما السمع المشغول والنظر الغافل . وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان ، ونظراهما متدابران ، وكل منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث أو معجب : وهؤلاء يتناقشون فى موضوع

(١) النغل ولد الزنا :

غريب بلسان غريب لم يوحه الوطن الذى نحيا به ولا المجتمع الذى نضطرب فيه ولا الأدب الذى نعيش له ، وإنما أوحاه رأى فى كتاب أو مقال فى صحيفة جاء به البريد الأخير من البلد الذى استوطنوه بالفكر واستقبلوه بالعبادة !

حدثنى أحد الذين دعوا إلى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف لغة هذا الصالون قال : كنت جالساً وراء القوم كأننى أحد (أولاد البلد) فى دار من دور السينما يشاهد فلماً فرنسياً ، فهو يرى ولا يعلم ، ويسمع ولا يفهم ، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التى تتقلب على عينيه ، فيغيب وهو حاضر ، ويحلم وهو يقظان . فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضى عنهم بطول القعود قمت أتنقل بين المثنيات والجموع ، فأجدنى أشبه بالأطرش فى الزفة ، يرى الوجوه تنبلج ، والشفاه تنفرج ، والأيدى تتحرك ، وهو شاخص البصر ، مفغور الفم ، لا يدرى ما الذى يشيع السرور ويبعث الضحك : ثم جلست على مقربة من الأستاذ المازنى فرأيت ربة الدار تقبل عليه وتقدم إليه سيدة يقولون إنها من الأديبات النوابه . عرّفت إليها الأستاذ ونوهت بأثره فى الأدب ومكانه فى النهضة ، ثم تركتهما معاً وذهبت إلى غيرهما . وانتظر الأستاذ أن تتحدث إليه السيدة الأديبة فى قصة من قصصه أو فى رأى من آرائه ، فيكون فى ذلك بعض الترضية للأدب العربى المهان فى بلده وبين قومه ، ولكن السيدة الأديبة بدأت الحديث بهذا السؤال :

— حضرتك من مصر ولّا من الشام ؟

ولا أدرى أألقت على المازنى كلاماً فيه معنى أو دلواً فيه ماء ! فقد تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول .

واضيعتاه ! أبعد ثلاثين عاماً قضيتها فى الأدب أكتب فى كل يوم مقالا ،

وألقى فى كل أسبوع محاضرة ، وأخرج فى كل سنة كتاباً ، أجد فى المتعلمات بالقاهرة من تسأل : أمن الشام أنا أم من مصر ؟ !

* * *

هذه حفلة أقامتها صاحبتها الأدبية لصحابتها الأدباء . وقد رأيت وسمعت كيف كان حرص أدبائنا عَلَى اللغة ، وإلى أين بلغ علم أديباتنا بالأدب . فهل تصدق أن يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة ؟ لا جرم أن هذا النوع من هذا الأدب الحرام يزيف الأديب على أمته كما يزيفه على الأمم الأخرى . وإذا جاز لأولئك السيدات الأديبات أن يلغون بغير لغتهن بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن ، فكيف يجوز لأساتذة اللغة وزعماء الأدب أن يديروا فى أفواههم ذلك اللسان الاجنبى وما كانت قيمتهم فى الناس ولا دعوتهم إلى هذا الحفل إلا أنهم يحذقون اللغة العربية ، ويتزعمون الثقافة العربية ؟ !

إن من هوان نفسك عليك وإهانة جنسك فى الناس أن تتكلم غير لغتك فى بلدك و بين قومك من غير ضرورة ولا مناسبة ، فان ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على عدم استقلالك فى خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك وأسلوب عملك

— هل تستطيع أن تدلنى على بقعة من بقاع الأرض غير مصر ولبنان يجتمع فى دور من دورها مجلس من مجالس الأدب يحضره لفيف من أساتذة الجامعة وجهابذة الأدب وأقطاب الصحافة ، ثم لا يكون حديثهم إلا بالفرنسية ، ولا يدور نقاشهم إلا على موضوعات أجنبية ؟ !

يا قومنا إن لغة المرء تاريخه وذاته ، فالغض منها غض منه ، والتفضيل عليها تفضيل عليه . ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مَهين أو عاجز !

سارة للأستاذ العقاد

(١٤ مارس سنة ١٩٣٨)

كنت أقول للذين يحلو لهم أن يصنّفوا الكتاب إلى كاتب مقالة وكاتب قصة وكاتب نقد وكاتب سياسة وكاتب تمثيل : أن الكاتب الخليق بهذا الاسم يجب أن يكون أولئك جميعاً فإذا قصر جهده على بعضها ، فليس معنى ذلك قصوره عن بعضها الآخر ، بل معناه أن عمل الكاتب فى التعليم أو فى الصحافة ، أو حظّ الأمة من الحضارة والثقافة ، أو حال المجتمع من الرخاء والاستقرار ، يساعد اتجاهاً على اتجاه ، ويغلب نوعاً على نوع وما الكاتب إلا فنان موهوب ميزته تأليف الكلام الجميل تعبيراً عما يقع فى حسه وعلمه ، وتصويراً لما يجرى فى خياله وذهنه فاذ استمد الإلهام والمعرفة أحاط إحاطة الجاحظ و (جيته) ، وإذا استملى الشعور والعاطفة ألم إلمام (البديع) و (موسيه) . وانفساح ذرعه أو انحصار طبعه لا يدخل فى حسابه بالزيادة ولا بالنقص ، لأن الأصل فى فنه أن يجيد الكشف عما يحس والإبانة عما يعلم

قالوا : إن العقاد باحث جرىء الرأى ، وناقد نافذ البصيرة ، وجدلى دامغ الحجة ، ولكنه لا يملك أن يكون قصصياً يكشف بالوحى حجب الغيب ، وينمق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيى بالعاطفة خمود الفكرة ، وتلمسوا لذلك الأدلة والعلل من طبيعة مزاجه واتجاه تفكيره وروح أسلوبه ؛ حتى رووا عنه أنه عاب القصة ونفى أن تكون نوعاً جديداً من أنواع الأدب . وكان الذين يسمعون هذا الكلام يقابلونه بالتصديق ويؤيدونه بالواقع ، فكنا نقول

لهؤلاء : إن الذى يعرض هذا المرض ، ويصف هذا الوصف ، ويحلل هذه التحليل ، لا يعضل عليه إن أراد أن ينقل المشهد الذى رآه ، ويقص الخبر الذى علمه . وليس القصص كله خيالا حتى يسوغ فى العقل أن الكاتب الذى يضيق خياله و يضعف وهمه باتساع عقله وقوة فكره يقصر باعه عن القصة .

وجاءت (سارة) والرأى على ماخيل الراءون فأقرت الأمر فى موضعه من صميم الحق ، وقدمت الدليل القاطع على أن هذه الشخصية الأدبية قد بلغت المبلغ البعيد فى كل ناحية من نواحى الأدب ، حتى الناحية التى لم تتجه إليها إلا منذ أمس .

وهل صحيح أن أمس كان أول عهد العقاد بالقصة ، وأن سارة كانت أول ما كتب العقاد من القصص ؟ الحق أن الكاتب المطبوع يولد وفى قريحته أصول الأنواع الأدبية ، تنمو بنموه ، وتطور بتطوره ، وترقى برقيه ؛ ولكن ذلك يحصل لبعضها بالفعل ويحصل لبعضها الآخر بالقوة فلو أن العقاد كتب (سارة) أيام كتب (مجمع الأحياء) لكان من الراجح أن يكتبها من نوع غير هذا النوع وبأسلوب غير هـــذا الأسلوب ؛ ولكنه كتبها حين كتب (سعد زغلول) فجاءت من النوع التحليلى البارع ، وبالأسلوب المنطقى المشرق . والقصة التحليلية هى آخر أطوار القصة ، كما أن الشعر الفلسفى هو آخر مراحل الشعر ونتاج الذهن يتطور بين الطفولة والكهولة فى الفرد والأمة والخليقة ، فالأسطورة تنتهى إلى القصة ، والملحمة تصير إلى الرواية ، وشعر الغناء يؤول إلى شعر الفلسفة .

* * *

(سارة) قصة فتاة مثقفة لعوب أرملة ، وصفها العقاد فى فصلين لا تجد

كثيراً من أمثالها فى أدب العالم ، هما (من هى) و (وجوه) . عرفها محام المهذب العقل الطيب القلب وهو فى وسط عقده الرابع أعزب وحيد ، فشغفته حباً للأسباب التى حللها الكاتب فى فصل من هذه الفصول ! ثم وصلت بينهما الطبيعة بالصلة التى لاحيلة فيها لانتظار ولا اختيار ولاخبرة . وظلت هى على نحيزتها الأنثوية تعابث وتحابث وتلبس تارة لباس (مانون)[1] ، وتارة أخرى لباس (مادلين) ، وظل هو عَلَى شكيكته العلمية يؤول ويعلل ، ويفرض الفروض ، ويثير الشكوك ، ويقوى حيناً فيكون (دون جوان)[2] ، ويضعف حيناً فيكون (دى جْربو) حتى ذوى الحب بين الشك منه والسأم منها فتفرق العاشقان .

ليس فى القصة إذن حادثة تروعك ، ولا مفاجأة تدهشك ، ولا عقدة تشوقك ، ولـكن هذا الحادث العادى المطروق أصاب ذهناً شديد النفاذ وفكراً دقيق الملاحظة وشعوراً صادق الحس ، فتجلى فى (ساره) صوراً واضحة الخطوط ناطقة الملامح عبقرية الألوان تمثل هذه المرأة فى جميع حالاتها وعلى كل وجوهها تمثيلا عارياً لايفنع فيه ثوب رياء ولا ورق تين[3] . ولعل الطريف فى (سارة) أنها تحلل تركيب العشق فى قلبى عاشقين من ذوى الثقافة والفكر فتنتهى إلى أن الفلسفة لاتجعل من العاشقة إلا امرأة ككل امرأة ، ولا من العاشق إلا رجلا كأى رجل .

أما أسلوب (سارة) فهو أسلوب العقاد : صريح لا رغوة فيه ، جلى لا غبار عليه ، مستقيم لا التواء به يتصل فيه اللسان بالعقل

---

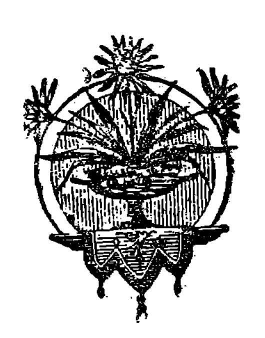
(١) مانون ودى جريو : بطلا قصة مانون ليسكو لبريفوست ومادلين أو مجدولين أو مريم المجدلية امرأة خاطئة اهتدت بالمسيح . وهى فى الأدب مثل المرأة التى ترجع عن غيها وتكفر عن خطاياها .

(٢) دون جوان : شخص خرافى يمثل الرجل الغنى المترف الصلف الفاجر الذى يفتن فى إغواء النساء بالجمال والظرف ، وفى تعذيبهن بالدلال والهجر .

(٣) ورق التين هو الذى استتر به آدم وحواء بعد الخطيئة فى الجنة .

فلا يلغو ، ويعتمد فيه القلم على القريحة فلا يهن . على أن العقاد فى سارة قد احتفل لأسلوبه واحتشد لفنه فجاء على النمط العالى ، لا تجد خللا فى سبكه ، ولا قلقاً فى اطراده ، ولا وهناً فى منطقه ، ولا سقطاً فى ألفاظه ، ولا شططاً فى معانيه وفى رأيى أنك لا تعرف العقاد على حقيقته إنساناً وفناناً إلا فى (سارة) .

إن سارة تقدم مثلا جديداً فى بلاغة الأسلوب ، وتفتح فصلا جديداً فى أدب القصة ، وتسجل اتجاهاً جديداً فى أدب العقاد .



العام الهجرى

(٣١ مارس سنة ١٩٣٨)

أهل هلال المحرم والعالم المسكين يكاد يفلت من قيوده وينحل من نُظمه: فكأنما ارتد إلى عهوده الأولى يترصد الفرائس فى ألفاف الشجر وأجواف الحفر، ويتعقب الطرائد فى بطون الأودية ومخارم الجبال، ثم يشتد عليه سلطان الغرائز المهلكة فيستنشى روح الحياة فلا يجده، ويلتمس ظل الأمان فلا يدركه، ويبتغى عزاء النفس فلا يناله.

هذه أوربا العالمة العاملة القوية، قد استحال بنو آدم فيها إلى هيا كل صناعية، تتحرك بالبنزين، وتسير بالقيادة، وتعمل بالحيلة، وتهتلك بالسبق، حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم.

أين الروح الذى كان يحييها؟ وأين النور الذى كان يهديها؟ رجعا إلى مصدرها الإلهى فى الشرق يوم تجهمت لحوار يى المسيح وتنكرت لخلائف محمد، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد، والديمقراطية على استبداد الأحزاب، والسلام على طغيان القادة. فكان من ذلك خيبتها الأليمة فى سلامها ونظامها وخلقها، لأن مطامع الاقتصاد لايدوم عليها خلق، ونوازع الأفراد لايثبت بها نظام، وتوازى القواد لايدوم عليها عهد. حتى عصبة الأمم التى جمعت فيها أوربا مابقى لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة، دفن أشلاءها هتلر فى النمسا بعد ما قطع أوصالها موسولينى فى الحبشة! فخال أوربا اليوم كحال الضوارى الأوابد، تتباعد بالأثرة، وتتدانى بالخديعة، وتتدافع بالقوة، ثم أعوزتها الأنياب والأظفار فجعلت مصانع التجار مسالح، وصهرت أجور العمال

أسلحة . وأخذ الساسة والطغاة يتجاوبون بالزئير فوق المنابر ، فملأوا الصدور بالرعب ، وزعزعوا البيوت بالقلق ، وسمموا الحياة بالهم ، ونزعوا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك ، فانقلبوا عبيداً مسخرين لهذه النظم الطاغية ، لا يجدون سلاماً فى الأرض ، ولا يعتقدون نعيما فى السماء !

أخطر ببالك أمم التمدن الحديث ، فهل تجد غير صولة تناهض صولة ، ودولة تبتلع دولة ، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهى تحتضر ، وأخرى هدى إليها الضلال فهى تنتظر ؛ والشعوب أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك فى التجارب ، وأموال تنفق فى الأهبة ، وأرواح تزهق فى الصراع ، وآمال تذهب مع الريح !

دع هذا العالم المجهود البائس وجل جولة بالفكر فى بلاد العالم الإسلامى ، فهل تجد إلا السلام فى المجتمع ، والوئام فى الأسرة ، والسكينة فى النفس ، والرضا فى العيش ، والثقة فى الحاكم ، والأمل فى الله ؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه المخلوق . وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح ومجتمع يعيش بالآلة . وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام(١) وجعل تحية أهله (السلام) ، وقرن فيه الصلاة دائما بالسلام ، وعرف أهله بأنهم (الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً) .

ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدأه . وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن ترجع أصول الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ ؛ فالصوم والصلاة سلام الفرد ، والحج والزكاة سلام المجتمع ، والسنن والأنظمة والآداب التى انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان

---

(١) الإسلام معناه السلام ، ولذلك جعل مقابلا للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من لسانه ويده .

طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه ، من الأخوة التي يعم بها النعيم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المدارك ، لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاه الذي خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاما بنظام ، وينقذ إنسانا بإنسان .

إن الإسلام بشريعته السمحة وسياسته الحكيمة قد أزال الفروق وعدل المقاييس ، وألف القلوب بالبر ، وشفى الصدور بالتعاون ، فلا يمكن أن يعيش في ظله نظام هادم ولا نحلة مفرقة . افتحوا ثغوره للنظم الحمراء التي تشيع الفزع هنا وتثير الحرب هناك ، فسترونها تفد جارفة وفود النسور الخاطفة ، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنيعة مهيضة الأجنحة ناسلة الريش لا تقوى على زفيف ولا حفيف . وفي تركيا وإيران الدليل الحاسم ، فإن بينهما وبين الشيوعية جواراً وصداقة وعلاقة ، ومع ذلك لم تستطع الشيوعية — على جرأتها — أن تقتحم على الإسلام هناك رغيله .

إن في الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوته مناعة على كل شر ومثابة لكل جنس ومودة لكل دين . فانتصاره انتصار العقل ، وانتشاره انتشار العدل ، وسيادته سيادة السلام !



كلمة في أوانها

(١١ ابريل سنة ١٩٣٨)

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب. والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لاتتحزب ولا تتعصب ولا تعرف تخوم المكان ولاحدود الزمن. ولكن بينها وبين السياسة الدنيا تفاعلا وتبادلا لايفترقان، فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها، وهي تتغير معهما وهما يتغيران منها. والخلق مخاصة مساك الأمة وملاك الأمر. ولم تؤت النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فساده. ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحداناً من ظلام الجهل والغفلة، أن يسعى المرء فيها ليغنى، ويغنى ليتزعم، ويتزعم ليحكم، ويحكم ليستبد، ويستبد ليطغى، ويطغى ليتأله! سلسلة من الغرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والأثرة والجموح والبغى، يصل بينها جميعاً أنانية غالبة وفردية أصيلة. فالأهل والأصحاب والأحزاب إنما يتعاملون بغير الحق، ويتجادلون بغير المنطق، ابتغاء الفوز من وراء الباطل، والغلبة من طريق القوة، لأن «الأنا» لايعرف «الغير» والذات لاتدرك المعنى، إلا إذا أضاء العلم ماحولها فظهرت الأشخاص، وبانت الفروق، ووضحت الحقوق، وتميزت المعالم. وحينئذ يقول كل امرىء لنفسه أول مرة: إن في العالم ناساً غيرى، وإن لهم حقاً كحقى. ومتى شعر المرء بالناس، وفطن إلى وجود الحق، تولدت فيه معانى الإنسانية والديمقراطية والعدل، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى، وللوطن إذا تزعم، وللدولة إذا حكم.

نحن إلى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة نقيس

كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب إرادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل ، وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادىء الشورى .

كان ذلك مقبولا محمولا والجهل غاش على العيون ران على الأفئدة أما الآن فقد تنبه الغفلان إلى أن من استطاع أن يرفع المظلوم يسهل عليه أن يخفض الظالم . وتذكر الناسي أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات فى فم المحكوم لا فى يد الحاكم . فمن ذا الذى يوسوس إليه شيطانه أن يرفع فى أوجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع ؟ ومن ذا الذى يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ويقول : أنا سيد الجميع !

لقد كان لبعضكم يازعماء الساعة أخطاء على الأمة فى بعض الأمور ملكت عليها الصبر ولم تملك المغفرة وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة لتصححوا بصواب اليوم خطأ الأمس . وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل ، فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الأخشم ؟[1] إن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ، وكلكم تفرع ذروة[2] الجاه ، فماذا يخزلكم[3] عن ابتغاء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد ؟

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ، ولغده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الأخوة فى ظل الوطن ، وعزة الحرية فى كنف الدستور ، وجمال المساواة فى حمى الحكم الصالح .

---

(١) الأخشم الذى فقد حاسة الشم أو ضعفت به

(٢) تفرع الذروة : علاها

(٣) خزله عن الأمر : عوقه.

نريد أن تلغوا سياسة الخطب ، وتقصّروا ألسنة الوعود ، وتخفتوا ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه ، فإن المصرى أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الأشِر .

نريد أن تفتحوا لمصر عهداً جديداً من الهدوء والاستقرار تدخلونه فى ثياب الإحرام ، وصدوركم نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسكم بريئة من شهوات العصبية ، وميولكم نزيهة عن خسيس المطامع ، فتصرفون القوى إلى الإنتاج ، وتوجهون الجهود إلى الهدف ، وترصدون ملكات الأمة وكفاياتها لطرد الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها ، لتعيش كما تعيش الأمم الحية صحيحة الجسم سليمة الروح متماسكة الوحدة .

إن الوزارة متسقة الأعضاء متحدة الهوى ، وإن المعارضة نزيهة الأغراض مريرة القوى ، وإن الأحزاب متقاربة الميول مستقلة الرأى ، وإن الأمة يقظة الفؤاد كلوءه العين ، وإن العرش من وراء أولئك محيط ، يقوِّم الصغر ويسدد الخطى ويرقب الأمور ويجمع الهوى الشتيت ، فهل آن لنا أن نحيا حياة العاملين الأعزة فى وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة ، لاسلطان للقوة خارجية عليه ، ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به ؟ وهل آن لنا أن نتمتع بحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ويأمن بها على رأيه ، فى مجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافره الخلق ، ويرفه حياته الحب ، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم ودستور ؟

شم النسيم

(١٥ أبريل سنة ١٩٣٨)

اليوم يا صديقي يوم شم النسيم ! وشم النسيم في مصر هو عيد الطبيعة والناس. والناس الذين يعيِّدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة . وهو بهذه الخصيصة يكاد لايشبهه عيد من أعياد الأمم ، فإن أعياد الأمم إما أن تقوم لذكرى دينية فتكون لأهل هذا الدين ، وإما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن. أما عيد شم النسيم فهو عيد إنساني اشتراكي سمح ، يفتح قلبه لكل دولة ، ويخلص حبه لكل ملة ، ويبذل أنسه لكل جنس . فالمصريون على اختلاف الأديان ، والأجانب على تباين الأوطان ، يتلاقون به على بساط الربيع إخواناً في المودة ، إخوانا في السرور ، يتساقون راح الأنفس ، ويتطارحون حديث القلوب ، ويتجردون من فوارق الدنيا ليقفوا أمام الطبيعة الصريحة أطهاراً من رجس الحياة ، أحراراً من إسار المادة ، يرتعون في الجنة التي خلق فيها أبوهم الأول ، وينعمون بالصفاء الذي نشأت فيه أسرتهم الأولى .

هذه الخصيصة التي انفرد بها هذا العيد إنما اكتسبها من طبيعة هذا الوطن الأريحي الذي طبع بنيه وساكنيه على فيض نيله وخصب واديه ورحب صحرائه وصفو سمائه واعتدال جوه ووداعة طبيعته ، فجعل المصري والرومي يعيشان في قرية ، والمسلم والمسيحي يصليان في كنيسة ، واليهودي والألماني يعملان في متجر ، والتركي والأرمني يسكنان في دار. ثم يلح على هؤلاء جميعاً بالخلط والمزج والتوحيد حتى تتشابه الألوان ، وتتقرب

الألسنة ، وتتقارب الطباع وتتحد العناصر ، فيدخلوا صرحاء خلصاء فى هيكله النقى القوى المقدس .

* * *

فى هذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوينها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانيتها ، ثم تخرج إلى الرياض والخلوات ، خروج الحجيج إلى عرفات ؛ ولكنه حجيج وثنى لا يؤمن فى ذلك اليوم إلا بأفروديت وباخوس[1] فيتفيأون ظلال الروض ، ويتشربون أشعة الربيع ، ويستروحون أرج النسيم ، ويجتلون جمال الطبيعة المتبرجة فى الزهر والنهر ، ويستوعبون أسرار الحياة المبثوثة فى السماء والأرض ، وينطلقون من عقال الهم والوقار والكلفة ، فيعايشون كالفراش ، ويهتفون كالطير ، ويطفرون كالأطفال ، ثم تدركهم ضرورة الحياة فيجلسون للموائد حلقاً وسلاسل يتهنأون [2] بضروب الآكال وصنوف الأشربة ، حتى إذا تضلعوا شبعاً وتحببوا رِيا[3] فترت فيهم فورة المرح فأووا إلى أحضان الطبيعة الخادرة من حر الظهيرة وحينئذ ترى أشتاتاً من خلق الله قد ضرب على آذانهم الكرى أو الكظة أو السكر أو الفتور ، فأصبح الناس والطير والشجر قطعاً من مادة الأرض لا يميز بعضها من بعض رقى النوع ولا سمو الفكر ولا غرور الفلسفة .

* * *

لا أزال أشعر بحلاوة هذا الموسم فى القرية . فقد كان الشباب والأيفاع

---

(١) أفروديت إلهة الجمال ، وباخوس إله الخمر.

(٢) تهنأ بالطعام : ساغ له ولذ .

(٣) تضلع من الطعام امتلأ حتى تمددت أضلاعه . وتحبب من الشراب صار بطنه كالحب وهو الخابية أو الزير .

يعتقدون أن فى العشرة الأخيرة من رمضان تفتح فى السماء (طاقة القدر) لمن كتب الله لهم السعادة ؛ وأن فى العشرة الأولى من المحرم تطوف (بغلة العشر) فى أعقاب الليل وهى موقرة بالذهب على من كتب الله لهم الغنى ؛ وأن فى يوم شم النسيم تهب نفحة من الفردوس لايتنسمها إلا من كتب الله له القوة . فكانوا إذا تنفس صبح ذلك اليوم أفعموا خياشيمهم بريح البصل ليدرأوا عن أعصابهم خمود العام كله ثم يخرجون إلى القنوات والنهيرات يستحمون فى مائها الجارى ، ويمشون هوناً على حفافى الحقول وضفاف الترع وحواشى البساتين يجمعون القاية والحبق والورد وزهر النارنج وورق الليمون ، ثم ينسقون منها باقات يشدونها بأعواد السّعد وسعف النخل ، ويدسون فيها أنوفهم من لحظة إلى لحظة ، ثم يقفون فى مهب النسيم الفواح يعبّونه عبا بالخياشيم والحلوق لعلهم يجدون فيه تلك النسمة الهاربة من ريح الجنة فيمسهم منها ما يسمونه (عرق الصبا) ثم يسيرون صامتين مستغرقين نشاوى يتشممون ذلك السر الإلهى المكنون فى أنفاس النهر ، وفى عبير الزروع ، وفى فوحة الرياحين ، كما يتلمس السكيميائى الخبير إكسير الحياة فى عصير العقاقير وحلب الأنابيق ومزيج الأشربة

فإذا أحسوا نشوة فى الروح وفتوة فى الجسم وقوة فى الأعصاب لطول ما استنشقوا الهواء الخالص ، واستيقنوا الأمل الخادع ، تسلقوا أشجار التوت فجنوا منه أطيبه ، وخضبوا أناملهم بجناه ، ونقشوا طواقيهم بصبغه ، ثم يرجعون إلى القرية وهم يخطرون فى مطارف الصبا الغريض ، وكأن فى رءوسهم بالياً قد تجدد . وفى نفوسهم ذاوياً قد انتعش ، فيأكلون البيض الملون والخس الطرى والفسيخ النيلى . ثم ينامون وهم معتقدون أنهم ادخروا

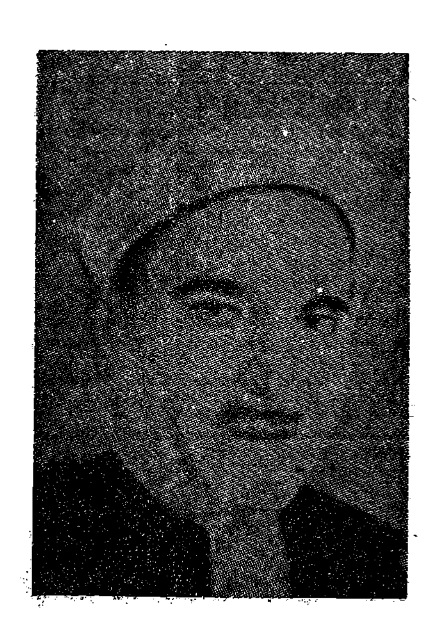
لبقية العام من القوة والصحة والفراهة مالا يهن على طول العناء وسوء الغذاء ومس المرض

ذلك شم النسيم بخصيصته ودلالته ، تراه فى المدينة والقرية يوم الصفاء المشترك والأنس المشاع . ولقد كانت لى فيه ذكرى أو ذكريات لاتزال مشرق النور والسرور فى نفسى وما كان أحب إلى أن أقصها عليك ، ولكن الصفحة قد نفدت ، وساعة الطبع قد أفدت ، ورئيس المطبعة يقول هات ؟



معالي مصطفى عبد الرازق بك

(٢ مايو سنة ١٩٣٨)



صديقنا صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف إمام من أئمة الدين ، وعلم من أعلام الأدب ، وسرى من سراة الأمة نشأ بحكم ولادته على النبل كما ينشأ ابن الملك على الملك ، فهو في خلقه وسمته يجرى على سراح الطبع الجميل ، لا يتكلف ولا يتطبع ولا يتصنع ولا يقلد وقلما تجد في مصر من ظفر بما ظفر به هو من إطباق الناس على اعتقاد سماحته وسراوته وفضله ولعلك تدرك السر فيما تعرف من خلاله إذا علمت أن بيت عبد الرازق نمط لا واحد له في تقاليده وتربيته وبيئته فهو وحده لايزال يمثل نوعاً من الفتوة الإسلامية له خصائصه وسننه : يرى العزة في سمو الإنسانية فيه لا في إفراط العصبية عليه . ويجد المزية في سؤدد الفكر المهذب والخلق السجيح لا في سطوة المال المكنوز والجاه المتسلط ، ويتمثل المدنية الحديثة تمثل المعدة الصحيحة للطعام المرىء فلا تكون إلا مدنيته الخاصة فيها سره وعليها طابعه ثم يسير في سبيل الحياة على سنن واضح من شهامة القلب ونزاهة النفس وشرف اللسان

وثبات العقيدة وكرم التضحية ، كأنما يستجيب إلى صوت فى دمه ، ويمشى على دليل من طبعه .

ساهم فى جهاد الدستور والحرية بالنفس والمال ثم عف عن الغنيمة . وشارك فى ثقافة العقل والروح بالتشجيع والإنتاج ثم عزف عن الشهرة . وتهافتت من حوله بيوت المجد على الأضواء الغربية الخادعة فأضل بعضها العشا ، وأحرق بعضها اللهب ، وبقى هو على شرقيته ومصريته قوى الدعائم رفيع الذرى ، تضوع فى أبهائه نفحة الإسلام ، وتهش على موائده أريحية العروبة ، وتخفق فى جوانبه روح مصر

والشيخ مصطفى يلخص فى شمائله مجادة هذا البيت فهو سر وراثته وعطر أرومته وجملة ماضيه فإذا جلست إليه فى ألفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة ، ويبسط شعورك من غير خفة . ثم تحس فى تواضعه سمو الكبرياء ، وفى وداعته أنفة العزة ، وفى بساطته جلالة النبل ، فلا تستطيع أن ترد هذه الخلال فيه إلى الحد الذى تواضع عليه الناس فى تعريف الخلق ، إنما تنتهى إلى أن شخصيته الجذابة واحدة الطراز لما تهيأ لها من أثالة المنبت وزكاوة العرق وسعة الثقافة وسلامة الفطرة وجمال القدوة .

رأيت الشيخ مصطفى طالباً فى الأزهر ، وعرفته أستاذاً فى الجامعة ، وزرته عضواً فى الوزارة ، فلم أجده فى كل حالة من هذه الحالات إلا على الوجه الذى لقى به الدنيا ، لم يتغير فيه لسان ولا عين ولا مخيلة ومزية المعدن الكريم ثبات وجهه على لونه ، وبقاء جوهره على نقائه . ولو أن وجوه الناس تثبت على تقلب الحظوظ لما تنكر صديق لصداقة ولا تجهم وطنى لوطن .

لله ما كان أنبل وأجمل حين دخلت على الشيخ الوزير مكتبه فى الوزارة من غير وقفة على حاجب الباب أو جلسة لدى مدير المكتب ! لقد كان زيه الوطنى الجميل ملء العين والنفس والشعور ، يوزع التحيات على عادته بيسماته الرقيقة ونظراته الوديعة وكلماته الحلوة ، فيجعلك تشعر أن الوزير منك ، وأن الوزارة لك ، وأن الأمر بينك وبين أولياء الحكم كما يكون بين الأب وأعضاء الأسرة

كان سرورى وأنا أهنىء صاحب المعالى وزير الأوقاف أقرب إلى أن يكون سروراً بنفسى . فقد وقع فى وهمى أنى أسهم فى هذه الوزارة بنصيب مبهم شائع لا أجهله ولا أدريه . ولعل مبعث هذا الوهم أن الوزير أزهرى وصديق وأديب ، وصلته بالناس من جهة الثقافة أو الصداقة أو الأدب يجعلها وقاؤه الطبيعى أدنى إلى النسب الشابك والقرابة الواشجة .

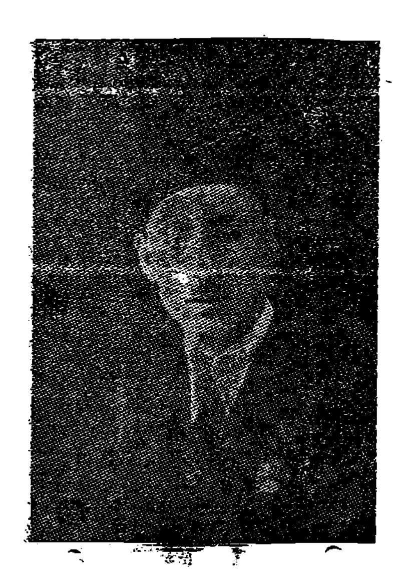
* * *

أما بعد فإن استيزار أميرين من أمراء الأدب لهو فتح مبين لدولة القلم . فإن النهضات العلمية والأدبية فى تاريخ الفكر لم تزدهر إلا فى حمى ملك أو كنف وزير . والوزراء الأدباء أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والمهلبى وابن زيدون وابن الخطيب لايزالون عناوين فاصلة فى تاريخ الأدب . فإذا ناط رجال الثقافة والصحافة آمالهم بوزير الخير مصطفى ، وبوزير الجمال هيكل ، فإن دلالة الحال تعلن أن مواتاة هذه الفرصة فى صباح العهد الجديد حين صدقت النيات على الاستقرار ، وتهيأت النفوس للعمل ، إيذان من الله بتيسير السبل لأمة العلم أن تنهض ولدولة الأدب أن تقوم .

مصطفى صادق الرافعي

(١٦ مايو سنة ١٩٣٨)

— ١ —



في مثل هذا اليوم من العام المنصرم سكن لسان وجف قلم وانقطع وحي وفقد البيان الملهم والفكر المنير خسارة إنسانية لايسهل العوض منها ولا العزاء عنها والرافعي وأمثاله من عباقرة العلم والأدب والفن والمال ، ثروة من ثروات الأمم لاتكتسب بالحيلة ولا بالإرث ، وإنما هي نفثات من روح الله تنتشر على الأنفس المصطفاة فتجعل طبيعتها بين النور والطين ، ومنزلتها بين السماء والأرض ، ورسالتها رفع الناس إلى الملائكة بالمجد ، وتنزيل الملائكة على الناس بالخير . فإذا جاء أجلهم عاد ذلك النور الإلهي إلى مصدره وهو أشد ما يكون نزوعاً إليه وعلوقاً به : ثم لاينبثق مرة أخرى إلا حين يأذنه الله لخليقته أن تهتدي ولأرضه أن تصلح !

لذلك كان أسى الأمم الذاكرة الشاعرة على نوابغها أسى خالداً يستمر

فى ذا كراتها ، ويتجدد فى ذكرياتها ، ثم يتردد على عواطفها كلما صبت إلى أمام فلم تجد الهداة ، وهفت إلى فوق فلم تجد الأجنحة .

على أن النابغ فى أمم الشرق يعيش وكأنه لم يولد ، ثم يموت وكأنه لم يعش ؛ لأن الحياة فيها لا تزال نوعا من السكر الغليظ يذهل الناس عن الوجود أكثر العمر ، فإذا أفاقوا — وقليلا ما يفيقون — عربد بعضهم على بعض !

كذلك عاش الرافعى ومات ، وكذلك يعيش أشباهه ويموتون ! وما حيلة الزهرة الفواحة إذا أنبتها القدر القاهر فى قفار الأرض بين سفى الرمال ولفح السمائم ؟

* * *

رحم الله الرافعى ! لقد كان فى الكتاب طريقة وحده ! وحسب الكاتب مزية ألا يكون لأسلوبه ضريع فى الأدب كله فإذا قيل لك إن الرافعى قديم الأسلوب فى التفكير والتعبير ، فاحمل ذلك على الحسد الذى لا حيلة فيه ، أو على الجهل الذى لا حكم معه . وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك على كاتب يترسم الرافعىَ مواقع قلمه أو قدمه . إنما هى شنشنة من ضعاف الملكة وقاصرى الأداة ، يرمون من يجيد لغته بالتخلف ، ومن يتعهد كلامه بالتكلف ، ومن يؤثر أدبه وتاريخه بالمحافظة :

أسلوب الرافعى يمتاز بالسلامة والسلاسة والإيجاز العميق . وهذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه وأشد مايروعك منه قوة الفن وحركة الذهن فأما قوة الفن فهى الأستاذية التى تخلق المادة ، وتصنع القالب ، وتضع اللفظ ، وتحدد الرسوم ، وتوضح الفروق ، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف وتخيل إليك

أن الصناعة طبع وأن المعاناه سليقة . وأما حركة الذهن فهى حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح ، ولا يستقر على القاع ، وإنما يضرب بيديه القويتين فى أغوار البحر ، وقد انقطع عن شواغل الناس بالعين والأذن . على أنها حركة الروية لا حركة العبقرية ؛ فمعانيه تقطر ولا تفيض ، ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح سيلا طامى الجوانب صافى المورد .

كان يحمل الفكرة فى ذهنه أياماً يعاودها فى خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل ، حتى تتشعب فى خياله وتتكاثر فى خاطره ؛ ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما فى فهمها على الذكاء المألوف ، فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ ، جلاها على الوضع الماثل فى ذهنه ، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه ، فتأتى فى بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة فى نفسك وضوحها فى نفسه . وذلك عيب المروّين من صاغة الكلام وراضة الحكمة ، كابن المقفع ، والمتنبى ، وبسكال ، وبول فاليرى . ومنشأ ذلك العيب فيهم أنهم يطيلون النظر ويديمون الفكر ويعمقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارىء ، وتتسع المسافة بين معانيهم وألفاظ اللغة ، فيكتبون وأفهامهم سابقة سبوق الروح ، وأقلامهم متخلفة تخلُّف الجسم . ويزيد فى هذا الغموض أن سعة العقل فى النوابغ تستلزم ضيق اللسان ؛ فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والغثاء إلا حيث يضحل الذهن ويقصر النظر وتنزر المادة . والرافعى كان يقتصد فى أسلوبه ، لأنه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية فهو يفصـــــل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم : يقصر ولا يطول ، ويضيق ولا يتسع ؛ ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم ما يكون حسناً وأناقة .

وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم سليم المنطق ، إلا أنه بعيد الإشارة يستسر جماله على القارىء العجلان والفهم البطىء . فإذا روّى فيه الناقد المتذوق انكشف له فى كل كلمة سر ، وطالعته فى كل فقرة آية . ولعل النفس الشاعرة لا تجد فيه من أنوثة العاطفة ما تجده النفس المنطقيـــة من فحولة الفكرة . ومرجع ذلك فى الرافعى غلبة الفكر على الشعور ، وسطوة الفن على الطبيعة .

— ٢ —

كان الرافعى رحمه الله حجة فى علوم اللسان ، ثقة فى فنون الأدب ، عليما بأسرار اللغة ، بصيراً بمواقع اللفظ ، خبيراً بمواضع النقد ، محيطاً بمذاهب الكلام . وقلما تتهيأ هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنة التعليم فاستنزفوا أيامهم فى درس القواعد وحفظ الشواهد وفقه النصوص بحكم الصنعة ؛ فكنت إذا ذاكرته فى شىء من دقائق النحو وخواص التركيب وفروق اللغات وجدته على ظهر لسانه كأنما انصرف من مراجعته لوقته . ودراسة الكاتب أو الشاعر للغته وفنه هى فى رأيه ورأى الحق شرط لنبوغه ؛ فلا يكون النبوغ والأستاذية بدونه ، ولا تجزى الطبيعة ولا المحاكاة عنه .

ولقد بلغ علم الرافعى بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأى ، فكان يقف فى التعليل والاستنباط من ثقاتها ورواتها موقف الند . وقد يتعظم أحياناً فيقف منهم موقف الأستاذ . فهو فى أدبه مطلق الحرية مستقل الإرادة فى حدود المأثور من بيان العرب ، ولكنه فى فلسفته مقيد النظر مسير الفكر لنزوله فى الرأى على حكم الدين .

على أنك لا تعدو الصواب إذا قلت إن حرية أدبه أشبه بعبودية فكره ، لأن مصدرهما وموردهما واحد هو القرآن . والقرآن من جهة الأدب غاية الجمال ، ومن جهة الفضيلة غاية الخير ، ومن جهة الفلسفة غاية الحق . لذلك كان قوله فى القديم والجديد قول العربى الذى يؤمن أن لغته التى تكلم بها الله نامية بذاتها لأنها حية ، ومتطورة بطبعها لأنها قوية . وكان قوله فى المرأة والرجل قول المسلم الذى يعتقد أن دين الله حق لا يبطله قِدم ، وشرعه قانون لا يعطله شهوة . ومادام العرب أحياء فأدبهم متجدد ، وما دام القرآن خالداً فدينه قائم .

على هذين القطبين كانت تدور فلسفة الرافعى الأدبية والاجتماعية ولعلى تساهلت إذا قلت فلسفة الرافعى فليس للرافعى فلسفة ، وإنما هى فلسفة القرآن قام منها مقام ابن رشد من أرسطو ، يقرر ويحرر ويدافع من غير أن يكون لمنطقه حكم ولا لرأيه اعتراض .

* * *

كان الرافعى فى بعض حالاته يفتَنّ فى الصورة التى يرسمها افتنان المصور الخيالى : يضيف إليها من المشاهد ما لا تقره الحقيقة ، ويضع فيها من الألوان ما لا تعرفه الطبيعة . وقصده القاصد من ذلك أن يريك قدرة ذوقه على الملاءمة وقوة ذهنه على التوليد ، ويعطيك للشىء أو للشخص صورة إذا لم تكن كانت فهى التى ينبغى أن تكون فهو إذا كتب فى موضوعٍ ما سمح لعاطفته أن تجر ولهواه أن يدفع ولفنه أن يزخرف ، ثم يستخدم براعته فى التدليل على صحة العاطفة ونزاهة الهوى وصدق الأداء فيكون من امتزاج الخيال بالواقع ، واشتباه الغلو بالقصد ، والتباس البهرج بالصحيح ، صورة غامضة الدلالة خافتة الروح ، ولكنها بديعة الإطار رائعة اللون منمنمة الخطوط وذلك أكثر ما تراه يكون فى « حديث القمر » ، و « السحاب الأحمر »

و «المساكين» ، و «أوراق الورد» . أما إذا اتصل فنه بشعوره ، وافتنانه بطبعه ، ورأيه باعتقاده ، فإنك ترى الإشراق في اللفظ ، والجلال في المعنى ، والسمو في الروح ، والإعجاز في الصنعة . وهنالك تجد الرافعى في جلوة الإلهام التي تشدهه هو نفسه فيقول لي ولمن يأنس إليه : إن حالا تشبه حالات الوحى تقوم به في بعض ساعات الليل حين يكتب في إعجاز القرآن أو في الدفاع عن أدبه ، فلا يكون فيما ينشىء إلا وسيطاً ينقل عن قوة وراء الغيب . وأكثر ما وقع له ذلك في كتابيه «تحت راية القرآن» و «وحى القلم» . وكان من شذوذ النبوغ في الرافعى اعتداده بنفسه إلى حد الصلف ، واعتقاده بالغيبيات إلى حد السذاجة . وله في ذلك حوادث وأحاديث ربما عرض لها صديقنا العريان في ترجمته له .

والرافعى بعد ذلك كله كاتب من الطراز الأول قلما يجود بمثله هذا العصر المجنون الذي يتبجح بالسرعة ويأخذ حظه الضرورى من المعرفة مختصراً في رسالة أو معتصراً في مقالة .

* * *

هـذه كلمة مجملة كتبناها عفو الخاطر وفيض الذاكرة في ناحية من نواحى أدب الرافعى ، اعتمدنا فيها على خلاطه وحديثه وقراءته . أما دراسة الشرح والتفصيل ، والنقد والتمثيل ، والدعوى والدليـــــــل ، فتلك لها طريقة غير هذه الطريقة ، ومناسبة غير هذه المناسبة .

ليالى الحصاد

(١٣ يونيو سنة ١٩٣٨)

ياحبَّة الأمح زيدى واملى المخـــازنْ علينا
إنتِ دهب ملو إيدى لُولاكْ مرُحنا وجينـا
ياشمعة العـــز إيدى واجـلى بنوركْ عنينا
دا عيد حبايبى وعيـدى يا رب عـــودُهُ علينا

بهذه الأغنية الرقيقة كان صوت أمينة الوترىُّ الرخيم يموج لذيذاً فى مسمع الليل المقمر الساجى . وكان أترابها يُرجِّعن عليها اللحن ومناجلهن فى أيديهن تجز سيقان القمح فتسمع لها فى خلال النغم خشخشة آلة موسيقية غريبة !

كان ذلك فى إحدى الليالى بين أواخر مايو وأوائل يونية ، والزرع قد استحصد وتهالك بعضه على بعض من الذبول واليبس فلم يعد يقوى على حمل سُنْبله .

وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاء إلى الحقول الذهبية ، فى أيديهم المناجل ، وعلى أكتافهم الأردية ، وهم يوقعون على طرُق الربيع العشبية أهازيج الجذل والأمل فباتت القرية هامدة كأنما ضرب على آذانها الموت فلا تسمع سامراً على مصطبة ولا نابحاً على تل فأخذنى منها ما يأخذ السائر الوحِدَ من الغابة الملفة أو المقبرة الفسيحة فخرجت أنشد الفرجة والأنس فى حقل من حقولنا القريبة وكنت أعلم أن فى حصَّاده جوقة من الأوانس الحسان الوجه والصوت . فلما غمرنى ليل الحقول ، وملكنى سلطان الطبيعة ، أحسست فى نفسى دنيا جديدة لم أحسها من قبل

لا فى نهار الناس ولا فى ليل القرية ! فقد كان القمر حينئذ فى الفخت[1] يرسل أضواءه اللينة الرخية هادئة كإشعاع الحلم ، شاحبة كإسفار الأمل ، فيلوّن الغيطان والغدران والطرق بلون الفضة الكابية ، ونسيم آذار الندىُّ العبهرىُّ ينفح بطراءة الفردوس الإنسان والحيوان والشجر ، فينتعش الهامد ويتنفس المكروب وتتندى الحصائد ، فتسمع الجنادب تصر فى هشيم البرسيم ، والضفادع تنق على حفافى الترع ، والسواقى تنوح على رءوس الزروع ، والحاصدات يغنين فى مزارع القمح ، وطيور المساء تبغم على أعالى الدوح ، وكلاب الحراسة تنبح على أطراف الأجران ، فيكون من كل أولئك إيقاع موسيقىٌّ عجيب يبعث الروعة فى النفس ويلقى الشعر على الخاطر !

على أن هذه الأصوات المتجاوبة على نشوزها لم تكن هى مبعث السحر الذى غلب على مشاعرى ، وإنما كان مبعثه ذلك السجوّ العميق السحيق الذى ضرب على حياة الليل فهيمن على كل حس ، وسيطر على كل حركة ، فما نسمع الأصداء فى جوف هذا السكون إلا كما نرى الأنداء فى رمال المفازة .

كنت أمشى بين هذه الظواهر الليلية وئيد الخطو رزين الخيال مرهف الحساسة ، لا أجد فى طبعى ما كنت أجد فى النهار من مرح الصبا وخفة الحداثة ، فكأنما يضع الليل من ثقله على الجسد والفكر والشعور فيتغلب على المرء الهدوء والبطء . ذلك إلى أن الجو الاجتماعى فى القرى ليالى الحصاد يختلف عنه فيها أيام الجنى . ففى حصاد القمح يأخذ القرويين حالٌ من التدين الذاكر الشاكر ، لأنهم يتقبلون فضل الله فى الحبة المقدسة ليحفظوا بها

---

(١) الفخت : ضوء القمر أول ما يبدو .

البدن ويمسكوا عليها الروح ؛ فهى عندهم مرادفة للحياة ، يسمون خبزها (العيش) و (النعمة) ، ويتحرون فى كسبها الحل والحرمة ، ويذكرونها فيذكرون الرزق والصدقة والزكاة والبركة .

أما فى جنى القطن فيدركهم مس من الطمع والغرور فيحبون الدنيا ويعشقون المال ويرغبون اللهو ، ويذكرونه فيذكرون الربا والثراء والرواج والزواج والهم .

كنت لدى ساقية الغيط الراقدة فى كلة[1] من أغصان الصفصاف المرسلة حين ارتفع صوت أمينة الحنون بالأغنية التى ذكرت بعضها فى مطالع هذا الفصل . وكان الحصدة من رجال ونساء يزحفون إلى القمح بمناجلهم صفاً فيتركونه وراءهم أضغاثاً من الحصيد منظومة الأسافل والسنابل ، ثم يعودون الحين بعد الحين فيركمونها حزماً غليظة ويدعونها تنتظر النقل على الجمال إلى الجرن .

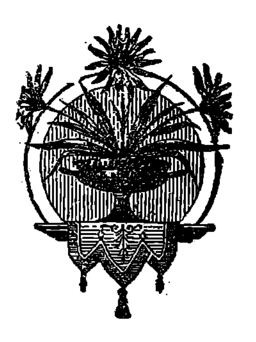
وأجمل ما فى ليالى الحصاد منظر الحقول المنبسطة على مدى الطرف وقد ضربت فى صفرتها أضواء القمر فابيضت ابيضاض المصريات الحسان ؛ ومجالسُ الشباب والشواب على حصائد القمح الوثيرة يديرون بينهم سقاط الحديث الفكه ويتبادلون فى احتشام كنايات الغزل الحيى ؛ وغناء الفتيان وزمرُ الفتية يتواردان على سمعك من قريب ومن بعيد ، فيفعلان فى نفسك مالا يفعله الموسيقار الحاذق ؛ ثم نوم هؤلاء وهؤلاء فى الهزيع الأخير على فرش من الحصيد تكلأهم عين العفاف ، وتتمثل فى أحلامهم صور الفضيلة . فإذا ما تنفس الصبح على وجوههم المطلولة هبوا إلى القناة

---

(١) الكلة : ناموسية السرير .

يتوضأون ويصلون ثم يعودون إلى مناجاتهم على أنشط ما يكون الفتى وأرضى ما يكون المؤمن .

أبداً لا أنسى أنني قضيت معهم تلك الليلة ، ثم نمت هذه النومة ، وقمت هذه القومة ، وأسفر عليّ ذلك الصباح الضاحك المنضور فأبصرت مسالك القرية تسيل بحاملات الفطور إلى الحصّاد ، وسائقات الماشية إلى المرعى ، ولاقطات السنبل من بنات الفقر ، فكان لي من جمال تلك العشية وضحاها ، لذة لا أزال أنعم بذكراها وأتمناها !



من الذكريات الجميلة

(١٨ يوليو سنة ١٩٣٨)



عرفت فى باريس عام ١٩٢٥ الآنسة (فرناند) ابنة أحد القضاة فى محكمة (ديجون) . كانت طالبة بالسنة الأخيرة من كلية الحقوق ، وكان لها بالمستشرق المرحوم (ب كازانوفا) أستاذ الأدب العربى فى (الكوليج دى فرانس) صلة قرابة أو صداقة ، فعرفنى إليها لتكون لى فى مدينة النور ما كانت (بياتركس) لدانتى فى جنة الفردوس .

وكانت هذه الفتاة آية فى الجمال والذكاء والظرف . وكان أعجب ما فيها أنها تؤلف فى نفسها بين المتناقضات ، فلا يكاد النظر العادى يلحظ ما بينها من التنافى ! فهى منطقية الفكر حرة العقيدة وهى خيالية الذهن شاعرية العواطف تؤمن بنيتشه كما تؤمن بالمسيح ، وتقدس جمهور الثورة كما تقدس ملكية البربون ، وتشيد بفتح العرب الأندلس كما تشيد بغزو الصليبيين لفلسطين ، وتعجب بروحية الشرق كما تعجب بمادية الغرب ، وتحدثك فى ذلك كله حديث المطلع المقتنع الفاهم ، فإذا أخذت عليها شذوذاً

فى قياس القضية ، أو نشوزاً فى سياق الحديث ، عمدت إلى المزاح البارع أو التهكم اللاذع أو الأسلوب الخطابى فتميت على لسانك البيان ، وتطير من عقلك الدليل .

أدهشنى منها إلمامها بأدب العرب وحكمة الإسلام وفلسفة الشرق فلما عرفت اتصال سببها بالأستاذ كازانوفا وهو الذى جعل فنه أساطير الشرق وأدب القرآن ، عزوت إليه هذا الميل وذلك العلم وعرفت منها بعدئذ أنها كانت تستمع إلى محاضراته فى التفسير ومسامراته فى الأدب ، وأنه أهدى إليها (حديقة الزهور) لصاحب المعالى الأستاذ واصف غالى ، وأعارها ترجمة ألف ليلة وليلة لماردروس ، فكان أكثر حديثها يدور على بغدادودورها التى تفيض بالنعيم والسحر ، وتنفح بالبخور والعطر ، وتمرح بالقيان والغزل ؛ وعلى دمشق باب الجزيرة إلى الفردوس ، وطريق البادية إلى الحضارة ، وملتقى القبائل والقوافل فى الخانات المملوءة بالسماسرة والتجار ، والأسواق المحفوفة بالمخامرات والأسرار ، والغوطة الفياضة بالجمال والحب ؛ ثم على مصر التى خلقت المدنية وأنشأت الفن وشرعت الدين وولدت موسى وآوت عيسى وتوجت الملوك بالشمس وكفنتهم بالذهب ودفنتهم فى الخلود ثم كانت تتحرق شوقاً إلى النيل وأيامه المشمسة التى يضحك فيها القطن ، ولياليه المقمرة التى يحلم بها النخيل فكنت أقرن شوقها إلى مصر بالدعاء إلى الله أن يهيىء لهذا المحيا الفاتن أن يتفتح نضيراً فى جوها الإضحيان الطليق

* * *

أدينا الامتحان معاً ثم أرسلت نفسى الحشيمة على هواها ومناها ، فزرنا معابد الطبيعة فى فنسين وسان كلو وفنتينبلو ، وحججنا محاريب الفن

فى الوفر والأبرا وفرساى   وكنت يومئذ أترجم « رفائيل » فكان ماأقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نسقاً عجيباً من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق لايدع للخيال الوثاب مسبحاً ولا للنفس الطامحة رغبة . ثم أحَمَّ الفراق ورجعت إلى مصر ولحقت هى بأهلها فى (روّان) .

كان بينى وبينها رسائل مسكية للداد وردية الورق ، تؤلف كتاباً من شعر القلب والعقل تناول فيما تناول الفروق الفاشئة بين الشرق والغرب من اختلاف وجهة نظريهما إلى الحياة ، إذ الحياة فى نظر الشرقى دار ممر ، وفى نظر الغربى دار إقامة .

وفى فبراير من عام ١٩٢٨ زارت مصر هى وزوجها وهو ضابط فرنسى كان فى طريقه إلى عمله فى جيش سورية ، فكنت لهما ترجماناً ودليلا مدى أسبوعين إلى مخلفات الفراعين وطلول الفسطاط وقطائع ابن طولون وقاهرة المعز . وسنحت الفرصة المرجوة فاجتمع القلبان والذوقان على فتون الشرق الحبيب   ورأيت من (مدام زوجيه) عزوفاً قوياً عن الشوارع الأوربية فى مصر الحديثة ، وولوعاً شديداً بالتجوال فى الغورية والنحاسين والجمالية وخان الخليلى ، وشوقاً ملحاً إلى استطلاع المجهول واستكناه الغامض واستخبار الناس واستحضار الماضى   وكانت كلما أوغلت فى هذه الأحياء ، واستبطنت دخائل هذه الأشياء، شعرت بالحاجة إلى زيادة الإيغال وإطالة النظر وإدامة التقصى كأنما كانت تبحث عن شىء تعتقد وجوده ولا تراه   ثم قالت ذات مساء وهى على شرفة القلعة تشاهد مغرب الشمس من وراء الأهرام :

— رباه ، إن وراء هذه الآثار التى أجهدها الدهر ، وهذه المآثر التى شوهها الجهل ، وهؤلاء الناس الذين مسخهم الفقر ، لروحاً خفية تبعث من خلال هذه الأغشية الكثيفة هذا الشعاع اللطيف الذى يشرق فى هذه الوجوه الشقية المحروسة فيبدد عنها كرب العيش .

هذه هى روح الشرق الإلهية المجهولة فمن زعم أنه يحكم عليها من وراء هذه الأخلاق المنحلة والنظم المعتلة والمشاهد الزرية ، كان كالذى لم ير الشمس ثم يحكم عليها من وراء الضباب والقتام[1] والبعد ! ، اجلوا عن هذا الروح العظيم هذه الغشاوة ، واكشفوا عن هذا الجوهر الكريم هذا الرغام[2] ، ثم اجعلوه إلى جانب الغرب الخلاق بالعلم البراق بالصنعة واحكموا بينهما ؛ فلعلكم بذلك تكونون أدنى إلى السداد .

(١) القتام : الغبار الأسود .
(٢) الرغام : التراب .



يا لله لفلسطين !

(أول أغسطس سنة ١٩٣٨)

يا لله لفلسطين مشرق الهدى والسلام ، ومهبط الوحى والإلهام ، ومجتلى عين موسى ، ومسرح قلب عيسى ، ومسرح روح محمد ، وقدس الأديان الثلاثة ، وقبلة الإسلام الأولى ، ومهد الأنبياء ، ومقبرة الرسل ، ومسعد الشرق والغرب ، ومجرى العسل واللبن ،

يا لله لفلسطين ، ماذا فعلت بها الأحداث وجرّت عليها المطامع ؟ أبعد أن رفع الإسلام عنها آصار العبودية وأوزار اليهودية تعود بها المقادير السود إلى استعمار (طيطوس) القاهر ، واستثمار (يهوذا) الجشع ، فيعود إليها الفساد والفوضى والقهر والفقر والموت ؟

أبعد أن استخلصها لعروبة (عمرو الداهية) من (أرطبون) ، وسجل استقلالها العالمى (صلاح الدين) على ناصية (جودفروا) ، تستبيح ذمارها طرائد البشرية وفى صدورهم تِراتُ الأمم وحزازات القرون ، فينزلونها نزول الوباء ، ويحلونها حلول الفتنة ، ويمتصونها امتصاص العلق ؟

لقد قال المسيح للملك اليهودى الذى منعه ظل جداره وهو مجهود ، وحرمه قِرى داره وهو جائع :

« ستظل تائهاً فى الأرض حتى أعود ... »

فهل عاد المسيح فى ثوب (بلفور) أم كذبت نبوءة « السيد » ؟ إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمى إسرائيل ، فهو لا يثبت له قدم فى أرض ، ولا تطمئن له نفس فى وطن . وكان من أثر ضلاله البعيد فى الآفاق أن

ا كتسب خلائق النّور : فهو يلص ليعيش ، ويخدع ليغلب ، ويستوحش ليأمن ، ويتعصب ليدافع ، حتى انقطعت بينه وبين الناس وشائج النوع ، فأصبح خلقاً آخر لا يألف ولا يؤلف فمحاولة إسكانه مع غير أهله وفى غير أرضه تكذيب لكلمة الله وتزوير على قانون الطبيعة

ليس بصددى اليوم أن أفند هذه السياسة المريضة ، فحسبها منطق الحوادث وأدلة الواقع ، إنما أريد بهذه الكلمة أن أصور فلسطين العربية بين بحر يرشها باليهود والحرب ، وقفر يحصبها بالمرض والجدب ، وأخواتها فى العروبة وفى الإسلام مطمئنات عَلَى ضفاف الأنهر الضاحكة بالنعيم ، وعلى رياض السهول الفواحة بالنعمة ، ينظرون إليها نظر الغرير الأبله وهى تمشى فى النار وتخوض فى الدم ، وتطلب القوت فلا تجده ، وتنشد الأمن فلا تناله أريد أن أصور حال هؤلاء الكماة الأباة الذين يغاديهم الفزع ويراوحهم الموت ، وهم يدافعون عن حقهم فى الحياة ، وينافحون عن مرقدهم من الأرض ، ويقولون للواغل الثقيل والعادى الدخيل : إنها موتة لا مناص منها ولأن تنتثر أشلاؤنا على أديم الوطن ، وتقبر أجسادنا فى ثرى الأجداد ، أحب إلينا من أن نعيش عيش اليهود ، شرداء فى كل طريق ، طرداء فى كل بلد ؛

لقد شن يهود الأرض على عرب فلسطين الحرب فى صراحة ووقاحة ، وأعلنوا الجهاد الدينى والقومى بالتطوع والتبرع ، وسلحوا ذؤبانهم بالمنايا والمنى ، ودفعوهم فى وجه الحق والعدل والشرف ومن ورائهم مصارف اليهود تمدهم بالذهب ، ومصانع الإنكليز تمدهم بالحديد ، فانطلقوا يخربون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ، ويحصرون المؤمنين الآمنين فى أجواف الدوروفى شعاف الجبال لايجدون منصرفاً إلى الزرع ولا سبيلا إلى القوت ، وقد شغلهم الدفاع المقدس عن الحى والنفس عمن وراءهم من الشيوخ والأطفال والنسوة ،

فيتركوهم يتضاغون من الجوع ، ويرتعدون من الخوف ، ويكابدون برحاء الهموم على وطن يستبيحه الغريب ، وشعب يتخطفه الموت ، وحق يتحيفه الباطل ، ومستقبل يتكنفه الظلام ، وحال من البؤس تقطع الرجاء وتوهي الجلد لولا إيمان المسلم وبسالة العربي واستماتة المظلوم .

فلسطين العربية كلها اليوم بين منفي يلوذ بكنف الأعداء ، وضعيف يتلهى بالدعاء والبكاء ، ومدافع يقتات بالعشب ويعتصم بالصحراء ، وليس للمنفي شفيع إلا الأمل ، ولا للضعيف عائل إلا الصبر ، ولا المدافع منجد إلا الإيمان .

أما إخوة النسب وإخوان العقيدة فكأنهم لا يملكون لمأساة فلسطين الدامية إلا عزاء الجامل ، ورثاء الشاعر ، ودعاء العاجز ، وبكاء المرأة

أيها المسلمون ! إذا ذهبت عصبية الجنس فهل تذهب نخوة الرجولة ، وإذا ضعفت حمية الدين فهل تضعف مروءة الإنسان ؟ إنا لا نقول لكم تطوعوا ، ولكنا نقول تبرعوا . وليس في التبرع للجريح بالدواء وللجائع بالغذاء نقض لمعاهدة ولا غدر بصداقة ، وأقل ما يجب للقريب على القريب وللجار على الجار يدٌ تواسي في الشدة ، وقلب يخفق في المصيبة ، ولسان يحتج في المظلمة فهل يزكو بعروبتكم والجود غريزة في كيانها ، وبإسلاميتكم والمواساة ركن من أركانها ، أن تقفوا من فلسطين موقف الخلي المتفرج يسمع الأنين فلا يعوج ، ويبصر الدمع فلا يكترث ؟

إن فلسطين تقاتل للحياة لا للمجد ، وتناضل عن القوت لا عن العزة وخليق بمن يدفع عن نفسه أن يعان ، وبمن يذود عن رزقه أن يعذر .

إن فلسطين من البلاد العربية بمكان القلب ، ومن الأمم الإسلامية بموضع الإحساس وسيعلم الغافلون أن محنتها سبيل المسلمين إلى التعاطف ، وصرختها نداء العرب إلى الوحدة .

أسبوع محسور

(٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨)

لم يَعُد الناس فى هذه الأيام ناساً لهم دين ومدنية وفلسفة ، وإنما عادوا كما بدأهم الله أصحاب غلبة وأثرة وبغى يتخاطبون بلغة القوة ، ويتجادلون بمنطق الذئب[1] ، ويتصاولون بعصبية الجاهلية ، ويسرف عليهم الطغيان فينزلون عن نفوسهم المريدة ليكونوا قطعاناً من البهم تسوقهم عصا واحدة إلى المزرعة أو إلى المجزرة

ها هو ذا إنسان القرن العشرين ينسى أنه تقدم حتى جاوز حدود الغيب ، وارتقى حتى بلغ أسباب السماء ، وتعلم حتى هتك أستار الكون ، وتهذب حتى تخلق أخلاق الملائكة . ينسى ذلك ويعود فيقف على الصخرة الصماء التى هبط عليها أبوه آدم من الجنة ، عارى الجسم من زينة المدنية ، فارغ النفس من كرم الدين ، مجرد العاطفة من جمال الأدب ينظر إلى فريسته الدامية وفوه يتحلّب ريقاً ورمحه يقطر دماً ، وأشباهه من حوله بين مطعون يتوجع ، وموهون يتضرع ، وموتور يتوعد ؟

وقف الحاكم بأمره[2] على منصة هائلة يحملها سبعون مليون رأس ، ونظر بعين النسر إلى فرائسه السمان وهن آمنات فى حمى القوانين ، غافلات فى ظلال المعاهدات ، فثارت الشهوة فى نفسه ، وعصفت القوة فى رأسه ، وزأر زئير الأسد المسعور ، وفغر فاه الجهنمى الأهرت[3] عن

---

(١) تلميح لقصة الذئب مع الحمل

(٢) هتلر وهو يخطب فى مشكلة السوديت بتشيكوسلوفاكيا التى انتهت بمؤتمر مونيخ

(٣) الأهرت الواسع .

وسائل المنايا الحمر والسود تضطرب فى لعابه ، وتصطخب على أنيابه، فجزعت البشرية ، وريعت الديمقراطية ، وخنست المدنية ، وخرست عصبة الامم ، ووقفت حجج تشمبرلن أمام رغبات هتلر موقف المضغة الصغيرة أمام الحريق المهول ، وأصبح العالم كله لأول مرة فى تاريخ حياته يهذى فى جهاته الأربع هذياناً واحداً من حمى واحدة هى : إعلان الحرب وويلات الحرب ونتائج الحرب ،

إذن لم يبق لعلاج ابن آدم حيـــلة ، فشرائع الله ومذاهب الحكماء ومراشد العقول ومناهج التربية لا تجـــد سبيلها إلى قلبه إلا حين تسكن الطبيعة فيه فإذا ثارت به لسبب من الأسباب كان حاله كحال العواصف والزلازل والفيضانات والبراكين لا تعرف الأرصاد ولا المقاييس ولا الحواجز وحينئذ تمّحى مظاهر الوجود الإنسانى فلا ترى الشطئان الجميلة ولا الأودية المترعة ولا المدن الفخمة ولا الحضارة الرائعة ،

منذ أسبوع تحركت طبيعة الإنسان الأصيلة فى الدولتين الدكتاتوريتين[1] على حين غرة ، فوقع العالم كله فى بحران من القلق على حضارته وسلامته وحاول الكتاب بالبلاغة والحكمة ، والساسة بالمنطق والحيلة ، أن يدفعوا وقوع الكارثة أو يؤخروا يوم القيامة فما رجعوا بطائل ولم يكن ذلك لأن الخلاف بين (برلين) و (براغ) لا يدخل فى نفوذ العقل ، وإنما كان لأن الذئب متى صمم على افتراس الحمل بطل كل دليل وأبدعت[2] كل حجة وإذا انفجر البركان ودوّت حممه وسال حميمه ، فمن ذا الذى يقول للطبيعة : رويدك يا أمة الله ! إن على السفوح وفوق السهول ملايين من عباد الله لهم حق الحياة وليس عليهم أن يموتوا ليتنفس (فلكان)

---

(١) ألمانيا وإيطاليا (٢) أبدعت الحجة : ضعفت

من ضيقه فى السماء ، ويشفى من غليله على الأرض ؟ .

هذه أزهار الشباب النضرة فى أوربا الجميلة تنظم عقوداً وأكاليل لتذويها سموم الحرب فى غير ذياد عن حرمة حق ولا جهاد فى سبيل مبدأ فهل درى هتلر وصاحبه أن كل زهرة من هذه الزهرات بهجة بيت وسعادة أسرة ؟

إن السلام العالمى يحتضر الآن بين قرع النواقيس وصلاة الرهبان ودعاء الآباء وبكاء الأمهات ، والفكر الإنسانى ينظر خزيان إلى كبره وهو يتطامن ، وإلى جهده وهو ينهار . فهل استطاع حماة السلم وأساته أن يحفظوه ومن ورائهم كل حى يطلب الحياة ، وكل ضعيف يرهب الموت ، وكل فتاة تنشد الحب ، وكل أم تلعن الحرب ، وكل رافه يريد الطمأنينة ؟ ماذا يصنع الطب إذا انتشر الوباء ؟ وماذا ينفع الكوخ إذا عصفت الأنواء ؟ وماذا تغنى المذاهب والقوانين والنظم إذا عارضت هوى الطبيعة ؟

لا جرم أن الحرب سلاح من أسلحة الطبيعة تدرأ به عن نفسها الفضول والجمود والوهن ؛ فهى نوع من التشذيب والتطهير والتنقية تصلح عليه الدنيا ويتجدد به الوجود ولا ريب أن الديمقراطية نظام من نظم الناس أقاموه على الحرية والمساواة ، ودعموه بالفلسفة والقانون ، ونشروه بالأدب والفن ، وقرنوه بالسلام والأمن ؛ وفى كل أولئك كفكفة لسلطان الطبيعة فهى لذلك تحاربه بضده كما تحارب الحياة بالموت ، والخير بالشر ، والجدة بالبلى ، فتسلط عليه الطغيان المطلق فى بعض الأمم فيخضد من شوكته ويقلل من هيبته حتى يشك الناس فى أثره وغنائه فالدكتاتورية إذن هى نكسة الداء الحيوانى فى الإنسان المهذب

تعود به إلى حمى الشهوة وكَلَب الوحشية فلا يفهم غير لغة السباع ، ولا يخرج من النزاع إلا بالصراع .

فمن زعم أن السلم العالمية تحفظها عصبة الأمم أو تحالف الدول أو تقدم الحضارة فقد أحسن الظن بالإنسان إلى حد الغفلة ، وأساء الفهم للطبيعة إلى حد الجهالة إنما يحفظ السلام السلاحُ الإيجابي وهو القوة وهذا السلام لايمكن أن يكون إلا نسبيا ووقتياً بالضرورة ؛ فإن القوى إذا تكافأت تساقطت ، وإذا تفاوتت كان هناك الآكل والمأكول والغانم والغارم وهكذا قضى الله على الحياة أن تكون دولة بين الفساد والكون، تبنى جانباً بهدم جانب ، وتوجد حياً من عدم حى ، وترفع دولة على أنقاض دولة . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .



شيطان

(٧ نوفبر سنة ١٩٣٨)

كان الناس منذ عهد قريب يقرأون فى القصص الغربية أفانين من فجور النفس وقحة الهوى وبغى الفتنة ، فتفيض عيونهم من الدمع رحمة للزوجة التى أعمتها الغواية ، وللزوج الذى أشقته الخيانة ، وللطفل الذى أيتمه الطلاق . ثم يُسرّى عنهم أنها فجائع إن تكن فى الغرب فنحن فى الشرق ؛ وإن تكن من زور الخيال فنحن فى حقيقة الواقع ؛ حتى عشنا معيشة أوربا وفتحنا دورنا لكل طارق ، وصدورنا لكل متودد ، فأصبح ما يجرى هنا صورة لما يجرى هناك ، وما كان معدوداً من خداع الفن صار جارياً على نظام الطبيعة !

عرفت زوجين شابين تعارفا بالجمال وتآلفا بالحب ، ثم عاشا على اختلاف الدار والجنس معيشة أهل الجنة : صفاء غير مشوب ، وولاء غير مكذوب ، ورخاء فى ظلال النعيم والأمن يبسط المشاعر وينشر الأنس ويجمل الحياة . كان الزوج مثلا فى الإخلاص والرعاية لزوجه ، فلا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا لها ، ولا يفهم وجوده إلا مضافاً إليها أو متصلا بها . وكانت الزوجة آية فى الوفاء والطاعة لزوجها ، تقاسمه همّ العمل ، وتساهمه دَعة المنزل ، وتبادله رجاء المستقبل ، وتتقلب معه فى الشدة والخفض غير متبرمة ولا متجهمة ، وكانا معاً بهجة الأسرة وأنس الأصدقاء ، فلا يخلو بيتهما من سمر ، ولا ليلهما من زيارة ، حتى أصبحا فى بيئتهما الخاصة مثلا مضروبا فى الزوجية الموفقة والحياة السعيدة .

وكانت حياتهما الأوربية تقضى عليهما أن يكابدا التعرف العارض والخلاط المستمر . والعصمة من شرور الأخلاق فى مثل هذه الحال لا تجد لها مناطاً إلا ثقة

الزوج في الزوج ، واطمئنان النفس إلى النفس . وثقة الرجل المثقف بالمرأة المثقفة. والثقة أصبحت في المجتمع الحديث من القضايا المسلمة والأمور المفروضة. فلا ينبغي أن تحوم حولها شبهة ، ولا أن يقوم عليها جدل .

وكان فيمن يختلف إلى بهوهما الأنيس الباش فتى من أهل الرواء خداع الملامح ، خلاب الأحاديث ، يعد نفسه في الطراز الأول من ثقافة الفكر والخلق . تقلب طويلا بحكم منصبه في البيئات الدبلوماسية المختلفة ، فحذق الكلام والمنذام ، ومهر الغناء والرقص ، وأحكم النظرة التي تنفذ . والبسمة التي تقول ، والالفتة التي تعجب . وامتلأذهنه من صور الدنيا وحوادث الناس فكان جميل المحضرة عذب المفاكهة حتى ليستولى على المجلس فلا يترك فيه مسمعاً إلى أحد . وكان مذاعاً يتمزى[1] على زملائه ، ويتبجح بالحظوة عند رؤسائه ، ويلقى في روع السامع أن له المكانة المرفوعة والكلمة المسموعة والغد المضمون ، فاستطاع بكل أولئك أن يخدع الزوجين بمظهره عن جوهره ، فكبر في نفس السيد ، وحلا في عين السيدة .

ودخل هذا الفتى جنة الزوجين دخول ابليس فحرك فيها السموم وسفى عليها الكدر ! فلا الزهر نفاح ناسم ، ولا النسيم رخيٌّ أرج ، ولا الجو بهيج طلق ، ولا العش الصادح في أفياء الشجر ناعم آهل ! وسوس الشيطان لحواء قال لها : إن السعادة في بيت غير هذا البيت ، والثروة عند رجل غير هذا الرجل ، والجاه في منصب غير هذا المنصب ! وهذه المزاية التي لك عَلَى الأتراب في الجسم والفكر والطبع لم يجملك بها الله لتحبسيها في هذا القفص الشعرى الذى تهدده الأحلام على نغمات الحب والأمل . ليست الحياة كلها شعراً ياحواء ! وإن بجانب النفس الشاعرة نفوساً أخرى هواها في المال واللهو والسلطان والعظمة . ومن زعم أن نعيم

---

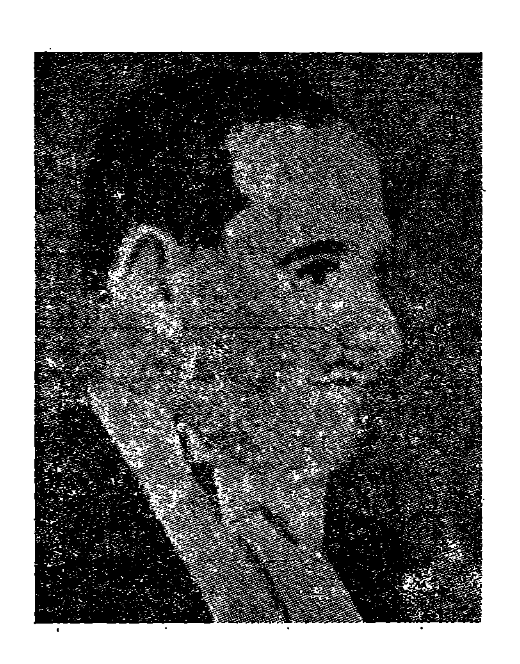
(١) المذاع : الكذاب ؛ ومن لا يحفظ أحدا بظهر الغيب . ويتمزى : يظهر المزية

الدنيا فى الغزل وزينتها فى الرياض وبهجتها فى المنى ، فقد أنكر المعروف وتجاهل الواقع . وكان الشيطان المغوى حدث نساء فعرف كيف يندس بالخديعة إلى الزوجة الضعيفة ، فأصغت إلى نزغاته بأذنها ثم بقلبها . ثم أصبحت فإذا زوجها مشؤوم وبيتها موحش وعيشها تافه . وأحست برباط الزوجية يشتد على حناياها اشتداد الوثاق على ضلوع الأسير لم تعد الجنة فى عينها هى الجنة ، ولا آدم فى قلبها هو آدم ! وأوهمها الخبال أو الخيال أن النعيم المقيم هو فى أكناف إبليس على متون السحب وربى الجبال وشطئان الأبحر . ولكن عشر سنين قضتها مع الزوج الوفى فى نشوة متصلة من الحب المؤاسى لا يمكن أن تخفت أصداؤها العذبة فى لحظة . فكانت كلما تخلصت من فعل الغواية صارحت زوجها بأنها تحب هذا الفتى حبا غطى على بصرها وبصيرتها ، فهى لاترى ولا تفهم وسألته يوماً أن يحتال لبرئها من هذا الخبل ، فاتفقا على أن ترحل إلى أوربا تنشد فى جوائها المختلفة السكينة والسلو ، حتى إذا أقبل الصيف وتعطل العمل لحق بها زوجها ، فربما انجاب الغشاء عن العين والقلب فأبصر الأعمى ورشد الغوى ! ولكن الفاجر علم بسفرها المفاجىء فطلب إجازة طويلة من الوزارة التى يعمل فيها وتبعها إلى مصيفها وهى وحدها توازن فى هدوء العزلة بين ماضى الزوج الواضح ومستقبل الحبيب المبهم ، فأسقط من يدها الميزان ، وأيقظ فى صدرها الحيوان ، وأفسدها على نفسها وعلى زوجها وعلى أهلها فساداً لا يرجى معه صلاح !

ثم امتدت يد القدر تحل عقدة هذه الرواية ، فإذا الزوج وحيد يعانى غصص الألم ، والزوجة مطلقة تتجرع مرارة الندم ، والشيطان الرجيم يقطع البحر عائداً إلى منصبه الكبير فى وزارة . . يشارك فى أمور الدولة على هذا الخلق ، ويتصل بالأسر المخدوعة على هذا الوجه . . !

الغازي أتاتورك

(١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨)



ربما كان (كمال أتاتورك) أضعف من (مصطفى كمال) في الدلالة على نشور دولة في قائد، ونبوغ أمة في رجل، وبلوغ حكومة في زعيم، وتاريخ نهضة في حياة فرد! فإن (مصطفى كمال) اسم على كل أولئك جميعاً، نقشته في الآذان والأذهان الأقدار المصرّفة والعبقرية الخلاقة في مدى عشرين سنة! ولكن (أتاتورك) لقبٌ أطلقوه على النسر المحلق بعد ما قص مخلبه وطوى جناحه، فلم يطر معه في جو، ولم يقع به على فريسة، ولم يدل إلا دلالة الأبوة على الأسرة الطائعة والألفة الجامعة والرعاية الحنون.

لم يكن مصطفى كمال — رحمه الله — رجلا من رجال المصادفة والحظ، يرفعه إلى البطولة خلو الميدان، ويدفعه إلى الزعامة غباء الأمة؛ وإنما كان من الصفوة المختارة الذين يضع الله فيهم الهداية للقطيع الذي يوشك أن يضل، والحيوية للشعب الذي يأبى أن يموت. والغالب في هذا الصنف من الناس

أن يكون مستبداً برأيه ، حاكماً بأمره ، لأنه يظهر والقوم في ضلال أو انحلال ، فيكون تفرده بالأمر تنبيهاً من الله وتوجيهاً من الطليعة ، ومن ثمّ كان المضاء والفداء والإيثار والعدل من أخص صفاته

جرت الطبيعة في تهيئة مصطفى كمال على منهاجها في تهيئة الأبطال ، فولدته في مهد الفقر ، وربته في مدارج القرية ، وغسلته بأنداء الحقل ، وسقته من عَرق العمل ، ففلح الأرض ، ورعى الغنم ، وتلقى من الطبيعة الصافية الحرة أخلاق البطل الذى رمى المنجل وأخذ السيف ، وانصرف عن قيادة القطيع إلى قيادة الأمة .

تستطيع أن تقول : إن الوراثة المختلطة والنشأة القروية والبيئة المقدونية والأمّ الصالحة قد فعلت فعلها جميعها في تكوين مصطفى كمال ، ولكنك لاتستطيع أن تَرد إلى عامل من هذه العوامل ذلك القلق الروحى الذى استولى عليه في جميع أطوار عمره ، فتركه ثائراً لايهدأ ، وطامحاً لايرضى ، ودائبا لايستقر . إنما هو سر النبوغ يذيع ، وقبس الإلهام يتقد ، وفيض الحيوية يزخر ؛ فهو راع قلق في المرعى ، وطالب ثائر في المدرسة ، وقائد متمرد في الجيش ، وزعيم مسيطر في الحكومة !

رأى مصطفى طغيان عبد الحميد يخنق الحرية ويزهق النفوس ويرهق الضمائر ، فقاومه وهو يافع في جماعة (الوطن) ، وهاجه وهو شاب في (جمعية الاتحاد والترقى) ، وقضى على تراثه كله وهو كهل في (المجلس الوطنى الكبير) ، ثم كان في كل عمل تولاه يمضى مضىَّ الأمر المقدور فلا يتقيد برؤسائه الألمان ولا بزملائه الأتراك إذا رأى الفوز في خطته أو الصواب في رأيه .

وعصفت الحرب الكبرى بغليوم وبوحيد الدين ، ومزقت معاهدة (سفر) رقعة الإمبراطورية العثمانية بين الحلفاء ، فكان لكل حليف درة من تاج محمد الفاتح ، حتى لم يبق للخلافة إلا موضع العرش ونزل الخليفة ووزراؤه على حكم القادرين فاعترفوا بالضيم واستكانوا للمذلة واعتقد الناس أن (الرجل المريض) لفظ نفسه فلا حس ولا حركة ، ولكن الشعوب الحربية ينتخلها الانتخاب الطبيعى فلا تموت بالصيحة كما تموت الشعوب الوديعة ، فبقيت الروح التركية تضطرم وتفور فى مصطفى كمال ورفاقه الميامين على شعاف الأناضول ، فجمعوا فلول الجيش المحطم وكروا به على اليونان فكبكبوهم فى البحر ، وضعضعوا عزائم الأحلاف فهادنوهم فى (مودانيا) مهادنة النصر ، وعاهدوهم فى (لوزان) معاهدة الاستقلال وبعثت تركيا من جديد على صرخة كمال وأنصاره كما يبعث للقبـــــور على نفخة الصور ، عارية من دنياها القديمة ، منقطعة عن ماضيها الغابر ، فاستبدلت الجمهورية بالخلافة والقبعة بالطربوش ، وفصلت بين الدنيا والدين ، وكتبت من الشمال إلى اليمين ، وأدارت ظهرها للشرق ، وساوت بين الرجل والمرأة فى الحق ، وسجلت نفسها فى عصبة الأمم من مواليد هذا القرن !

قالوا : إذا كان محمد من جهة البشرية معنى العرب ، فإن مصطفى كمال من هذه الجهة معنى الترك ووجه الشبه فى زعمهم أن أتاتورك أحيا وجاهد وأصلح وشرع ، وأن مبادئه ستنطبع فى العقلية التركية فلا تصدر إلا عنها ولا تسير إلا عليها وقد فاتهم أن نهضة محمد يسددها قرآن ويسندها وحى ، وأن توطنها فى القلوب آتية من اقتنـــــاع العقل لا من شدة السلطان وقد انتقل العرب على هدى قائدهم الأعلى من حال إلى حال لا يقاس ما بينهما من البعد والاختلاف بما بين حالى الترك ، ومع ذلك ظلوا

فى طريقهم الواضحة إلى ثلاثة عشر قرناً ونصفا لاينكصون ولا يضلون . فليت شعرى أيظل الترك فى طريقهم إلى الغرب بعد أن همد الصوت المهيب وسقطت العصا للهدة ؟ إن الناس ليختلفون فى الجواب عن هذا السؤال . ولعل كثرتهم يعتقدون أن التغلب على العقائد المغروسة والتقاليد الموروثة والآثار الماثلة لايتيسر فى هذه المدة ولكن المختلفين والمتفقين كلهم لسان واحد على أن كمال أتاتورك أعظم من أنجبت تركيا شجاعة قلب وبراعة ذهن وأصالة رأى وطهارة يد وسلامة ضمير .

تغمده الله برحمته ، وجعل ثوابه كفاء لصدق جهاده وحسن نيته .



ليت للأوقاف عيناً !

(٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

ليت للأوقاف عيناً تخترق الجُدُر وتشق الأستار فترى ماذا يصنع البؤس بأهله ! إنها وا أسفا تسمع ولا تبصر : تسمع ذلك البؤس الملحّ الوقح الذي يغضب ويصخب ويثور ، ثم يقتحم عليها الحُجّاب والأبواب ومعه فوق لسانه الملحف بطاقة من كبير أو وساطة من موظف . وهذا البؤس الذي يدع لأهله قوة السعي وبراعة الحيلة لا يكون في أكثر حالاته إلا طامعاً أو حرفة . أما ذلك البؤس الدفين الصامت الذي يستعين على ضحاياه بكبرياء نفوسهم فيسلبهم الحس والحركة ، ويمنعهم الأنين والشكوى ، فلا يراه إلا الله الذي فرض الزكاة وأوجب الرحمة ، وجعل على عباده خليفة منهم ينطق بلسانه ويرى بعينه ويحكم بأمره .

إن في بعض الدور ومن وراء الستور ظلالاً من الحياة الغاربة على أمثال الخيال من بني آدم ، تنسِم أنفاسهم الضعيفة بما بقي من أرواحهم الخافتة في إسلام مؤمن واستسلام صابر . فإذا كشفتهم الحاجة للعيون حسبهم الجاهل أقوياء من الصبر ، أغنياء من التجمل ، حتى يستوفوا أجلهم المكتوب فتذهب بهم المنون وهم في وحدة الفقر ، كما تذهب شمس الصحارى بأنداء الفجر .

كان لنا جارٌ في مدرسة شبرا الثانوية يجثم تحت جناحيه أربع بنات وثلاثة بنين وزوجة وأم ، يقلبهم على ما يشتهون من لذاذات العيش الغرير ، فيأكلون أكل السرف ويلبسون لباس الترف ويلهون لهو المجانة ، حتى كانت غرف البيت من فيض النعيم ومرح العافية كأعشاش البلابل سالمتها

الأحداث فى جنة من الحب والماء والشجر . ثم لحظتها عين الدهر فأصيب الأب بمرض السكر ، وعقر إصبعه الحذاء ذات يوم فأصابته قرحة ساعية[1] . فنقلوه إلى المستشفى القبطى فبتر الجراح رجله . وسعت عليه زوجه بالمال والأمل فلم تستطع أن ترد قضاء الله ولا أن تدفع عادى الموت واتقلب المنزل الفرح المرح النشوان قبرا رهيباً يغشاه الحزن ويجلله السواد وتخيم عليه الوحشة فلا زوار يقدمون بالهدايا ، ولا سمار يفدون بالأنس ، ولا ولائم تشرق فيها النفوس والكئوس كل جمعة .

وبحثت الزوجة عما خلّف الزوج الراحل فلم تجد غير ذلك المال الذى كان تحت يدها وقد أنفقته كله فى العلاج والجنازة ونجمت حول بيتها الحزين رءوس الدائنين تندلع ألسنتها بالمطالبة الفاضحة ، ففزعت إلى وزارة المعارف تسألها أن تسرع فى أداء مالزوجها من الحق ، فأعطتها بعد لأى مكافأته على السنين السبع التى قضاها فى مدارسها فقد كان من قبل مدرساً بأحد مجالس المديريات ، فلم يجتمع له الزمن القانونى لا ستحقاق ورثته جزءاً من المال على سبيل المعاش . وذهب الغرماء بالمكافأة ، وبقيت الزوجة وحماها وبنوها السبعة فى غشية الهم وصدمة الواقع ، يتلمسون نفساً من الكرب أو شعاعاً من الرجاء يطالعهم من قريب أو صديق فلم ينالوا . وتذكرت الأيم المسكينة أن زوجها كان يعلم ابن وزير الزراعة فلاذت به تسأله أن يساعدها بجاهه على تربية أولادها فى مدارس الوزارة فتخلص منها بخمسة جنيهات ثم أغلق من دونها بابه .

كان بين الزوجين مائة قرابة . وكانت أسرتهما من الأسر الريفية التى

---

(١) القرحة الساعية : هى التى تمتد من موضع إلى موضع وهى خلاف الواقفة .

ألوى بها الدهر المديل فلم يبرق منها إلا عجائز وأيامى يعشن على معونة الأستاذ الفقيد ، وإلا موظف صعلوك فى شركة (سنجر) لم تره الأرملة إلا يوم الجنازة . وقد حملها هذا الموظف بغروره على أن تنفق خمسين جنيها على ليلة للأتم ، لأن أقطاب التعليم وأعيان الأدب الذين سيتفضلون بالتعزية لا ينبغى أن يثووا إلا على الطنافس الفارسية ، ولا أن يجلسوا إلا على الكراسى الذهبية !

وكان للفتاة الكبرى خاطب غنى من أصحاب أبيها ، فلما وقف على حال الأسرة بعد كاسبها انقطع خبره فكأنما غاب معه فى قبر واحد ! وعجزت الأم عن دفع النفقات المدرسية لبنيها وبناتها ، فظلوا حولها فى البيت يندبون الميت ويبكون الحى ويسدلون على مأساتهم الفاجعة ستاراً من الصمت والعزل حذر الشامت ، فما كان بابهم ينفتح إلا لتجار الأثاث القديم يخرجون منه بصفقة بعد صفقة من الفرش أو المتاع .

ولبثوا على هذه الحال ستة أشهر لم يدفعوا عنها شيئاً من كراء المسكن للحاج محمود ، حتى أدركته عليهم شفقة المؤمن ، فنزل لهم عن الدين ونقلهم إلى غرفتين على سطح من سطوح منازله الكثر يسكنونهما من غير أجرة .

وتركنا حى شبرا منذ خمس سنين فلم نعد نعلم من حال هذه الأسرة المنكوبة شيئا .

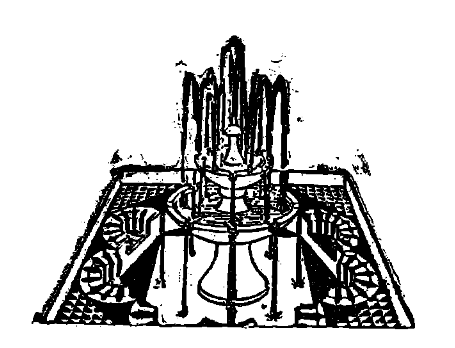
وفى صباح أمس الأول كنت فى ميدان باب الحديد ، فتقدم إلىّ صبى من باعة الصحف يحيينى وهو يبتسم . فتفرسته فإذا هو إبراهيم أوسط الإخوة الثلاثة ! فصحت به مستطارَ القلب من دهشة المفاجأة :

— ابراهيم ؟ ماذا فعل الله بكم يامساكين ؟

مرضت أمى بالروماتزم فلا تنهض ، وعميت جدتى من الحزن

فلا تسعى ، وتزوجت أختى الكبرى من أحد السعاة فلم تصبر على عشرته غير ثمانية أشهر فهى تخيط بالأجرة ، وأختى الوسطى تدير للغزل ، وأختاى فلانة وفلانة تخدمان ، وأخواى فلان وفلان يعملان أحدهما صبى كواء والآخر خادم بقال ، وأنا كما ترى وكل ما نكسبه جميعاً فى اليوم لايتجاوز ثمن الخبز !

ألا ليت شعرى متى تقيم الحكومة الركن الخامس من أركان الدين وهو الزكاة ، فتتحقق به أخوة الإسلام ، وتنجلى عن الناس هذه الآثام والآلام ؟



بل ليت للأوقاف قلباً !

(١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

ذلك ما ابتلانى به رجل يهدف للخمسين ، أشمط الرأس أصهب الشارب جركسى البشرة ، يترجم كلامه عن العزة ، وينم هندامه على الفاقة ، ويشير سمته إلى مسحة من الأرستقراطية تتراءى ضئيلة على معارف وجهه وحركات يده .

دخل علىّ المكتب أول أمس فى أدب كأدب البيوتات الكريمة الدارسة سلام نحس فيه تواضع الملوك وكبرياء الملك ، وبسمة متملقة تجرى على شفتيه الرقيقتين كأنها من طبيعتها خلقة ؛ وأسلوب هذبه (الإتيكيت) فهو مختار اللفظ موزون الإشارة شكر لى مقالى (ليت للأوقاف عيناً) الذى افتتحت به عدد الرسالة الماضى وقال :

إذا كان طلاب الأوقاف الخيرية يتمنون أن تكون للوزارة عين ، فإن طلاب الأوقاف الأهلية يتمنون أن يكون لها قلب أولئك يشكون أنهم ييأسون من وراء عينيها فلا ترى ، وهؤلاء يشكون أنهم يشقون بين يديها ولا ترحم ! وما دام المستحقون لاينالون نصيبهم من الحق ، فكيف ترجو أن ينال المتعفون نصيبهم من الخير ؟

كان الرجل يتكلم كلام الشاكى الكظيم يهمه أن يقول ولا يهمه أن يسمع فتركته يستريح إلى بما فى نفسه ، لا أعترض عليه ولا أصحح له ، فإن على أن أبلغ مسامع أولى الأمر زفرات الصــــدور المكروبة ،

وعليهم هم أن ينظروا إن كان مبعثها خطأ النفس على النفس ، أو خطأ الناس على الناس .

قال محدثى وهو يضع سيكارته الملفوفة باليد فى مبسم طويل من الأبنوس :

— إذا عذرنا وزارة الأوقاف على أنها لا تسعف أولئك المنكوبين الذين انفرد بهم البؤس فى ظلام الدور ، ومنعتهم الأنفة عن الخروج إلى النور ، فكيف نعذرها على أنها تدخل البؤس بيدها على قوم جعلهم أهلوهم فى ذمتها وأمانتها ، تحفظ لهم الملك وتثمره ، وتبسط عليهم الرزق وتوفره ؟ أنا ضحية من ضحايا الأوقاف الأهلية ، اعتمدت منها على جرف مهار فهويت إلى قرارة الفاقة لم أتهيأ للعمل الحكومى بشهادة ، ولا للعمل الحر بصنعة ، وإنما نشأت فى بيت جدى فلان باشا نشأة المترفين المدللين ، أجيد ركوب الخيل ، وأحذق أنواع الصيد ، وأساهم فى تجميل حياة القاهرة بالسرف فى الملاهى ، والقصف فى البيوت ، والمقامرة فى السباق ، والافتنان فى المظاهر وكان أبى رحمه الله ناظراً على ما وقف جدى على أسرتنا الكبيرة المتشعبة من الضياع والرباع ، فكان يغرق رغباتى فى فيض من المال لا يغيض ولا يخلف . فلما توفاه الله آلت النظارة من بعده إلى أرشد أعمامى فانقبض عنى شيء من بسطة العيش . وكان لى بنون وبنات نشأوا فى نعمة أبى كما ينشأ النبات الربعى[1] فى خصيب الأرض ، فلم أرد أن يمس نضرتهم ذلك الضيق الذى جره علينا طمع الناظر ، فبعت ما ورثت عن أبى وعشت سنين على الخفض والسعة حتى إذا لم يبق إلا الوقف أخذت أروض نفسى وأهلى على التدبير ، فاختصرت المسكن ، واختزلت الأثاث ، وضيقت

---

(١) الربعى : ما ينتج من الحيوان أو ينبت من النبات فى زمن الربيع .

للطبيخ[1] ، ورضيت أن أركب (التكسى) وأن أجلس فى (النيوبار) .
وليت ذلك ياسيدى دام ! فإن كبار المستحقين شغبوا على الناظر فعزلوه ، وتألبوا على خلفه فشلوه ، واستحكم بينهم الشقاق فلم يتفقوا على ناظر منهم . ثم لم تنقطع أسباب هذا الخلاف ، إلا « بتنظير » وزارة الأوقاف !

كان لجوء المستحقين إلى تنظير الوزارة كلجوء القطين المتنازعين على قطعة الجبن إلى تحكيم القرد ، فلم يبق لهم على الأعيان الموقوفة يد ولاعين ، وأدارتها الوزارة على النهج الحكومى فأرهقتها بالكتاب والنظار والمفتشين والمراقبين والخبراء ، ولكل واحد من هؤلاء طريقة فى العمل ورأى فى الإصلاح بتغيير ان بتغييره . فالبناء الذى أقيم يهدم ، والمصرف الذى حفر يردم ، ثم يستأنف البناء والحفر فى مكانين آخرين ! وهكذا دواليك : يتعاور البناء والتخريب ، ويتعاقب الاقتراح والتجريب ، حتى تذهب غلة الأرض بين نفقة الإدارة وحصة الوزارة ! تلك حال الأرض أما الدور فهى قصور مسيحة ذات أسوار وحدائق رغب الناس عن سكناها لمخالفة طرازها لمقتضيات المدنية الحديثة ، وأغفلتها الوزارة فلم تفكر فى تجديدها واستغلالها ، ولا فى بيعها واستبدالها ، وإنما تركتها لمعول الزمان فلا تؤجرها إلا مخازن للتجارة وزرائب للحيوان ومساكن للفعلة !

كان دخلى على عهد الناظر الطماع ستمائة جنيه فى العام ، فأصبح على عهد الوزارة شيئاً لا أسميه ! فهو سنة يكون ستين ، وسنة يكون ستة ، وسنة يكون مطلاً ، وسنة يكون ديناً ! وأنا وزوجتى وأولادى نكابد غصص الحرمان فى ركن رطيب من إحدى دورنا الخربة . فالبنون لايجدون محلا لمكانهم من الجهل ، والبنات لايجدن أزواجاً لمكانى من الفقر ،

---

(١) كناية من قلة البذل فى الطعام .

ولا نقضى أيامنا السود إلا على اقتراض من القصاب والبدال والعياش والقماش ، حتى ضاق بنا العيش وأصبحنا إذا دخلنا أقضّنا الهم . وإذا خرجنا أمَضّنا الخجل . . .

يا سيدى ! إن الوقف الأهلى إن حفظ العين فقد أضاع الريع وليس لهذه الغاية الحمقاء وقف الواقفون فسبيل الإصلاح فى عهد الصلاح أن يحل ؛ فإن المرء أدرى بشأنه وأعلم بخبره وليس من يعمل لنفسه كمن يعمل لغيره



يا إنسان . أين الإحسان ؟

(١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

ما أطول أحاديث البؤس وأكثر حوادث أهله !

كان للمقالين اللذين كتبناهما فى غفوة الإحسان عن مرتجيه ، وقسوة الوقف على مستحقيه ، رجع شديد فى أكثر النفوس . فقد غدا علينا البريد بعشرات من الرسائل الباكية كأنما كتبت بدموع العيون ودماء القلوب ، فلا تدرى أهى كلمات أو أنات ! ولو شئت أن أنقل إليك بعض ما فيها لدهشت أن يكون فى مصر — وهى البلد الذى يجرى نيله بماء الحياة ، ويفيض ثراه بطيبات الرزق — خلق من بنى آدم يدمنون الصيام من الجوع ، ويلبسون الظلام من العرى ، وتصبح أمانيهم على الله أن ينقذهم من الحياة بالموت !

هاك حالة واحدة من ألوف :

روى الشيخ عبد الغنى فى رسالته الضافية ما أخلصه لك فى هذه الأسطر :

طرابيشى فى حى من أحياء القاهرة كان يعيش من فضل الله وربح الحرفة فى نعمة سابغة . كان رحب الدكان والصدر ، يجلس عنده سراة الحى فيتحادثون ويتنادرون ويفضى بعضهم إلى بعض بأسرار البيوت وأخبار الصحف ، والمكاوى لاتنقطع عن الكى ، والعمال لايفترون عن البيع . وكان رخى البيت والأسرة ، يغشى فناءه السهل ذوو القربى وأولو الحاجة يتقلبون فى أعطافه ، وينالون من ألطافه ، ويستريحون إلى ظله . فلما تعود الناس قلة النفقات من كثرة الأزمات ، ووفدت على مصر من وراء البحر بدعة العرى ، فتعرت أرجل النساء من الجوارب ، ورءوس الرجال من الطرابيش ، أخذت نار الطرابيشى تنطفىء وحركته

تسكن ومورده يغيض ، وأخذ الغرماء مجالس الحرفاء[1] ، وزاد عدد المحضرين على عدد المشترين ، فكان الرجل يفتح دكانه يوماً ويغلقه أسبوعاً ، حتى فدحه الدين وأعيته الحيلة فباع الملك ، وركبه الهم والمرض فلزم البيت . وتفجرت عليه المصائب من كل جانب فمات ولده الوحيد وكان فى السنة الثالثة من كلية الطب ، وتوفى أخوه البار وكان موظفاً فى إدارة القرعة ، وتأيمت أخته الفقيرة الولود فلاذت بحماه . ووجد الداء فى جسمه الواهن للنحل مجالا فاستشرى ، ورأف الله به أن يعانى الألم فى نفسه وفى أهله طويلا فتوفاه ، وبقيت بعده زوجته المقطوعة وأخته الأرملة وابنتاه العانستان ، يعشن على خمسين قرشاً فى الشهر ! أتدرى من أين تأتيهن هذه الخمسون قرشاً ؟ تأتى من أجرة الدكان ، فقد استأجر الصانع الذى كان يعمل فيه على عهد الرجل آلاته وأدواته وأثاثه بمائة قرش . فكن يعطين وزارة الأوقاف منها ثمانين كراء المحل حتى سعى لهن أهل الخير لديها فجعلته خمسين .

ويتساءل الناس بعد ذلك : كيف يعيش هؤلاء النسوة الأربع على هذا النزر اليسير من الرزق فلا يستطيع أحد أن يجيب ؛ لأنهن أغلقن على أنفسهن وعلى بؤسهن غرفة من غرف الغسل فى بيت متهدم من بيوت (زين العابدين) فلا يدخل عليهن إلا جارة برغيف أو خادمة بطبق . . . !

فليت شعرى أتقنع الفتاتان كما قنعت المرأتان بهذا العيش ، أم تحملان آخر الأمر على ركوب الغواية والطيش ؟

ذلك سؤال كان ينبغى أن يوجه إلى وزارة الأوقاف وأغنياء الأمة ، ولكن وزارة الأوقاف ليست بيت المال الذى كان يقوم عليه عمر ، والأغنياء فى مصر كلما أفعم الله جيوبهم بالمال أفرغ جنوبهم من الرحمة ؛ فأموالهم للأحزاب

(١) حريف الرجل : معامله فى حرفته (الزبون) .

والانتخاب ، وعواطفهم للخيل والكلاب ، ودنياهم للغرور والأبهة . فلم يبق لطرائد الشقاء وفرائس الفاقة غير الله . ولله فى أموال هؤلاء القساة حق معلوم هو الزكاة ، والزكاة ركن من أركان الإسلام كالشهادتين والصلاة . والإسلام سعيد اليوم فى هذا العهد زمانه وسلطانه ، فالأمراء والوزراء يصلون ، والمترفون والمثقفون يحجون ، والدين والمدنية يتعاونان على تنزيه النفس وترفيه العيش وتأمين الحياة . فلماذا يظل هذا الركن مهدوماً وهو وحده العماد القوى لبقاء الأمة ، والطبّاب الناجع لأدواء المجتمع ؟ لقد فرضت الحكومة على الأموال الثابتة والمنقولة ضرائب العمارة والأمن والدفاع ، وجبتها على الطوع والكره ، فما بالها وهى الحكومة الاسلامية القوية لاتجمع بوسائلها الإدارية ماجعل الله للفقراء فى أموال الأغنياء ، ثم تقسمها على من سماهم الله فى كتابه ، فتأمن بذلك ثورة النفوس واضطراب الأمن وسخط العدالة ؟

إنها إن تفعل ذلك ترض نفوس العامة ، وفى رضا هؤلاء تكثير النسل وتوفير الإنتاج وتيسير المعيشة . ولن تجد فى جباية الزكاة ماتجد فى جباية الخراج من امتعاض أو اعتراض أو مشقة ، فإن البذل فى سبيل الله ربا المؤمنين . ومليونا جنية من الصدقات يدخلان بيت المال فى كل سنة مع الأمانة والعدل ، لايتركان فى الأمة سائلا فى شارع ولا جائعاً فى بيت ولا جاهلا فى عمل . وكلما استبحر العمران واستذأب الناس واستشرت المطامع ، تبين أقطاب الرأى وأصحاب الأمر أن الله الذى جعل الفساد فى الدنيا جعل الصلاح فى الدين . فما من علة فى الفرد ولا آفة فى الجماعة إلا نبه إليها بنوره ، وطبّ لها فى شرعه ، وخفف منها بلطفه . فهل تفكر الحكومة فى إقامة الدين على وجهه ، فتهدأ ضلوع وتجف دموع ويتذوق الناس فى ظلال الإخاء ، سعادة الأرض ونعيم السماء .

نظيم الإحسان

(٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

الإحسان فى مصر — وإن شئت قلت فى بلاد الإسلام — فوضى وإذا كان للفوضى نظام فهو فى فوضى الإحسان أن ينال المستطيع ويدرك السريع ويظفر الملح والبؤس يسلب المنة ويعقل القدم فلا يغشى مساقط الندى ومهابط الرحمة إلا من اتخذ الفقر تجارة والتكفف حرفة أما الذين وارام التعفف وأقعدهم العجز ، فهم يتضاغون من السغوب وراء الحجب ، فلا تبصرهم عين ولا تسمعهم أذن . والناس من هؤلاء العاجزين المتعففين وأولئك القادرين المتكففين فى مأساة تبكى وملهاة تضحك !

دخل علينا القهوة ذات مساء فتى ريان الجسم بالشباب والصحة . على رأسه طربوش ، وحول عنقه كوفية ، وفى يده خيزرانة . فحيا بأدب وضراعة ، ثم أخذ يسترحم القلوب ويستندى الأكف بأسلوب يخبل العقل النير ويختل الطبع الحريص وكان خطابه التمثيلى المؤثر يدور على عزته التى لا تألف الهون ، وأسرته التى لا تصيب الدون ، وكفايته التى لا تجد العمل . . . فأعطاه بعض من فى المجلس ، ثم استدناه صديق من أهل الثراء وأرباب الضياع وقال له :

— لم لا تطلب العيش من طريق أخلق بالرجولة وأبقى بالكرامة ؟

— طلبت العمل ياسيدى فى كل مكان فلم أجده

— أتقبل العمل عندى فى المزرعة ؟

— فبدا على الفتى شيء من التردد والحرج لأنه أحس الجد في لهجة الرجل : ولكنه سأل :

— وماذا يعطيني إليك إذا قبلت ؟

— ثلاثة جنيهات بعد طعامك وكسوتك

فابتسم الفتى ابتسامة فيها معان شتى من الدهش والعجب والتهكم ، وقال وهو يدني فمه من أذنه كأنما يريد أن يساره :

ياسيدي ، إني أسأل في اليوم الواحد ألفاً على الأقل ممن أتوسم فيهم رقة القلب وكرم الهزة فإذا أعطاني مائة وردني تسعمائة تجمع لي من ذلك في الشهر خمسة عشر جنيهاً على التقدير الأقل ، أصيبها وأنا في القاهرة أتقلب بين مطاعمها ومقاهيها ، وأتمتع بمناعمها وملاهيها فكيف تريدني على أن أقبل ثلاثة جنيهات في الريف على عمل قذر متعب بين الأجلاف والبهائم ؟

* * *

أرأيت ؟ خمسة عشر جنيهاً يجبيها من الأغرار هذا المتبطل المتعطل وينفقها في الخمر والقمر والحشيش ، ومئات من الأسر الكريمة تكابد عبث الأقدار أو خطأ الأخيار فلا تجد مواسياً في معروف الأحياء ولا في موقوف الموتى ! وخمسة عشر ألف فدان يقتنيها ذلك الغني الشره ينفق ريعها الفياض على وساوس غيه وهواجس أحلامه ، ومن حوله ألوف وألوف لا يدرون من طول الحرمان لماذا شق الله لهم هذه الأفواه وجوف فيهم هذه الأبطن !

هذا البليد الملحف ، وذلك الجاع الطماع هما اللذان أكلا نصيب العاجز من رزق الله ! فلو أن السائل المحترف ترك نفحات الأيدي للفقير ،

ولو أن الغنى المنهوم عف عن فضول الرزق للعاجز ، لما رأيت عليها رجلا يشرق بالدموع بجانب آخر يشرق بالشمبانيا ! ولكن النفس البشرية تؤثر الجانب الأيسر من العيش ، وتطلب النصيب الأوفر من المتاع ، فلا بد من سلطان يقيم المعدلة بين الساعي بقوته والقاعد لضعفه ومن ثم جعل الإسلام تنظيم العلاقة بين الغني والفقير ركناً من أركانه الخمسة ، يصلح به وبالحج أمر الجماعة ، كما يصلح بالصلاة والصيام أمر الفرد وكان هذا الركن الإسلامي الركين عسياً بعناية أولى الأمر يجعلون له (مصلحة) أو (وزارة) تأخذ من أموال الناس صدقة تزكي النفوس من حقد الفاقد على الواجد ، وتطهر المجتمع من بغي طبقة على طبقة . ولكن الأمم الإسلامية الحديثة توزعتها الجهالة والمذلة ، فحسبت أن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية الغالبة ، فتركت شريعة الله إلى شريعة نابليون ، وهجرت سياسة الرسول إلى سياسة كارل مرقص ، فلم يكن بدٌّ من قسوة الأكباد لجفاف القانون ، ومن ثورة الأطماع لشدة التنافس وليست الرهبانية من نظم الإسلام حتى تقوم الراهبات بما لم تقم به الحكومات من جمع الزكوات وتوزيعها على صرعى الفاقة وأسرى المرض ، فكان مالا حيلة في اتقائه من فوضى الإحسان فحبس عن غير أهله ، وحل في غير محله ، وذهب كله للمتشردين في الطرق والمحتالين في البيوت والمتبطلين في المساجد !

إن فريضة الزكاة في الإسلام هي الفرق بين الدين والقانون ، وبين الشرق والغرب ، وبين الإنسان الذي يعيش بالروح والإنسان الذي يعيش بالآلة . فمن المحتوم على دولة تطمح إلى الخلافة أن تلزم بالزكاة الناس لتكون حكومتها الشعب كله . وإلا فما جداى أن أقول إن لي دولة دستورها المساواة وقانونها

العدل ، ووطناً ثراه الذهب وماؤه الكوثر ، وأنا محروم لا أنتفع بخير الحياة ، ومهضوم لا أتمتع بحقوق الحي ؟

إما أن تقولوا إن من عجز عن واجب السعي نزل عن حق الوجود ، وإما أن تنصفوا بعض الناس من بعض فيشعروا أنهم عباد لإله واحد ورعايا لملك واحد . أما أن تتعدد الآلهة فيكون لكل أرض إله وهو المالك ، وتتنوع الملوك فيكون لكل عمل ملك وهو الممول ، فذلك مالا يطيب به عيش ولا يصلح عليه أمر

إفرضوا الإحسان كما فرضه الله ، ونظموه كما نظمته الشريعة ، واجبوه كما جباه الراشدون ، ووزعوه كما وزعه القرآن ، تضمنوا للفقير سكون الجوف ، وللغنى زوال الخوف ، وللأمة بأسرها السلام والوئام والمحبة



فنونٌ وجنونٌ ...

(٩ يناير سنة١٩٣٩)

الى الآنسة « أ . سه . ف »

نعم يا آنستى العزيزة ! لشد ما لاع القلب وراع الضمير ما قصصتُ من مآسى الحياة ! ولا يزال فى خبايا الغيوب وطوايا الحجب ما هو أمض لوعة وأشد روعة

وعدتنى أن تقصى علىَّ أنباء من تعرفين من طرائد البؤس وأنضاء الهم ، وأنا أقص عليك هذه القصة ريثما تنجزين هذا الوعد :

فى المنصورة بلد المال والجمال والشعر كانت تعيش أسرة من أسر الريف الغنية السرية عيش اللهو والزهو والمرح وكانت قبل ذلك تعيش فى مزارعها الواسعة فى قرى مركز « شربين » تستغل أراضيها الخصيبة استغلال الدءوب اليقظ ، حتى أبطرها الغنى فرأت طرق الحقول التَّربة لا تلائم المركبة الفخمة ، والبيت القروى العتيق لا يوائم الأثاث الأنيق ، والقرية كلها لا تصلح مجالا للعظمة ولا مجتلى للشهرة . فتركت ضياعها وزروعها فى ذمة النظار والخَوَل[1] وأسلمت قيادتها للبذخ والسرف ترتبع بالمنصورة ، وتصطاف بالاسكندرية ، وتشتو بالقاهرة . وتظاهر على رب هذه الأسرة الجهل والطيش والفراغ والغنى والعُجب ، فقلبته بين الحانات والمواخير قفاً لوجه حتى ركبه الدين والمرض ؛ فباع الأرض لبنك « خوريمى » والصحة لبار « أنسطاسى » وكبر عليه أن يعود إلى قريته ذليلا بعد العز فقيراً بعد الغنى ، فظل فى المدينة ولكن

---

(١) الخول جمع خولى بالفتح وهو الفلاح الحسن القيام على الزراعة والعمال

تتألف هذه الأسرة من الوالدين ومن ست بنات وابن واحد وفى هذا الصبى الواحد انحصر مستقبلها وأملها فأرصدت ما بقى للأم من موروث الرزق على تربيته وتعليمه فلعله يكون كابن فلان باشا ، ينال (الليسانس) ، ويعين وكيلا للنيابة فقاضياً فمستشاراً فوكيلا للوزارة ويومئذ يرجع المال الذاهب ، ويعود المجد للضائع ، وتندم الشماتة الحاقدة وكان الفتى نحيل البدن كادئ الشباب[1] ولكنه فى مدرسته كان ذكياً مجداً فلم يتخلف فى سنة ولم يرسب فى شهادة حتى نال إجازة الحقوق وكان فى مدة دراسته الطويلة شغل الأسرة الشاغل : فالوالدان همهما تدبير المال له وتوفير الصحة عليه ؛ والبنات الست عملهن غسل ثيابه وكى بدله وتصفيف شعره وتهيئة أكله وتهدئة نومه . وإذا فاتهن اليوم أن يأكلن المنىء ويلبسن الناعم ويجلون حسنهن للأتراب والخطاب فى شارع البحر بالمنصورة فسيعوضهن الله غداً بفضل أخيهم الموظف خيراً من كل أولئك فى القاهرة

وكانت الأم تبيع فى كل سنة من سنى دراسة ولدها فداناً من أرضها ، تنفق نصفه على المدرسة ونصفه على البيت ، حتى خرج هو من كلية « حقوقه » ، وخرجت هى من كل حقوقها .

أصبحت الأسرة الفقيرة معدمة : فلا فى الأرض ولا فى البيت ولا فى اليد . فهى تعيش على ما يبقى من مرتب أملها وكاسبها « فؤاد » فقد وظف فى وزارة الداخلية بأحد مراكز طنطا وعاش وحده . وظل الأبوان الشيخان والبنات النواهد فى المنصورة على ضيق وقلق ينتظرون اتساع الرزق وامتداد الجاه فيجتمع الشمل ويرفه العيش .

---

(١) كادى الشباب : بطيئه ، من قولهم : كدا الزرع : ساء نبته .

أتدرين يا آنستى بماذا أجاب القدر دعاء هذه الأسرة ، وعمَّ أسفر الأمل فى هذا الولد ؟

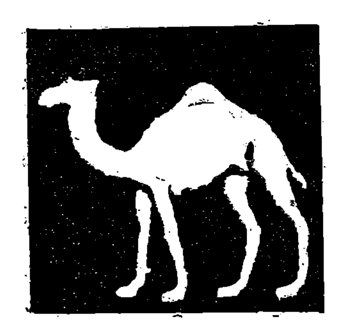
كان (فؤاد) رقيق البدن والشعور والعقل ، فأغرم بالأدب وفتن بالجمال وكلف بالرُّواء وحياة الأقاليم لا تقضى حاجة النفس النزاعة الرغيبة من كل أولئك . فكان فى مكان عمله بالنهار ، وفى مجالى القاهرة بالليل ، حتى افتتن بمطربة معروفة ، فاضطرب أمره وانتكس حاله .

كان فؤاد عذرى الهوى ، لأن حياءه أقوى من طموحه ، وشاعريته أشد من شهوته . وهو إلى ذلك فقير ، ومعبودته من ذوات الثراء والمجد ، فلا يدخل قصرها إلا غنى أو فنان أو مهرِّج فكان يقنع بالجلوس أمام تختها إذا غنت ، وبالطواف حول بيتها إذا استراحت ، حتى خبله العشق وأضناه السهر وبان أثر ذلك فى عمله ، فغاب طويلا عن مكتبه ، وأخطأ كثيراً فى تصرفه ، واختلف دائماً مع رئيسه ، فانتهى الأمر بفصله وهو لايزال فى عهد التجربة !

لم يشعر فؤاد بهذه الصدمة الصاعقة كما شعر بها أهله ، فإن حياته كانت فى الحب وحياة أهله كانت فى الوظيفة فلما انجلت غشاوة الهوى قليلا عن عينيه رأى نفسه خالياً من العمل والأمل ، يزجى فراغه الثقيل الذليل بالهيام فى الطرقات ، والنظر فى (الفترينات) ، والاختلاف إلى (الصالات) ، والوقوف بباب تلك المطربة أكثر النهار والليل ، يحادث الخدم ، ويرقب الزُّوار ، ويرصد السيارة الحبيبة حين تذهب وحين تؤوب .

وأسرع إليه أبوه على كبره ووهنه يستكشف سر النكبة ويعالج مقطوع الرجاء ، فوجد نفساً يتهافت فى جسد ضارع وهيئة زرية فما زال يتلطف به ويداويه حتى كشفه عن أمره ، وعاد به إلى الأسرة المفجوعة فى ولدها الوحيد وأملها الفرد وملجئها الأخير وشرفها الباقى . .

— ليس فى طاقتى يا آنستى أن أقص عليك خاتمة هذه المأساة ولو كان وصفها فى إمكانى لما كان استماعه فى إمكانك فإنى أعرف رقة قلبك ووهن جلدك فى مثل هذه الحال وليس من العسير على فطنتك استنتاج ما حدث فالفتى من تباريح الجوى أصيب بالسل فمزّق رئتيه وشف جسمه ، فهو فى السرير عظم هامد ينتظر النهاية المحتومة والأم من هول النكبة أخذها الفالج ، فهى سطيحة الفراش لا تُمِرُّ ولا تُحلى والأب من فقد الرجاء اعتراه الخبال فمات قتيلا فى حادث محزن . والبنات ؟ البنات بقين بعد المخبول والمسلول مع الأم الكسيحة لا كاسبٌ ولا خاطب . فتصورى يا آنستى كيف يعشن ! لو كان للاسلام أديرة صوفية لدخلن فى حمى الدين . ولو كان للحكومة مدارس خيرية لاعتصمن بقوة العلم . ولو كان للأوقاف ملاجىء نسوية لعشن فى ظلال الخير . ولكنهن يا آنستى يعشن العيش الكريه الضنك على فضلات الأقارب الأباعد . ومثل هذا العيش لا يثبت عليه إيمان ولا أمان . والبيت البائس إذا لم يدخله الملك دخله الشيطان .



التبشير عدو للسلام

(٢٥ مارس سنة ١٩٣٩)

كان التبشير والتجارة رائدى الاستعمار السياسى منـــذ اعتزم الغرب الطموح الإغارة على الشرق الغافل . وكان التبشير أشد الرائدين تدخلاً فى شئون الناس ، وتغلغلاً فى أصول المجتمع ، لما تهيأ له من شتى الوسائل فى التعليم والتطبيب والتمريض والاستشراق والخدمة العامة . فاستطاع أن يُرهج بين الأمة المتحدة الغبار الخانق ، ويزرع بين الملة الواحدة الزرع الخبيث ، ويخلق فى كل شعب من شعوب الشرق بالعصبية الدينية والتربية المذهبية قلة حاقدة تعارض الكثرة فى الرأى ، وتخالفها فى الهوى ، وتغرى بها الشر ، وتمالىء عليها العدو ، وتحاول أن تتحيز فى السكن والعمل ، وتتميز بالشعار والجنس ، فلا تكون من قومها فى دنيا ولا آخرة .

ليس التبشير بهذا المعنى ولهذا الغرض من ألسنة الدين ولا من سبل الحق ، فإن الدين مهما تتعدد أسماؤه ، وتختلف فيه أبناؤه ، لايزال فى حقيقته الحبل الذى يصل به الله من انقطع ويجمع عليه من تفرق . وإن الحق مهما تتفرق سبله وتتنوع وسائله لاتزال له غاية واحدة يهتدى إليها من ضل ، ويتوافى عليها من تأخر . وإذن لا يكون هذا التبشير القاطع المفرق إلا وسيلة من وسائل السياسة الماكرة أو حيلة من حيل العيش الرخيص .

وأعجب العجب أن الدول الديمقراطية الثلاث وهى أمريكا وفرنسا وانجلترا هى التى تحضن هذا النظام الطفيلى وتموله وتقوده وتحميه . وكان أقرب الظن بها أن تنكره بعد ما أمكن الشرق من يده وخلى بينها وبين ميراثه ؛ فإن السلام

والوئام والحب هى التى تقرب إليها من تسوس ، وتحفظ عليها ما تملك .
وهؤلاء المبشرون الذين اضطرهم اليأس أو البؤس أو العجز إلى الاتجار بالدين والعيش على ضلالات العقول وحزازات النفوس وسفاهات الألسن ، لا يستطيعون أن يبذروا غير الخلاف ولا أن يحصدوا غير الضغينة .

* * *

إن ميدان الدعوة إلى الله لا يكون بالطبع إلا فى بلاد الوثنية والجهالة . هنالك يجد المجاهدون فى سبيل الحق والخير ملايين من عُمى القلوب يخبطون الظلام ويطأون الشوك ويعانون الحيرة ويكابدون الغوب فيخرجونهم إلى نور الله ويلحقونهم بركب الإنسانية . ولكننا لا نرى جمهرة المبشرين ولا معركة التبشير إلا فى مصر ، كأنما انحصر جهد هؤلاء المتعطلين فى فتون المسلم عن دينه وإخراج المسيحى عن مذهبه ! فهل حسب أولئك الناس أن الإسلام بالنسبة إلى المسيحية كفر ، وأن الأرثوذكسية بالقياس إلى البروتستانتية فسوق ؟ لا يمكن أن يقع هذا فى حسبان عاقل . والقوم قد جازوا العقل والفطنة إلى الدهاء والخبث . فهم أكيس من أن يجهلوا حقيقة الإسلام وينكروا أثره الإلهى المحمدى فى تكريم الإنسان وتنظيم العيش وإصلاح الأرض . ولكن الأشبه بالحق أنهم اطمأنوا إلى العيش الغرير فى ظلال النيل فأمنوا وسمنوا وخاروا . وعز عليهم أن يبعدوا عن مَصابّ الدولار والجنيه والفرنك فى بنوك القاهرة . فأدخلوا فى روع الشيوخ والعجائز من المؤمنين المثرين فى أوربا وأمريكا أن البلد الذى يقوم فيه الأزهر هو المكان الذى لا يزال يصلب فيه المسيح . واستعانوا على خديعتهم بما افتراه قساوسة القرون الوسطى على الإسلام من الزور الغبى والكذب الأحمق .

وأوهموهم أنهم إذا أمدوهم بالمال ورفدوهم بالنفوذ جندوا الجنود وأحكموا الخطط وهجموا على الإسلام فصرعوه فى عقر داره .

من أجـــل ذلك كان المبشرون حِراصاً على أن يجمعوا الأزهريين للمناظرات أو المحاضرات بشتى الحيل ، فإذا ما اجتمعوا أخذوا صورهم فى أروقة الـكنائس أو فى أفنية المدارس ، ثم بعثوا بها إلى مرسليهم وممّوليهم مدسوسة بين صحيفتين بارعتين إحداهما تبشر بتنصير (العلماء) ، والأخرى تلح فى مضاعفة الجزاء ،

وفى سبيل أن ينعم المبشرون بالطعام الدسم ، والشراب السائغ ، والفراش الوثير ، والفراغ الوادع ، تتمزق العلائق بين الإخوة فى النسب والوطن والعقيدة ، وتـكون الجفوة بين المسلم والقبطى ، فى مصر وبين المسلم والمارونى فى لبنان :

* * *

إن التبشير عدو السلام ، لأنه تأريث العداوة وتشتيت الوحدة فى غير طائل وهو فى مصر عمل لايليق ، لأنه إهانة وقحة لدينها وعقلها ، وإن لها فى تاريخ الحضارة والثقافة والمجد صفحات لا يزال اشراقها السماوى يضىء جوانب الحاضر ويبدد غياهب المستقبل .

قد آن للديمقراطيات التى تقاتل عصبية الجنس فى ألمانيا ، وتناضل عصبية المذهب فى روسيا ، أن تخلص سياستها من عصبية الدين ؛ فإن ذلك أخلق بالسلام الأدبى الدائم الذى تحارب الطغاة على سلطانه ، وتريد أن تقيم العالم الجديد بعد الحرب على أركانه .

إن التبشير فى مصر فواجع لاتزال الضلوع محنيّة منها على نار ولعل

أرمضها للقلب وأبعثها للدمع مأساة ابنة الوزير الوفدى الذى حال المبشرات بينه وبينها بالقوة لأنها نذرت نفسها للمسيح ، ثم أخفوها عن العيون حيناً من الدهر ، ثم نقلوها على رغم الأسرة والحكومة إلى فرنسا ، فانقطعت الأسباب بين أهلها ودينها ووطنها إلى الابد

* * *

ذلك ما خطر لى أن أكتبه ساعة قرأت ما كتبته مجلة التبشير الدولية عن حركة التنصير فى مصر وإن فى ذلك المقال الخبيث من اقتراح تأليف مجلس مسيحى وطنى لتنظيم التبشير وتعميمه فى المدن ، وإنشاء المدارس الإلزامية لفتنة الصبية والأيفاع فى القرى ، لبلاغاً للقائمين على سلامة التربية وحماية العقيدة من لصوص الضمائر وشياطين القلوب .



آراء الكتّاب في هذا الكتاب

حذفت من هذه الطبعة الفصول التي جرى فيها لفاروق وأبيه ذكر. كتبتها يوم كان غلاماً بريئاً يجلس على العرش في استحياء ، ويتجه إلى الشعب في إخلاص ، ويبني على زوجه الأولى في طهارة ثم حذفتها إذ أصبحت بعد خروجه من دنيا الإنسان إلى دنيا الحيوان زوراً من القول وزخرفاً من الباطل لاتصدق عليه ولا تتصل به . وقد رأيت — ولعلي أصبت — أن أملأ هذه الصفحات الفارغة بطائفة من آراء صفوة الكتاب في (وحي الرسالة) ، لأنها في ذاتها آيات من الفن تقرأ ، وبينات من النقد تسجل .

قال المغفور له الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر :

عزيزي الأستاذ أحمد حسن الزيات

إن كثير الثناء عليك ليقل بجانب ما تسديه للأدب والعربية والثقافة من جهد وفضل فما أنا ببالغ حق الثناء عليك وإن أطلت وتأنقت ، ولا حق تقديرك وإن أطنبت وجودت . وعجيب ألا يكون لوحي الرسالة فضل على الرسالة فما هو إلا جنى أشجارها ، وزهرات أغصانها ، جمعت في باقة واحدة بعد أن كانت متناثرة ، وقربت إلى اليد بعد أن كانت متباعدة . ولقد كنت في هذه الفصول مترجماً صادقاً منصفاً للتاريخ فيمن ترجمت لهم من الرجال وكنت مصوراً ماهراً فيما صورت من عيوب المجتمع وآلام الحياة ، وأبرزت خفايا النفوس

ودبيب الهواجس حتى لتكاد تلمس وتحس وقبل هذا كنت محيطاً إحاطة دقيقة بما عرضت له من بحوث كل أولئك بأسلوب رصين نقى الجوهر تتصل فيه بأسلافك الأولين من فحول العربية والأدب ، ممن أثروا فيك فجريت على سننهم دون أن تقصد ، وسرت على نهجهم دون أن تحاكى .

ولست أملك بعد إلا أن أدعو لك بحياة طويلة سعيدة يدوم لك فيها الإلهـــام ، فتثابر على رسالتك حتى يقرأ لك الناس مجلدات عديدة من وحى الرسالة ،

والسلام عليك ورحمة الله .

محمد مصطفى المراغى

وقال المرحوم الأستاذ خليل مطران :

حضرة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

أشكر لك إهداءك إلىّ نسخة من كتابك « وحى الرسالة » وإنه حقاً لوحى رسالة .

أقرر أنه وحى رسالة وما أرمى بذلك إلى محاولة بديعية أستمد منها وسيلة سهلة للتقريظ ، بل أرمى إلى غرض أبعد وأسمى ، ذلك أنك منذ أجريت قلمك فى الترجمة ثم فى الإنشاء التزمت ما لم يلتزمه غيرك من سلامة العربية ونصاعتها مع قربها إلى التناول وكان الأمر غير يسير فذللت له صعاباً ، وخضت دونه غماراً . ويعلم الله وأهل الذكر ما يعانى الأديب فى هذا المطلب ، وإنه لوعر شاق . وإن إدراك الغاية فيه لفخر ما بعده فخر وقد جعلت بلوغك هذه الغاية رسالة لك وأعظم بها من رسالة مادام يتحتم على الناطقين بالضاد استبقاء الفصحى ،

وليس هذا فحسب بل تطويعها ، وهى لاتهى ولاتضعف ، ولا تهن ولاتسخف ، لأداء أدق الأفكار وأبدع المعانى فى هذا العصر ، بأصدق ما يكون البيان ، وأروع ما يأتى الأسلوب ، وأمتن ما تكون التراكيب ، بين أصيلة ومتشبهة بها

أمتعتنى بمراجعة تلك الفصول القيمة التى جمعتها بين دفتى كتابك ، فما زادتنى المراجعة إلا إكباراً لها وإعجاباً بها . وإنى لأرجو أن يكون من أثرها فى نفوس فتياننا ، ردهم إلى محجة الصواب التى نكبتهم عنها مولدات عجيبة من مقاطر الأقلام فى هذه الأيام .

فبارك الله فيك ومد فى أجلك لتجيد وتزيد . وإليك فى الختام ، خالص التحية مع فائق الاحترام .

المخلص

خليل مطران

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد :

أخى الكاتب البليغ الزيات

وحى رسالتك أصدق ما قرأت فى الكتابة العربية الحديثة من مصداق رأى القائلين : إن الرجل هو الأسلوب .

فأنت أسلوبك وأسلوبك أنت   إتقان واستحياء وسلامة ، صورت فى عالم الخلق فكانت إنساناً ، وصورت فى عالم الفكر فكانت وحى الرسالة .

إتقان صيغة فى غير ظهور ولا ادعاء ، يوشك من يتبينه أن يلمسه ليعرف

موضع الجودة فيه ، كما يلبس المسوَّم النسيج للتين الذى وعى للثانة سراً من أسرار منواله وخلا من الزخرف والبريق ، لأن إتقان تلك الصيغة كإتقان هذا النسيج ، فى حقيقتها وليس على مرآها ، وعلى صفحة محياها دون سواها .

واستحياء يخفى مزاياه ولا يفوته شىء بأن يخفيها ، لأنها أثبت من أن يحجبها الإخفاء .

وسلامة تطوع العصىّ وتملك الزمام فى الوعر والسهل على السواء . فإن ما تصف من ألم نفسانى يلهب مراقّ الحشا ويبده الضعف الإنسانى بأقصى ما يطيق وفوق ما يطيق ، لكالذى تصف من ألم يباشر الفكر قبل أن يباشر اللحم والدم ، ويحسب من قضايا الرأى كما يحسب من قضايا الفؤاد .

إتقان واستحياء فى المعنى لا فى اللفظ وحده ، وفى موضوع الكتابة لا فى بنيانها وتركيبها وكفى ، وعلى السماء وفى الطوية سواء .

وتلك هى الأساليب التى تضاف إلى لغة العرب فيقال معنى إنسانى فى كلام عربى ، ولا يرتد المعنى إلى بنى الإنسان حيث كانوا ثم لا يبقى منه للعربية ما تحرص عليه .

وحى رسالتك فى كتاب أحمد .

والسلام عليك وعلى من اتبع هداه .

عباس محمود العقاد

وقال الأستاذ توفيق الحكيم :

صديقي العزيز الأستاذ الزيات :

أتيح لي أن أستمتع ساعات بقراءة ذلك الكتاب النفيس : « وحي الرسالة » الذي تفضلت بإهداء نسخة منه إليّ . وليست هذه هي المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى سمو أسلوبك ، وبلاغة تعبيرك ، واتساع أفق خيالك ؛ ولكنها قد تكون المرة الأولى التي ترتبط فيها وتتركز تلك الفصول ، والآراء ، والأفكار ، والمشاهد الفنية التي تمخضت عنها مواهبك ، فيضمها كتاب ينعكس على كل صفحة من صفحاته شعاع من جمال روحك ، وفيض من نبع ثقافتك ، وذكريات غالية عرفت كيف تحرص عليها وتحتفظ بها ، ثم تنشرها تذكرة للناس وموعظة لهم .

إن أدب المقال ياصديقي من فنون الأدب الكبرى . وقل أن تشهد أديباً فحلا لم يضمن أدبه وفنه آراء اجتماعية ونظرات فكرية ، واتجاهات ثقافية . و « وحي الرسالة » يحمل صورة نابضة من ذلك « الأدب الكبير » الذي أشرت إليه . فهو في الواقع مجموعة دراسات عميقة ناضجة للمجتمع ، وتصوير بارع للتطورات الخلقية والنفسية ، وإشارات دقيقة وجولات موفقة في الأدب والحياة ، استقرت عواطفك في أجمل بقاعها ، وتغنى قلمك الرصين بأبهج مفاتنها .

جميل منك إذن أن تحرص على تدوين هذه الذكريات الغالية ، وتنشر هذه الفصول القيمة ، لتكون ذكرى للماضي ، وعظة للحاضر ، وإيماناً بالمستقبل .

المخلص

توفيق الحكيم

وقال المرحوم الدكتور زكي مبارك :

أخى الأستاذ الزيات :

إليك أقدم أطيب الثناء على الهدية النفيسة التى تفضلت بها على أخيك وهى المجلد الأول من « وحى الرسالة » وهو مجموعة لمحات من بوارق فكرك الوثاب الذى ترى به روح الشرق وعقل الغرب حين تشاء ، بفضل ماوهبك الله من البصر بأسرار البلاغة العربية والثقافة الفرنسية ، وتلك هِبة لا يتمتع بها من كتّاب العصر إلا الأقلون .

ويمتاز كتابك بميزة أصيلة هى تصويره لأكثر ما يحيط بهذا العصر من مشـكلات عقلية ، ومعضلات ذوقية ، فهو سِجل صادق لحوادث عاناها المجتمع واضطرم لها روحك الأمين

وما عاودتُ النظر فى كتابك إلا تفزّعتُ إشفاقاً عليك ، فهو يشهد بأنك شديد الإحساس بالوجود . والذى يصف المجتمع وهو فى مثل حالك يستأهل الإشفاق ، لأنه يعانى البلاء بمحنة المجتمع وهو يحمل روح المصلح . ولا يعزّينى إلا الشعور بأن الذين يشقون فى الطب لأمراض المجتمع هم فى حقيقة الأمر من أعظم السعداء ، وأنت فى الطليعة بين كتابنا المصلحين ، وإنك لعزيزٌ علينا أيها الشقى السعيد .

هذا وقد قال بعض الناس إنك كاتب متأنق ، وذلك باطل يراد به حق ، فالـكتابة الرفيعة فن جميل لا ينفع فيه الارتجال . ولا تحسب أنك خدعتنا حين قلت إن مجموعة « وحى الرسالة » لم تـكن إلا ومضات يلمح بها الفـكر من أسبوع إلى أسبوع ، فالـكاتب الحق لا يعرف عفو الخاطر وإن أحب

أن يوصف بذلك ، وإنما ينقل إلى سنان القلم لواعج عاناها الفكر والروح في أعوام طوال . وهو كالشجرة التي تختزن ثمارها إلى أن يحين الموسم المنشود . فلا تحاول التعتب على من يصفك بالتأنق ، لأن التأنق من صور الاهتمام ، والاهتمام عملية جراحية تنقل الأفكار من عالم المعاني إلى عالم الشهود .

أما بعد فأنا أرجو أن يسبغ الله عليك أثواب العافية وأن يجعل لمؤلفاتك حظاً من القبول تنسى به آلامك في خدمة الأدب الرفيع ، إن جاز في دنيانا الحاضرة أن ينال المؤلفون المتفوقون بعض الجزاء . . . والله يحفظك للصديق الذي يعطف على جهودك أصدق العطف .

زكي مبارك

وقال الأستاذ محمود محمد شاكر في مجلة المقتطف :

قال الزيات : « قارئي العزيز ، اخترت لك هذه الفصول مما كتبته للرسالة في ست سنين . وكان من عادتي أن أكتب الفصل منها أصيل السبت من كل أسبوع ، ثم لا أكتبه طوعاً لتأثير قراءة ، أو تحرير فكرة ، أو تخمير رأي . وإنما كان أثراً لوحي ساعته أو حديث يومه أو صدى أسبوعه . فالزمن جزء منه متمم لمعناه : يعين ملابسته للحادث ويبين مناسبته في التاريخ . لذلك أعقبت كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه ليتضح موضعه بنفسه وحاله وظرفه » .

هذا خير ما يوصف به هذا الكتاب . فأنت ترى أني لا أستطيع أن أزيد في صفته من حيث التأليف والتبويب ، ولكني أستطيع أن أقدم بين يدي قارئه بعض الرأي في أدب صاحبه .

وأنت إذ تناولت هذا الجزء فقرأت فهرسه ، رأيت مائة وعشرين باباً من أبواب القول قد افتتحها « الزيات » بقلمه ، وصناها برأيه ، ومهدها بحسن بيانه . ولكل باب منها غرض ، ولكل غرض أسلوب ، ولكل أسلوب لفظ يصلح عليه ولا يصلح عليه غيره . وإذا كان الكتاب كذلك كانت المشقة فيه أعظم من مشقة التأليف المرسل إلى غرض واحد لايتميز إلا بالاتجاه ، فإن الغرض الواحد قلما يخرج أسرار البيان من قلب الكاتب ولسانه ، لأن الأسلوب إليه قلما يختلف . فإذا اختلفت الأساليب باختلاف الأغراض محصت قدرة الكاتب على ما اعترض له وهم إليه من الكتابة .

فإذا أنت أخذت هذا الكتاب بين يديك وسايرته فصلا فصلا وأسلوباً أسلوبا ، عرفت الجهد الذى لقيه صاحبه فى إبداعه ، ورأيت « الزيات » فى كل أسلوب هو « الزيات » لا يختلف ولا يتنافر . والكاتب إذا صار إلى هذه المرتبة — حيث تراه هو مهما اختلفت الأغراض وتباينت الأساليب — فاعلم أنه إنما يشتق لك ما يكتبه من حر نفسه ، فيضنيها ويهلكها مخلصاً صابراً لايمل وإذا كان كذلك فهو كاتب لايزيف لك ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يمن عليك ، ويعلمك ولا يدعى لك أنه أعلم منك . . . ذلك بأنه قد بلغ من العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم أنه ملك قارئه لا أن القارىء ملك له ، وأنه مرشد لامسيطر ، وأنه أخوك الذى يناقلك الحديث وإن كان بمنزلة الأب

و « الزيات » — كما عرفته من كتابته — روح هادئة متمكنة مسترسلة ، يكاد يختفى فى نفسه حين يفكر كأنه فيلسوف من فلاسفة

الصين يمشي هادئاً ، ويفكر ساكناً ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والإستسلام . فإذا أراد أن يقيد أحلامه وأفكاره وهواجسه كان هو الهادىء الساكن المتسامح فإذا اشتدّ وحمس وأراد أن يتفجر ، خيل إلىّ أنه عينٌ حمّة ترسل لواذعها سكباً ساخناً حامياً كالماء إذا غلى ثم هدأ أول هدأة لايضرب بعضه فى بعض . ولذلك ترى نقده إذا نقد شديداً بالغاً ، ولكنه رفيق غير عنيف ، ولكنه على ذلك مما تخشى صواعقه . وهذه الروح التى وصفناها هى التى تجعل كل كلامه قطعاً مزينة ناضرة محكمة مقدرة الألوان لا يختلط شيء منها بشيء ، ولا يجور لون منها عَلَى لون وهى التى تجعل لفظه مبنيا على الإيجاز دون الإطناب ، وعلى مذهب الحكمة دون المذهب الكلامى . وإذا أردت أن تتبين كل ذلك حقيقة التبين فلا تتكلف أكثر من أن تقرأ اهداء كتابه يقول لولده « رجاء » الذى احتسبه عند ربه فى سنة ١٩٣٦

« إلى روحك اللطيفة العذبة — يا ولدى رجاء — أقدم هـــذا الـكتاب . فلولاك ما أنشأت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هـــذه الفصول » .

فإن فى هذه الـكلمات القلائل لوعة مستكنة باقية إلى يومها هذا ، ولكنها ساكنة راضية هادئة لا تثور ولا تتأجج ، ولكنها تسرى وتدب وتمشى فى روحه الهوينا الهوينا .

هذا سر أسلوبه وأما أسلوبه وبيانه واقتداره عَلَى عربيته وحسن تصريفه لألفاظه فى وجوه أغراضه ومراميه ، فالزيات — ولا أشك — هو بقية أصحاب الأقلام العربية التى لا تخلّط ولا تتقمم من هنا وهنا —

فأنت إذا نفذت إلى كل جملة من كلامه فى هذا الكتاب لم تجد إلا عربية خالصة مطاوعة لينة ، لا ينافر حرف منها حرفا — على كثرة الأغراض التى رمى اليها واختلافها ، وعلى ظن من لا يعلم أن العربية لا تطيع فى التعبير عن الضرورات الحديثة التى قسرتنا عليها مدنية القرن العشرين من ميلاد المسيح

فلو أتاح الله لهذه العربية من يخلص لها فى معاهد التعليم على اختلاف أغراضه وأنواعه ، وأراد أن يردّ على العربية شباب أيامها حتى تكون لغة مدنيتنا فى الأدب والعلم والفن ، لوجد فى الذين أبادوا شبابهم بالعمل لإحياء اللسان العربى فى هذا العصر قوما استطاعوا أن يجعلوا عربيتهم أصلا فى الحياة ، إذ جعلوا الحياة أصلا فيها ، وبقية هؤلاء هو « الزيات » .

وقال الدكتور بشر فارس فى جريدة المقطم :

هذا كتاب يريحنا مما يخرجه بعض المنشئين لهذا العهد ، وهم لا يفطنون إلى أن الكتابة صناعة   فى فصول هذا الكتاب تصيب للنحى الحسن ، والتنسيق المطرد ، ثم اللفظ المتخير ، والسبك المحكم إلى جانب التبصر   وأسلوب الأستاذ الزيات الترسل فى بسط العبارة ، والترفق فى تدوين الفكرة   ويهدد هذا الأسلوب فى غالب الأمر سرد الألفاظ ، وتكلف الأداء   وقد نجا أسلوب هذا الكتاب من هذين الخطرين بفضل سليقة صاحبه السليمة وترسمه خطى البلغاء من كتاب العرب الجاعلين للديباجة المكان الأول   ومما ينشأ عن هذا الأسلوب

الإطناب المقبول ، وإن قال الأستاذ فى فاتحه كتابه إن الإيجاز صفته ، إلا إذا عنى بالإطناب ساقط الكلام وفضول القول بتطويل وحشو لغير فائدة .

وموضوعات الكتاب إن هى إلا معرض ألوان شتى من التأليف : إنشاء ونقد ووصف ونظر فى الحياة الجارية ، فمن الإنشاء « لماذا ترجمت الآم فرتر » وفيه هفوة القلب ونبضة العرق ومن النقد « مصطفى صادق الرافعى » و « أحمد زكى باشا » وفيهما تبرز خصائص الكاتبين فى اعتدال إذ تذكر مواضع الإكبار ومواطن الأخذ جنبا لجنب ومن الوصف مايفساب هنا وهنا من تصوير لطرق المدينة وحقول الريف وشواطىء البحر وضفاف النيل ومن النظر فى الحياة الجارية تلك المقالات الرصينة مثل « داء الوظيفة » و « الفردية علتنا الأصيلة » والزيات فى هذه المقالات لاذع القلم نافذ البصر إنما بغيته التنبيه على جوانب الضعف الخلقى والتنديد بنواحى الفشل الاجتماعى وكتابة الأستاذ هنا لا تنجذب إلى الأسلوب الفلسفى المجرد ولكنها كتابة مصلح يصف الداء المقيم ويبين آثاره وعقابيله .

وفى تلك الموضوعات على تنوعها ، تطاوع اللغة الكاتب وتتأتى له ألفاظها وتعبيراتها المتواترة ، وذلك لأن الزيات يعرف كيف يستخرج الخبآت وينقب عن الدقائق وهو إلى هذا التضلع من أساليب القدماء يكره التشدد والتنطع ، حتى أنك تراه يستعمل اللفظة الأعجمية على وجهها إذا تطلبها السياق من ذلك لفظة « الإيديال » ص ٤٦ و « المثل الأعلى و « التاكسى » ص ٤٦٨ و « الفترينات والصالات »

ص ٤٧٩ . وأكبر الظن أنه يرقب من مجمع اللغة العربية أن يعالج مثل هذه الألفاظ ، وإني لأخشى أن تطول رقابته .

إن « وحي الرسالة » مجموعة مختارة مما سطره الأستاذ الزيات في مجلة « الرسالة » ، وهذه المجلة تستقبل سنتها الثامنة و « الرسالة » في صدارة المجلات العربية لهذا العهد . ومما تمتاز به أنها معترك الحركة الأدبية : من وجه تسجل مجرى الأدب ، ومن وجه تعرض المستحدث منه ، تخطيها الركز والوثوب معاً . ومن هنا ما فيها من التلون . وآفة المجلات أن يركد ماء وجهها : فمن وراء ذلك الشحوبُ فالزوال . ويعين على ذلك التلون أن أقلام كتاب الرسالة متغايرة في التثقف والمضاء ، وأن فيها أبواباً ساكنة وأخرى مائجة . وربما وضعت هذه الأشياء مواضعها في بلد يكثر فيه الاضطراب ويصول الهوى .

وقال المرحوم الدكتور اسماعيل أحمد أدهم :

فصول متناثرة يتنازعها الأدب الصرف والفكرة الاجتماعية المصلحة والنظرة النقدية الصائبة : وهي كلها بعد ذلك تفيض من أصل أدبي وتاريخي من شخصية الكاتب متخذة لوناً خاصاً . والزيات أديب فنان ، يحسن إبراز الحياة التي في الأشياء بالفكرة التي تنطوي عليها ، وبالعاطفة التي تحملها في طياتها ، وبالخيال الذي تحتوي عليه : ومن هنا نجد التنوع في جمال كتابة الزيات التي تتوازن فيها الفكرة مع العاطفة مع الخيال ، والتي تتناسب كلها مع صناعة فنية بارعة تفرغ كل هذه الأشياء في صورة أدبية وقالب فني محكم . والحق أن الزيات هو الأديب العربي الوحيد بين كتاب اللغة العربية اليوم الذي تميزت في ذهنه مدلولات الألفاظ فعرف دقائقها وأدرك الأسرار العربية المحيطة بها ومن هنا تراه

يلبس فكرته وإحساسه وخياله اللفظة الخاصة بها ، التى تعطى لونها من طفة الـكلام .

والزيات قد خلف فى مدرسة البيان العربى للرحوم الرافعى ، وهما على ما بينهما من اختلاف فى الطبع وتباين فى المزاج وتفاوت فى الثقافة إلا أن قوة الفن وحركة الذهن تجمعهما . وإن كان ذهن الزيات يختلف عن ذهن صاحبه من جهة الصفاء وعدم انقطاع الصلة بينه وبين عقل الناس . فمعانيه مفهومة وهى ذات أصل دقيق من الفـكر وفـكر الزيات ملتقى العقلين العربى والغربى ، العربى فى جلالته وروعته ، والغربى فى عظمته وترتيبه وانتظامه ودقته .

وقال الأستاذ مصطفى الصباحى فى جريدة الدستور :

وحى الرسالة كتاب أخرجه للناس الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وهو جملة من مقالاته التى كان يصدر بها مجلته (الرسالة) كل أسبوع جمعها بين دفتى هذا الـكتاب ، فـكان كأنما انتقى من روضة مونقة الربيع أزهاراً ذات أرج خاص فى باقة واحدة على رغبة الناس فى تنسم عبيرها ، فيسر عليهم سبيل اقتنائها وتشممها والإفادة بما يستروحون له من عبقها دون كبير سعى أو عظيم جهد .

وللأستاذ الزيات أسلوب يتميز به على كثير من كتاب العصر ، وسياقة لن تجدها لـكاتب من أهل العصر ، وتفتقدها من لدن ازدهرت اللغة وعمت آدابها فى العصر العباسى حتى الآن ، فلا تجد إلا نفحات مبعثرة فى تاريخ أدبها لا صلة بينها وبين بعضها ، فذلك كاتب وقعت له عبارة جزلة ، وهذا خطيب اتفق له معنى فحل ، وغير هذين جمعت له بعض ألوان من فنون العبارة أو بلاغة المعانى

ولكن قلما وقعت على كاتب وفق فى الغايتين فامتلك ناصية العبارة وبرز فى خلق المعانى .

فأنت إذن حين تقرأ للزيات إنما تجتمع لك طلاوة العبارة وجمال المعانى ، وتلك هى الغاية التى تنتهى عندها آداب الكتاب وتقف دونها ملكات المبرزين من أرباب الأقلام .

وفى زماننا هذا قل أن يعنى الكاتب والقارىء إلا بما وراء اللفظ ، فإذا برز إنسان فى إيراد المعانى الجليلة واتفقت له سلسلة من الآراء والأفكار القويمة تجاوز النقد من أهل العصر عن ركاكة عباراته وفساد سياقته .

ولقد كنت أعجب للتيار الذى تساق إليه هذه الأيام من إهمال الجانب الأدبى فى التحرير ، وكنت أرجو أن تنقشع تلك الغمة التى دعيت « تجديداً » وهى ليست من التجديد فى شىء . . . إذ قنع المنشئون بمحاكاة أهل الغرب فى أخيلتهم والأخذ عنهم فى إيراد الأحاديث وتقليدهم فى الأوصاف ونحوها من فنون الكتابة دون إعارة أصول الأدب العربى شيئا من عنايتهم ، حتى ذهب كبير من أعلام دولة القلم يتحدث إلى فى مجلس خاص فيقول إن اللفظ للمعنى كالثوب على الرجل ، فهو إن كان رجلا فاضلا لم ينتقص خلق ثوبه من فضله ، وإن الرجل مهما يكن لباسه شريفاً ولكن نفسه فقيرة من الفضل وقلبه خلى من العلم لاينفعه اللباس فى شىء !

وعلى الرغم مما فى ظاهر هذا القول من تعبير حق عن جوهر الموضوع فإن اللفظ الشريف يزيد المعنى الجليل شرفا ، كما يسبغ الثوب الكريم على الرجل العظيم مهابة ويزيده توقيرا ويكون أدعى إلى احترامه لدى غشيانه المجالس .

فإن أول ما يطالعك من الرجل لباسه ، وأول ما يفاجئك من المعنى ظاهر لفظه . ورب معان كريمة ضاعت لسوء صياغتها وركاكة أسلوبها .

ورب مقالة خلدتها الرواية لطلاوة السياق وبلاغة الإيراد ورقة الحاشية .

والزيات كاتب جمعت له إلى رصانة الأسلوب ووضوح السياق حلاوة المعنى وبلاغة العبارة ولعله فى ذلك يتميز بالجمال فى الناحيتين . ذلك الجمال الذى تلمس منه ميلا إليه فى شتى صوره وتفصيلا له فى جميع معانيه . فأنت أول ماتطالع من كتابه الجديد مقالة « فى الجمال » ، فهو يحدثك فى هذه المقالة عن الجمال حديث الشاعر الملهم ، والكاتب الصادق الحس ، ورجل الفن الذى استغرق الفن مشاعره واستجاب لحاسته الفنية الدقيقة .

فهو بهذه الصفات كلها يقول :

(الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس . ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً) .

هذا مذهب يذهب إليه الرجل وهو يتحدث لابعقله وحده وإنما بحسه أيضاً ، ذلك الحس الذى يشعر بالجمال ويقدره ، يشعر به جمالا عقلياً وأدبياً ومادياً لايخطىء فى الشعور به ولا يفوته فى أية صورة ظهر أوخفى . . . وآية ذلك أنه يقول بفعل ذلك الإحساس وحده : « وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره مادامت له روح من العاطفة تشع فى نظراتها ، وتنسم فى بسماتها ، وتشيع فى قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ، ويجد فى الضعف الذى يستسلم ويستكين ، الحب الذى يطول ويحكم .

ثم إن الأستاذ الزيات يتحدث إليك بعد هذه المقالة عن « الربيع » فإذا هو يقول « ففى الربيع يشتد الشعور بالجمال والحاجة إلى التجمل ، فترى الشباب بجنسيه يستهويه ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور ، ويحتشد

فى دور الملاهى وصدور الشوارع فيخلع على الوجود وضاءة الحسن وعلى الحياة رونق السعادة » .

وفى المقالة الثالثة يتحدث الأستاذ عن العيد فيقول : (والأعياد الأجنبية التى تشهدها مصر فى ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية فى نعيم الروح والجسم ، وآية فى سلامة الذوق والطبع ، وفرصة ترى فيهـــا القاهرة — وهى متفرجة — كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ، وتشرق المنازل بالأنس . . . الخ) .

ألا ترى أن فى ولوع الأستاذ الزيات بالحديث عن الجمال وتحليل مذاهبه وترديد أوصافه مايهديك إلى سر ذلك الأسلوب الرائق الجميل وتلك الديباجة الموشاة البديعة ؟

ثم ألا ترى فى طريقة أخذه الموضوعات أخذاً منطقياً يشرف به الأسلوب مايدل على ملـكة مطواعة وبديهة مواتية ومقدرة على الترسل فذة عجيبة !

وصل (وحى الرسالة) إلى يدى أمس وكنت قد طالعت فصولا مما احتوى نشرت قبل فى الرسالة ، وفيه فصول فاتتنى قراءتها ، وإنى لشديد الحرص على ألا تفوتنى ، ولـكننى تعجلت إرسال هذه الـكلمة إيماء الى فضل الـكاتب وعظيم يده على الأدب العربى فى العصر الحديث والـكتاب يعد جوهرة نفيسة دائمة الإشراق لاتخلق ديباجتها ولايخبو بريقها ؛ فهى ذخر مقتنيها ومتاع روحه .

مصطفى الصباحى